أحمد أنس الحجاجي

روح وريحان

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعـة الثانيـة

رمضان سنة ١٤٠١ هـ - يوليو سنة ١٩٨١ م

دار غـريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص ٠ ب ٥٨ (الدواوين) - تليفون : ٢٢٠٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهـــداء :

الى الروح الملهمة



الأستاذ « **حسن البنا** » مرشد الاخوان المسلمين

هــــذا الكتاب

عجيبة قصة هذا الكتاب ...

فلقد كان مقدرا أن ينشر منذ نحو عام ولما يتم تأليفه بعد !

ثم هو قبل هذا ، وأهم من هذا : كان فكرة فى نفسى حشدت لانفـاذها واخراجها من عالم النفس الى عالم الحس ـ جند سليمان ..

سليمان .. النبى الحكيم ، بن داود النبى الحكيم ...

آتاهما الله الحكمة ، وامتن عليهما بهذه النعمة ، ثم سجل شكرهما عليها : « **ولقد آتينا داوود وسليمان علما ، وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين** » (١) .

سليمان .. الذى ورث داوود فقال : « **يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء ، ان هذا لهو الفضل المبين** » (٢) .

ســــليمان .. الذى حشر له « **جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون . حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وان أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين** » (٣) .

★ ★ ★

(وبعد) فهى عجيبة حقا قصة هذا الكتاب ..

فقد ظل أكثر من عـام مشروعا أبشر به ، وأعبىء لتحقيقه ، وترتيب موكب الاحتفاء بمولده السعيد جند سليمان من الجن والانس والطير حتى تمت كلمة ربك الحسنى على الصابرين بما صبروا ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ...

---

(١) النمل : ١٥ .　　(٢) النمل : ١٦ .

(٣) النمل : ١٧ ـ ١٩ .

فما حقيقة هذه الدعوى ، وما صلتها بالقصة العجيبة لاخراج هــذا الكتاب ومولده ٠٠ ؟ !

لقد زعم الناس فيما يزعمون ، أنه قد ظهر لى شبيه فى فترة من الزمن، كان معلما باحدى المدارس ، خلقته كخلقتى تماما ، وصوته كصوتى ، وعقليته هى نفس عقليتى ــ وهكذا ٠٠٠

ولقد شاع هذا الزعم فى الناس ، وتواترت عليــه الأدلة والبراهين ، فاستحال حقيقة ، حتى لقد صدقته أنا نفسى وأيدته ، حين لم يبق من هــذا التصديق والتأييد بد ٠٠٠

صدقته وأيدته وآمنت به ، وصار عندى بمنزلة الحقائق التى لا يرقى اليها شك أو تكذيب ، وشاعت معانى هذا التصديق فى نفسى أيضا ، وغاصت بى الى أعماق هذا التاريخ المجيد ، فتذكرت أنه كانت لى كراســة لاعداد الدروس ، وأن ســذاجتى البالغة يومئذ ، صــورت لى أن أكتب على أولى صفحاتها بالخط الكبير ، وبالمداد الأحمر ، البيت الآتى لأبى العلاء :

أرى العنقــاء تكبر أن تصــادا   فعاند من تطيق له عنــادا

وقد كنت يومئذ أفهم هذا البيت فهما ساذجا ٠٠٠ وكنت ــ حين أتخلى عن سذاجتى ، ولو فى نظر نفسى فقط ــ أطيق عناد الناس أجمعين ، فكنت أعاندهم ، وفى نفسى شعور بنشوة خاصة حتى لقد صورت لى سذاجتى ، أن أتخذ هذا البيت شعارا ، ففعلت مزهوا ٠٠٠ !!

وكنت يومئذ ثائرا متمردا ، ولكن عن ايمان بالله ، واعتزاز وقوة ثقة به ، واستناد حقيقى الى قدرته القاهرة ، فلا أعبأ بأى مخلوق مهما كان ، ولا أعترف بأن له فى ملكوت الله سطوة ٠

ولقد كان بعضهم دائم السخرية بى ، لأننى أعلق كل أمر أعتزمه على مشيئة الله وارادته ، فأقول : ان شاء الله ، وباذن الله ٠٠٠ وكنت أبدا مغرقا فى التفاؤل ، والاطمئنان الى النتائج ٠

وكانوا يقولون لى : ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ٠٠٠

فأجيبهم : بل ولا ترابا ــ الا بجهد وعمل وكفاح ٠٠٠ فيقولون : فمتى اذن تلقى عن نفسك ما يلازمها من خمول ومتى تصحو من نومك ؟

فأقول : اذا شاء الله ٠٠٠ !!

فتزداد ســــخريتهم بى ، حتى اذا أعياهم أمرى ، قالوا : انك امرؤ ساذج ، وستعيش هكذا طول حياتك ...

فأقول : الحمد لله ..

وهم الى اليوم يصرون على هذا الرأى ، ويقولون : ان الأيام قد حققت لهم نظريتهم فى ، ولا على أنا من هذا ، فما يسرنى شىء فى الحياة أكثر من تبرع الناس لى بأمثال هذه الهبات ، من عطايا الصفات .

ولقد تقدمت الأيام ، ولا أريد أن أقول مع القائل :

تقدمتنى اناس كان خطوهم وراء خطوى لو أمشى على مهل

فمنذ انتظمنا فى كتيبة الله ، وصف الدعوة الى الاسلام ، والجهاد فى سبيله ، ونحن معشر الاخوان المسلمين ، لا نرى لأحد علينا سبقا أو تقدما ، والحمد لله على عزة الاسلام ...

لكنما أنا أقول : لقد تقدمت الأيام ، فارتقت العقول ، وازدحمت الدنيا بالوسائط المادية والمعنوية ، ومازلت أنا مغرقا فى ســذاجتى ، عاكفا على ضلالى القديم ، ومازلت مصرا على الحنث العظيم ... ومازال رأس مالى : ان شاء الله ، وباذن الله ، وبتوفيق الله ، والحمد لله ... !!

ومن أجل ذلك فهى عجيبة حقا قصة هذا الكتاب ... !!

ومن أجل ذلك قلت اننى حشدت لاخراجه جند سليمان من الجن والانس والطير ...

ولك أن تصدقنى أولا ... فسيان بعد هذا ، وأنا أقدم لك الجزء الأول منه ، ولك عندى ، أو لى عنـد نفسى ، أو لنفسى عنـــدى ... أجزاء تبلغ العشرة ، وقد تقل أو تزيد ... !!

★ ★ ★

ولقد بدا لى أن السذاجة فى الناس ملازمة لهم فى الحياة ، كأى عنصر آخر من عناصرها ، أو مظهر من مظاهر حياتهم فيها ... وأنها تكاد تكون واحدة فى كل العصور ، وأن مركباتها لا تختلف اختلافا أساسيا واضــحا بتطور الأزمان ، وما يتبع ذلك التطور ، من رقى الأفكار ، وسعة العقــول ، واستنارة الأذهان ، فالناس لم يبرأوا بعد من السذاجة ، رغم تطور حياتهم الى الكمال — ولن يبرأوا .

وأمثال هذه العوارض لازمة للأمم والناس والأجناس ، لزوم الأمراض والأســقام ، والعلل والآلام ، وما الى ذلك . ولهذا ثمراته من الفوائد ، ونتائجه من العيوب ... وان السرور ، أو الفرح والانشراح — والحزن ، أو الألم والامتعاض ، وكل هذه المعانى من أوصاف النفس الانسانية ، أو أحوال انفعالاتها ... ليست فى الواقع قوى ميكانيكية مجردة ، أو مظاهر لمعانى قسرية منفصلة ، تقع للنفس قهرا ، أو تنزل بها جبرا ، أو بمعنى آخر : انها لا تحدث اعتباطا ، بل ان لها دوافع وأسباب ومقدمات ، ولعل بينها وبين النفس علاقة ما بين الأرض — أو البيئة الانباتية — وعوارض الجو ، والبذرة وغيرها من وسائط انبات النبات .

ولكل نفس صورة من سذاجة ، ولا يمتنع أبدا أن يكون المرء فى حقيقته ساذجا كبيرا ، وهو يظن أنه ذو مقام كبير ، ومركز خطير ، وفطنة بالغة ..

وليس أقتل للنفس من وهم واغراق فى سذاجة ، يضع بهما المرء نفسه تجاه سماء لن يطاولها ، لأنها ليست له ، ولأن مجرد التحليق فى جوها ، والقرب من بيئتها ، ليس من طبيعة نفسه ، فهو بمحاولاته وبوهمه ، يعمل على اخراج الشىء عن طبيعته الأصلية — أى يطلب المحال ..

هذا الوهم له رد فعل ...

فان الانسان اذا جابهته الحقيقة وصدمته ، وواجهته التجارب المتوالية ، وأدرك بطريق الحس والأمر الواقــع ، وبالفشــــل المحتوم الذى يلاقيه — أن ما خاله لنفسه من المنزلة الموهومة ان هو الا تصوير الغرور المركب وفعـله ، فانه يفلت زمام نفسه ، وتنحط فيها المعانى الأخلاقيـــة ، وتنتزع منها المثـل الانسانية الفاضلة ... واذا به يذهب فى صلاته بالنـــاس مذاهب حيوانية ، تأخذ صورا اجرامية نابيـــة ، لا يقـرها عقل أو منطق ، أو يبيحها خلق أو قانون .. وهو غير عابىء بهذا أو مكترث له ، لأن حالة كما قلنا « رد فعـل طبيعى » ، وعرض داء نفسانى ، لا طب له الا علاج النفس ، كيف ؟ ! وقد عميت القلوب ، وانها لا تعمى الأبصار .. و « قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دســـاها » (١) .

ولم يكن يخطر لى مع هذه الحقيقة وهذه الحقـــائق أن عقول الناس ومداركهم ، فى عصور النور والمعرفة ، يمكن أن تسف وتتضاءل ، وتنطفىء فيها أضواء المعانى الانسانية ، وتذوى حقائقها طوعا لاشـباع الشـــهوات والأغراض فتركن الى تشويه الحقائق ، وتعمد الى ارضاء المطامع ، وتجنح الى العدوان على الناس بالباطل شفاء لأحقاد الصدور ... لم يكن يخطر لى

(١) الشمس : ٩ ، ١٠ .

أن عقول الناس ستنزل الى هذا المستوى المزرى بالكرامة الانسانية ، والذى بلغته فى قوم لا يؤمنون الا بما يدور فى أدمغتهم ، ويتحرك فى صدورهم ، ويتردد فى أذهانهم ، وبماركب فى نفوسهم ، مما يتفق مع طبائعهم .. فانسلخوا بذلك من البشرية الفاضلة .

وصدق الله العظيم : « **ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون** » (١) .

فهذا صنف من الناس يعرفنا به القرآن الكريم .

وصنف آخر يدلنا عليه فى قوله : « **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون . من يهد الله فهو المهتدى، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون . ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس . لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون** » (٢) .

وهذا النوع كثير جدا فى هذه الأيام ، ولست بهذا أكتشف للناس جديدا .. فالغفلة عن الله داء قديم فى الفرد والجماعة ، وهذا هو الداء الذى أصاب المجتمع الاسلامى فى مصر وغيرها فى هذه الحقبة الطويلة الماضية من الزمان ، وفى هذه الفترة الحاضرة ولن تصحو الأمة الا اذا عرفت ربها وعادت اليه ..

ولقد وصل بنا داء الغفلة مع الناس ، أننا اذا حدثناهم عن الله وسر قوته وقدرته ، وقضائه النافذ ، وتوفيقه المدخر ، ومدده الوافر لعباده المؤمنين أنكروا علينا واسترابوا فينا ... فحين نقول : « الله أكبر » لنترجم عن حقيقة مشاعرنا ، وما يسيطر علينا ، ويتردد بين جوانحنا ، وتهتف به قلوبنا أنه سبحانه :

هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم .

وهو الأول والآخر والظاهر والباطن

وهو القاهر فوق عباده .

---

(١) الأنفال : ٢٢ ، ٢٣ .　　(٢) الأعراف : ١٧٥ ـ ١٧٩ .

وهو الرزاق الوهاب ، المعز المذل ، الفعال لما يريد ...

وأمره سبحانه اذا أراد شيئا أن يقول له : كن — فيكون .

هو مصدر كل القوى ولا عزة الا بالاستناد اليه ، والاستمداد من قدرته الأزلية ، بما أوضحه القرآن من طرائق عملية ، وما أبان عنه من السبل الواضحة ، والمسالك المنيرة ...

اذا قلنا هذا ورتلناه ، تصويرا وتكييفا لما تنطق به أعمالنا ، وتدل عليه تصرفاتنا ، في جميع حالاتنا ، وأسندنا اليه سبحانه كل ما قمنا به ، وكل توفيق أجراه الله علينا ، وكل نعمة اختصنا بها ، ونصر توج به جهودنا وهاماتنا .. أنكر علينا الناس ، وقالوا : ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، ان هذا الا اختلاق .. أأنزل عليكم الذكر من بيننا ؟ !!

« وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين » (١) .

نرد عليهم بهذا وبمثله ... ثم نهتف بأنفسنا وبالناس : **« ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون »** (٢)

ذلك لأنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ... **« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا »** (٣) .

« ومنهم من يستمع اليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الأولين . وهم ينهون عنه وينأون عنه ، وان يهلكون الا أنفسهم وما يشعرون » (٤) .

فان قلت لهؤلاء وأمثالهم : توفيق الله وتأييده ، هزوا رؤوسهم ساخرين وحاجوك ، وان قلت غير ذلك اطمأنوا اليك وصدقوك ...

وكل من عند الله .. **« فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا »** (٥) ... ؟!

* * *

---

(١) الأنعام : ٥٣ .
(٢) الأعراف : ١٨٠ .
(٣) الأعراف : ٩٦ .
(٤) الأنعام : ٢٥ ، ٢٦ .
(٥) النساء : ٧٨ .

أما أنني حشرت لانجاز ما أخرجت ، وسأحشر لما سيخرج — ان شــاء الله — جند سليمان من الجن والانس والطير ·· فذلك لأن أحدا ممن يملكون المعاونة فى الاخراج لم يعاون ، ولا يريد أن يعاون ···

فلم يتكلم الذين يملكون الكلام ، ويعلمون الحقائق ، ولا يريدون أن يتكلموا ! ولا يريد غيرهم كذلك أن يتكلم ، أو يعمل أو يمد يدا ·· !

ومع ذلك فقد وقفت على الكثير ، وهأنذا اذيعه على الناس ، وسأعرف وأكتب وأذيع الكثير أيضا ، حتى أبلغ بذلك موسوعة كبيرة ان شاء الله ··· من الماضى والحاضر — وكلاهما غنى بالحقائق والحمد لله ·

وقد قامت فى وجه هذا الكتاب عقبات كثيرة ، ومشقات كبيرة ، أخرت صدوره ، أو على الأصح عمدت فى بعض الأحيان الى مبارزته لتحول دون ظهوره ، ولكنه ظهر باذن الله ، وحين أراد الله ذلك ·

أظهره الله فى موعده بالحق ···

وعلى هذا فيستطيع القارىء الكريم بكل بساطة ، وبكل صدق ويقين ، أن يتصــور أننى لا مجهود لى فى هذا الكتــاب ، الا أننى آمنت به ايمــانا عميقا :

آمنت به فكرة وعملا ··

وآمنت به منهاجا وغاية ···

وآمنت به حقا وواجبا ···

وآمنت به تربية وجهادا ···

وآمنت به جسما وروحا ···

وآمنت به ضياء ونورا ···

وبهذا الايمان العميق وحده خرج بتوفيق الله ، فكان روحا وريحانا··· واذن فصدقنى انها عجيبة حقا قصة هذا الكتاب ··· !!

سدنة الدعوة وقادتها ، ومستودع الحقائق من تاريخها ، لا يريدون أن يتكلموا ···

ورجــل الدعوة الأول ، لا يحب ان يتكلم ، ولا يقر هــذا العمــل ·· فسيرته فى جهاده ، وتاريخه فى ايمانه ، ولا يرى نفسه الا جنديا فى الميدان يؤدى واجبه ···

فمال هؤلاء « الثائرين » أمثالى ، ولهذا « الكوكب » فى برجه ، يقتحمون عليه سماءه ··· ؟ !

انه لا يعرف الا متعة الايمان والقرآن ···

واذن فما هذا الروح والريحان ··· ؟!!

★ ★ ★

هذا هو المنطق الذى يسمونه سليما ·· وهو الذى جعلنى أبعث مجدى، وأجدد تاريخى القديم ، فأكون معاندا ··· وأعدك بأن تجنى من ثمرة هذا العناد « باقة » من الروح والريحان ، فى مثل حجم هذا الكتاب « ان شاء الله » حشدت لجمع حقائقها ، واعداد اخراجها ، جند سليمان من الجن والانس والطير ···

والا فكيف يكون منطقى غير سليم ···

وأخيرا ·· فهذه : « فذلكة تاريخية » للقصة العجيبة لاخراج هذا الكتاب ، فان سألتنى : كيف وماذا تكون القصة نفسها اذن ؟ قلت لك فى الحكمة البالغة التى أخرجته بهذه الصورة ، وهى فصل من قصة ايمان ···

وأنا أكتب هذه السطور قبيل خروجه ، فكيف اذن تريدنى أن أسبق ارادة الله ·· ؟ فحسبك الآن منى هذا ، الى أن يشاء الله ، ويصل اليك هذا الجزء فعلا ، وتقرأه ، فان كان ــ وذلك هو أملى ــ فموعدى واياك الجزء الثانى ان شاء الله ·

وما تشاءون الا أن يشاء الله ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة ؟

القاهرة فى شعبان سنة ١٣٦٥ — احمد انس

★ ★ ★

القسم الأول

تمهيـــد

فى ماضى الدعوة وحاضرها

« والعصر · ان الانســـان لفى
خسر · الا الذين آمنــوا وعمـلوا
الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا
بالصبر » ·

(سورة العصر)

— ١ —

قامت الدعوة الاسلامية الأولى على ثلاث دعائم : منهـــاج وقيـــادة وجند » ·

وقد برزت الى الناس والتاريخ بهذه الأسس الثلاثة ، فاحتلت مكانها كدعوة حية تحمل عناصر وجودها وعوامل بقائها وخلودها ···

وهذه الأسس هى التى بنيت عليهـــا الدولة الاســـلامية ، وقد بدت واضحة منذ ظهور الدعوة ؛ فقد اختار الله نبيه عليه السلام للرسالة ، وأنزل عليه منهاجها القويم : « **كتاب أنزلناه اليك لتخرج النـــاس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد · الله الذى له ما فى الســـماوات وما فى الأرض** » (١) — « **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** » (٢) فأعلن محمد صلى الله عليه وسلم — أول ما أعلن — رســـالة التوحيد والاقرار بالعبودية لله وحده ، ونادى بهذه الرسالة ، وجهر بدعوته ورفع بها صوته حين أمـــره ربه بذلك ، وتخير له سبحانه الظرف الملائم فنادى بها ، مصمما على جمع كلمة العرب والعالم حولها ·

عرض صلى الله عليه وسلم منهاج الدعوة ، مقـــرونا باعلان النبوة وفرض القيادة كعنوان وروح لهذا المنهاج ··

وما عرف التاريخ قائدا جاء سافرا متحديا ، مؤمنا بالحق الذى يدعو اليه فى قوة كمحمد صلى الله عليـــه وسلم ، يتحدى الدنيا كلهـــا بدعوته ، ويفرض عليها قيادته ولا ينزل عنها ، أو يضعف عن احتمال تكاليفها وأعباء النضال من أجلها ، وهو فرد أعزل ، لا معين له ولا نصير ، ولا عدة معـــه ولا سلاح ، الا ايمان عميق بالحق الذى يدعو اليه ··

يقول لعمه أبى طالب : « والله يا عم لو وضـــعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمـــر حتى يظهره الله أو أهلك فيـــه ما تركتـــه » ·

وعلى هذا ربى جنده والمؤمنين به ، وكان القرآن الكريم واضحا بينا فى مصارحتهم بهذه الحقيقة ، فهو يخاطبهم بأســـلوب التضحية وبلغتها ،

---

(١) ابراهيم : ١ ، ٢ · (٢) الفرقان : ١ ·

ويتعامل معهم بروحهـــــا وعلى أساسها ، ويطالبهم : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى ســـبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به » (١) · « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب ·· » (٢) والآيات كثيرة ·

★ ★ ★

وعلى رغم ما قام فى أذهان بعض القـــاصرين ، الذين يحـــاولون أن يرجعوا انتصاراته عليه السلام الى تأييد السماء ومدد الوحى ـ وحدهما ـ غافلين عن الجانب الهـــام لكفاحه ونضـــاله صلى الله عليه وسلم ، وما بذل فى سبيل نشر الدعوة وقيادتها ·

على الرغم من هذا الزعم والوهم ·· فلم يعرف التاريخ فى أى دور من أدواره ، أو فى أى عصر من عصوره ، قائدا وداعية كمحمد صلى الله عليه وسلم أوذى واضـــطهد ، وكافح وناضــــل ، وغزا وقاتل ، ولاقى ألوان العذاب وصنوف العنت والارهـــاق ـ كما لاقى صلى الله عليـــه وسلم فى جهاده ··

سبع وعشرون غزوة يغزوها بنفسه ، ويخوض غمـــــارها على رأس جنده فيتعرض للخطر ، ويؤذى ويجرح ، ويناضل كأى جندى آخر ، ويكون فى بعضها قاب قوسين أو أدنى من الموت ، وينفرد فى التاريخ بهذه البطولة الشماء ، هذه الشهامة وهذه المغامرات الجريئة الباسلة ··· تنتزع سيرتها البقاء والخلود انتزاعا فى تاريخ الدعوات والدعاة ـ بما كتب من الصحائف البيض الناصعة ، فى سيرة القيادة المظفرة التى تعرف مكانتها فى قمـــة القمم من المجد الشامخ ·

وهو يخوض هذه المعارك بتصريف القائد الحصيف ، المدبر الحكيم ، الذى يضع كل أمر فى نصابه ، ويواجه كل حالة بما يلائمها ، ويعد لكل طارئة

---

(١) التوبة : ١١١ ـ قال محمد بن كعب القرظى : لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وكانوا سبعين رجلا قال عبد الله ابن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، قال : أشترط لربى أن تعبدوه لا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفســكم وأموالكم · قالوا : اذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة · قالوا : ربح البيع ولا نستقيل ·· فنزلت : « ان الله اشـــترى من المؤمنين ·· » الخ ص ٢٦٤ تفسير الخازن ج ٢ طبع مصر سنة ١٣٢٨ هـ ·

(٢) النســاء : ٧٤

ما تطلبه ، فلكل موقف مقتضياته ، من حزم ولين ، أو شدة ولطف ...
وما تجدى فيه الملاينة ويحسمه حسن السياسة لا ينبغى أن يستعمل فيه السيف ــ وهكذا ... وهذا فى الوقت الذى نرى فيه أبرع القواد وأدهاهم ، وأنبههم ذكرا ، ممن يعتبرهم التاريخ الحديث أمثلته النادرة ، وقدوته فى الجرأة والتوفيق والبسالة والتضحية والاقدام والشجاعة من أصحاب المبادىء وقادة الأمم والفكر ، يتحصنون ضد الموت والخطر فى أمنع الحصون .. !!

ولو قرأ هؤلاء الحائرون تاريخ الاسلام وتدبروه ، لتعلموا ، وأخذوا الدرس الأول والأخير فى البطولة والتضحية ، والفناء فى سبيل المبادىء .

يقول الامام على كرم الله وجهه : كنا اذا اشتد البأس وحمى الوطيس نبحث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو فى المعمعة وأقربنا من العدو » .

وبهذا كسب صلى الله عليه وسلم معركة الزمن والخلود ، ووضع أمام الأنظار لأول مرة فى تاريخ الانسانية أروع المثل لمعنى التضحية والبطولة والاقدام ... هذا المعنى الذى تداوله الناس رخيصا من غير أن يتغلغلوا فى أعماقه ، وينفذوا الى روحه .. فابتذلوه..وحسبوه هذا الزحف الحثيث وراء المطامع والمغانم ، باسم الوطنية تارة ، أو القومية تارة أخرى ... وهذه الذبذبة ... وهذا الجزر والمد بين المبادىء الدخيلة ، والأوهام الملفقة ، من غير مبادىء الاسلام ، وما لم يجىء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين .

لقد أيدت السماء محمدا ..

وأمد الوحى محمدا ...

هذا حق .

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم ، قد انتصر بفنون الحرب المعروفة فى عصره ، وقد خاض المعامع بنفسه وبمن معه من المؤمنين ...

فسألوا التاريخ : هل روى عن غيره صلى الله عليه وسلم ما رواه عنه ؟

واسألوا ملاحم الحرب ومعارك القتال : هل عرفت قائدا لاقى بأسها ، وصارع شدائدها بنفسه ، شأن محمد عليه السلام معها ... ؟ !

اسألوا عن هذا .. واسألوا معه عن خطواته الدقيقة الحكيمة فى الاعداد لمراحل هذا الجهاد ، وجمع الكتائب وتنظيم الصفوف ، انتظارا لساعته الفاصلة ...

اسالوا عن هذا كله قبل أن تذكروا مدد الوحى ، وتأييد السـماء ، وتحصروا الأذهان فى معناهما الضيق ·

★ ★ ★

— ٢ —

هذا الى نحو ثلثمائة سرية يبعثها محمد القائد الأمين ، ويقذف بهـا وجوه أعدائه الألداء ، ومعاقل خصومه الأقوياء ، يبارزهم فيها بأعز رجاله ، وأكرم اخوته وأصدق جنده ، وأبر دعاته يبلغونهم رسالة التوحيد ، والدعوة الى مبادىء النور والهداية ·

وليس هنا موضع الالمام بتفاصيل ما تضمنه التاريخ من آيات اخلاص القائد لفكرته وتفانيه لمنهاجه ودعوته ، وكبير ما لاقى وما احتمل فى سبيل ذلك مما لم يعرفه التاريخ أو يذكره لغيره عليه السلام ، فهو معروف معقود لواؤه له صلى الله عليه وسلم كلما ذكر اسمه الكريم ، وكلما ذكر تاريخه عليه السلام وكلما ذكرت القيادة الموفقة الصالحة ، وذكرت العظمة الباقية ، وكلما ذكر الصبر والبلاء ، وذكرت أروع قصص الاستشهاد والفداء ·

★ ★ ★

— ٣ —

أما الجند فقصتهم هى قصة التاريخ الخالدة :

تلقوا الفكرة · فآمنوا بها وفقهوها فخالطت قلوبهم وامتزجت بأرواحهم ، فعاشـوا على الاخلاص لها ، والفناء فيها · والوفاء لقائدها ، وافتدائه واياها بأعز العزيز ·

جندية كاملة : يصورها الالتفاف حول الدعوة وقيادتها ، ويرسـم حدودها ويوضح ملامحها ايمان عميق بالدعوة والقيادة ، فهى بين حنايا الضلوع وفى أغوار القلوب معنى ثابت ، وهتاف يتردد : « دعوة وقيادة » كل لا يتجزأ ، وعنصران متوافقان منسـجمان ، يقرران ، أن النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأن أحدهم لا يؤمن حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وحتى يكون هواه تبعا لما جاء به هذا القائد الأمين ·

ويدعم هذا الايمـان ويزكيه : الحب العميق ، وتقوم عليه وتحميه : جامعة الاخاء الوثيق ، والتجرد لهدف الدعوة والفكرة ، والسمع والطـاعة فيما يحب ويكره بلا مناقشة ولا تردد ،

واذا كان محمد صلى الله عليه وسلم قد بدأ دعوته وحيدا أعزل الا من سلاح الايمان باتفاق المؤرخين جميعا ، وأنه مع هذا قد أعلنها دعوة قوية ، متحديا بها ، مصمما على النضال دونها ، والموت فى سبيلها ، فى وقت لم يكن يناصره فيه أحد ، فانه لم تمض الا فترة وجيزة ، وكان له الجند الأشداء، المؤمنون الأوفياء ، وقد أيدوه وآزروه ، وآووه ونصروه ، صابرين مصابرين ·

ولعلها لمحة من لمحات الزمن فى مرورها وانقضـــائها ، حتى وجدنا الكتيبة المحمدية الأولى ، تتألف من الجند البواسل الذين قهروا الزمن ، وطاولوا أمجاد التاريخ من أصحاب الأسماء الناصعة المتألقة ، التى لم يصنع التاريخ مثلها ، حتى لقد دفعت الحيرة الناس ، لشديد ما قرع أذهانهم من دوى سيرة أصحابها ، دفعهم هذا المجد ــ الذى بلغ القمة فى حسن البـلاء وصدق الجهاد ــ الى أن يعتبروا مثله مرتقى صعب المنال ، ويغدون القدوة فيه عملا من المحال وفوق طاقة الرجال ، غافلين عن اسـتخلاص العبر من مفاخر مقومات الشخصيات ، وأصول تربيتها وبنائها ، وما راض به محمد هذه النفوس فجندها تجنيدا صرفها عن كل غاية ، الا ما عاهدت الله عليه ·

انتظمت الكتيبة الأولى لجند الدعوة ، وأخذت فى النماء والظهور ، وتألفت من خديجة ، وأبى بكر ، وزيد بن حارثة،وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله ابن جحش ، وعثمــان ، وبــلال ، والأرقم بن الأرقم ، والزبير بن العــوام ، وأبى سلمة · وطلحة ، وسعد بن أبى وقاص ، وعمار بن ياسر وأبيه ياسر ، وأم ســـلمة ، ودرة بنت أبى لهب ، وفاطمـــة بنت الخطـــاب ، وزنيـــزة وزنيره ··· الخ ·

من هؤلاء الأبطال السابقين ، الذين قدموا للدنيا والانسانية أكرم وأعز معين تنهل منه الى أبد الآبدين ·

ظهرت الكتيبة المحمدية من هؤلاء الجند البواسل ، يصدقون محمدا ، ويشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ويؤمنون بمنهاجه وبدعوته ، وأن هذه الدعوة يجب أن تسود ، وأن الانسانية جميعها يجب أن تتحرر ، وأن مبادئها وسلطانها يجب أن يعم وينتشر ·

★ ★ ★

— ٤ —

وليسـت هــذه الحقيقة فى وضــوحها الباهر بمحتاجة الى البرهان وجهد البيان ·· ولكن الذى نريد الاشــارة اليه ، هو أن الدعوة قد ظهرت هكذا : « منهــاج وقيادة وجند » ولم يعرف التاريخ دعوة ظهرت واضـــحة

مكتملة ، تحمل عناصر تكوينها • وعوامل حياتها ، ومقومات نجاحها ، وروح خلودها وبقائها كدعوتنا هذه :

منهاج تضمن أصول قواعد الدعوة ومبادئها العامة وفصلها تفصيلا دقيقا ،

وقائد يبلغ هذه المبادىء ، ويعرضها عرضا واضحا ، ويذود عنها ، ويثبت المؤمنين بها ويرشدهم الى روح أهدافها •

وجند يجتمعون على هذا اللواء متآخين فى ظله الوارف ، لا يعرفون للدعوة وقيادتها الا فناء مطلقا ، ووفاء يحرصون عليه أبلغ الحرص •

فلم يكن أبو بكر — جندى الدعوة الأول ، وقائدها الثانى — حين أعلنها كلمة حازمة لا تعرف التردد مجابها المرتدين ومروعهم — أن يقاتلهم حتى لو منعوه عقال بعير ••• لم يكن فى هذا مدفوعا بخطة عارضة ، أو فكرة مرتجلة • أو رأى وليد الساعة أو الحماسة •

لكنما هو فقه الدعوة ••• الممتد الى ما وراء الزمن •• وهو تصرف الحاذق الموفق الخبير الذى يسير على هدى وبصيرة ، وايمان القائد المتغلغل فى أعماق حقائق مرامى الدعوة ، ثم هو أولا وآخرا ، ولا غير ذلك ••• هو أبو بكر الذى تلقى عن محمد منهاجا كاملا ، يجب أن يسود ويحكم ، وما كان لأبى بكر أن يفرط فى هذه الأمانة ، وقد تلقاها ••• وفقهها ••• عالمية انسانية ، وأن مهمته فى قيادتها ليست مقصورة على حفظ النظام ، ولا هى محدودة بصيانة الأمن ، أو تثبيت قواعد كرسى الخلافة بأى ثمن •

ولم يكن أبو بكر ومن بعده من الخلفاء كذلك ، فى سيرتهم فيما يسمى بتنظيم الفتوحات ، وما نشروا به مبادىء النور والهداية ، والأمن والسلام واقرار العدالة ••• ما كانوا فى هذا صادرين عن شغف بالفتح ، دفعتهم اليه مفاجآت الساعة ، أو أوقعتهم فيه ، وسيرتهم اليه ، وجذبتهم لتياره المطالب الملحة من حاجات اقتصادية ، أو رغبات استعمارية ، أو طبيعة معتدية ، أو شهوة كلفة بسلب حق الانسان الطبعى فى الحرية ، والعدوان على حقوق الأمم ، والاستهتار بالكرامة الانسانية •

لم يكن شىء من هذا أو شبهه ••• لكنما هى دعوة محمد صلى الله عليه وسلم كما جاء بها ، ولقنهم اياها ، ورباهم عليها ، وأودع جوانحهم أمانتها ، وأقامهم حراسا على تراثها — دعوة هداية واسعاد ، وتحرير وعزة ، وعدالة اجتماعية ••• للناس كافة — فعليهم أن يقروها ويقيموا قواعدها ••

هو منهاج الدعوة ودستورها : « **قل يا أيها الناس انى رســـول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والارض ، لا اله الا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورســـوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** » (١) « **وما ارسلناك الا رحمة للعالمين** » (٢) ٠

فما كان جند الدعوة وقادتها من خلفاء محمد عليه السلام ، الا أمناء على المنهاج الأول الذى تلقوه عن محمد صلى الله عليه وسلم ، على النحو الذى فصله دستور الدعوة : « القرآن الكريم » ٠

فعلى الذين يذكرون مدد الوحى ، وتأييد السماء ، ويحبسون العقول والأفهام فى زاوية ضـــيقة من معناهما ــ أن يطلقوا عقولهم ، وأن يفتحوا أعينهم على هذه الحقائق ، وفى هذه الآفاق ، وأن يراجعوا تاريخ الدعوة ، ويتفهموا دقائق خطواتها ، ليعلموا أن منطق العدالة ، كان حريصا على أن يكتب جند الدعوة بدمائهم مجد اقرار هذه المبادىء ٠٠٠

وكأنما قد جاء أبو بكر ومن بعده ليقولوا لأمثال هؤلاء ، ها نحن بشر مثلكم ، لا ندعى النبـــوة فيكم ، وليس لنـــا الا هـــذا المنهـــاج ٠٠٠ نرويه بدمائنا ، ونقيم قواعده على سواعدنا متتبعين أثر الخطوات الدقيقة الحكيمة التى رسمها قائد الدعوة الأول ، ووضع خطتها وأساسها ٠

وقد فعلوا ٠٠٠

فلماذا يســد الناس باب القدوة فى مثل هى من طاقة البشر ، وفى مقدور حواسهم ، ومن مهمـــات جوارحهم ووظائفهـــا ٠٠٠ ولم يقفل باب الترقى أمام العقل البشرى بعد ، ولا ســـدت أمامه سبل العمل الكريم ، للمجد العظيم ٠

★ ★ ★

— ٥ —

تلقى رجال الدعوة الأول منهاج الدعوة ، وفقهوه ، وســـاروا عليه ، وما حادوا عن أهدافهم قيد شعرة ٠٠٠ والحلال بين والحرام بين ٠

على أنه كثيرا ما كان للظروف القائمة دخل كبير فى تكييف الخطـــة السياسية العامة ، كما فى صلح الحديبية وما أشبهه من المواقف ، وقـــد

---

(١) الأعراف : ١٥٨ (٢) الأنبياء : ١٠٧

كان هـذا كله من تصريف القائد ، موكولا الى فطنتـه ودهائه ، وبصره بالأمور ، ومراقبته للتيارات المختلفة للحوادث ٠

وقد اثبتت الحوادث فعلا بعد نظره ، وصـدق فراسـته ٠٠٠ وبذلك وضع محمد صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه « المذكرة التفسيرية » لتطبيق دسـتور الدعوة الخالد « تاريخا وسـننا وتقاليد » عملية مكتوبة وغـير مكتوبة (١) ٠٠٠

وبذلك أيضا تقررت حرية القيادة الواسعة ، وحقوقها الكاملة المطلقة في أن تتصرف وتسير بالسفينة ، وتشق عباب الماء في الريح العاتية وتنجو بها ، وتتخير لذلك الأسلوب الناجح ، والخطة المثلى ، على ضوء الظروف القائمة ، والملابسات المحيطة ، في محافظة على سـلامة المنهاج ، وصـيانة لأصول المبادىء وجوهرها ، وحرص على بلوغ الهدف المنشود ٠٠٠

وهكذا تسلمت الأجيال هذه الأمانة ، دستورا مفصلا مبوبا واضحا ، لا يختلف أحد في سلامة مبادئه ، وما قرر من حقوق ، وفصل من واجبات ، وما تضمن وتناول من مسائل أقر بها كل أمر في نصابه ، بكفالة التوازن بين الحقوق والواجبات ٠

ومن سار على الدرب وصل ٠٠٠

★ ★ ★

— ٦ —

سارت الدعوة بهذا الوضع السليم تطبق منهاجها ، وتنفذه ، وتدعو الناس اليه ، وتواجه المحن والشدائد ٠

وما كانت الدعوة غير هذا المنهاج ، ولا عرف التاريخ دعوة صـارعت خصومها ، وقارعت بأس الخطوب ، كما عرف عن الدعوة الاسلامية ٠

---

(١) فليس الدستور الانجليزي اذن هو أقدم الدسـاتير ، وليس هو أيضا أقدم دستور يقوم على تقاليد غير مكتوبة بل ان الدستور الاسـلامي المحمدي سابق عليه في ذلك وهو الذي أقام أسمى التقاليد للروح الدستوري العام قبـل أي دسـتور آخر في الوجود واعترف بالمبادىء الأسـاسية الأولى والحقوق العامة وما يليها كذلك ٠ فعلى المسلمين أن يتحرروا من هـذا الخطـأ التاريخي الذي يقع فيه غيرهم ، ومنه الخرافة القائلـة بأن الدستور الانجليزي قد أعلن حقوق الانسان منذ كذا من السنين وغير ذلك من المغالطات والأكاذيب وعليهم أن يعرفوا هذه الحقائق التي أضـاعها واضعفها جهلهم بها ٠

ولئن كان شعور الأذهان بمدى سعة الوثبة التى تتحفز لها الدعوة الجديدة ، وحقيقة عوامل التحول الاجتماعى ، والانقلاب السياسى الذى جاءت به ٠

لئن كان هذا ملحوظا ظاهرا من ذلك الصراع المحتدم ، الناشب بين الدعوة وخصومها من أول يوم ظهرت فيه ـ نضالا مستعرا لم يعرف الهوادة ـ فان شخصية القائد فى الحق كانت أكثر بروزا ، فبدا عنصر القيادة فى الدعوة ٠٠٠ وكان ظاهرا على العنصرين الآخرين ؛ ولعل سبب ذلك أن الناس قد أرعبهم ـ وروعهم ـ اسم صاحب الدعوة ، فألقوا بالهم اليه ، وانصرفوا بكلياتهم الى شخصيته التى أقلقتهم ، ولم ينتبهوا الى الدعوة نفسها بقدر ما تنبهوا الى هذا الاسم وشغلوا به ٠

ثم كان تلقيهم للدعوة على أنها « دين » ، وعلى ما فى معنى هذه الكلمة من خطأ المدلول فى أذهانهم جعلهم يعتقدون عن سذاجة ، أنهم بمحاربة اسم محمد ، وشخصية الداعى والقائد وتجريحها والنيل منها ، يقضون على دعوته ، اذ فهموا أنها معركة مزاحمة فى مجد شخصى ، أو شهوة ذاتية ، وأنه لو قدر لهم النجاح فى القضاء على محمد لقضوا على الدعوة نفسها ٠

هذا على حين كان المؤمنون مع محمد يتبعونه على بصيرة ، ويعرفون ماذا يصنعون ، وبماذا يؤمنون ، وعلام يبايعون ، وفيم يبايعون ؟ وكانوا يدركون التبعة ، ويقدرون العبء والأمانة ٠

ففى بيعة العقبة نجد أن أبا الهيثم يصارح قومه وهم يهمون بمبايعة قائدهم محمدا ، أتعرفون علام تبايعون ؟ انكم ستبايعون على حرب الأبيض والأسود والأحمر ٠٠ الخ ٠ فيقولون : نعم ـ « بايعنا على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » ٠

ولقد هاجمت الدعوة بعنف وشدة من أول لحظة أقوى ركن وأمنع حصن ، فى أكرم ما يعتد به خصومها ويعتزون ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم كلمة مدوية : انكم أيها الناس على الباطل ، وقد جئتكم بالحق المبين ٠ وأنذرهم بالعذاب والهوان ان لم يتبعوه ويؤمنوا بما جاء به ٠

صعد صلى الله عليه وسلم الصفا مرة فقال : « يا معشر قريش ـ أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقون ؟ قالوا نعم ٠٠٠ انت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط ٠ قال : فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ٠٠ يا بنى عبد المطلب ٠٠٠ يا بنى عبد مناف ٠٠٠ يا بنى زهرة ٠٠ يا بنى تيم ٠٠ يا بنى مخزوم ٠٠ يا بنى أسد : ان الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وانى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا الا أن تقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله » ٠

وأمثلة ذلك كثيرة جداً وهى فوق الحصر ··

أحس خصوم محمد بخطر دعوته ، ولكنهم شغلوا عنه بمركز محمد نفسه ، فركزوا كل جهودهم فى محاربة شخصه ، فحسبوها كما قلنا ملحمة الأمجاد الذاتية ·

وصحيح أن محاربة محمد تساوى محاربة الدعوة ولا فارق ·· ولكن الخصوم كانوا متوغلين فى الغفلة ، فساروا فى عماية عن حقيقة هذه المبادىء وظهرت خصومتهم ، وكأنها خصومة شخصية بحتة لمحمد ، يقتفون أثره ، ويؤذون أتباعه ، فى الوقت الذى كان فيه محمد رجل منهاج ، وخطة وفكرة ، يعمل للمبادىء ، ويعد الكتائب لليوم الفاصل ، والمعركة الحاسمة ، التى تسود بها هذه المبادىء ·

وعلى قلة المؤمنين فى الدور الأول للجهاد ·· فقد وجد الخصوم والمتألبون أنفسهم ، لا أمام شخص محمد وأبى بكر ومن تبعهم من المؤمنين ، ولكنهم وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام مبادىء صالحة تريد أن تعيش ، وأن تفرض نفسها ولا مناص ··· فاصطدموا بالحقيقة الثابتة التى حولت مجرى الصراع ، وجعلت ميادينه أشد رهبة ، وأدركوا حينئذ ، أن هذه المبادىء من منهاج محمد ، وقد صبها فى أسماعهم صبا ، ليست مجرد ألفاظ يقصد بها الى نيل مجد أو احراز شهرة من قوم حملوا أرواحهم على أيديهم ، ونسوا الدنيا ، وباعوا أرواحهم لله ولهذه المبادىء ·· ولا قصد بها أيضا الاقتصار على محاربة الأصنام والتقاليد وما اليها ، وانما هى معان واسعة تنتظم شئون الدين والدنيا ، وتتناول أوضاع المجتمع كله ، وتتصل بكل شئون الحياة ···

والا فما شأن أتباع محمد ينتقلون من حياة الى حياة ·· ؟

وما هذا التحول العجيب الذى طرأ عليهم ، وأثر فى كل شئون حياتهم ومظاهرها ، فخلق منهم نوعا عاليا من الرجال ··· ؟!

ليست دعوة التوحيد اذن ــ وقد آمن بها هؤلاء الرجال ، وفعلت فيهم هذا الفعل الواضح الأثر ــ مقصودا بها مجرد محاربة هذه الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، أو مجرد القضاء على عبادة المنفعة والهوى ؛ وانما هى ثورة اجتماعية سياسية عالمية كبرى ، يهيىء لها ، ويخوض غمارها محمد القائد ومن معه ، وغايتها احلال نظام محل نظام ، فهى مبادىء تطارد مبادىء ·

والنفس التى آمنت بمبدأ التوحيد مع محمد نفس أخرى جديدة ، صقلها هذا الايمان ، وقد تحررت من الذل والعبودية ؛ وهى بايمانها الذى لا يتزعزع بأن : العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فى متعة ومنعة ، وفى هامة من المجد والعزة لا تطاول ·

واذن فلن تغنى العروض تعرض على محمد وأصحابه ، ولن يغنى التهديد والوعيد ، ولن تغنى الدعاوى وما يحاك من افتراءات ، ولن يجدى الرمى بالسحر وما الى ذلك ؛ فهى حرب البقاء ، وصراع الأفكار ··· هى الحرب السجال بين مبدأ ومبدأ ولا مناص ··!

ولعل غزوة بدر كانت الحد الفاصل بين هذين العهدين ، فهى التى حسمت بصفة قاطعة بين الدور الأول فى اذهان خصوم الدعوة ، وبين الدور الثانى ؛ وجعلتهم يفيقون عماهم عنه غافلون ·· والا فما هؤلاء الناس اتباع محمد ؟ انهم فروا بدينهم صونا لحياتهم ، وانهم لحفنة من الناس لهم رأى خاص وفكرة دينية خاصة ، انهم لا يعبدون الأصنام ، ولا يفعلون ما نفعل ، فجعلوا الآلهة الها واحدا ، وتركوا ما وجدنا عليه آباءنا ·· فما بالهم اليوم متجمعون منتظمون ، يتحدوننا بالقتال والنزال · ؟!

هى اذن حرب البقاء ··

وهى اذن حرب المبادىء ··

وهى اذن الثورة يقودها محمد ليسود منهاجه ··

وهى اذن قيادة محمد الجادة الحازمة ···

فكيف لا يستيقظ الغافلون ؟ ! ···

★ ★ ★

— ٧ —

هذا التلازم الدقيق ، والتضامن الوثيق الذى ألمحنا اليه بين محمد القائد ، وبين دعوته كمنهاج ··· وهذا الترابط الذى لا ينفصم بين الرسول والرسالة ، جعل الأذهان بادىء الأمر لا تفرق بين العناصر الثلاثة المنفصلة المحدودة التى ظهرت بها الدعوة والتى لازمتها ··· فأنتج هذا معنى من معانى خلط « غير مقصود » أصاب الأذهان ، فى فهمها لمبادىء الدعوة وأهدافها ومراميها ، وكان علة جوهرية فى بقاء الأذهان على جمود عقيم ، وقف بها عن تسريح جوانبها فى آفاق الدعوة ، ومنهاجها الشامل المتسع ·

ويخالجنى شعور بأن هذا قد أفاد الدعوة فى معسكر خصومها ؛ فان الغفلة التى رانت على قلوب خصوم الدعوة ، جعلت شعورهم بخطرها — مع كونه محددا وجسيما بالفعل — لا يمتد الى ما وراء معانى المجد الشخصى القبلى ، والشهرة الفردية الموضعية ، التى كانوا يعيشون فى جوها ، يضعون المقاييس وهم ينظرون من أستارها ومنافذها ·

ولو أنهم فطنوا الى أن محمدا صاحب منهاج ، غايته أوسع من هذا واكبر ، وأن هذا المنهاج لم يوضع لهم وحدهم ، حتى يظنوا أنه صــاحب أطماع فيهم ··· لو فطنوا الى هذا ، ونفذوا الى ما وراءه ، لأخذ صراعهم للدعوة اتجاها آخر فيما أقدره وأشعر به ·

واننا لا ننسى ، حين نقرر هذا الاعتبارات الموضعية ، والعوامل الخاصة المتشابكة التى كانت قائمة يومئذ ، وما لابس هذا كله ، وما أملته الظروف ووجهت اليه ··· ولا ننسى قبله — ومعه كذلك — أنهم لم يدخروا وســـعا فى محاربته صلى الله عليه وسلم ، وأنهم دبروا قتله فعـــلا يوم الهجرة ، وتربصوا به ، واقتفوا أثره ··· ولكن كم كانت ستبلغ خصومتهم ، ويصل بهم اللدد ويشـــتد ، وكم كانت ستندلع نيران الحقد فى قلوبهـم حـــدة واستعارا ··· لو أنهم عرفوا أن غاية محمد من تحطيم أصنامهم ، والنيـل من تقاليدهم ، وباطلهم ، وما الى هذا ··· ان هى الا غاية من الغــايات التى ينطوى عليها منهاج محمد فى أمله الواسع الفسيح ، وأهدافه البعيدة المتراميـــة ···

وماذا يا ترى كانت ستكون درجة حقدهم ، ولجاجتهم فى الخصومة ·· وماذا كانت ســتكون حربهم شــدة ورهبة ، لو أنهم عرفوا أن محمدا يربى أصحابه ، ويجمع كتائبه ، على هدم الباطل ومبادئه ، لا فى رقعة الجــزيرة العربية وحدها ، ولكن ليعم منهاج دعوته الدنيا ويسود العالمين ···؟!

وفى الوقت الذى كان فيه أتباع محمد حفنة أو حفنات قليلة فى بطاح المدينة ، متناثرة فى أرجاء الجزيرة العربية ، بعيدة عن الأهل والوطن ·· فى هذا الوقت نفســـه ، بل وقبـــله بمراحل ، كان محمد يعـد سراقة بأنه سيستولى على تاج كسرى ، وسيمنحه اياه ···

فأى أمل فسيح هذا ··· ؟ !

وماذا كان الخصوم صانعين لو عرفوا هذا ··· ؟!

ومن أجل ذلك قلنا ان غزوة بدر قد حسرت القناع عن هذه الغاية ··· وحسمت بين الدورين ·

★ ★ ★

— ٨ —

وقد يطول بنا المقام اذا استعرضنا مجالات هذا الرأى ٠٠٠

فالذى نريد ايضاحه هو أن الدعوة مع ظهورها بعناصرها الثلاثة ، فان شخصية الداعى شغلت الأذهان ، فبرز عنصر القيادة ، وانغمر عنصر المنهاج معزولا فى زاوية ضيقة من الفهم الخاطىء لدى خصوم الدعوة ٠

وقد ظل هذا المعنى المحرف لفهم المنهاج يتنقل بظلامة فى القلوب الغافلة حينا من الزمن ، وامتد هو وظله الى فترات من التاريخ ، وما زالت رواسبه باقية مع ما الصقته به الأيام والقرون من أخطاء أخرى وأوهام ٠٠٠ فمازال عندنا ناس يفهمون أن كلمة : « دين » معناها صلاة وصوم وتسبيح ، وزكاة لمن اقتدر ، وحج لمن استطاع ٠٠٠ وكفى ! كما كان الجاهلون الأول يعتقدون فى « الاسلام » أنه دين جديد ، يحارب به محمد أصنامهم ، أو يزاحمهم فى أمجادهم ، ويهدم تقاليدهم الموروثة ، وليس أكثر من هذا ٠٠٠!!

وهكذا تخلفت آثار هذا الخلط والقصور عن فهم منهاج محمد ، ومبادىء دعوة محمد وهى « الاسلام » من أعقاب القرون ٠٠٠ وأحجم الجهل العقيم عن تكييف حقيقة مركزه صلى الله عليه وسلم كقائد لهذه الدعوة ، ينشرها ، ويذود عنها ، ويبلغها للناس ، ويقوم عليها ، ويثبت المؤمنين بها ٠ وما له بحكم هذه المهمة من حقوق هى للدعوة قبل أن تكون لشخصه ، وللفكرة ، وللمبدأ قبل أن تكون لذاته ٠

فما عرف الناس دعوة منفصلة عن الداعى ٠٠٠

وبقدر ما فى هذا المعنى من خطأ جرى منه تيار الانحراف عن فهم حقيقة المنهاج ، والوقوف عند شخصية القائد لما كان قائما فى أذهانهم ، فانه قد صور الدعوة وأظهرها فى : « محمد » وفى : « قيادة محمد » ٠٠ فعرف الناس الدعوة ملخصة فى : « محمد القائد » ٠٠٠

واننا لا نريد أن نقلل من شأن هذه المعرفة ، بل قد قصدنا الى تسجيل حقيقتها من غير انكار لما زاملها من الحقائق الأخرى ، أو بخس لما قام بجانبها من العوامل ٠

★ ★ ★

وقد يظن أننا نعد على الناس هذا الفهم وحده منفصلا مستقلا ··· لأننا نأخذ عليهم أن شغلوا باسم القائد ، وروعتهم شخصيته ، فلم يتفرسوا كثيرا فى المنهاج ، مكتفين بملاقاة محمد وجها لوجه ، على مدى ما فهموا وأدركوا من آثار دعوته فيهم ، وما تبادر الى أذهانهم من مهمتها وأهدافها بينهـم ···

ولكن الحق غير هذا الظن ···

فمع ما ذكرنا من رواسب ذلك الفهم الخاطىء التى تخلفت وامتدت منسحبة حتى الى الفترات المتأخرة من عصور التاريخ ، تتطور وتتجسـم بفعل الزمن ·· مع هذا كله ، ومع ما ترتب عليه ، فان الدعوة دعوة محمد ، وهى : « دعوة وقيادة » ، وليس هذا الوضع الأخير المنفصل لهذا الفهم هو ما يؤخذ أو يعاب ···

فلقد زكت الدعوة محمدا ، وهو الطاهر المبرأ ، الذى نشأ معروفا بين قومه ، مقروء التاريخ فى طفولته وصباه ، وفى شبابه وفتوته ، وفى دقائق فترات حياته وسنى نشأته ، زكته الدعوة وهو المعروف فى قومه ، وفى قبائل الجزيرة العربية نسبا ومنشأ على أطهر وأعرق وأوضح ما يعرف الناشئة ·

زكته لأنه روحها ، وقائدها المكافح دونها ···

وما عرف التاريخ دعوة منفصـلة عن الداعى ، ولا عرفت العقول أو أجازت ما يسيغ هذا الانفصال أو يبرره ·· !!

وكل ما امتاز به الوضع فى الدعوة الاسلامية : أنها دعوة حية بقائد حى جرىء ·

قائد يؤمن بمبدأ قويم ، ومنهاج سليم ··

والا فالمبادىء نفسـها من حيث هى ، والمناهج كأصل من أصـول الدعوات ، حقائق جافة ، وكائنات ذابلة ، ان لم تستمد روحها وحياتها من القائد ، ومن جنانه وايمانه ، ومن كفاحه ونضاله ···

وهذه الحقيقة ظاهرة الوضوح فى الدعوة الاسلامية بصفة خاصـة كما سـنرى ·

فمبادىء الاسلام على تجدد حياتها ، وعلى قوتها وسلامتها ، قـد انزوت حين فقدت عنصر القيادة الصالحة ، صحيح أنها فى فترات الانزواء

ظلت محتفظة ببهائها ونضرتها ، ولكنها قد انزوت على كل حـــال انزواء ظـاهرا ...

وما عاودت الظهور الا على يد قائد حازم مقدام ..

ولولا أن هذه المبادىء تحمل فى نفسها حياة متصلة متجددة ، منحتها ميزة البقاء والخلود ، كأصلح وأسمى ما عرفته الانسانية الرشيدة — لولا هذا ما خلدت مع الزمن ، بعد هذا الصراع الطويل ، العنيف الرهيب ، فى الوقت الذى تأخر فيه أصحابها وهم المسلمون ؛ ونظن أن الفـرق واضـــح بين الوجود واثبات الوجود ، وبين الحياة واثبـات الحياة ، أى ظهـور خصـــائص كل :

فعنصر القيادة كان : « العقل السليم فى الجسم السليم » كلاهما يمد الآخر ويحييه ، .. وما كانت قيادة محمد غير هذا .

وقد سارت الدعوة بعده صلى الله عليه وسلم فى رعـاية قائد حكيم كذلك ، ينفذ منهاجها الأول الذى جاء به محمد ، وعلى قواعد وأسس هـذا المنهاج أقامت الدولة الاسلامية حكومتها ، ونظامها الاجتماعى ، تؤمن به ايمانا عميقا ، وتطبقه تطبيقا دقيقا ، وتنشره فى العالمين .

دستورها القرآن الكريم الذى نزل على محمد لتنظيم شـــئون الدين والدنيا معا فلم تعرف غيره ؛ ويحرص القائد الثانى أبو بكر على أن يقول : « لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله » فهذا هو دستور أبى بكر .

وهكذا سارت الدعوة ، دستورها القرآن الكريم ، ينفذه ويرعاه قائد موفق حكيم ، حتى تكونت الامبراطورية الاسلامية فى ظل وحدة اجتماعية شـاملة ، يرفرف عليها نظام القرآن ، وتجمعها لغة القرآن ، وتربطها وحدة سياســـية شاملة ، فى ظل القائد وتحت لوائه ، وتركز السلطان الروحى والسياسى فى الدولة الاسلامية ، وأثبتت مبادىء الاسلام من منهاج محمد الأول،أنها العنصر الصالح للبقاء ، الذى يفى بحاجات الامم والشعوب ، ويقر العدالة الانسانية بأكمل النظم والشرائع وأرقاها ... وتبدد نهائيا أثر الظنة القديمة ، وتلقى النـاس الدعوة فى كل مكـان على أنها دعوة مدنيـة اجتمـــاعية ذات نظـام سياسى اجتماعى يتناول شئون النفس الانسانية فينظم لها حياتها الخاصـة والعامة ، وحقوقها الفردية والاجتماعية والسياسية ، ويقـــوم غرائزها ، ويبنى أخلاقها ، ويتعهد كل ما يمسها ، ويتسامى بها ويعزها ...

***

ثم هبت على الدعوة أعاصير الخلافات والفتن ، وترتب على هذا ما يذكره التاريخ ، وابتدأت عهود الاضمحلال والضعف والخمول تتسرب الى الدولة الاسلامية وتنتابها ···

ولو أن هذه الأعاصير والزوابع العاتية ، قد انقضت على أية أمة أخرى لقتلتها ، وما أبقت لها اسما ، ولا حضارة ، ولا تاريخا ···

ولكن مبادىء الاسلام حية ، تبعث الحياة وتشيعها ، فصابرت الحوادث وبقيت قلبا نابضا يحرك جسم الأمة ، ويمد لها أسـباب الحياة كلما وجد العقل الذى يحسن الاستفادة والتوجيه ···

وابتدأ الخلفاء أو الحكام ، والناس — تبعا لهذا — ينصرفون عن مبادىء دعوتهم وروحها ، فحاق بهم الذل والهوان ، والتهمهم العدو التهاما ···

ونحن وغيرنا نقرأ هذا التاريخ مفصلا دقيقا واضحا ، فنحصى أسباب الاضمحلال والتأخر ، ونذكر أنها كلها فى مجموعها ، لا تخرج عن الانصراف عن مبادىء الاسلام والبعد عن روحها ، وأن هذا البعد التدريجى هو الذى أوقع الأمة فيما انحدرت اليه ···

نقرأ هذا كله فيما كتبه السـابقون واللاحقون ، وفيما كتبناه نحن وحققنـاه ، وفيما كتبه الفرنجة وغيرهم ··· ولكننـا لا نلتفت اليـه ، ولا نعتبر منه ··· !!

وهكذا بقيت مبادىء الاسلام منفصلة عن المسلمين ، وبقيت مبادىء القرآن حية مصونة ، والمسلمون هم الذين تقهقروا وتدهوروا ، ولم يكن لذلك من سبب الا انصرافهم عن هذه المبادىء وروحها وجوهرها ·

وهذه حقيقة لا شك فيها ···

فصار عندنا بذلك عنصران مختلفان كل الاختلاف : « مسـلمون » و « مبادىء اسـلامية » · وأخـذ هذان العنصران يتنافران ، ويبتعدان ويفترقان ، حتى وصل هذا التنافر الى التباين الكامل ، والاختلاف التام بين المسلمين ومبادىء الاسلام كما فى منهاج محمد صلى الله عليه وسلم ·

ويجب الا ننسى دائما أن العلة الأساسية الأصـلية ، كانت فى فقـدان عنصر القيـادة وانحرافه عن المنهـاج ، وميله عن الهدف ، والانشـغال بالخلافات والمطامع ، ونشوب الفتن ، وظهور العناصر الغريبة ، والاختلاط بالأعاجم ، وذلك كله مفصل فى موضعه من التاريخ ·

★ ★ ★

ومما يدل على حياة هذه المبادىء ، ويقطع بحيويتها وصلاحيتها ، ولا ينكره أحد ... أنه حين كانت تهىء الظروف ، وتقدم الفرص لتلك الدولة القائد الصالح مع هذا البعد النسبى — أو الكلى — عن الأخذ من روح منهاج الدعوة الأول ، والمد والجزر الذى كان يتعاقب عليه ويتداوله ، فانه كان يحدث العجائب فى اقرار النظام والعدالة ، وفى السمو بمكان الأمة والدولة الى أرفع المنازل ...

حتى الدولة السلجوقية المتأخرة ... حتى السلاجقة الحديثو العهد بالاسلام ، يرفعون رايته عالية ، ويخلفون المجد الذى عنت له الجباه ...

لماذا ؟ !

السر فى المبادىء أيها الناس ... حتى الدولة السلجوقية تفهم المنهاج فهما ناضجا ، وتتجه بالفتوح الاسلامية فى عهدها فى نفس الاتجاه الذى سارت فيه من قبل ، أيام الفتوحات الأولى ، لتكمله .

يقول السير توماس ارنولد : « الاسلام دين عالمى يفرض على أتباعه أن يجاهدوا لنشره فى كافة أرجاء الأرض ... وبهذه الروح وثب عمر من غمر البداوة الى ملك الأكاسرة والقياصرة » .

وهكذا سارت الدعوة حسب تهيؤ عنصر القيادة لها وان لم يفقد منهاجها عناصر بقائه ككائن حى ، فبقيت المبادىء سليمة نقية ، صالحة لأن تقيم أمة ، وتكون دولة ، وتشيد نظاما اجتماعيا ، كلما تهيأ لها العاملون، وتوفر لها القادة الصالحون ...

★ ★ ★

— ١١ —

وقد تلقت مصر الدعوة الاسلامية تلقيا كريما ...

تلقتها كجزء مرتبط بالامبراطورية الاسلامية ، فتمتعت فى ظلها بالأمن الكامل ، والعدل الشامل ، وهذا على رغم كثرة عدد الأقباط من أهلها ابان الفتح الاسلامى الذين تمتعوا فى هذا العهد بما لم يتمتعوا به فى أى عهد من عهود التاريخ قاطبة .

وليس هذا عجيبا بل هو من صميم النظام الاسلامى ومبادئه التى تناولت الانسان فى حياته الفردية فوضعت له مثله الأعلى فيها ، ثم لم تشأ أن تكون فردية اعتزالية بل كانت اجتماعية مدنية فعنيت بتحقيق آثار المثل العليا من مبادئها فى واقع المجتمعات ، فتناولت الصلة بين المرء وزوجه ،

والصلة بين الانسان واقاربه ، والصلة بين الفرد والمجتمع ، والصلة بين الطبقات الاجتماعية بعضها ببعض ، والصلة بين الحاكم والمحكومين ، والصلة بين الأمم والشعوب المختلفة تناولا عاما شاملا ، ووضعت قواعد التعامل الكلية بين هذه الأطراف كلها ، وجمعت فى ذلك خير ما وصلت اليه تجارب الناس ومطالبهم ، بل هى سبقت هذه التجارب فوضعت بين أيديهم حلول مشاكلهم الحاضرة والآتية ·

والاسلام قد وضح العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين بما يريح الضمائر ···

وقد أوصى محمد صلى الله عليه وسلم بالقبط خيرا قبل وفاته ، وقبل هدية مقوقسهم ، وتزوج منهم ·

وأوصى الخليفة عمر بهم جيشه من قبل أن يتحرك ، وتحرك جيش المسلمين معناه النصر والظفر فى لغة ايمانهم العجيب ، والا فما لعمر يوصى الجيش هذه الوصية وهو لم يتحرك بعد ، وما هى الا وصية الحالة الواقعة ، والأمر المحقق ·

★ ★ ★

والذى يعنينا الآن ان مصر قد سعدت بالحكم الاسلامى سعادة يذكرها التاريخ ، ويثنى عليها ، ويشيد بها ، كما تحققت هذه السعادة لغير مصر من أجزاء الامبراطورية الواسعة ، وقد منحت الأقدار مصر مركزا ممتازا طبيعيا من القدم ، فمصر هى مصر من أقدم عصور التاريخ : قلب نابض تنبع منه الحياة المتفجرة ، ولها فى كل حركة صوت مسموع ·

وما كان لمصر الاسلامية أن تتخلف عن هذه الصدارة ، وأن تكون فى غير الطليعة ، ففى الوقت الذى دب فيه الضعف فى الدولة الاسلامية ، كانت مصر هى موئل الاسلام ، وهى حماه ، وهى كعبته ، وحصنه المنيع ·

صحيح أن منهاج الدعوة لم يكن مطبقا تطبيقا كاملا ، ولكن الحياة كانت مصبوغة باللون الاسلامى على كل حال ، ولم تكن مبادىء الاسلام قد تراكم عليها الزمان ، فاسدل عليها رداء النسيان ··· وهكذا أدت مصر دورها ، وأدته بنجاح ، فقد وجدنا مصر تتزعم ، ووجدنا مصر الاسلامية ترد عادية الصليبيين والمتألبين ، وأوربا المتحالفة ، وتؤدبهم بأبلغ وأقسى درس لم ينسوه ومازالوا لم يفيقوا من ضربته حتى الآن ··· حتى لقد قال لوردهم بعد الحرب الأولى :

« الآن انتهت الحروب الصليبية » ···

وحتى فى العصـــور المتأخرة ، وفى أيام المماليـك ـ وهم من نعـلم ونعرف ـ تستطيع مصر أن توقف تيار التتار فى موقعة عين جالوت ، فتصون الدولة الاســلامية كلها من الزوال ، وأهمية هـذه الموقعة يعرفها ويذكرها التاريخ الذى لا ينسى وان نسيه أصحابه ··

وحين كان الخليفة ضعيفا مغلوبا على أمره فى بغداد ، كان الخليفة فى مصر خاصة ، قويا مهابا ، نافذ الكلمة ، له صوت سياسى يحسب حسابه ·

وهكذا احتضنت مصر الدولة الاسلامية ··

وخلف المعز ، وصلاح الدين ، وأندادهم من الأبطال المغـــاوير أســماء تهتز لذكرها القلوب فى تاريخ الدولة الاسلامية ·· أقضوا مضجع أوروبا · وعلموها كيف يجب أن يعامل الأحرار المعتدين ··

وكانت لطمة من لطمات التاريخ ، لقى فيهـا الاستعباد مصرعه ، ولن يردها هذا العسف والجور والطغيان ، وسلب الحقوق ··· ففرق بين حق رد الاعتداء الغاشم ، والاستبسال فى الذود عن حرية الأوطان ، وبين الايغـال فى الدماء لذات الاعتداء ، واســتجابة للغرائز الحيوانيــة ، الهمجيـة المتوحشة ·· !!

والتاريخ شاهد عدل ···

★ ★ ★

— ١٢ —

أخذت مصر اذن مكان الصدارة ، وحملت لواء القيادة ، وحمت بيضة الاسلام ودولته ، وسارت الأمور على ما هو معروف فى مصر وفى غير مصر من أنحاء الدولة الاسلامية ، وعوامل الوهن تسرى معها متغلغلة ، وهى تفتك بحيوية الدولة ·

انصرف الحكام والناس كما قلنا عن منهج الدعوة الأول ، وضـعف عنصر القيادة نفسه ، ونشبت الفتن ، ووقعت الخلافات ، وأغرق الجميع فى الترف ، فتصدع بناء الوحدة ، وأدى هذا كله الى نتائجه الحتمية ، فتمزقت الدولة الاســلامية وتقطعت أوصـــال ملكها وامبراطوريتها الواســعة ، بعد أن فعلت الأعاجيب بفضل مبادئها السمحة وشريعتها الغــراء ، التى حققت التوازن الصحيح وأحكمته بين مختلف العوامل السياسية والاجتماعية اللازمة لبقاء الأمم وتكوين المجتمعات ، فاختل هذا التوازن عندما انصرف الحكام عن روح هذه المبادىء ومالوا عنها وقنعوا فى أواخر عهـد الدولة العباسية بالأسماء والأشكال ·

وقويت شوكة أوروبا الممزقة الجاهلة ، ورفعت رأسها قليلا ، وأفاقت وتحررت بعض الشيء من جهالات العصور الوسطى ، ولوثات ما أحصاه لها التاريخ فى هذا العصر ، وناهيك بما قبله . فلو ذكرت أوروبا تاريخها فى العصور الوسطى لما استطاعت أن تدعى أنها جاءت تحمل نور المدينة الى قوم همجيين ، باسم الاستعباد والاستعمار ، ونسيت ما كان سائدا فيها من نظام الاقطاع ، ونظام الطبقات ، وتلك النظم البدائية الهمجية .

قويت شوكة أوروبا ، وتسلحت بالعلم المادى (١) وبالحديد والنار .. واندفعت فى هذا التيار ، لا تعصمها روحانية ، أو ترد عقلها ، وتسكن ثورتها ، روح المبادىء الانسانية التى تتعامل بغير الألفاظ والمصطلحات من المبادىء الموضوعة بل بجوهرها وروحها ومعنوياتها . وبقيت مغمورة تحت حجاب كثيف من فهمها لمعنى الدين ، متأثرة بما أصابه فى بلادها ، وجرح اعتباره على يد رجالها ، وما نشب بينهم وبين رجال السياسة من عراك مشهور فى العصور الوسطى .

وكان ضعف الدولة الاسلامية ، وفقدان عنصر القيادة فيها ، عاملا هاما أطمع أوروبا ومكن لها ، ، فانغمر العالم كله فى معانى وصور جديدة ، لحضارة جديدة ؛ وتحكمت فيه أهداف استعمارية ، ابتغاء تحقيق المصالح الاقتصادية ، والسيطرة على منافذ الامبراطوريات ، وطرق مواصلات الدول ، وملأ الأسماع طنين هذا اللحن الجديد ، واستحال العالم كله أتونا يقذف حمما من الشهوات والمنافع ، وتحركه المصالح والمطامع ؛ وانزوت عناصر أهداف الحضارة الانسانية الفاضلة ، التى استروحت لها الانسانية فى كنف الدولة الاسلامية ...

وقد انخدع الناس فعلا بهذا البريق الذى أزاغت به أوروبا العيون والقلوب ، وأضلت الشعوب ، وجرفهم التيار ، وساروا فى موكب المادية وحدها بلا توازن ، وبلا وزاع أو رادع ، وانقادوا لحضارة الميكانيكا والآلة ، التى حركوها ، ولم يقيموا صمام الأمن فيها ...

وهكذا انطلق العالم المادى الميكانيكى .. فكان ما كان من أوضاع سياسية ونظم اجتماعية قلقة مفككة مضطربة ، فانفجر هذا العالم ، وانطلقت الغرائز وفشت المنكرات باسم الحرية وأخواتها من وسائل تدمير المجتمع ، وخرافات ما تمخضت عنه الثورة الفرنسية .. !!

---

(١) انما ينكر الاسلام المادية الجافة الجامحة ، التى لم تلطفها الروحانية ، فلا يغض من شأن المادية للمادة ، بل انه يدعو الى المادية لتتوازن مع الروحانية لانتاج التفاعل المطلوب للمحافظة على كيان المجتمع . وهو ينكر الروحانية المجردة وحدها كما ينكر المادية المجردة كذلك . ثم ان الاسلام يتخاطب مع كل عصر ، فمقتضى سيادته فى هذا العصر أن يتسلح بسلاح العصر مع سلاحه الآخر الروحى الذى لا يعرفه الآخرون .

لقد كان انخداع الناس بمبادىء الثورة الفرنسية نكبة النكبات ، اذ ظنوا أن أوروبا جاءتهم حقا بمبـــادىء جديدة ، وأنها جـــادة فى تقديس الحرية ، ورعاية مبادىء الاخاء ·· !!

وجاءت الحرب العالمية الأولى ســـنة ١٩١٤ ·· وتمخضت حضــارة أوروبا ، وأسس قواعد الصلح المشـــهورة عن طراز عجيب لخرافة جديدة : عن مبادىء الحضارة الجديدة فى تقديرها للحرية والاخاء والمســـاواة ، ورعايتها لكرامة الانسان وحقوق الأمم فى القرن العشرين ·· !!

وقسمت أمم الشرق الاسلامية – ومن بينها مصر – التقسيم المعروف ، الذى مزقها وأتى على البقية الباقية من وحدتها ، وبذلك قضى نهائيا على قصة الخداع الاستعمارى ، وفرغ منها على مسرح السياسة ، وألقى الستار على الفصل الأخير منها ··!!

★ ★ ★

— ١٣ —

وبعد قليل تطورت لغة الاستعمار وأساليبه ، وانصهرت الى عواطف حارة ·· استعمارية أيضا ·· !! تصب فى صكوك ، وتصاغ فى معاهدات ومواثيق ، وتأخذ ما يراد لها من أسماء ومسميات ·· !!

وقد خـــرج قاموس الاستعمار بعد الحـــرب الثانية بلغة جـــديدة ، استحدثها لتناسب الوضع الجديد ، وتمكنه من التهام ما يطمع فى ابتلاعه من حقوق الأمم ؛ فالخطة هى هى لم تتغير ، وكل البوادر التى ظهرت فى الأفق تدل على صدق القضية البدهية المعروفة من أن ما يســـمونه توفر حســـن الثقة ، وما الى ذلك من خرافات الأسماء والمسميات ·· كل هذا لا يعـــرفه المنطق الأبى للوطنية الصحيحة ، ولا يعترف بلغته قاموس القومية الوطنيـــة لأمم تجد فى طلب الاستقلال ·· !!

★ ★ ★

وبالرجوع الى حالة مصر فى أوائل فترات هذه الغمرات وأعقابها ، نجد أنها قد هبت عليها نسمات من اليقظة ، ولكنها لم تســـتفد منها ، وان كانت لم تخل من فائدة تنبيه الشعور الوطنى العام ، والتهيئة للنهضة المرجوة الكامنة فى روح الشعب والأمة ·

وهي على كل حال تحمل معنى الدلالة على حيوية الشعب ، ومقدرته على حمل أعباء النهضة ، لو توفر له عنصر القيادة الصالحة التى تسير به على بصيرة ··· والى هدف ···

وبتخطينا عهد الأتراك والمماليك ، وما بعد الثورة الفرنسية ، والفترة التى أعقبت ذلك كله ·· بتخطينا هذا فى قفزة تصل بها الى عهد محمد على ، وظروف توليته ، وبروز اسم مصر الدولى بروزا واضح المغـزى والخطر ، ومنذ ظهور المسألة الشرقية وما قبيل ذلك — بالوقوف على أسوار هذه الفترة نجد أن عهد محمد على كان عهد يقظة ونهضة وكفى ·· !!

وحسبه أنه أقام الدليل على حيوية الشعب واستعداده للانتاج والبناء والتعمير ، اذا آزرته ووجهته القيادة ·

فقد أقلق محمد على ، بمصر المستقلة ، وبنجاحه وظفره ، بال أوروبا ، وأثبتت مصر بقيادته أنها مصر الحية الخالدة ؛ ومهما قيل عن محمد على فانه كان قائدا ، أو حاكما مصلحا ، له برنامج يؤمن به ، ويعمل له ، ويحسب حساب الشعب فيه بصرف النظر عن نوع النظام القائم ورأينا فيه ·

ولا يستطيع مؤرخ الفكرة الاسلامية أن يتجاهل هذا ، أو ينسى أن محمد على — مع أخذه عن النظام الأوروبى كارساله البعوث ونحو ذلك مما هـو معروف — كان فى الحق محتاطا حـذرا ، فلم يتجاهل الشـعور الوطنى القومى ، ولا احتقر تقاليد الأمة أو أهدرها ، ولا مسخ الطابع الشرقى للحياة العامة أو شـوهه ··

ولئن كان كغيره من الحكام لم يفطن الى وجوب اقامة المناخ الاسلامى كنظام سياسى واجتماعى ، وهو العنصر المفقود فى كل اصـلاح ، وفى كل حركة اصلاحية قامت فى مصر والشرق ·

لئن كان قد غفل عن هذا ، ولم يفطن اليه ، فان ذلك شئ آخر ، وهـو خطأ من باب عام شامل ، وقع فيه كل حكام الشرق ·

وما كان ينتظر بعد هذا التاريخ الطويل الأمد على نسيان المبـادىء الاسلامية ، أن يتنبه محمد على وهو فى هذه الظروف الشـائكة الى هذه الحقيقة ، على أن اتجـاهاته فى الفتـح والتوسـع واقـامة اركان امبراطوريته كانت كلها صادرة عن روح جدى صارم حـازم متوثب ، وكان يطل منها امتداد حركة الدعوة الاسلامية فى أهدافها العامة فى هذا السبيل ·

فلو أنه ادرك أنه غير مطلوب منه ، لكيما يحقق « النظام الاسلامى » ، اكثر من أن يكون حاكما اسلاميا ، يعمل بالمبادىء الاسـلامية ويطبقها فى الحكم والتشريع والادارة ، والاقتصاد والاجتماع والقضـاء · الخ · وأن

الاسلام لا يعنيه من الحاكم الا أن يكون قويا يطبق المنهاج الاسلامى ، ويقر العدالة الاجتماعية ، مستمدة من مبادئه وأحكامه ؛ وأن هذا هـو « روح النظام الاسـلامى » فى الحكومة ، يتمثل ويتجسـم فى « المنهاج » أعنى « القرآن » ؛ لو أدرك هذا لكان الحال غير الحال ·

وعلى أى الحالات والأوضـاع فقد تمتعت مصر فى عهد محمد على بحركة استقرار وعهد استقلال وعدالة أيضا ، أثبتت به أنها أمة حيـة ، تستطيع — لو وجدت القيادة الجادة الحازمة — أن تعمل ·

ولو أن هذه الحركة وما تلاها كانت حركات قائمة على منهاج سليم ، وأهداف واضحة ، تستمد من روح الشعب ، ومن تاريخه ، ومن دراسة حاجاته ومطالبه الحقة ، وتعالج أدواءه بعد فحص لما أسرع اليهـا الخمور ، مهمـا كان من قيام الحركات المناوئة فى وجهها ·

ومرت حركة محمد على وانقضت ·· مرت كنسمة الليل فى يوم شديد القيظ ، وانتهبت البلاد الفتن والأطماع ، والأيدى العابثة ، التى عملت بلا برنامج محدود ، ولا غرض منشـود ·· وخالط عملها كثير من الشوائب الضارة ، وأطل الاستعمار برأسه مستغلا الغفلة ، وضعف الشعور ، وقصر نظر الحاكمين ، أو خضـوعهم لظروف الأمر الواقع ، وما هم فيه غارقون ؛ فلم يجدوا لما واجههم من المشكلات حلا ، ما داموا يسـيرون بلا برنامج ، وليست لهم خطة يسيرون عليها ، فالظروف هى التى تسـيرهم ، والأمور تداهمهم على غير استعداد ، ولا بصر أيضا ··!

كل هذا والأمم الاسلامية جميعها فى ضعف وخمول ، والأمة المصرية المسلمة نسيت دينها ومنهاجه ودستوره ومبـادئه ، وأحلت محله أشـياء وحروفا ونصوصا ، لا روح فيها ولا حياة ···

وهذا كله أيضا على الرغم من أن العلماء هم الذين ولوا محمد على أو بايعوه ، اذ كان لا يزال لهم مقام ملحوظ ·

ولو أن هؤلاء العلماء كانوا على فقه بدينهم وتاريخهـم ، أو — على تسامح — لو أنهم كانوا على يقظة ، ولم يكونوا قد استكانوا الى الغفـلة مع الغافلين فنسوا روح دينهم ، وحقيقة منهاج الدعوة الاسلاميـة بحكم تأثير التيار العام ·· لكان الحال غير الحال ، ولوجدنا من رجال الاسـلام من يذكر بمبادىء الاسلام فى الحكم والسياسة والاجتمـاع فى مثل هـذه الساعات الفاصلة التى تنتقل فيها الأمة من دور الى دور ·· !

وعلى كل فغير منكور أن مصر كانت ترفع رأسها بين كل فترة وفترة ولكن هذه البواكير لم تثمر ثمرات متصلة ، وذلك لأن مصلحا واحـدا ، أو رجلا واحدا ، ممن قادوا زمام الأمة فى هذه الفـترة لم ينتبه الى موطن الداء الحقيقى ··· !

حقا لقد عرفنا من رجال الفكر الاسلامى الحر فحولا كجمـال الدين الأفغانى والامام محمد عبده ، كان لهم قدم صدق فى الجهـاد الاسـلامى بصفة خاصة ، وكانت لهم جهود اسلامية قيمة ، فأيقظوا المشاعر الخامدة ، وأنجبوا تلاميذ ومعجبين ، وأناروا أذهان العالم الاسلامى ، وساهموا فى الحركات الوطنية ٠٠ ولكن هذا كله ذهب مع دسائس الاستعمار ، لأن الخطة لم تكن سليمة واضحة الهدف ، ولم تكن قائمة على المنهاج الاسلامى فى دقته والمامه بكل الظروف القائمة ٠

وما أنا بمعتسف اذا قلت : ان حركة جمال الدين ، ومحمد عبده ، كانت فى معناها الواسع ، وحقيقتها التاريخية الكبرى رغبـة فى الاصلاح ، أو محاولة من محاولاته ٠ فنحن نقرأ لهذين الزعيمين كثيرا ، ونعجب بتاريخهما وأقوالهما ، وآرائهما الجريئـة ، ويروقنـا هذا التراث الاسـلامى الذى خلفاه ٠٠ !!

ولكن هل لقيت هذه المبادىء والآراء من يكافح عنها ؛ ويناضـل فى سبيلها كعقيدة لابد أن تسود ٠٠ ؟ وهل عمـل الزعيمان على جمع القلوب حولها ، ليفتديها أصحابها بالدماء والأرواح ؟

نستطيع أن نقول باطمئنان انه مهما سجل التاريخ ، ومهما قـرأنا باعجاب عن جهاد الزعيمين ، وكبير ما لقيـا وما احتملا من الاستعمار ، وما خلفاه من تراث اسلامى نفيس ٠٠٠ فان حركتهما لم تنظم جهودا عملية ترمى الى سيادة مبادىء الاسلام فى الحكم والسياسة والاجتماع ، واقرارها عمليا كدستور واجب النفاذ ، الى جانب الذود عنها كعقيدة صحيحة ، ولعل هذا فعل الظروف الشـائكة القائمة وقتئذ ، والعقبات والمشـكلات ، وهى عوامل ليست هينة ، ولا مجهولة أو منكورة ، وكلها قد تنهض عذرا واضحا بينا لمن يريد أن يعتذر ٠٠ ان قبل فى التاريخ اعتذار ، وان عرف فيه هـذا المبدأ ، وقبله دستور الايمان والمؤمنين ، والجهاد والمجاهدين ، الذى يفرض على صاحب المنهـاج ، والمؤمن بفكرة ، والداعى الى نظام ، أن يجـاهد لسيادة ما يؤمن به ، بخطة ايجابيـة ، ووسيلة عمليـة منظمة ، أو يموت دونها ٠٠ !!

تلك هى المادة الأولى فى دستور الجهاد والمجاهدين ٠٠

والذى يهمنا على أى الحالات — وهو مالا يمكن أن ينكر — أن الأمـة الاسلامية قد نسيت القرآن الكريم كدستور ، وكأصل من أصول تشريعها فى السياسة والحكم والاجتماع ، وأن واحدا من زعمائها ، ومن تولوا قيادتها ، لم يفطن الى جمعها على هذه المبادىء ، رجوعا بها الى ما كان تركه سببا فى اضمحلالها وتأخرها ، ليكون هذا الرجوع من أسباب نهضتها ٠٠ فجاءت لذلك حركات الاصلاح كلها محـاولات ، لم تزد على أنها مقـدمات لتطور الأفكار الى النهضة الصحيحة ، وقد أفادت هذه المقدمات أو الارهاصـات نوعا من اليقظة ٠٠

وعلى ما أسـفرت عنه كل هذه الحركات والمحـاولات فان الفكرة الاصلاحية فيها لم تكن كاملة كما قررنا ، بمعنى أنها لم تكن تعتمد على المنهاج الواضح ، والقيادة العاملة على تكوين الجند المؤمنين بهـا ، الذائدين عن حياضهـا ٠٠

ومن العجيب أن تسمى هذه الحركة ـ الى الآن ـ « حركة تجديد » ، وأن يسمى القائمون بها زعماء تجديد أو مجددين ٠٠ !

وهذا وحده يغنى عن عناء الكلام الكثير فى هذا الموضوع ٠٠

وأبلغ فى العجب أن تحارب من رجال الدين أنفسهم ، وهذا يدلنـا على مدى ما وصلت اليه الحـالة الدينية ، من الاغراق فى الجهل بتراث الاسلام ، ونسيان روحه حتى ليسمى المتحدث عن حقيقة الاسـلام ، ومن يرشد الناس الى جوهره « مجددا » ٠٠ !

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فلم يفهم الناس من كلمة التجـديد انها تجديد المنسى المهمل المتروك ، كما كان هذا قائما فى الأذهان بالفعـل ، وجاريا على الأفواه ، ولكنها أطلقت أيضا على التجديد المبتدع ، ومن هنا كان الامام محمـد عبده ملحدا مبتدعا عند العـامة ، وفى نظر خصـومه والكائدين له ٠٠ !!

ولقد كانت شوكة المستعمر قـوية ، فتلاءمت كل الظروف وتكاتفت ، وحرمت البلاد من الثمرة الناضجة ، التى كان ينبغى أن تحصل عليها من الحركة الاصلاحية التى تزعمها جمال الدين ومحمد عبده ، الا ما أسـفرت عنه مما سجلته الكتب من تاريخ مجيد حقـا ٠٠ ولكنه متروك ، يتسلى به الناس لقتل أوقات الفراغ ٠٠ وهذا هو النصيب الذى يظفر به تاريخنا الحى عند بنيه من تقدير ٠٠ !!

★ ★ ★

— ١٤ —

ومن الحوادث البارزة فى تاريخ مصر الثورة العرابية ٠٠

الجرح الدامى فى جسم الأمة الى الآن ٠٠

فصل من رواية هزلية استعمارية ، على مسرح السياسة المصرية ، قام بتأليفها واخراجها المستعمرون ٠٠ ودفعت الثمن الأمة المغلوبة على أمرها ٠٠ أمة بلا منهاج ، ولا قيادة ، ولا رأى ، ولا وحدة ، ولا هدف ٠٠ فلا تعرف ماذا يراد بها ٠٠ ؟! ضللها المضللون ، وفتك بها المستعمرون ٠٠

وتلاحقت الحوادث المعروفة وتتابعت ، حتى دهمت العالم الحرب الأولى ، والأمة على ما هى عليه من تفكك ، وتمزق وغفلة ٠٠ وبعد الحرب نجحت السياسة الاستعمارية ، فحولت مجرى الجهاد الوطنى ، وقضيته العليا ، الى مهزلة الدستور والبرلمان ، وكراسى الحكم ، وضاعت قضية الاستقلال بين هذه المسميات ، وتعددت الأحزاب ، واشتعلت نار الفرقة ، والخصومات والمنازعات ، مما هو معروف مشهور قريب العهد ، ومازال قائما ٠٠

★ ★ ★

ولعل الشخصية الوحيدة التى يقدرها التاريخ فيمن ظهر من الرجال فى هذه الفترة الأخيرة هى شخصية الزعيم مصطفى كامل ، ومهما قيل عن سياسته واتجاهاته مما ليس محل تفنيده وتمحيصه هنا ، فهو الشاب الذى بعث الحركة الوطنية ، وأشعلها وألبها ، وأمدها من روحه وجنانه ، وكان يتقد اخلاصا واقداما ٠

وهو وخليفته محمد فريد قد سقطا فى ميدان الكفاح الوطنى الصحيح والجهاد العنيف لقضية الاستقلال ، ولم يؤثر عنهما تفريط فى الأمانة الوطنية ٠

الا أنه من ناحية أخرى ، وهى جوهرية رئيسية عندنا ، فقد كان مصطفى رحمه الله كغيره ٠٠ فمع أنه دعا الى احترام التقاليد ، والمحافظة على الدين ، ومع شعوره بأن هذا كله لابد أن يكون جزءا من منهاج الاصلاح ، ودعامة من دعائمه ، ومع اشادته بالمثل العليا من صميم الأمجاد التاريخية الاسلامية ، ودعوته الأمة الى احتذائها،وبلائه فيها هذا البلاء الصادق ٠٠ مع هذا كله فقد غفل عن العلة الأساسية للداء ، وهى انصراف الأمة عن مبادىء الاسلام ، كأصل أساسى ، يلون كل حياتها ، ومظاهر نهضتها ، ويدعم نظام الحكم فيها ويحميه ، وأن النجاة لا تكون الا بالعودة الى هذه المبادىء ، وأن هذه المبادىء هى التى يجب أن تهيمن على كل شئون الأمة ، وأولها وأولاها شئون السياسة والحكم ٠

ولعل عذره فى ذلك واضح أيضا ٠٠ فقد كانت الأذهان محشوة ومغلقة بما رسخ فيها ، وما استحوذ عليها ، من هذا الفصل الذى مازال شائعا بين نظام الحكم واصلاح المجتمع ، وبين الدين ومبادئه ، فبعد الجميع كل البعد عن فهم حقيقة المبادىء الاسلامية ، وما جاءت به ، مما يتكفل باشادة أكمل نهضة لشعب يريد النهوض ، ويتوق للعزة والسيادة ، ويرنو الى الرقى والاستقلال ، ولو أن المرحوم مصطفى كامل قد ألهم نظرة الى دقائق التاريخ الاسلامى ــ على النحو الذى فصلناه ــ ترمى الى العمل على رد الناس الى

أصول نهضتهم ، وأخذ مثلهم عنها ، لأنها هي تاريخهم ، عن طريق عملي ، يهدف الى فرض هذه المبادىء كدستور للأمة يوجه نهضتها ، وتجاهد في سبيله ·· لو حدث هذا لتغير وجه التاريخ ، لا في مصر وحدها ، بل في ربوع العالم كله ··· !

وعلى كل حال فقد بقى الداء متفشيا ، بعيدا عن نظر الطبيب الفاحص ، ومن ثم فلم تثمر حركات الاصلاح ، ولا حققت واحدة منها هدفا واحدا من الأهداف التى قامت عليها ·· !! فما زلنا نتخبط في أخطاء الماضي، ومازال وضع القضية الوطنية والاصلاحية حيث هو ···

هذا هو الحق الصراح ، ودعونا من هذه المسكنات والمغالطات التى نعزى أنفسنا بها ، ونتلهى بألحانها الحزينة عندما نذكر رقصة المذبوح ··· !!

دعونا من هذه الدعاوى ·· وأطلقوا عقول الشباب ليتفهم تاريخه الصحيح ، حتى يمكن أن يسير الجيل في الضوء الذى لابد منه لتكوين النهضات ··· !!

★ ★ ★

ولقد جاءت الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ وانقضت ··· ولا أدرى ماذا أصابها وماذا تم فيها ؟ ومازالت الأوضاع السياسية والاجتماعية موضع الشكوى ، والأمة تئن ، وهى تسير تائهة متخبطة ، متنافرة متناحرة ·

دستور واستقلال ·· وبرلمان وانتخاب ·· ووزارة تذهب ·· وأخرى تجيء ··· وأحزاب متعددة في باطن الحزب الواحد ·· !!

أوضاع عجيبة مقلوبة ·· ترقص حولها أحزاب على حافة الهاوية ·· !

وأين نحن ، وأين الأمة ، وأين مصر ، وأين الواقع الذى نحن فيه من هذه المسميات ·· ؟!

سلوا مضابط البرلمان ، وسلوا الأحزاب رؤساءها ورجالها ·· وحاكموهم الى ما يقولون عن أنفسهم وعن أعمالهم ، والى ما يتهم به كل واحد منهم الآخر من تهم أدناها الخيانة العظمى والمروق من الوطنية ·

ولعلنا ان بحثنا عن هذا التقدم السياسى أو الاجتماعى أو الثقافى الذى بلغته مصر من هذه « التعاويذ ·· ! » التى يرتلونها صباح مساء ، وفي كل دورة برلمانية ، وفي كل انتخاب ، وعند كل تشكيل وزارة ··

لعلنا ان بحثنا عن هذا ، واثره فى أرجاء مصر ، وفى قراها وبين سواد الشعب وغالبيته ٠٠ فسنحتاج الى ضوء المجموعة الشمسية كلها ، لنفتش عن ذلك الرقى والتقدم ، والنهوض ٠٠ ! وبعدها فلن نجد شيئا ٠٠ !

« **كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا** » (١)٠

★ ★ ★

— ١٥ —

وفى وسط هذا الدوى ٠٠ وهذا الضجيج المحتدم ٠٠ وهذه الأوضاع المقلوبة ٠٠ وهذه المآسى المتكررة من تدبير الاستعمار ، ونسج يده ٠٠

وفى سنة ١٩٢٧ ٠٠٠

وبعد أن أنهكت البلاد الفرقة الجائحة ، وبدد قواها المعنوية التهالك على المعانى المبتذلة ، والترامى فى أحضان الغايات الرخيصة ، والخروج حتى على قواعد النهضة البتراء ، المصطنعة الملفقة العرجاء ، التى أوجدت ظروفها هؤلاء الرجال من صنع يد المستعمر والمتخرجين فى مدرسته ، وفاجأتهم فألقت اليهم زمام القيادة ، ووضعتهم موضع العاملين لتحقيق أهداف البلاد ومطالبها ، على غير استعداد منهم لحمل هذا العبء الجسيم ٠٠٠

فى هذه الفترة الصاخبة ٠٠٠

وبعد أن قامت الأمة بنفسها بتجارب عملية ، لمست فيها خطر هذه السياسة التى تدفع اليها ، وأدركت سوء مغبتها ، وأنها تساق بها الى الدمار ، ولم تكسب منها الا تفريق الكلمة ، وزيغ العقيدة ، وتوزيع الجهود، واحراج الصدور ، وتبديد الثروة المادية والمعنوية ، وتحطيم المثل العليا فى نفوس أبناء الأمة ويأسهم من مستقبلها ، واعتقادهم استحالة نهوضها أو نجاح أية حركة وطنية قومية اصلاحية نافعة فيها ٠٠٠

فى هذه الفترة ٠٠٠ وقد بدت بوادر فشل الائتلاف الحزبى ، الذى أقام تمثاله المرحوم سعد زغلول ، وذابت تبعا لانهياره وتصدعه الآمال العذبة ، التى كانت تداعب جفون التائهين فى أحلام الغفلة ، بفشل مفاوضات ثروت ـ تشمبرلن ، وما تبع هذا ولحق البلاد من نتائجه ٠

---

(١) النور : ٣٩

وكان طبيعيا جدا أن تتحول الأمة ، وأن تختار فى هذه الساعة الفاصلة من تاريخها تعديل خطتها ، والاستفادة من كل الدروس القاسية التى مرت بها — ملخصة فى هذا الدرس البليغ ونتائجه ·· ولكن بقى الغافلون على غفلتهم ، يتقاتلون ويتناحرون ، ويسددون الى نحورهم والى قلوب أمتهم السهم القاتل المسموم !!

ولكن العناية الالهية ·· والقلب اليقظ ·· والأمل الفتى ·· والروح الساهرة ·· والادارة المصممة ·· والعزم المتوثب ·· والغايات الوطنية الرفيعة ، المتجردة الى هدفها السامى ، مبرأ من كل زيغ ، مطهرا من كل غاية شخصية ، أو منفعة ذاتية ·· الا مصلحة الوطن ، ومطالب البلاد العليا التى تريدها ، يحددها شعورها ، وتنطق بها حاجاتها من تاريخها ، فى ماضيها وحاضرها،واتجاهها الى اقامة نهضة صحيحة على منهاج سليم·· لكنها كانت على أهبتها ·

لم تكن هذه الارادة غافلة ، بل كانت ساهرة يقظة ، تسخر من هذه المهازل ، وحركات أبطالها الهزلية على المسرح ، وكان هذا فى الواقع هو التطور الطبيعى ، والانتقال الحتمى الذى لابد منه فى مراحل نهضات الأمم ، قد غلب تياره الدافق — كما لابد أن يكون — فظهر أثره الأول ···

فلابد فى النهضات من فترة انتقال ، هى من طبيعة سير الحياة العامة · ثم لابد من الانتقال الطبيعى ، تطورا مع الاتجاه العام الى الكمال المطلوب ، أو الى المطلوب فى ذاته · ولئن غفل الناس عن هذا ·· فلا ذنب على التاريخ وهو لا يعرف المحاباة ، وما على العاملين اليقظين من بأس ، ولا عليهم تبعة هذه الغفلة ·· ؟!

قام شاب من شباب مصر ، فى هدوء وتواضع ، وقد عاصر هذه الحركات الأخيرة · بعد أن استعرض هذا التاريخ الطويل ، وأخذ منه العبر ·· والويل لأمة لا تستفيد من تاريخها · والويل لقادة أمة ، وزعماء شعب لا يعرفون تاريخهم ، ولا مكانهم من الوجود ·· !!

انهم يسيرون فى الركاب كحملة « القماقم » ، أذلة تائهين فى زحمة هذا العراك العالمى ، يقلدون ما يستهويهم ، ويرتدون ما يقدم اليهم من أزياء ، ويرددون ما يدفعون اليه من نداءات ، والفاظ وضيغ يسمونها مبادىء تترتب عليها حقوق كما يشاء لهم ، وكما يحملهم عليه مروضوهم ·· !

ولو عرفوا تاريخهم لعرفوا أنفسهم أولا ، ومن عرف نفسه سار فى الضوء فأمن الطريق ، فمعرفة النفس هى سر الايمان ، وهو سر النجاح ، ولو فعلوا لكتب لهم النصر ·· ولتبوأوا المجد اللائق بممثلى أمة حظها فى

هذا التاريخ ، ومكانها فى هذا الوجود ، أن تكون مشرق الحضارة ، ومهبط النور والهداية ، بمبادئها العالمية الخالدة ، وماضى حضارتها المجيد .

قرأ هذا الشاب تاريخ أمته ، لا كما يقرأه الناس .. قصة محزنة مبكية تارة ، مفرحة مسلية تارة أخرى ، أن أثارت فى النفس حماسة أو اعجابا ، أو بعثت ألما وعذابا ، فهو شعور الوقت ، وأثر الساعة ، لا يلبث أن يتبخر بانتهاء الوقت والمناسبة ، وانقضاء المجلس .. فان المجلس والمناسبة كانا عند شابنا الدراسة والبحث ، والامعان والتعمق فيهما .. كانا غير هذا العبث ، وهذا الفضول ، لمجرد التسلية وقتل الوقت . !

كان الوصول الى الحقيقة التى عناها التاريخ ، وقصد اليها من تدوين الوقائع ، واثبات الحوادث .. وكان العمل الجدى ، وليس التمثيل الهزلى ..

وكانت ارادة من ارادة الله ، وارادة الشعوب المستمدة من التطور الطبيعى ..

وكان عزما مصمما ، وقصدا محددا واضحا ، تحدده وتبين عنه ، وترشد اليه ، هذه الآلام وهذه الجروح الدامية فى جسم الأمة الاسلامية ، وقد أزمنت ، وأعضل داؤها وعز دواؤها ، حتى ظن الناس ، وخال أشدهم تفاؤلا ، وأقواهم ايمانا ، أن لا برء ولا نقاهة ، ولا صحو ولا استجمام ، ولا نهوض بعد ذلك ولا قيام .

فلماذا تأخرت هذه الأمة ؟ وما هى العوامل التاريخية الصحيحة لهذا التأخر والتدهور والانحلال ؟ والى كم ترجع من السنين ؟ وما هى عوامل النهوض الواجبة وأسس النهضة التى يجب أن تصرف فيها الجهود ، وتجند لها الأمة بكل قواها .. ؟ وما هو اللواء الذى يجب أن ينشر لتجتمع عليه الأمة من جديد ؟

هذه هى القضية فى وضعها الصحيح ..

وهكذا .. أخذ وتلقى من صميم تاريخه ، وتاريخ أمته ، فوضح منهاجه ، ورسم خطته ، وبدأ العمل .. فسار على هدى وبصيرة ، فى تجنب لمزالق السابقين ، وفى منعة من الوقوع فى أخطاء الوسائل الفاشلة البائرة التى سئمتها البلاد ، وملت تجاريبها . فليست حركات الاصلاح ، وأسس النهضات ، وقيادة الأمم تنال ارتجالا ، أو تدرك عفوا واعتباطا ، ولكنها منهاج وخطة ، ومراحل ووسائل ، واعداد وتكوين ، يعزز ذلك كله ايمان عميق بالفكرة ، واخلاص دقيق للغاية ، وتجرد لها وكفاح متواصل ونضال دائم فى سبيلها لا يتسرب اليه وهن أو ضعف ، أو تفريط أو ملل ، فى غير جلبة ولا ضوضاء ، ولا حب للاعلان الذاتى والشهرة مما درج عليه الناس ، وذابوا هياما به ، فحبط ما صنعوا ، وصار باطلا ما كانوا يعملون ...

وهكذا ... سارت السفينة باسم الله .

ما هي هذه الفكرة ··· ؟ ما أهدافها ؟ ما منهاجها وما خطتها ··· ؟

هذا ما نتركه للقارىء يستجليه فى هذه الصفحات التى كتبتها عن سيرة قائد هذه الفكرة ، ومنشئها ومجددها ، العامل لها ، المجاهد الأول فى سبيلها ، أستاذى ومرشدى ، الأستاذ حسن البنا المرشد العام للاخوان المسلمين ···

كتبتها محاولة منى لتجلية المثل الأعلى فى حياة كلها كفاح ونضال ، واخلاص للغاية ·· وهو قبس من شعاع مضىء ، ما أحوج الأمة والشباب الى أن تترسم خطاه ، وتهتدى بهديه ، وتلتئم حول منارته ·

أقول محاولة ولا أزهو ولا أزيد ··· !

فليس من العمل العادى المنال ، أن يقوى فرد ، أو يصل مجهود واحد الى الابانة عن حقيقة المثل الأعلى الذى كون هذا المزاج النقى الطاهر ، فى بناء عبقرية شخصية قائد موفق حكيم ، خالطه الآلاف من الناس عن كثب نحو سبعة عشر عاما مخالطة الأخ القريب الملاصق ، فقرأوه كتابا مفتوحا ، غنيا بالحقائق العملية الواضحة الناصعة ، التى تفتقر اليها الأمة فى رجل قيادتها ، وزعيم نهضتها ···

ليس من السهل المنال أن تتاح هذه الغاية الجلى لفرد واحد ، على وجه يرضى شغف القارىء ، ويشبع حاجته ، ويقنع الباحث نفسه بأنه أوفى على الغاية من دراسة شخصية فذة وهبها التاريخ لمصر السعيدة الحظ ، وجاد بها على نهضتها لتزهر بها الآمال ، وتحيا القلوب ··· هى اذن ــ كما قلت ــ محاولة لا أكثر ، ألمت فيها بطرف من هذه الدراسة ، والباب مفتوح لاتمامها على سعة ، وحسبى أننى أرضيت ضميرى ، وتحررت من اثم الكتمان ــ ما استطعت ــ أمام الأمة الحيرى ، وأمام الشباب المتردد ، الذى مازال كثير منه يتعلق بالأوهام ، ويصرف جهوده فى الفارغ من الأمور ··

هذا الى أن فى حياة أستاذنا ومرشدنا وقائدنا ، وسيرته العملية ، ما هو أغنى بكثير مما يمكن أن تلم به الموسوعات ، أو تحيط بدقائقه الأقلام ، وما نتحدث الا عن واقع منظور ملموس ، ولسنا نعيش فى المريخ ، أو نسلك فى مخاطبة بنى وطننا واخوتنا مسلك من يتحدثون اليهم بأجهزة غير منظورة ··· وما علمنا مرشدنا ، ولا أرشدتنا دعوتنا ، ولا دفعنا ايماننا ، الا الى هدف واحد ، وغاية واحدة ، هى الاخلاص للغاية ، والتجرد لها والفناء فيها ، ابتغاء الحق ، ومرضاة الله وحده ·

هى قيادة مخلصة ، نموذج جديد ، وصنف آخر من الرجال ، فلا يتعجل المتعجلون ، وها أنا أقدم ثمرة هذا المجهود المتواضع كبداية وفتح باب للكثيرين ، ممن أعرف بالغ شوقهم الى تسريح أذهانهم فى جنبات هذه الحديقة الفيحاء ·

وقد أتيت فى هذا القسم منه على تطور تاريخ الدعوة فى ايجاز كبير ، ومرور سريع ، ليقف القارىء على هذه العوامل ، التى تفاعلت بحرارة الزمن ، وتكاثف بخار مركباتها فى سماء نهضتنا ، فتجمعت أخيرا ، وقدمت للناس الفكرة الاسلامية ، ماء عذبا سائغا للشاربين ٠

وغاية ما أرجوه بعد ذلك ، أن أكون قد وفقت فى محاولتى على الوجه الذى أردته ، مبتغيا بذلك وجه الله والدعوة ، ومثوبة الاقرار بالفضل لأهله وذويه ، وأن أنال شرف الحديث عن شخصية أستاذى ومرشدى ، الذى علمنى وهذبنى ، وقادنى الى الخير ، وبصرنى بمسالك الشرف فى الحياة ، وأنار لى طريق معرفة الله والناس وهما سر الحياة وروح الايمان ، ففى المعرفة حقيقة الايمان ولبه ، وتلك هى السعادة العظمى والحمد لله الذى هدانا لهذا ٠

« **قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ٠ قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ٠ يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم** » (١) ٠

★ ★ ★

---

(١) آل عمران : ٧٣ ، ٧٤ ٠

القسم الثانى

الداعى والدعــوة

« ومن احسن قولا ممن دعا الى
الله وعمــــل صـــالحا وقال اننى من
المسلمين · ولا تســتوى الحســـنة
ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحســن
فاذا الذى بينــك وبينـــه عـــداوة
كانه ولى حميم · وما يلقـــاها الا
الذين صــبروا وما يلقـــاها الا ذو
حظ عظيم » ·

(فصلت : ٣٣ ـ ٣٥)

الساعات الفاصلة فى تاريخ الانسانية

يسرف كثير من الكتاب فى الاشادة بما يطلقون عليه ساعات التاريخ الفاصلة ، فيغرقون فى تمجيدها ليسبغوا عليها روعة ومهابة ، ويغلون فى ذلك غلوا كبيرا ·

يذكرون يوم ١٤ يوليه ، ويوم اجتماع ميونيخ وغيرها ، وكأنهم يتحدثون عن هبة من هبات الدهر غالية ، أو منحة من يد التاريخ سابغة · ولو محصوا الحق لوجدوا أن كثيرا من هذه الساعات ينبغى ألا يذكر الا وشارات الحداد مرفوعة ، وأعلام الأسى منصوبة ، لكثرة ما أريق فيها من دماء ، وانتهك فيها من حرمات ذاقت الانسانية منها الآلام والويلات ·

ومهما وقف هؤلاء خاشعين أمام أسمائها البالية ، وحطامها الفانية ، فانهم انما يحاولون احياء أمجاد ذليلة ، واشاعة الروح فى أشباح ذابلة ·

أما الساعات الفاصلة — حقا — فى تاريخ الانسانية فلا تكاد تخطر لهم على بال ، وهى التى أقامت الحقوق وأقرت أسس الحضارة الفاضلة وسمت بها ، وأحدثت من الثورات والتطورات الاجتماعية والسياسية ما بقيت آثاره على الزمان نورا ساطعا يهدى الحائرين ، كذكرى غار حراء ، ودار الأرقم ، وحادثة الهجرة ، وغزوة بدر ··

فاليك نفحة اسلامية عاطرة من معين هذه الساعات القدسية الفاصلة تبصره وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ·

★ ★ ★

الفصل الأول

فكرة السماء

— ١ —

على شـاطىء الأبدية

١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٤٥ هـ (*)

رويدك أيها الكوكب السائر ..

رويدك .. الى أين المسير ؟ !

قف ، تمهل .. وخذ لنفسك وللتاريخ حظا .. !!

رويدا ؛ فلطالما راودت السنين ، فجسـت خـلال هذه الديار مسرعا عجولا ، تتنقل فى منـازلك ، وتتم دورتك ، تحفك العناية الالهية وتحميك ، وأنت تأخذ من كل نسمة تاريخا .. وتتناول من كل حركة على الأرض معنى وذكرا ، وكأنك تقرأ ما عليها ، وتعيد قراءته فتأخذ صفحة وجهك لونها من صـداه ، فتبدو تارة مليحا مشرقا ، متوردا كامل الهيئة ، وأخـرى عاديا . أو شاحبا كاسفا مظلما . فأنت تهفو اليها دائما مسـتنجزا وعدا وأملا . مرتقبا للتاريخ والأجيال مستقبلا وعملا ..

فرويدا اذن .. وخذ لنفسك وللتاريخ والأحقاب حظا .. !!

رويدا قمر السماء فى يوم تمامك : فهذه آمال الأجيال قد أقبلت تحييك . وتأهبت لتناجيك ؛ واحتشدت فى أعقاب ذلك التاريخ المجيـد تكتب للدنيا حظا مديدا ، وتشيد لها عزا جديدا ، وتصنع تاريخا خالدا مجيدا ..

رويدا ، فقد ابتسم وجه الزمان .. فمالك لا تقيم معنا ساعة ، مصغيا مشرقا بهالتك الذهبية ، فانا سنلقى اليك أمرا ، ونزف بشرى ، ونسر خبرا ..

(*) ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٦ .

رويدك ، لا تعجل ٠٠ فقد خطت يد القدر فى الدنيا خطا قــررت به مصير الانسانية ، وأنشأت لها به عمرا جديدا ٠٠

رويدك ، فان لنا معك ، ومع التاريخ ، ومع الناس شــأنا طالما أقلق أمره بال الانسانية ، لغير سبب محسوس معقول ، الا خضوعها لهذا القانون الاجتماعى الغاشم الذى وضعه لها الانسان اشباعا لشــهواته ، وتحقيقا لأغراضه وأطماعه ٠٠

رويدك ، لا تعجل ٠٠ ففى الدنيا شعاع نور باهر ، يخترق حجب الظلام الكثيفة اختراقا ، ويشق أجواز الفضاء ، معلنا بزوغ فجر جديد ٠٠

رويدا ٠٠ فلطالما اجتزت طريقك فى حــيرة المسرع ، وقلق العجول ، معرضا مزورا ، لا تحفل بما على الأرض ، الا بنظرة رثاء عــابرة ، وأنت تراها تضطلع بخطبها ، وتضطرب فى أسباب حيرتها ٠٠

رويدك ، رويدا ٠٠

مالك يا قمر السماء لا تجيب النداء ؟ !

هل مللت مناظر هذه الدنيا الصاخبة ، وقد استحوذ عليها الشيطان ، وأمعن فى غوايتها واغرائها ، فهى ترقص على فوهة البركان ؟ !

أم قد عافت نفسك السماوية تكرار مناظر هذه الحياة الساخرة تحتدم فيها المزاحمــات الشــهوانية وتهددها ، وتسيطر عليها المــادية الجامحة وتحركها ، وتعصف بالمثل العليا فيها وتبددها ٠٠

رويدا ٠٠ وقف معنا ساعة بطلعتك الوسيمة ٠٠

فالأرض وان غشاها الظلام حينا من الدهر ، حتى أوهن فيها جانب الشعور الانسانى ، فقد سطع فى أرجائها هذه الليلة النور عائدا بالطمأنينة مؤذنا بالعمل ، داعيا الى حقائق الحياة الحرة الكريمة الفاضلة ٠

تأمل ٠٠ فها هى أضواء السعادة تشرق على الانسانية ٠٠

تأمل ٠٠ فها هى شجرة الهداية الربانية تورق من جديد ، وينحدر ظلها الوارف المديد لايواء التائهين الحائرين ٠٠

هذه الشجرة الباسقة ذات الأصل الأثيل ، والنسب الزاكى العريق ، التى أظلت الانســانية فى القرون الخاليات الخالدات ، فنعمت فى كنفهــا بالسعادة الشاملة ، وسارت فى ظلها الى شاطىء الأمان ، وبلغت الذروة فى تاج الزمان ٠٠

هذه الشجرة الباسقة بين أمجاد التاريخ ، النامية فى أعماق أحقابه، مازال أصلها ثابتا ، ومازالت يانعة مورقة ، شهية الثمار ، تخرج نباتها ، وتؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، وبتقدير العزيز العليم ··

فمالك لا تقيم معنا ساعة ، نجتلى مفاتن الضوء ، ومحاسن الأزهار . ونرى انسياب هذا المنبع الصافى من منابع الخير والحياة ، ونرقبه وهو يسير الى مداه ، عذبا رقراقا ، يحمل الرى والطهر الى الظامئين والحيارى·

ان الدنيا لاهية ساهية ، فما أحراك يا قمر السماء أن تتمهل ولا تتعجل ·· وأن تقيم معنا فتطيل المقام ، لنودع آخر لحظات الظلام ، ونشهد عودة الاشراق الى الانسانية الهرمة ، وقد أدركها الاعياء ، ودب فيها الفناء ، بعدما تنكرت لمبادىء السماء ، وأوغل أبناؤها فى العمل على اطفاء روائها ، واخفاء بهائها ، وتحريف مثلها ، وتزييف شريعتها ودستورها ··

رويدا قمر السماء ·· وتعال نقفو مسير هذا النبع الصافى من منابع الخير : كيف نبع فى يوم تمامك ، وكيف سار بعد ذلك الى مداه عذبا رقراقا يحمل الرى والطهر للظامئين والحيارى ؟ !

تعال ــ ننعم بهذه النفحة الربانية ، كيف هبطت الى الأرض من سبع سموات وكيف تناول أشعتها قلب سما بروحه الى السماء ، يستلهم منهــا أملا يلطف به آلام العالمين ؛ ويستمد منها قوة يؤيد بها روحه فى جهـــاد عنيف طويل ، يتحدى به الدنيا ، وما فيها من حديد ونار ··

رويدا ·· وخذ من هذا النور مشعل البشرى الى العـــالمين ، واهتف فى مسامع الدنيا أن قد تفجرت فى الأرض ينابيع ثروة ·

« تصل القلب الانسانى بجلال الربانية ، فتملؤه بذلك اشراقا وريا »

« وتكرم فى الانسان معنى الانسانية ، فترفع فى عينه قيم الفضـــائل العليــا »

« وتذكر الناس بجلال الآخرة ، فتسمو بهم عن أغراض الحياة الدنيا »

« وتوثق بين بنى الانسان رابطة من الأخوة ، فلا تمتد اليها يد التفريق والبــلى »

« وتقيم ميزان العدالة الاجتماعية بين مختلف الطبقات على أســاس من التعاون والرضا »

« وتضع لأصول المشاكل حلولا ترتكز على الحق لا على الهوى »

★ ★ ★

— ٢ —

عبقرية التاريخ على ضفاف الأمل

حقائق اليـوم أحلام الأمس

(١)

فى سكون الليل الهادىء وصمت الظلام البليغ ··

الناس نيام ، والمكون مطرق لصوت القــدر ، مذعن لتصريف الارادة العليا ·· وقد غفت القلوب واستقرت الأرواح فى عوالم أسرارها : كان شاب فى نضرة العمر وزهرة الشــباب ، جنتبها فى سكون الليل الرهيب ، يصغى لهتاف من فم الزمان ، وأعماق القرون ·· ويندفع اليه بكل نبضة من نبضات قلبه ، وكل خاطرة من خطرات روحه وحسه ··

يبيح لليل بأسراره ، ويفضى اليه بعوالم نفسه ومخبوء أفكاره ، ويمنحه أملا يافعا متفتحا كالزهرة ، معلنا اعلان الواثق أنه هو وحده الذى تلقــاه من أعماق بطون التاريخ المهجور ، ومتروك حقائقه فى الغيب المستور ، هو وحده الذى أسرت به اليه العناية الربانيــة ، واختصته به وهدته اليــه وأدعته قلبه الطاهر ، فوقف على حدوده ومراميــه ·· بينما الآخرون فى الغفــلة ســادرون ·

فما كان هذا الأمل ظاهرة عارضـــة ، أو طيفا ممتعا جذابا ، يطوف بنفس صاحبه فيكتسب فى ذهنه بعض صفات الثبوت ، وانما هو صـــدى صوت سماوى خالد ، ائتلفت أنغامه من ميل باطنى قاهر ، أذاب فى نفس صاحبه كل احساس بما حوله ، وأفنى كل شعور بما عداه ···

أغرق فيه نفسه : فهو ينساب فيها وتنساب فيه ··

وأفرغ فيه روحه : فهو يستشف منها وتستشف منه ··

وهو يبرز أمامه ، ويتراءى لنفسه ، فيستحثه ويناديه ويلح عليه كلما خطرت له خاطرة أو لاح له فى الحياة هدف ·

هو ثمرة ذلك السمو الروحى ، يستمده قلبه الحى ، وتستلهمه روحه الصافية من آفاق حرة عالية ·· وهو صوت القدر النافذ وارادته القاهرة ، استقر فى نفس صاحبه فصدع له ، وصار فى قلبه وفى ضميره نداء الأبد ، وهمس الأحقاب ، وسر الأجيال ، معان نفذت بدقائقها وحقائق مراميها الى

أغوار القلب ، وأعماق النفس ، تثير أشجانها ، وتذكى آلامها وتحيى أمانيها ، وتبعث آلامها ·

فاذا اهتاج له دمع صـــاحبه فى مآقيه فى ليلته هذه · فلأنه يرى فى سكون الليل انصاتا هو انصات المستعتب ، والنادم المفرط على ما ألم به فى نهاره من تفريط ؛ هى عزيمة الأجيال صهرها الزمن القـــاهر ، وأذابتهـا الحوادث العاتية · يجمعها الليل فتلتئم ملخصة مسرعة فى نـداء من عمق الظـلام الصامت ·

هو نداء التاريخ المتحدى فى ساعة فاصلة من ســاعاته ، وفى معنى عميق لدرس بليغ من صمت الظلام فى سكون الليل ·· فكأن الليــل يبسط يده ـ اذ ينشر ظلمته ـ ليعلن الندم والتوبة عن تفريط الانسانية كلها لمـــا ألمت به فى نهارها من تفريط فى جنب الله ، وهو بشدة انصاته يتيح لصاحب الأمل الفرصة ، ويمد للقلب المتفتح اليقظ ـ بما يفيض به من قوة وحياة ـ أن يستلهم ·

(٢)

هذا شأن شابنا مع أمله ، وشأن أمله معــه ·· وقد أخـــذ من الليل عبرته ، واستقصى من الظلام حكمته وآيته :

وجد فى سكون الليل فرصة لاشــاعة الجمــال الروحانى فى نفســـه وطبيعة روحه المطلقة المرسلة ، فتناول من عنصر الألم معنى فتق به الأمل ، وتوفر له بذلك أن يجيد حصر التلازم بين رغبات نفسه العالية حصرا جلى هذه الرغبات وأبرزها ، فرأى حينئذ أمله بمرهف احساسه وركز فيه ذهنه ، وشعر بأنه على مدى مئات من الأحقاب البعيـدة والســنين الطويلة يركض اليها بروحه ، ويستلهم منها هذه الآمال الحية الغضة من حقيقتها الوجودية ·

فاذا هجم عليه فى ليلته هذه ، فهو الروح النافذ النظـــرة ، الالهى الطلعة ، يطل فى تمام خلقه وتكوينه من نافـــذة الغيب ، وأســتار حقيقته الوجودية ، فتشرق معه النفس وتسعد بغبطة روحية تتســـامى بها فتنسيها كل شىء ، وتجذبها الى الموكب النورانى حيث الضياء المنير ·

فهذا العالم ـ المؤلف من أطمار التقاليد ، القائم على أشباح الأوهام، المأهول بأسباب الفتنة ـ كيف نفذ اليه هذا الأمل كالشعاع ، وجاس خلال تلك القرون متحديا ، ثم نهض فى نفس صاحبه يعلن عن وجوده بحسن بصر بالأمور ، يضفى سمو نظرة وصدق ادراك فلا يزيغ به عن الحقائق غرور ؟ !

انها عبقرية التاريخ فى التقائها وتفاعلها مع عبقرية النفس والذهن ·

فما معنى هذا بلغة الكلام ؟ وكيف تم هذا التفاعل وهذا الالتقاء للعناصر المتجانسة ٠٠ ؟

(٣)

علينا أن نتصور العبقرية حقيقة من حقائق النفس ، وحالة من حالات رقيها وسموها ، ولعلها أعلاها ٠٠ وأنها ، كذلك ، نتيجة طبعية لازمة لنبوغ العقل الانسانى ، واثبات ما وصل اليه من كمال الادراك فى الفرد الواحد ، أو الجماعة أو الجيل ٠٠ فأنا أشعر بعظمة العمل الذى أوحت به العبقرية وأنتجته ، أو جليل الأثر الذى شادته وحققته ، أو سمو الأفكار التى نظمتها ودعت اليها وقربت حقيقتها الى الأذهان ، فجعلتها ماثلة أمام العقل اجمالا وتفصيلا : « مبدأ ، وغاية ووسيلة وهدفا » ، أشعر بهذا وأرتمى فى تبعاته ، ولا ينتابنى حينئذ أقل شعور ، أو يحف بى قلق يدفعنى الى اعتقاد أننى أروض نفسى على المعجزات ، أو أغامر بعقلى للاضطلاع بالخوارق وما فوق المدركات ٠٠ !!

هذه واحدة يحكم بها العقل ويسلم ــ اذا أفسحت له وأطلقته بعيدا عن الوهم ، وتركته فى منجاة من التعقيد المربك المزيغ ٠٠

وللواقع بعد هذا مشاهدات وملاحظات : فقد تظل العبقرية مخبوءة فى نفس صاحبها حينا ، فلا تبرزها الا المناسبات والحوادث البارزة ذات الأثر والتأثير الخاص فتكون كأنها عبقرية مواسم لها مواقيت ؛ وقد تكونها وتربيها الأحداث والحوادث ، تمر بالعبقرى أو يمر هو بها ، فلا تكون أكثر من مجرد استعدادات أولية فى نفس صاحبها ، هبت عليها آثار وعوامل فعلت فى النفس فهيأتها لعمل من الأعمال العظيمة ؛ كما أنها قد تتكون بعد أن تخوض النفس بالفعل معامع ، وتقتحم ميادين ، أى بعد أن توجد فى الأمر الواقع فتحسن استقباله كما ينبغى ٠٠٠

(٤)

واذا كانت حياة العبقرى أملا محدودا فى نظر الناس فهى عنده أمل غير محدود ، واذا كان مفهومها عند الناس ما لا يطيقون فهى عنده أبسط ما يطاق : اذ هى الحركة الارادية العادية والعمل البسيط ، مهما فصلت بينه وبين غايته السنون أو وقفت دونه العقبات والمشقات ٠

ومنظار الغيب المجهول عند الناس هو منظار الحاضر المعروف المشاهد المتناول عند العبقرى ؛ وليس هذا التباين كله الا صنع التفاوت العقلى بين العبقرى وغيره ، وهو تفاوت وخلاف يدنيه الزمن ويفعل فيه حتى يقرب مسافته ، وحتى يذيبه ، ويفصل فيه قرب الناس بعقولهم من العبقرى ٠٠

وإذا قامت العبقرية وبرزت متمكنة ، مستندة على الأصول العمليـة غير النظرية ، بأن كان صاحبها رجل دعوة اصلاحية واســعة ، وحـامل رسالة عامة ، تحمل عناصر نجاحها وأسباب حياتها من قوى غير مطعونة النسب ، فقد خرجت من كونها حاسة الى محسوس ، وقد تطور بها العبقرى من أمل الحاسة المتفتقة المشـعة ، وهذا الأمل شبيه ببذرة الانبات تلقى فى التربة ، فتبقى غاية الحصول على ثمرتها مرهونة بتقلبات الجو ، وظروف الانبـــات ٠٠

ثم يرتقى بها العبقرى من هذه الصـــورة الى حقيقة أخرى وجودية تطوى فيها مراحل هذه العملية ، وتبدو فيها الثمرة المهيأة دانية بالفعل . ظاهرة ماثلة ، تراها العين وتدركها الحواس ، فلا تكون حينئذ من عمـــل الحقائق الذى ترتبه الحاسة على الشـــواهد المعقولة ، والقواعد المنطقية مما يعرفه الناس ، فان أدركها النجاح ، فهى العبقرية وهـــو أثرها ؛ وان أصابها الفشل ، فلن يعدم صاحبها الذرائع المعقولة المقبولة يعتذر بهـا عن فشـــله ويبرره ٠ !

فهى اذن تجربة لا أكثر ٠٠ أول من يفيد منها العبقرى المزعوم نفسه ٠٠

ولكن العبقرية المهيأة غير هذه ؛ لأنها حقيقة جوهر هذا المدلول وروحه الذى نبع منه الاسم ، وأخذه عنها الوجود ٠

هى من فطرة النفس ، وجوهر الروح ٠٠

ليست دعوى ولا زعما ، ولا انتحالا ولا وهما ٠٠

تعرفها بأن صاحبها لا يقول : هلموا الى أيها النـــاس فانى عبقرى الزمـــان ٠٠ !

تعرفها بأن صاحبها يبرز اليك ، والى التاريخ ، فى كلمـــة واحـدة بميزان ، لا تدور مع الزمان ، ولا تتشكل كل يوم بلون من الألوان ؛ فاذا قدم لك العبقرى عصارة نفسه ، ومنحك رحيق روحه ، وركب لك من كليهما شرابا سائغا ، وصاغ لك من هذا أملا فوجدت فيه حقيقة يومك ، من أحلام أمسه وأمسك ، فلا تمار فى عبقريته ولا تشك فيها ٠٠ ولكن حاكمه وقل له : من أنت ؟ وكيف نشأت ؟ وكيف عشـــت وكيف تعيش ؟ وما هى سيرتك ودقائق حياتك الخاصة والعامة ؟ ٠٠ واملأ « مخابير تجربتك » من مركبات هــذه العناصر ، واستخلص منها جميعا « مخبارين » : واحـد من عنصر نفســه وروحه ، وواحد من عنصر مبدئه وفكرته وخطته ، فان اتحد العنصران وانتجا وحدة ثابتة متناسقة متحدة ، فقد صدق وصدقت عبقريته ٠ !

ولا تنكر عليه حينئذ أو تحاد عبقريته ، فانك بهذا لن تكسب الا أن تساعدها على الظهور ، وتمهد سبيل الفوز والغلبة ، بل تعقد لها بنفسك وعملك لواء النصر ..

واذا رأيت العبقرى متواضعا فلا تقل ان هذا هو التواضع الذى يتداوله الناس ، بل خذه على أنه التسامى والكبرياء ، فهذا هو التواضع فى حقيقته ومعناه وهو ما لا يعرف الا عند عظماء النفوس : علو يقترن بنزول الى مستوى ادراك الناس ..

وهذا من شأن العبقرى فى صلاته بالناس : أن ينزل الى مستواهم من غير أن يصدم شعورهم ، أو يجرح نفوسهم ، لينقلهم الى سمائه ويرفعهم الى مستواه .. ! فاذا أنكرت عليه ارتد الى كبريائه ، وارتد كبرياؤه اليه ، فلن تدركه حينئذ مهما جد بك المسير .. !

(٦)

وأسمى العبقريات ما تفتقت ــ أى نشأت حالتها فى النفس ــ عن الألم الاجتماعى العام وصداه ، ألم الأجيال المتتابعة لأمم ذاهبة ، وحضارات دراسة متعاقبة ، فليست عبقرية العالم المحدودة ، الا شيئا أو عرضا أشبه بغرام الشهرة فى وضع سام مقبول ، محصن ضد الطعن فيه بشرف المقصد ونزاهة الغاية ــ نظريا فى أكثر الأحيان ، وواقعيا فى أقلها .. ! فهو يرسل اليك عبقريته ، يلقيها فى تجربة علمية أو نظرية رياضية ، أو يودعها بحثا قانونيا أو نحو ذلك ... وهذه مهما كانت ، ومهما تسامت ، فليست ببالغة شأو العبقرية الاجتماعية ، لأن هذه العبقرية الاجتماعية « عبقرية عاقلة » بطبعها ، ولأنها عريقة أزلية توجد نفسها بنفسها لنفسها .

تكونت شرارتها الأولى من اتصال تيارين : سالب وموجب (ألم وأمل)، ولكلا التيارين عناصره ومجالاته .

وقد يجيئنا العبقرى بمذهب اجتماعى فقط ، أو رأى سياسى بحت ، أو فكرة اقتصادية مجردة خالصة ، أو غير هذا وذاك من الجهود الفردية ، فيكون منفذ الوصول اليه ، ويكون السبيل الى معارضته مهيأ سهلا ميسورا ، وكثيرا ما ينتصر عليه العصر وتغلبه أساليبه وتقاليده ، وتتفوق عليه مبادئه وما يسود فيه من المعتقدات والآراء والوسائل المعارضة ، وقد يكون هذا انتصارا غير حاسم ، أو يكون سببه جهل العصر والناس به ، فيظل مغمورا أو مفترى عليه ، فلا يعرفه الا جيل مقبل تدله عليه عدالة التاريخ ، أو أكاذيبه ومنتحلاته التى يصطنعها الناس اصطناعا لاحياء ذكرى « الأموات » فى « حفلات التأبين » ..

ولست أرى قيمة لعبقرى جهله الناس فى حياته ـ فما دلهم على نفسه ، ولا عرفوه بآثاره فيهم ، أو بكفاحه ونضاله ان أنكروا عليه ـ ثم جاءوا بعد مماته متكالبين يأخذون عنه المثل ويقبسون من سيرته المضيئة قبسا من النور ٠٠ !!

قضية فى الحق مقلوبة ، وان يكن لا يعنينا الآن بحثها ، وهو داء عضال انتشر فى المشرق حتى أصبحنا نعيش مع الأموات كما يقولون ٠٠ والحمد لله على أن عباقرة الاسلام كانوا أبدا ـ وفى كل العصور ـ من الصنف العالى « فى الحياة وفى الممات » ، أقاموا الدنيا وأقعدوها فى حياتهم ، وأعجزوها وانحنت لهم رؤوس عباقرتها ، وعنت جباهم بعد الممات ، فهم أبدا أحياء ٠٠

(٧)

وللعبقرية أصحاب المبادىء السامية ورجال الدعوات الحية والفكر العالية نوع من « الجاذبية » ، وهى خصوصية تبدو كسيال كهربائى يصلها بالناس ، ويتجلى أثره فى هذه الصلة الروحية الاجتماعية التى تقوم بينهم وبين هؤلاء العباقرة ، وهذه الجاذبية هى من سر العبقرية ، وهى بشير نجاحها مادامت حقا عبقرية ٠٠ ومن أجل ذلك فانه اذا أصغى العبقرى لسكون الليل فويل للنهار ، واذا أرخى سمعه لهمسات التاريخ ، ونداء الأبد ، وسر الاجيال ، فويل للدنيا ان لم تحالفه وتحيل هذا كله صيحات تأخذ منها ، وتخط بها مسالك ومعالم عملية تقيم عليها مستقبلها ٠

فاذا كانت العبقرية هكذا ٠٠ وجاءت باعثة معيدة ، آخذة من حقائق خالدة حية لماض خالد ، وتتلقى من صدى صوت قديم لتاريخ مجيد ، ومبادىء حية لماض حى موجود فلن يستريح العبقرى الا باقامة هذا البناء واعادته ، فهو اذن مهندس حاذق بارع ، عمله أن يصرف أمر هذا البعث وهذا التجديد تصريفا تشرف عليه ارادة مطلقة حازمة مصممة لا تعترف بالعقبات ٠

وهذا هو ايمان العبقرى ٠٠ وهى اذن حالة تقوم بنفس العبقرى فتنشىء وتنظم وتوجد وترسم : « مبدأ وخطة » ، يعززهما الايمان ، ويسبقهما ويتقدم عليهما ٠

هذا هو بناء الحياة فى العبقرى ، وهذا هو بناء العبقرية فى حياته ، وهو سر وجوده ووجودها معه ؛ فاذا قلت لك : عبقرية التاريخ فافهم عنى خلاصة ما وصلت اليه الانسانية بعدما بلغت رشدها ، مما عرفه التاريخ مبدأ وخطة وايمانا ـ (جسما وعقلا وقلبا) ـ حلت فيه روح منحته الحياة ، أى بعثته وجددته وأعادته ؛ وجاء اسباغ هذه الروح من نفس ملهمة .

عنصر عبقريتها من نفس عنصر عبقرية التاريخ هذه ، فهما صنوان متحدان مؤتلفان منسجمان ..

فاذا اجتذبتك الحقيقة الى تعرف قصة شابنا مع أمله ، وقصة أمله معه ، فخذ مفتاحها من مجالات تيار هذه الكهربائية الدائرة فى فلك الوجود ، وما يقع بينها من تجاذب وتوافق وانسجام .

(٨)

شاب طاهر صفا قلبه وكرم منبته ، فزكا منه الروح والبدن ، « بدن وروح »ذلك يسبغ الروحانية ويفيضها ويشعها ويشيعها ،وذلك يمد الروحانية بماتحتاج اليه لتحقيق أحكام التوازن المطلوب ، ركضت هذه النفس بهذا التأليف والتآلف المتوازن الى غيابات الماضى ، فائتلفت العبقريتان .

اجتذبها الجسم والعقل والقلب (المبدأ والخطة والايمان) ، فحلت فيه أو حل فيها ، فوقع هذا الائتلاف ، وقد هيأ له طيب العنصرين وتماثلهما .. وأنا لا أعتنق المبدأ من المبادىء أو أفنى فى الخطة ، الا اذا ائتلفت معها روحيا ، وهدتنى الفطرة السليمة اليها ، فأفنى فيها حينئذ ...

فاذا سألت شابا : ما هى آمالك ؟ فقال : اننى قد جددت فى نفسى بالفعل ما نسيه الناس منذ قرون ، وسأبعثه وأحييه فى حياتهم ، فلا تقل ان هذا من صنع العبقرية وحدها ، أو من نبوغ الذهن وحده .. ولا تقل ان هذا من ثمرات القراءة والدراسة وحدهما ، أو من عوامل البيئة الخاصة والعامة وحدها ، ولا تقل كذلك انه من الهام النفس والروح ومن عملهما وحدهما ، ولكن أرجعه الى كل تلك الأسباب التى سبقت الاشارة اليها مجتمعة ، فانه كما يقول الامام محمد عبده (١) : « فان تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدرا لكل نظام ، كان ذلك عنوانا على أنها أكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها » .

قل هذا فيما تقوله ، وقل أكثر منه فلن تجد هذا الشاب فى مستقبل حياته ومن أول أدوار نشأته ، أقل من عبقرى فرد ، يحتاج اليه العصر ويناديه الزمان ..

وليأتينك نبؤه بعد حين ...

★ ★ ★

---

(١) رسالة التوحيد ص ٣٣

— ٣ —

مثـل أعلى

عرفه أقرانه شابا وادعا ساكنا ، سمح النفس واضح السمت ، حلو العشرة عذب الحديث ، وعرفوه متميزا بينهم لا سلطان لعوامل البيئة ومغريات العصر عليه : فهى تلح عليه وتتابعه بزخرفها وزينتها فلا يزداد الا اعراضا عنها وازورارا ، لأنه جعل بينه وبينها حجابا من زكاء النفس ، وصـفاء الروح ٠

صان الله له شبابه نقيا كالمزنة البيضاء ، وحفظ عليه قلبه صـافيا صفاء النور ، فهو يعيش لغـايته ولمجتمعـه ، ويعمل لطمأنينة روحه وراحة ضميره ، فنسى بهذا كل ما يذكره الناس عادة ، وما يسعون اليه ويجدون فيه ويكدحون فى سبيله ، فكان طبيعيا أن تبرز الناحية الانسانية فيه ٠

هو الآن بينهم فى الرابعة من سنى حياته الدراسية بدار العلوم ، وقد قضى حياته فيها وفيما قبلها فذا ممتازا ، أمضاها على غير ما ألف الطلبة أن يصرفوها فيه ، ويؤثروها به من حياة اللهو والاقبال على ما لا يفيد ، واراقة الوقت فيمـا يضر ، وانفاقه فيمـا لا ينفع من ارضـاء حاجات النفس ، والاستجابة لعوامل الاغراء التى تسـلح بها المجتمع ، وأخذ منها زخرفه وزينته ، فهى تبارز الشاب وتناديه وتقتحم عليه كل مكان معترضة ملحة ، تفتنه عن ربه ووطنه وواجبه ومستقبله ، وتلهيه عن كل ذلك ٠

عرفوه منصرفا عن هذا : صرفه عنه قلب كبير مشتغل بما لا يشتغل به الناس ، ولا يعرفون ولا يخطر لهم ببال ، وصرفته عنه نفس عالية ، على صلة وثيقة بعالم علوى ربانى يفىء عليها التقوى ، ويعزف بها عن موارد النزوات ، ومواطن الشـبهات : فكان فى مدرسـته وفى مجتمعه فذا فى شخصيته المتميزة ، وفى نبوغه وثاقب فكره ودماثة خلقه وأدبه الجم وضميره العف وسريرته الطاهرة ٠

درج متميزا فى التفوق العلمى حتى ارتقى فى ذلك القمة ، وبلغ الشأو المرموق الذى لا يدرك ولا يجارى : فهو الأول فى الفصل وفى المدرسة ٠٠

وما وجد ميدان منافسة شريفة ، أو حلبة نضال كريم أو مطلب نبيل ، أو لاحت قمة غاية عالية الا وهو السابق اليها ، لا يصرفه عنها ــ أو عن واجبه ومثله الأعلى فى أمتع أيام العمر ــ نزغة شباب أو شهوة نفس ، أو حرص

على متاع من أمتعة الدنيا ، مستلهما فى جده ودأبه ونضاله من ذكاء عقله ومن وحى فضائله وصوت ضميره وهتاف وجدانه ، فكان دائما نصب العيون ..

كبير القلب ، كبير الأمل ، عظيم النفس ، قوى الايمان ، ساد بنفسه وسادت به ، وغرس لها وغرست له فى القلوب وفى حنايا الصدور حبا وثيقا ومنزلا رحيبا ، وهو فى كل عام وفى كل امتحان وفى كل زحمة نضال ، سائد متوج مظفر شريف مهاب ، لا تأخذه للظفر والنجاح خفة ومرح ، أو يميل به عن الثبات والاتزان بطر أو نزق أو غرور .. انما هى همة نفسه ، وهو الايمان بالواجب والمثابرة على العمل والجد المتواصل فيه والانكباب عليه ، وهذا مع صغر جسمه وعدم تناسق قوامه وما يبذل من مجهود ضخم كبير ، ويعجب الناس من حوله ، ويعجب أساتذته وزملاؤه ومخالطوه ، وقد عرفوا هذا فيه طبعا ثابتا وسجية لازمة وخلقا مميزا .

يا لله .. أليس من شأن هذه المفاتن أن تجد سلطانها على شاب فى مقتبل عمره ، وقد تهيأ له من أسباب الحظ ما لم يتهيأ لغيره ؟ . لم تألف أوساط الطلبة وحياة البيئات المدرسية هذا الخلق المتين ، وهذا السلوك المستقيم ، ولم تعرف شابا فى مثل هذا النبوغ والتفوق وهذا التقدم المستمر وهذا النجاح المتواصل ، يتجاهل هذا الجاه المقبل العريض ويعرض عنه .. لأنه لم يطلبه ولم يسع اليه ولم يتعلقه ، وانما هى صفات كبيرة فى النفس ، وعلو غير مألوف ، وهى غاية كريمة وآمال جسام ، غير ما يطلبه الناس ويقبلون عليه ، وغير ما يشتهون ..

والا فما شأن هذا الشاب ؟ ما له فى عزلة عن هذا العالم بميزات نفسه ، وآمال قلبه وملهمات روحه ، ما له عزوف عن هذه الدنيا وكأن له فيها مهمة أخرى ؟ فهو شاعر بحقيقة مركزه فيها ومنزلتها منه ، محس بأن صلته بها أعمق غورا ، وحياته فيها أكرم غاية مما يسعى اليه الناس ويجدون فيه مطالب نفوسهم وغايات حياتهم .

فما رضع فى طفولته ، ولا شب فى حجر والديه ، ولا سيرته وهو يافع ، ولا غلبته أو قهرته وهو شاب هذه المطامع وهذه الأغراض التى تنتهى بالشاب وتنزع به الى أن يعيش لنفسه ولذاته ، وتحبس جهوده فى العمل لنيل المجد الكاذب ، والشهرة و (البطولة) الزائفة على حساب الناس والمجتمع والغايات الرفيعة النبيلة ، ولكنه صنع على عين الله طفلا ويافعا ، واصطنعه الله لنفسه شابا مدركا فحماه ورعاه ، وأودعه حكمة المستقبل ، وأراد به وله أمرا ، فألهمه قبسا من هداية لفكرة مستمدة من روحه ، تؤدى فى الأرض رسالة السماء ، وتمد الجيل بخلاصة الفضائل التى لم يعرف الوجود أسمى منها ولا أرفع ، تسطع أضواؤها فى الدنيا ، وتشق أجواز الفضاء وتقول : « ها أنا حية فى انسان حى منظور » .



صورة تذكارية لبعض طلبة دبلوم دار العلوم سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧ م) وقد وقف الشاب « حسن البنا » فى الصف الأخير ـ تحت شارة الاخوان ـ وظهر فى الصف الأمـامى عميد الدار المرحوم محمد بك السيد وحوله الأساتذة المرحوم الشيخ عبد الفتاح خليفة والشيخ محمد فخر الدين والشيخ أحمد يوسف نجاتى .

وما المثل العليا ؟ ما الأهداف السامية الكريمة ؟ ما المطالب النبيلة والأهداف المجيدة ؟ أهي رموز وألغاز ؟ أم هي خيال الكتاب والشعراء عن حياة الملائكة أو الجن ، أو عن حياة عوالم أخرى منظورة أو غير منظورة ؟... انها لا شيء الا الحقائق العملية والنماذج الحية تمشي بين الناس ، انها هذه المثل الواقعية في حياة الناس ، وهذه النماذج المنظورة المشاهدة الملموسة ، والمقروءة في السيرة العملية لذلك الصنف الفاضل المختار من الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا .

وليست هي الوهم والخرافة ، أو الأسماء التي يغرب سماعها في آذان الناس ، من طول ما أوقعتهم فيه الحيرة ، ورانت على قلوبهم به الشهوات ، فقتلت المثل العليا في عقولهم وضمائرهم ، وابتذلتها في نظرهم وتقدير نفوسهم ، وأحالتها الى معنى فوق ادراك العقول ، وفوق طاقة الحواس وما تؤديه من الأعمال الارادية العادية المألوفة ، فاذا رأيت أخلاق الملائكة في مثل حي رائع منظور يمشي على الأرض ، ويتقمص جسدا انسانيا في وقت حاد فيه الناس عن المثل العليا واختل ميزان الفضائل الرفيعة ، فلا تستغرب هذا أو تعجب منه ، فقد فرغ الناس قديما من تحديد قيم الفضائل الانسانية ورسم خطوط المثل العليا ، وقد قدم الاسلام منذ ١٣٧٥ سنة نموذج النفس الانسانية الفاضلة ، ورسم منهاج تربيتها وطريقة اعدادها ، ووسائل تكوينها وبنائها ، فقدم بذلك هذا الأنموذج نظريا وعلميا،ثم عمليا بمن عرفنا من رجال الاسلام في مثلهم الأعلى ، فاذا أردت أن تتعرف الى نفس شابنا فخذ طريقة مدرسة التربية الاسلامية المحمدية ، فهي التي خرجته ، وهي التي تعهدته وربته ، وهي التي قدمته لك مثلا أعلى في طفولته وشبابه وفي كل أدوار حياته ، هي المبادىء والقواعد ، وهي الجادة المستقيمة والاستقامة على أمر الله . خذ نفسك بها فتتحرك فيها دوافع الخير ، وتلهمها الرضوان والتقوى ، وهي الفطرة السليمة المتجهة الى الخير المحض بهداية الله ، اذا تعهدتها فقد حفظتها وصنتها ، وهي التي تكون غاية الفرد بعد أن يتربى الفرد في أحضان هذه الغاية ، والناس كما يقول الامام الغزالي : « أشتات متفاوتون كمعادن الذهب والفضة وسائر الجواهر ، فانظر الى تفاوتها وتباعد ما بينها صورة ولونا وخاصية ونفاسة ، وكذلك القلوب معادن لسائر جواهر المعارف فبعضها معدن النبوة ومعرفة الله تعالى ، وبعضها معدن للشهوة .. الخ » .

ولكن النفس بفطرتها الأولى خاضعة حتما لتوجيه « قانون العهد والفطرة » ، وهو قانون تنبع جاذبيته من عمق عميق في سر الأبد ، وتجري نصوصه في مسرى دقيق عريق من شرايين الأزل ، وهو يؤثر في النفس ويتبادل واياها التأثير والتأثر ، فيرتقي بها أو ترتقي به الى غاية ينتجها تكافؤ هذا التفاعل الذي تتركب منه الصفات الانسانية وتتألف وتتألف ذراتها في الفرد الواحد ـ التكافؤ اللازم من تدافع القوتين أو تعاضدهما : تعاضدهما في الخير وتدافعهما في عكسه ، وهذا التأثير والتأثر يكون للعهد والمفطرة بقوة قانونهما الطبعي الغريزي النافذ الذي لا يقاوم ، وللنفس

بقوتها الكسبية ، والأول هو السابق بداهة ، ومن ثم كان لهذا القانون فعله وأثره حتما ، وانما أقصد بالنفس هذا التطور ، أى بعد ما صارت وآلت اليه بعد تأثرها بالقوات الخارجية أو الكسبية وما فى حكمها ، مما يحيط بها عادة ويؤثر فيها من مختلف العوامل ، فاذا سارت النفس مدفوعة بقوة هذا القانون ، وعاضدتها قوة كسبية هى الخير المحض ، كانت نتيجة هذا التكافؤ سموا هو ما يعرفه الناس بالفضائل العملية ٠

وقد وضع الاسلام للنفس الانسانية ، ما يضمن بقاء هذه القوة الكسبية دائما بعيدة عن النزعات والأهواء ، وبمنأى عن المفاسد والشرور والآثام ، لتكون محصورة أبدا فى نطاق الخير ، فهى بفطرتها الأولى خيرة تتجه الى الخير وبما وضعه لها الاسلام منقادة الى الخير ، منجذبة اليه ، ولم تصل النظريات الفلسفية قديما وحديثا ، ولا استطاع الفكر الأخلاقى بما استحدث من قواعد أن يجارى الاسلام فى هذا السبيل الذى قوم به النفس وغرائزها بما وضع من شرائع ومقومات ، وهذا مسلم به ٠ وليست الافاضة فيه مما يدخل فى دائرة بحثنا ٠

★ ★ ★

هذا ٠ ثم ان قانون العهد والفطرة ، يستمد وجوده من أصل قدسى ربانى فى الآية الكريمة : « **واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين** » (١) ٠ وفى الآية الكريمة : « **انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان** » ٠ (٢)

ويستفاد من هذا أن قانون العهد والفطرة يعمل ويؤثر فى النفس الانسانية بشعبه الثلاث : عهد الأزل ، وعهد الفطرة الاولى ، وعهد العقل ـ الذى هو عهد الأمانة فى الآية ـ أى التكليف الشرعى ـ وهذه الشعب هى عنصر الفضل فى الانسان ، ومناط التمييز ، وعماد التكريم ، الذى تضمنته وقررته الآية الكريمة : « **ولقد كرمنا بنى آدم** » (٣)

ويصل بنا هذا كله الى أننا حين نقول هذه نفس اسلامية نموذجية ، خرجتها مدرسة التربية المحمدية العليا بعد أن مرت بأدوارها الأولى ، ومراحلها العملية ، وبعد أن رتعت فى خمائل رياضها ، اننا اذ نقول هذا نتحدث عن واقع موجود معروف ، يؤيده العقل ويسنده العلم ، وترعاه

---

(١) الأعراف : ١٧٢ — (٢) الأحزاب : ٧٢

(٣) الاسراء : ٧٠

التجربة العملية لحقيقة الواقع الملموس المنظور ، وفى وارف هـذا الظـل الظليل ، من صلة عريقة النسب بالأصل المزكى ، والمحتد الأثيل ، والارتباط الدائم الوثيق بالمدرسة المحمدية القرآنية ، وفى كنفها ورعايتها ، وخمائل رياضها ، نشأ شابنا نشـأته الطيبة الطاهرة السليمة ، التى لم يفارق الجيل بعد معاصروه فيها ولا عارفوه ، وهى قصة حياة ستجد نفسك فى شـــذا عرفها بعد حين ٠٠٠

★ ★ ★

— ٤ —

أمل فى منهاج ومنهاج من أمل

(١)

دخل الأستاذ (١) حجرة الدراسة على ما جرى عليه الأساتذة عادة ، وقطع الوقت مع طلابه فيما ألفت الحياة المدرسية أن تئد فيه هذه الســاعات الغالية من ساعات العمر ، ساعات التحصيل لاقامة المستقبل ، والقاء الحجر الأساسى الأول فى بناء الحياة ، الساعات التى لا يفطن الناس الى خطرها ، وكبير قيمتها وجليل قدرها الا بعد أن تتبدد وتفلت من أيديهم ، وقد قطعوا مراحلها على هامش الحياة الذى له يعيشون وفيه يكدحون ٠

وغادر الأستاذ حجرة الدراسة ٠٠ وقد ترك لفراغ طلابه موضـــوع انشــاء يقضون فيه وقتهم ويدربون خبرتهم وملكاتهم ، ويقفون على مدى سعة آفاقهم :

« اشرح أعظم آمالك بعد اتمام دراســتك وبين الوســائل التى تعدها لتحقيقها » موضوع مألوف مشـهور ، لا يكاد يخلو عام دراسى منه فى كل مدرسة وفى كل مرحلة دراسية ، ولا يغادر ذهن أستاذ من الأساتذة كلما قام بنفسه حصر الموضوعات الانشـــائية التى يعدها لطلابه ، ولعلك اذا أردت الحصر الدقيق فلن تجد طالبا مصريا مذ عرفت مصر المدارس ، الا وقد عرض له هذا الموضوع ، وأعمل فيه فكره وسرح ذهنه وأفرغ آماله ، فكتب ما أوحته اليه نفسه وما شغلت به وشغف من آمال ٠

ألقاه الأستاذ أو اختاره من غير أن يلقى اليه بالا ، ومن غير أن يدور بخلده أنه سيكون له فى الناس ومع التاريخ والأجيال أمر خطير وشأن كبير ،

---

(١) هو الأستاذ أحمد يوسف نجاتى بك الاستاذ بدار العلوم سنة ١٩٢٦ ٠

وتلقاه الطلبة فلم يحفلوا به ولا منحوه انتباههم أو أفردوا له عناية خاصة ، بل تلقوه كما يتلقون أى موضوع آخر سواه ، وما ظنوا — أيضا — أنه سيكون بداية عهد جديد فى تاريخ الانسانية ·

وما عسى أن يكتب الشاب وهو على مفرق الطرق من حياته ، وعلى ضوء فجر حياة جديدة ومستقبل لامع يلوح فى أفقها ، وينتظره ويجتذبه ويلح عليه ويناديه ، انها الوظيفة والمركز الشخصى المهاب ، والحيثية الاجتماعية كما يسمونها ويسعون اليها ويذوبون هياما بها ؛ انها هذا ·· ولا سواه فيما ألفت أهواء الناس وميولهم ، وما اتجهت اليه أنظارهم وتعلقت به آمالهم، وفنيت وتلخصت فيه مثلهم فى الحياة ، فارتاحوا اليه واطمأنوا ، وسكنت نفوسهم واغتبطت قلوبهم ، لأنه هو وحده الحلم الذى يداعب جفونهم ·

وتمت هذه العملية آلية ميكانيكية عند جميع الطلبة ، وسجلت حقائقها المعادة المتكررة الأوراق ، وانك لا تكاد تحس فارقا كبيرا بين جميع الموضوعات التى كتبت ·

* * *

جلس شابنا فى حجرة سكنه المتواضعة فى ليل هادىء يكتب موضوعه كطالب من الطلبة ، وماله لا يكتب كما كتب الطلبة سواه ؟ أفليس شابا مثلهم يعيش فى العصر الذى يعيشون فيه وتتحرك فى نفسه الآمال التى تتحرك فى نفوسهم ؟ فما باله لا يتجه ذهنه الى ما اتجهت اليه أذهانهم ، ولكن تتحول أفكاره الى الجهة التى طالما تحولت اليها من قبل ·· ها هو يمتشق قلمه ويقبل على الكتابة متحفزا كمن يتأهب لخوض معركة حامية النضال ·· ! وانها لمعركة : سرح ذهنه فى ساحة شاسعة مترامية من آماد التاريخ وأحقابه ، واستحضر بذاكرته الواعية كل ما كانت تستوعبه ، فأشفت له روحه الطاهرة المطلقة ما كان يشعر به ، وأضاءت له جوانب العالم الذى كانت تعيش فيه نفسه ، وأزاحت أستار الحقيقة التى انغمرت فيها روحه ، وسريعا ما طغى على قلبه فرح مفاجىء لم يفهم له مبررا فى هذه اللحظة ·

وانقضت سحابة من وقت استقرت فيها أفكاره ، وهو لا يكاد يرفع بصره عن الورق الذى أمامه ، وكأنما هو لا يدرى شيئا — يمكن أن يحد — عن الجو السامى الذى وجد فيه نفسه فى تلك اللحظة ·· فلاذ بالصمت واعتصم به ؛ ثم لاحت على فمه ابتسامة مشرقة انبعث مع ضيائها جو مرح وسرور ، شعر معه بأن الدنيا بأسرها تبتسم له ، وأنها تحتشد بجواره سعيدة ، تنعم بالاصغاء الى صرير قلمه ، وكأنه فى مسامعها صوت ذهبى ينطلق فى حنان ، وأن يده تبعثه من أوتاره أنغاما شجية ·· !

فحلق بنفسه فى هذا الجو يسكب آماله ويفرغها ، وقد سعى اليها فى موكب نورانى ليس للظلام فيه وجود ···

(٢)

قال لنفسه وهو يحاورها فى جلسته تلك وحاله هذا :

اليك عنى أيتها الحياة الدنيا بما فيك من متاع ، فلا مكان لك فى هذا الموكب فسأكتب آمالى لله وللتاريخ والأجيال ، فلا عمل لك معى ولا مهمة عندى ، وها هى ملائكة الرحمة حاضرة ، وانها لمائدة الرحمن تحفها الأرواح الطاهرة وتحتشد لها دوافع الخير ٠

فاشهد يا زمان ٠٠ وسجل يا تاريخ ٠٠ واكتب أيها القلم ٠ وأخذ فى تحريك قلمه بعد أن فرغ من مناجاة نفسه ولكن القلم لم يتحرك ، وأبى أن يكون آلة صماء مطيعة وهو يشهد بوادر اشراكه فى ملحمة لا يدرى شيئا عن مقدماتها ونتائجها ، وكأنما هو يقول فى صمته وفى نزوعه الى الاباء والعصيان : ايه ٠٠ ماذا أسمع ؟ ملائكة الخير ومائدة الرحمن ، وسجل يا تاريخ واشهد يا زمان ٠٠ ! أى عمل خطير هذا الذى ستدفعنى اليه يا صاح وتخوض بى غمراته ؟ أفلا يجمل بك وأنا صاحبك الأمين ألا ترهقنى من أمرى وأن تنير لى هذا السبيل ؟ ٠ أهو موضوع « انشاء مدرسى » يكتبه طالب فى المدرسة ؟ أو موضوع « انشاء عالمى » و « منهاج اصلاحى » يكتبه مصلح اجتماعى عالمى ٠٠ ؟!

ولم يزد الشاب على الاستماع لاحتجاج قلمه فى صمت منصرفا الى آفاقه العالية المترامية وكأنما يقول لقلمه : « **ان تبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا** » (١) ٠ وتحرك القلم ملبيا فكتب :

« أعتقد أن خير النفوس تلك النفس الطيبة التى ترى سعادتها فى اسعاد الناس وارشادهم ، وتستمد سرورها من ادخال السرور عليهم ، وذود المكروه عنهم ، وتعد التضحية فى سبيل الاصلاح العام ربحا وغنيمة ، والجهاد فى الحق والهداية — على توعر طريقهما ، وما فيه من مصاعب ومتاعب — راحة ولذة ؛ وتنفذ الى أعماق القلوب ، فتشعر بأدوائها وتتغلغل فى مظاهر هذا المجتمع ، فتتعرف ما يعكر على الناس صفاء عيشهم ، ومسرة حياتهم ، وما يزيد فى هذا الصفاء ، ويضاعف تلك المسرة ، لا يحدوها الى ذلك الا شعور بالرحمة لبنى الانسان ، وعطف عليهم ، ورغبة شريفة فى خيرهم ٠٠ فتحاول أن تبرىء هذه القلوب المريضة ، وتشرح تلك الصدور الحرجة ، وتسر هذه النفوس المنقبضة ، لا تحسب ساعة أسعد من تلك التى تنقذ فيها مخلوقا من هوة الشقاء الأبدى أو المادى ، وترشده الى طريق الاستقامة والسعادة ٠٠٠ » ٠

---

(١) الكهف : ٧٠ بلفظ : « فان اتبعتنى ٠٠٠ »

(٣)

كتب القلم هذه العبارات والكلمات ، وانطلق يثبت نصوصها وحروفها على الورق مسرعا ، وعندئذ توقف مليا يزهو ، ويهتز فرحا وهو يقول :

لقد سخرتنى فى خدمة الرحمن حقا يا صاحبى ، لقد أدركتنى ريح الجنة من حديثك ، فأنا منه فى روح وريحان ·· وهى اذن غاية ومهمة ، لم يعرف الوجود أسمى منها ولا أكرم ، ولم نألفها نحن معشر الأقـلام منكم يا بنى الانسان ، وخاصة فى هذا الزمان ·· !!

فنفسك لا تحفل بها ، ولا تأبه لها ، ولا تجد حقا فى ذكرها ·· هـذا القلب الذى تتفجر الرحمة من جوانبه ، من يكون صـاحبه وحامله ؟ فمن أنت وما شأنك ؟ وما هذه القسمات النورانية التى تحلى وجهك : قسـمات التقوى ، وسمات الصالحين ؟ وما وضاءة ذلك النور فى جبينك الذى ينطق عن قداسة وعزم ويقين ، ويلمع عن ايمان بالعقيدة ، واصرار على الجهـاد فى سبيلها ، والفناء فيها ، وهذه العين البراقة الجريئة ، تشع بحماسـة الدين العميق ، والنظر الدقيق ، فهل هى شرعة جديدة فى الأرض . سـمت ببنى الانسان فى شخصك ، فنزعت من قلوبهـم حب النفس ، وقضت على الأنانية ، التى أوردتهم موارد الهلكة والتلف ، فما نطق أحدهم بكلمة ، أو شرع فى أمر ، أو هم بعمل من الأعمال الا وقال : « أنا ·· !! » .

أما المجموع ·· أما الانسانية ·· أما المجتمع ·· فلا حساب له الا حين يكون مطية ، وحين تعوز الحاجة ليتسلق عليه للوصول الى المطامع والمنافع ، فجاءت هذه الشرعة ، وجرى هذا المنهاج على قلبك للقضاء على هذا كله ، والسمو بأغراض الناس ومنازعهم ، ومقاصـدهم فى حياتهم الفـردية والجماعية ـ فما أنت الا خير ورحمة لهذه الدنيا · فهلا خبرتنى بخبرك ؟

لقد سجلت وكتبت ، وان بى لتلهفا مكبوحا على معرفة العاطفين على الانسانية المعـذبة وضحاياها ، وانى لألمح علائم الجـد بادية فى قـولك وعزمك ، وانها فكرة مخلص صادق ، وليست كتلك الخواطر التى أرسلها غيرك ارسالا ، ممن رددوا هذا الهتاف العذب ، وأذاعوا هذا اللحن الجميل الجذاب ، وهم يحسون بأخطائهم وأخطاء مجتمعهم ، ويشعرون بضـلال الانسانية معهم وحاجتها الى الاصلاح والهداية ، ولكنهم لم يزيدوا على أن أرسـلوها كلمات ينفسـون بها عن آلامهم ، أقاموهـا تمويهـات يعبرون عليها الى أمجادهم الشخصية ، فاذا بلغوها وقضوا لباناتهم ، انقطعت الصلة بينهم وبين الانسانية وهذا الماضى ، وعاد ذلك الحلم من الآمال ، الذى كانت تحلم به يدهم ، فاستحال سرابا ، وخلف يأسا قاتلا ، وأعقب داء عضالا ، وما أنت أبدا من هؤلاء ، فان فيما تقول لحنا ملائكيـا ، لا تلهمـه الا نفس طاهرة ، وقلب صادق الاخلاص ·· فهلا خبرتنى بخبرك ؟

ولم يزد الشاب على الاستماع فى صمته وانصـــاته ، وانصرافه الى آفاقه المترامية العالية ، يتناول من معانيها ، ويأخذ من معينها هذه الخطوط والأشعة النورانية ، التى تأخذ طريقها الى ذهنه فى أمواج تستحيل رويدا رويدا الى كلمات ، يميلها بحذر وأناة ، ويبين عنها بثبـــات وســـكون ، ويصـــوغها بعد أن يزنها بميزان الفكر الدقيق ، فيجليها فى يسر وعذوبة وحسن أداء ، وفى يقين من يملى منهاجا عمليا سيوضع تنفيذه بين يديه ، فلم يملك القلم الا أن يقول فى هذا السكون :

ما أجد منك يا صـــاح الا مطلق الصـــمت ، فأنت اذن تقول لى : « **ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا** » (١) ، واذن : « **فلا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا** » (٢) · قال هذا وتحرك ليكتب :

« وأعتقد أن العمل الذى لا يعدو نفعه صـاحبه ، ولا تتجاوز فائدته عامله ، قاصر ضئيل ، وخير الأعمال وأجلها ذلك الذى يتمتع بنتائجه العامل وغيره ، من أسرته وأمته وبنى جنســه ، وبقدر شـمول هذا النفع ، يكون جلاله وخطره ، وعلى هذه العقيدة سلكت سبيل المعلمين ، لأنى أراهم نورا ساطعا يبدو فيستنير به الجمع الكثير ، ويسرى فى هداه الجم الغفير ، وان كان كنور الشمعة تضىء للناس باحتراقها ·· »

وهنا يقف القلم وهو يصـيح بصـاحبه : « لقد بلغت بى ما لا يطاق السكوت عليه ، وتماديت فتجاوزت الحدود المعقولة يا صاحبى ، وذهبت الى ما تحار فيه أفهام هذا الزمان ، وان حق الصـحبة ليحتم عليك أن تخبرنى بأمرك ، فما أنا بمستطيع مقاومة اغراء محاسن روعة قولك ، وحلاوة كلامك ، وما أملك الا الاذعان لمشيئتك ··· !

أتوسل اليك الا ما أخبرتنى ، فأنا شاعر بالراحة فى مصاحبتك ، وكأنما أنا الآن أتحرك بمحض مشيئتى ، فهلا أطفأت لهفتى ، وأشبعت رغبتى ؟ أراك أفنيت نفسك فى المجموع ، وقطعت عهدا على نفسك أن تكون لمجتمعك خادما ومنقذا ، وأراك تتفجر الرحمة من قلبك ، وتســيل من نبع روحك ، فأى يد صنعتك ، وأى عين رعتك وسهرت عليك ، ومنحتك ما يرى عليك من أمارات الجد الصارم ، وما ينطبع على وجهك من حركات الجاد المصمم ؟ ·

---

(١) الكهف : ٧٥
(٢) الكهف : ٧٣ بلفظ « لا تؤاخذنى »

وساد سكون قصير ولكنه عميق ، قطعه صرير القلم وهو يتحرك ليكتب ولسان حاله : انك اذن يا صاحبى تقول لى : « **انك لن تستطيع معى صبرا** ·· !! » (١) ، فلأكتب اذن طاعة لأمرك ، وكتب :

« وأعتقد أن أجل غاية يجب أن يرمى الانسان اليها ، وأعظم ربح يربحه أن يحوز رضاء الله عنه ، فيدخله حظيرة قدسه ، ويخلع عليه جلابيب أنسه، ويزحزحه عن جحيم عذابه ، وعذاب غضبه ، والذى يقصد الى هذه الغاية يعترضه مفرق طريقين ، لكل خواصه وميزاته ، يسلك أيهما شاء :

أولهما ــ طريق التصوف الصادق ، الذى يتلخص فى الاخلاص والعمل ، وصرف القلب عن الاشتغال بالخلق خيرهم وشرهم ، وهو أقرب وأسلم ·

والثانى ــ طريق التعليم والارشاد ، الذى يجامع الأول فى الاخلاص والعمل ، ويفارقه فى الاختلاط بالناس ، ودرس أحوالهم ، وغشيان مجامعهم ، ووصف العلاج الناجع لعللهم ، وهذا أشرف عند الله وأعظم ، ندب اليه القرآن العظيم ، ونادى بفضله الرسول الكريم ؛ وقد رجح عندى الثانى ، بعد أن نهجت الأول ، لتعدى نفعه ، وعظيم فضله ، ولأنه أوجب الطريقين على المتعلم ، وأجملهما بمن فقه شيئا «**ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون** » (٢) ·

(٥)

ويعاود القلم زهوه ودلاله فيتوقف وهو يقول :

لقد أوضحت نسبك يا صاحبى ·· فهى اذن فكرة السماء ، وهى طريق المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، هى المدرسة المحمدية القرآنية ، وهاهى نفحاتها تهب من جديد على الانسانية بعد طول انتكاسها ، فهى صرخة غريبة الآن ، بعد اذ نسى الناس طريق الاعتصام بهذا الحبل المتين ، وضلوا عن مقاصده السامية التى تهدف الى تزكية النفس ، وتصفية الروح ، وعلاج البدن بقتل أنانيته ، والتغلب على ماديته ، ومقاومتهما عن طريق معرفة الخالق ، وتوثيق هذه المعرفة ، لاقامة صلة بين الفرد ومجتمعه أساسها الربانية التى تكبح جماح النفس ، وتعصمها عن أن تميد أو تترنح على أودية الشر ، وتنظم طريق التعاون بين الناس ، وهذه الاجتماعية الفسيحة الرحبة نسيها الناس وضلوا عنها ، وأقبلوا على طريقة واحدة هى « العزلة » ، وتجنب مخالطة الناس ، وما تنبه واحد منهم الى الطريقة

---

(١) الكهف : ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٥ (٢) التوبة : ١٢٢

الثانية حيث كان ينبغى أن يعـــد الدواء حسب حـــالة المريض ، وليتهم لم يغالوا فيها ولم يتوسعوا ويتفننوا فى ضروبها وابتداع الأسماء لها ، حتى صار أمرهم فى ذلك نكرا لا يتفق مع شرع أو عقل أو دين ٠

عجبى من أمرك يا صـــاح : هو نسب كريم ، وأصـــل عريق وطريق واضحة ولكن كيف السبيل فى هذا العصر ، الذى تقوده المادية الجامحة ، وأنت ترى الدنيا كلها تمـــوج بالفتن ، وتزخر بالمغريات المهلكات ، وتصطرع فيها الأفكار والمذاهب ٠ والقلوب قد أزاغتها الغفلة ، وصرفتها الغـــواية عن أنوار الهداية ٠

صوفية اجتماعية ، وتربية اسلامية عسكرية ٠٠

مذهب جديد ، لا يعرفه الناس على هذا المنهج العملى المنتج المفيد ، وما أحسبهم سيقرونه ، وما أحسب كذلك أن متصوفة عصرك سيؤمنون به ، أو ترتاح نفوسهم اليه ، على أنهم لو فكروا قليلا لعرفوا أن الشرائع والنظم ، انما جاءت لتنظيم التعامل بين الناس ، وتحقيق منفعة المجموع كله ، ولا قيمة لشريعة من الشرائع ، أو نظام من الأنظمة ، الا بقدر ما يتحقق من الخـــير للناس على يـــدها ، فلماذا تحصرون الخـــير فى هذه الفردية الصـــوفية ولا تجعلونها اجتماعية ؟!

★ ★ ★

اذن فهى راية الجهاد تنشر من جديد ، وهى كلمـــة الحق تدوى فى أرجاء العـــالمين :

« **ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم** » (١) ٠٠٠

ولم يزد الشاب على الاستماع أيضا ، منصرفا الى ما هـــو منصرف اليه ، ولم يفارقه عزمه ، ولا تخلت عنه صرامة تصميمه وجده فى ثبـــاته ونظراته ، وحزمه وعزمه،فاستدرك القلم أمره وهو يقول : اذن فهى كلمة العبد الصالح وحكمته تلقيها على فى نظرة عتابك : « **ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا ٠٠ !!** » (٢) ٠

قال هذا وتحرك يكتب :

« وأعتقد أن قومى بحكم الأدوار السياسية التى اجتازوها ، والمؤثرات الاجتماعية التى مرت بهم ، وبتأثير المدنية الغربية والشـــبه الأوروبية ،

---

(١) التـــوبة : ١٢٢ (٢) الكهف : ٧٢

والفلسفة المادية ، والتقليد الفرنجى بعدوا عن مقاصد دينهم ، ومرامى كتابهم ، ونسوا مجد آبائهم ، وآثار أسلافهم ، والتبس عليهم هذا الدين الصحيح بما نسب اليه ظلما وجهلا ، وسترت عنهم حقيقته الناصعة البيضاء ، وتعاليمه الحنيفية السمحة ، بحجب من الأوهام يحسر دونها البصر ، وتقف أمامها الفكر ؛ فوقع العوام فى ظلمة الجهالة ، وتاه الشبان والمتعلمون فى بيداء حيرة وشك ، أورث العقيدة فسادا ، وبدل الايمان الحادا ... ! » .

(٦)

وتوقف القلم غير عابىء بموقفه السابق وهو يقول : اذن هو بعث جديد ، وتجديد للدعوة الاسلامية المحمدية وتصحيح لها بعد ما وصلت اليه على يد ورثتها العاقين الذين لم يحسنوا الانتفاع منها ، وليتهم لم ينحرفوا بها ؛ واذن هو انقلاب يحتاج الى مئات السنين ، فأمرك عجيب يا صاحبى ... !!

واستمر الشاب على صمته ، ولم يزد على الاستماع ، منصرفا الى ما هو منصرف اليه ، فأدرك القلم أنه يقول له : « **ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا . ؟!** » (١) وتحرك يكتب :

« وأعتقد كذلك أن النفس الانسانية محبة بطبعها ، وأنه لابد من جهة تصرف اليها عاطفة حبها ، فلم أر أحدا أولى بعاطفة حبى من صديق امتزجت روحه بروحى فأوليته محبتى وآثرته بصداقتى » .

وتوقف القلم ، وكأنما أراد أن يحاور ، فنظر اليه صاحبه نظرة صارمة أعادته الى ما كان عليه من مطاوعة ، فكتب : « وأعتقد كذلك أنه لن يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها من الرجوع الى أصول الدين ، والتمسك بقانونه المتين ، والرقى والتقدم تحت لوائه المنضود » .

فتوقف القلم غير مبال بنظرة صاحبه ، ولا ما تنم عليه ، حتى كاد يميد فى يده وهو يقول : لقد قلت لك يا صاحبى منذ حين : انك قد بلغت حدا لا تتصوره العقول والأفهام ، فما هذا ؟ ! هو منهاج سليم مضمون العاقبة ، وهى تجارة رابحة ، ولكنها مهمة شاقة ، ومطلب عسير ، فكيف السبيل ؟ وانها لغاية دونها قطع الفيافى والقفار ، واقتحام المجاهل والمعاقل ؛ وانك الى الآن لم تحدثنى عن أملك ، ولا أشرت اليه ..

---

(١) الكهف : ٧٥

ولم يزد صاحبه على الاستماع أيضا بنظراته القائلة : « **ان سألتنى عن شىء بعدها فلا تصاحبنى** » ‥ (١) فكتب بلا تردد :

« كل هذا أعتقده عقيدة تأصلت فى نفسى جذورها ، وطالت فروعها ، واخضرت أوراقها وما بقى الا أن تثمر ، فكان أعظم آمالى بعد اتمام حياتى الدراسية أملان :

خاص — وهو اسعاد أسرتى وقرابتى ، والوفاء لذلك الصديق المحبوب ما استطعت الى ذلك سبيلا ، الى أكبر حد تسمح به حالتى ، ويقدرنى الله عليه ٠

وعام — وهو أن أكون مرشدا معلما ٠ اذا قضيت فى تعليم الأبناء سحابة النهار ، ومعظم العام قضيت ليلى فى تعليم الآباء هدف دينهم ، ومنابع سعادتهم ، ومسرات حياتهم ؛ تارة بالخطابة والمحاورة ، وأخرى بالتأليف والكتابة ٠ وثالثة بالتجول والسياحة ٠

وقد أعددت لتحقيق الأول : معرفة بالجميل ، وتقديرا للاحسان — وهل جزاء الاحسان الا الاحسان ؟ ٠ ولتحقيق الثانى من الوسائل الخلقية : « الثبات والتضحية » وهما ألزم للمصلح من ظله ، وسر نجاحه كله ، وما تخلق بهما مصلح فأخفق اخفاقا يزرى به أو يشينه ؛ ومن الوسائل العلمية : درسا طويلا ، سأحاول أن تشهد لى به الأوراق الرسمية ، وتعرفا بالذين يعتنقون هذا المبدأ ، ويعطفون على أهله ، وجسما تعود الخشونة على ضآلته ، وألف المشقة على نحافته ، ونفسا بعتها لله صفقة رابحة ، وتجارة بمشيئته منجية ، راجيا منه قبولها ، سائله اتمامها ، ولكليهما عرفانا بالواجب وعونا من الله سبحانه ، أقرأه فى قوله : « **ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** » (٢)

* * *

وهنا ترنح القلم فى يده وهو يقول :

اذن فهى كما قلت لك رسالة ‥ واذن فلست شخصا عاديا كسائر الناس ، واذن فأنت تعرف غايتك ومهمتك فى هذه الدنيا ، ومنزلتك ومكانتك فى هذا الوجود ، وتعرف خطورة ما أنت مقبل عليه ، ووعورة طريقه وطول مشقته ، وأنت على بينة مما قيل لأستاذك ومعلمك الأول : أستاذ البشرية

---

(١) الكهف : ٧٦ بلفظ : « **ان سألتك** ... »

(٢) محمد : ٧

الأعظم ، وامام المجاهدين ، وقائد المصلحين ، أنت على بينة مما قال له بعض المجربين : « يا ليتني فيها جذعا اذ يخرجك قومك ، قال (صـلى الله عليه وسـلم) : أو مخرجي هم ؟ قال : ما أتى أحـد بمثل ما جئت به الا أوذى وأخرج » ـ فهل أنت على استعداد لحمل مثل هذا العبء الجسيم ، والتبعة الخطيرة ؟ !!

ولم يزد الشاب على الاستماع بنفس ثابتة ، وأعصاب هادئة ، وقلب مطمئن ، فتحرك من نفسه ليكتب :

« ذلك عهد بيني وبين ربى ، أسجله على نفسى ، وأشهد عليه أستاذى ، فى وحدة لا يؤثر فيها الا الضمير ، وليل لا يطلع عليه الا اللطيف الخبير ، « **ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما** » (١) .

كتب هذا من املاء صاحبه ، فلما فرغ منه ألقاه أمامه ، وكأنما يقول له بحركته الحازمة : « **ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا** » (٢) .

فاستقر القلم حيث وضعه ، وكأنما يقول لصاحبه : الآن « **قد بلغت من لدنى عذرا** » (٣) وقد نبأتنى بتأويل ما لم أستطع عليه صبرا ... !!

(٧)

وهكذا سجلت كراسة الطالب الشاب أمله ووسائل تنفيذه فى موضوع انشاء ، وأثبته التاريخ رسالة انقاذ وفكرة تبعث مجدا ، وتجدد تاريخا ، وتعيد نهضـة ، يعاهد صـاحبها الله على العمل لها والجهاد لتحقيقها .

وأخذت كراسة الطالب مكانها بين كراسات الطلبة ، وقرأ الأسـتاذ الموضوع كما قرأ سائر الموضوعات ، وصححه وأعمل فيه قلمه الأحمر أيضا وكانت الدرجة التى استحقها ٧ من ١٠ . وهذا هو كل ما لقيه الموضـوع من حظ وتقدير بين جدران المدرسة المحصورة .

فماذا كان من حظه بين آفاق الدنيا الواسعة يا ترى .. ؟ !

★ ★ ★

---

(١) الفتح : ١٠ (٢) الكهف : ٨٢
(٣) الكهف ٧٦

الفصل الثانى

العرق والبيئة

— ١ —

أول العهد

أقبل مع الضحى فى موكب حشدته الطبيعة وأعده نظام الحياة لاستقبال يوم جديد ، فجاء بعدما انحسرت ظلمات الليل وهدأت ضوضاء الصباح ، وأشرق مع النهار الجديد يحمل لهذه الدنيا أملا باسما ، ومهمة شائقة يانعة ٠

فرح به أبوه ، ووجد فيه ريحانة قلبه وقرة عينه وبهجة نفسه ونعيم روحه ومسرة حياته ،وابتهج البيت كله وأنس به ، وامتلأ لمقدمه فرحا وسرورا، ولمعت من طلعته بشائر اليمن والاسعاد فيه ٠

فهو : روح وريحان ، تلقاه والده على شغف به وشوق الى لقائه ، واكتمل له به العيش فى كنف السعادة التى كان يتوق اليها ، وأحس بمولده أن فترة السعادة التى آثره بها الزمن ، والتى كان ينشدها قد دنت منه بعد اذ كانت تتراءى له من بعيد ٠

ولأمر ما كان الفكر قد بلغ من نفسه حتى استبد به وأقلقه : ما باله قد قضى فترة بعد زواجه لم يرزقه الله فيها نسلا ؟ وكأنما قد وقع فى نفسه أن الأقدار انما عقدت بزواجه أمرا يلوح له من عالم الغيب ، فهو يحسه ويشعر به فى مسراه وفى انحداره ، وان جهل حقيقته ولم يتبينها ، ويظل هذا الأمر الشائق المجهول يفرض نفسه عليه فرضا ، ويناجيه ملحا فى نجواه، ويعيد عليه قصة النسل وابطاءه ، حتى يدخل المسجد يوما للصلاة ، فيرسل بصره ـ فاذا غلام فى نحو العاشرة من عمره يصلى ، وكأنما كانت روح الوالد ونفسه على صلتها بأملها فى لوحة القدر النافذ وصفحة القضاء السابق ، فقد وجد الوالد نفسه يتأمل الغلام فى صلاته وينتبه اليه ، ثم يستدير مندفعا نحو القبلة ، واذا به قائم يدعو فى المحراب ويقول : « اللهم ارزقنى غلاما صالحا ينشأ على التقوى حتى أراه يصلى كهذا الغلام » ٠

غلام صالح ينشأ على التقوى ويصلى كهذا الغلام ٠٠ ! هو توجيه القدر وتسديده من محيط الغيب ، ألهمته روح الوالد الموفق المسدد فأقرته فى جنانه ، وأجرته على لسانه ، وهو ينادى ربه نداء خفيا ؛ أفليس لهذا الوالد من أمل فى ولده المأمول الا أن يكون تقيا ، والا أن يراه يصلى ويوجه وجهه

للذى فطر السموات والأرض حنيفا ٠٠ ؟ هو نداء من الهام الفطرة ، ودعاء من توجيه الروح الصافية ، يعيد على لسان هذا الوالد دعاء النبى الكريم فى ندائه لربه هذا النداء ٠

وقد استجاب الله دعوة الوالد اذ علم سبحانه صدقها واخلاصها ، كما استجاب دعوة النبى اذ نادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب انا نبشرك بغلام لم نجعل له من قبل سميا ؛ استجاب الله دعوة الوالد فرزقه غلاما ولد فى ضحى يوم الأحد لخمس بقين (١) من شعبان سنة ١٣٢٤ فسر به وأذن فى أذنه اليمنى وأقام فى أذنه اليسرى عملا بالسنة ٠

★ ★ ★

ان فى دورة الأصلاب الكريمة ، وتنقل ثروة الدم النقى فى الأعراق الطاهرة التى زكا فيها هذا النبت حتى انحدر سلالة طيبة من محتده العريق وأصله المؤثل ـ أثره الوراثى ، فانظـــر كيف دارت هذه الحقيقــة فى فلك الوجود ، وكيف سرى هذا السر فى مسراه ، بعد أن ظل فكــرة فى عالم الذر ومحيط الغيب ، تتدافعه موجة الكفاح وتأخذ بيـــده وتهبط بحقيقته ، حتى برز الى عالم الوجود ٠٠

★ ★ ★

— ٢ —

ثروة الدم

فى سنة ١٣٠٦ (٢) ، وبعد وقوع الاحتـلال الانجليزى بنحو أربعـة أعوام ، وفى ناحية شمشيرة مركز فوه غربية ، وبعد أن انبثق نور الصباح أخذ التلاميذ ينســـابون على مكتب البلدة مبكرين ، يتأبط كل واحد منهم « أدواته » التى عرفتها هذه البيئة التعليمية ، وهذا النوع من معـــاهد التعليم ، وهى لا تزيد عند أكثرهم ثراء عن اللوح والمصحف والدواة والقلم ، يضاف اليها عند المترفين كراسة أو كراستان ٠

وفى صباح يوم من أيام شهور سنة ١٣٠٦ استقبل فقيه المكتب رجــلا من رجالات البلد المعروفين عنده بالوقار واليسار ، والمقام المهاب ، ومن بيئة علم واستمساك بالدين والقرآن ، وحرص على حفظه وتعلمه ؛ وقد دارت بين

---

(١) ١٤ أكتوبر سنة ١٩٠٦ ٠ (٢) سنة ١٨٨٧ م ٠

الرجلين محاورة ونشب حديث ، ووقع أخذ ورد وثار جدال ، أنهاه الفقيه ـ وهو رجل متقدم فى السن ـ بقوله : اننا لا نستطيع أن نرد لك طلبا ، ولكن ابنك صغير لم يميز ولم يحسن النطق بعد ، وفى قبوله وهو فى هذه السـن الصغيرة سابقة تفتح علينا بابا لا نطيق سده ، ومع هذا فاكراما لك ولحبك للقرآن ، وتقـديرا وايثـارا لتعلقك بكتاب الله ـ والفضـل من معـدنه لا يستغرب ـ ، وما دامت رغبتك ورغبـة والدته قد التقتا عند هذا المطلب السامى ، فسأحقق رجاءك بقبوله على أن تنفذ ما اشترطت على نفسك وأن تخصص له من يجىء به كل يوم فيلازمه الى موعـد الانصراف لينصرف به ، واذا أدركه الضجر قبل هذا فهو أيضا فى حل من أن ينصرف .

قال الرجل : بارك الله فى سيدنا وأطال عمره وأجرى على يديه الخير ، ثم مال عليه وأسر فى أذنه بما يطمئنه على أنه لن يخل بتنفيذ ما وعـده به فى بدء حديثه من أنه سيجعل له ضعف ما يدفعه الطفل العـادى ، جزاء اكرامه مثواه بايثاره طفله بالقبول فى المكتب وهو دون سن القبول .

وقد بر كلاهما بما وعد : يحمل الطفل من وكل به يوميا ، ويذهب به ويجىء غاديا رائحا ، ولا يرى الفقيه فى هذا افتئاتا على لائحة المكتب ، أو تهجما على تقاليـده المتبعة ما دام قد أرضى الحـاج هذا الوالد المحب للقرآن ، ومادام هو عند ما وعده به من سخاء ؛ واسـتمر الطفل على هذا حتى انطلق لسانه بالكلام والقراءة ، وأصبح قابلا للتلقين والتعليم كسائر تلاميـذ المكتب .

وما كان هذا الطفل الا « أحمد » المولود فى سنة ١٣٠٣ (١) .

وما كان والده الا الشيخ « عبد الرحمن » .

★ ★ ★

— ٣ —

كفـاح

قضى « أحمد » فى مكتبه هذا نحو عامين ، توفى بعدهما فقيه المكتب فانتقل الى غيره ، وكان فقيه المكتب الثانى شـابا كفيفا وهبـه الله ذكاء خاصا ، وقد قعد به عن اتمام دراسته فى الأزهـر ـ مع نبوغه واستعداده وتقدمه ـ وفاة والده وضيق ذات يده ، وايثـاره السعى للرزق من هـذا السبيل الملائم لحالته مع اشـتغاله بالعلم ، فجعل من منزله ندوة لتعليم القرآن ومدارسة العلم ، وطفق يبث الدعوة لمكتبه فى كل مكان لينال تعضيد

---

(١) سـنة ١٨٨٤ م .

أهل البلدة واقبالهم عليه ، فكان الشيخ عبد الرحمن أول من لبى دعوته ، ودفع اليه ابنه فكان أول تلميذ بالمكتب ، وقد فتح الله له بعد ذلك فاقبل عليه الطلاب من كل ناحية ، حتى امتلأت بهم داره وضاقت ، فتفاءل الشيخ بالتلميذ أحمد الى جانب ما أدرك فيه من علائم النجابة والذكاء ، وحسن الاستعداد والرغبة الصادقة فى العلم والتعليم ، فألقى اليه عنايته وأفاده ٠

واشتهر الشيخ وأمه الكثيرون من طلاب العلم وحفظة القرآن فى البلدة ، ونزح اليه القاصدون من البلاد المجاورة لطلب الفتوى وللدرس والتحصيل ، وكان على فقه وعلم مخلصا فى عمله مجدا فيه ، يجيد التربية بأحسن الوسائل المعروفة فى عصره ٠

وكان أحمد عند حسن ظن أستاذه فتفانى فى طاعته والبر به ، ومازال الشيخ يتعهده ، حتى أحسن القراءة وأجادها ، فاختصه بمراجعة المسائل العلمية ، ومعاونته فى الكشف عما يريد الرجوع اليه فى بطون الكتب ، فتفوق فى القراءة وأقبل عليها بشغف ، وتأصل فيه حب العلم ، فعكف على الدرس والتحصيل مجدا مجتهدا ، وطلب من الشيخ أن يخصص له درسا فى الفقه والنحو والتوحيد ، فاذا انصرف التلاميذ بقى هو يتلقى هذا الدرس ، واذا عرض للشيخ ما يشغله ذهب الى منزله ليذاكر بنفسه أو ليشتغل بنسخ المخطوطات العلمية وما الى ذلك من وسائل التحصيل ، وهكذا لم يبقى له من فراغ يصرفه فى غير ذلك الا اليسير القليل ، فأشربت نفسه حب العلم والاكباب على العمل ، وما جاوز العاشرة من عمره حتى أتم حفظ القرآن وتجويده على شيخه ، الى جانب ما كان قد ألم به من حفظ المتون فى مختلف العلوم وما حصله من مبادئها ٠

ثم اتجهت نفسه الى مواصلة الاشتغال بالعلم بحيث لا ينقطع عنه ففكر فى أن يضم الى اشتغاله بالعلم والدرس تعلم صناعة بسيطة لا تأخذ من وقته أو تفكيره ما يصرفه عن غايته وأمنيته العزيزة ، ولا تعدو على الوقت الذى أوقفه عليها واختصه بها ، فاختار صناعة اصلاح الساعات ، لأنه كان على المام بسيط بمبادئها الماما تلقاه من رغبة ملحة فى نفسه تدفعه الى العبث بساعته عبثا خاصا لا يخلو من ملاحظة ، ولأنه اذا ذهب بها الى مصلح الساعات فهو الطالب المتنبه المستفسر المدقق ، يلاحظه وهو يقوم بعمله ويرقبه ويكثر عليه من الأسئلة فى دقائق الصناعة وأصولها ٠

ثم خطا خطوة عملية فاشترى بعض العدد والآلات الأولية ، وأقبل على ساعته يجرى عليها تجاريبه،ومازال بها يحلها ويركبها ويقطع أوصالها حتى الحق بها العطب فاشترى غيرها وافسدها واشترى ثالثة وهكذا ٠٠

ولقد عز عليه أن يلحقه الفشل بعد هذا المجهود وهو بعد فى أول الطريق ، فعمد الى أن يأخذ الساعة ويذهب بها الى الصانع وليس له من

غرض الا الملاحظة ، وبهذا ألم بالكثير مما لا يعلمه وأصبح على دراية تمكنه من مزاولة هذا العمل بنفسه والمضى فيه بنجاح ، فزاد فى استحضار بعض الأدوات المطلوبة ، ومع اشتغاله بالعلم باشر هذا العمل ولكن بحكمة وميزان ، وعدالة فى تقسيم الوقت تحفظ للاشتغال بالعلم القسط الأوفر من الوقت والجهد ، فاكتفى بأن يقوم بنفسه بالأعمال البسيطة التى لا تأخذ منه الوقت ولا تحتاج الى دربة الفنى المتمكن ، فاذا عرضت له مهمة تحتاج الى شىء من هذا ، ذهب بها الى صانع أكثر منه خبرة وعرض عليه أمرها ووكل اليه مهمة اصلاحها فازداد خبرة ، واختص بذلك صانعا مشهورا فى رشيد كان يفد على مطوبس (وهى قريبة من بلدة شمشيرة) فى يوم الخميس من كل أسبوع ، وقد عرف الناس عن الشيخ أحمد اشتغاله بهذا العمل مع الاقبال على العلم والتفقه فيه فأكبروه وأقبلوا عليه ، فكان يباشر مهمته على النحو الذى رتبه : يقوم هو بالعمل البسيط بنفسه فان أعجزه استبقى الساعة عنده الى يوم الخميس فذهب الى مطوبس وقدم ما عنده الى زميله وعاد اليه الخميس المقبل ·

واستمر على ذلك نحو عام ، واقباله على العلم ودأبه على تحصيله والاستزادة منه لم ينقطع وتوثقت العلاقة بينه وبين صانع رشيد ، وتوفر له أن يجمع مبلغا من المال يكفيه نفقة عام فيما قدر ، وزاد اقبال الناس عليه اذ عرف بالأمانة وبذل النصح ، الى جانب علمه وتقاه مع صغر سنه . فكان لابد أن يستجيب لهذا الاقبال باستعداد فنى واتقان واسع لعمله فاستأذن أباه فى الرحيل الى رشيد ليبقى بها مدة تتيح له الاتصال بصاحبه فيستطيع أن يلم الماما تاما بأصول العمل الذى تعشقه ، فأذن له ·· وانطلق الى رشيد والتقى بصانعها وعرض عليه ما اعتزمه فرحب به وأظهر له الاستعداد التام ، فقضى معه نحو أسبوع ادرك فيه أنه لم يكن مخلصا فى اتفاقه معه ولا بارا به ، وأنه يضلله ويكتم عنه الفن ويستأثر به دونه ، وأنه لن يجد الفائدة التى كان يرجوها من التعاون معه ، فلا ضرورة للاستمرار معه اذن ·· ! ؛ وقد اعتراه لهذا ضيق وانتابه شىء من القلق فنهض قبيل صلاة الفجر وأخذ طريقه الى أداء الصلاة بمسجد « المحلى » برشيد وكان امامه الشيخ أحمد الجارم الكبير ، وهو مشهور بالورع والتقوى ومعروف بالعلم والصلاح ، فالتقى به بعد الصلاة وأطلعه على أمره وأنه محب للعلم مقبل عليه ، وأنه كذلك شغوف بتعلم صناعة الساعات لبساطتها ونظافتها وامكان الجمع بينها وبين طلب العلم بيسر وسهولة وأنه قدم من أجل هذين الغرضين ، فطيب الشيخ خاطره وسر به وأرشده الى صانع حاذق ماهر مشهور يعرفه ، وامتدحه وأثنى عليه ، وهو يقيم بشارع دانسطاس بالاسكندرية اسمه الحاج محمد سلطان ، وقال له : اذا ذهبت اليه وأقمت هناك فستجد عنده ان شاء الله طلبتك ويتحقق لك أملك هذا مع ما تطمح اليه من تلقى العلم والتبحر فيه ، فهناك جامع الشيخ ابراهيم باشا هو فى الاسكندرية كالأزهر فى مصر ، فاذهب اليه على بركة الله وسيفتح الله عليك · ودعا له كثيرا وودعه ؛ فسافر من فوره الى الاسكندرية

وقابل الحاج محمد سلطان فوجده على شهرة كبيرة وصيت ذائع ، وعلى جانب كبير من العلم والذكاء والصلاح ، وقورا مهابا محبوبا متصلا بالأوساط المختلفة ومن أعضاء جمعية العروة الوثقى ،يلتقى عنده العلماء والكبار يوميا يتناولون الأمور الدينية والسياسية ، وعنده كثير من الصـــناع المبتدئين والمهرة المنتهين ، ومن أجل ذلك اقتصرت مهمته هـــو على ادارة العمـــل والاشراف العام عليه ؛ فالتقى به وأبلغه تحية الشيخ الجارم فأكبرها وبالغ فى اكرامه وأوصى ابنه به خيرا ، ثم انتسب من أول يوم الى جامع الشيخ ابراهيم باشا ، وكان معهد الاسكندرية لم يفتح بعد ، وصار يقضى يومه قسمة بين الجامع ومحل الحاج محمد ٠ وبذلك استراحت نفسه الى تحقيق رغباتها بعد هذا الكفـــاح الذى لم يثن من عزمه ، وهكذا كونت الحوادث « الشيخ أحمد » فخلقت منه رجلا مكافحا لم يلن للصعاب ، بل يصـــابر الشدائد ويروضها ويغلبها ٠

* * *

— ٤ —

صبر

احتدمت المناقشة بين الشقيق الأكبر وشقيقه الأصـــغر بمحضر من والديهما ، فقال الابن الأكبر لوالدته غاضبا ساخرا : « فليذهب يا سيدتى الى الاسكندرية لطلب العلم كما يشاء وكما تشـــاءين له ليعود عالما كبيرا وترينه يخطب على المنبر ويدرس العلم للناس ٠٠ » ٠

ولم يطق الأخ الأصغر هذه الحملة من شقيقه فقال متحديا : نعم سأكافح فى سبيل العلم والتفقه فيه ، ولن تصدنى قوة أو عقبة عن تحقيق هذه الرغبة حتى أكون عالما ممتازا يعرف ما له وما عليه ، ويرشد الناس الى أمـــور دينهـــم ٠

وكان هذا خاتمة الجدال ٠٠ الجدال الحامى الذى نشب بين الشـــيخ أحمد وبين شقيقه محمد فى منزلهما : فانه لما استقر به المقام فى الاســـكندرية كان لا بد له من عودة الى بلده لقضاء بعض شـــأنه والتزود بما عسى أن يحتاجه من متاع ليستعد لمواجهة ما هو مقبل عليه من حياة جديدة ، ويتشاور مع أهله فى ترتيب شـــأنه ٠

فأما شقيقه الأكبر محمد فقد كان ذا حظوة لدى والده ، نالها بســـبقه فى السن وبقيامه على شئون الأسرة ، اذ أن زمام أعمال البيت كان فى يده يصرف أمور الزراعة وشئون المعاش ، وقد منحه هذا مقاما ملحوظا محمودا وأكسبه سلطانا واسعا وقد رفض محمد رفضا قاطعا أن يوافق على فكرة الرحيل أو يؤيد خطة وقف الحياة على العلم والتعليم ويقـــرها ، فدائرة

العمل عنده متسعة كما يتصورها وليس لدى مثله من وقت يمكن أن يوهب للعلم ، وحسب المرء من هذا العلم أنه حفظ القرآن وأجاد القراءة والكتابة ، سيما وهو فى حاجة الى معين ومن أحق بمعونته وبأن يكون ساعده الأيمن من أخيه الأصغر ؟ ! واذن فالرحيل الى الاسكندرية ٠٠ وهذه الرغبة فى التبحر فى العلم بدعة لا يقرها هـذا الشـقيق الذى لا يعترف بغير لغة الأعمـال ولا يحترم الا منطقها ٠

وأما الوالد فقد كان فى صف ابنه الأصغر ومن رأيه ، وهو ايثـار طلب العلم على ما سواه مهما كان عزيزا ، ولكنـه مراعاة لابنه الأكبر ، وتقديرا واكراما للجهد المضنى الذى يبذله فى ادارة الأعمـال وتعهـد شئون البيت لم يشأ أن يقف فى وجهه فأبدى رأيه بتحفظ ، فان محمدا قـد أبدى مهارة فى ادارة العمل وتصريف أموره وأغنى أباه عن بذل أقل مجهود فى هذا السبيل ، وهو بجده هذا جعله يعـدل عما التزم من خطـة تأجير الأطيان الى زرعها بنفسه ، وبارك الله له فاشـترى غيرها وزاد عليهـا ، وهكذا كان رجل حياة ناجح فكيف يسـوغ للوالد أن يخذله فى مثل هذه المعركة ويعارض رأيه أو ينحـاز لرأى ابنه الأصـغر ويتحمس له مهما كان وجيهـا ٠٠ !!

وأما والدته فقد كانت صالحة تقية متعبدة تقـوم الليل ، وهى التى أشارت بذهاب ابنها الى المكتب فى سن مبكرة ، وكان والدها صالحا تقيـا ولها أخ كذلك فقيه متعمق يحفظ القرآن ويتلوه حتى فى أوقات شغله ، وقد اعتزل الناس فى آخر عمره وانقطع لعبـادة الله حتى مات ؛ أيدت الوالدة رأى ابنها أحمد بحماسة ، ووجدت فى انفاذه تجديدا لعهد عزيز ؛ فهى ذات صلة وقربى بالعلم والقرآن ، فكيف لا تعين ابنها على عزمه فى اقامة هذه الصلة الكريمة من جديد ؟ ! أما الشيخ أحمد فلم يكن يعنيه من هذا كله الا أن يطمئن على رضاء والديه وأن ينفذ ما صمم عليـه من الانقطاع للعـلم ولا عليه بعد ذلك ٠٠ ! فقد رتب نفسه على أن يعيش مستقلا ينفق من كسـبه ومن ذات يده ، وعول على التزام هذا وتنفيذه حتى من قبل أن يعـزم على الرحيل ، فماذا يعنيه بعد هذا ؟ ولقد تم له ما أراد وسافر الى الاسـكندرية مطمئن النفس مرتاح الضمير هادىء البال ، وما له لا يرتاح باله وقد أتيح له أن يتفـرغ لطلب العلم والتبحر فيه ، وهذا هـو كل ما تطمح اليـه نفسـه من آمال ٠

★ ★ ★

— ٥ —

نجـــاح

أصبح أهل القرية فرحين مستبشرين لاتمام مسجدهم الجديد ، وقـد أعدوا العدة لاقامة أول جمعة فيه ، وآثروا بالخطابة فى هذا اليوم عالمـا من شباب البلدة طاب له الاغتراب فى طلب العلم والجهـاد فيه ، مؤثرا هذه الغاية على ما سواها ، فأبلى فى ذلك بلاء كريما واستحق تقدير جميع أهل البلدة واحترامهم ، وهو الآن فى زيارة قصيرة لأهله وعشيرته ؛ وقد أدى العالم الشاب أول خطبة فى المسجد الجديد أمام كبار رجال البلدة ، فنال رضاءهم وأقبلوا عليه مهنئين مغتبطين ، وانطلق بعد ذلك الى منزله واجتمع بأفراد الأسرة ، فقال الوالد لابنه الأكبر وهو متهلل الوجـــه فرحا : ها قـد صدقت نبوءتك يا محمد ، وها هو أخوك أحمد قد عـــاد الينا عالما كبيرا يخطب على المنبر ويسبق الناس ويتقدمهم ويقر له الجميع بالفضل ويظفـر بمقام العلماء الأجلاء ويكون حديث أهل البلدة جميعا .

فما كان هذا العالم الشاب الا الشيخ أحمد .. مكث بالاسكندرية على ما تركناه عليه مكبا على العلم دائبا على الدراســـة ، لا يكاد يفلت منها أو يتخلى عنها الا حين يهبط المساء حيث يختلف الى محل الحاج محمد ، وهو أيضا لا يخلو من أحاديث العلماء وجلساتهم ومناقشاتهم ، فهى فى جو علم وسياسة واجتماع ، وندوة من ندوات الثقافة العامة ، وقد ظل مثـابرا على هذا النظام مثابرة المجد واتصل بكثير من العلماء الأجلاء الثقـــات وأفاد من علمهم ، ومن هؤلاء الشيخ عمـر خليفة المالكى وكان مشـــهورا بمالك الصغير ، ومنهم كذلك الشيخ السندريسى ، والشيخ موسى كله والشيخ أحمد طولون ، واستطاع — بعد هذا الكفاح العلمى الطويل الذى أعـاد به سيرة أجلاء العلماء الذين كانوا ينقطعون للعلم ويسعون للاتصال بشيوخه ورجاله ، ويجدون فى ذلك أعذب الراحة — أن يفكر فى العودة الى بلده وقد بلغ فى العلم مكانة تتيح له الاستقلال فى الدراســـة والبحث والتنقيب فى كتب العلم ، وافتتح محلا للساعات يذهب اليه فترة من نهاره ، ثم افتتح محلا آخر ببلدة مطوبس واشتهر أمره وتزوج .

وللمصـــادفات دائما أثرها وتوجيهها فى حياة الأفراد من حيث لا يشعرون . اقترح عليه أحد أصدقائه أن يتخذ محلا ثالثا ببندر المحمودية وحببها اليه ومناه بأنه سيلقى فيها علماء يأنس اليهم ويتدارس واياهم العلم ومسائله ، وحيثما وجد العلم والعلماء فالشيخ أحمد فى طلبهم وفى أثرهم يطيب له معهم المقام ، فوجد فى اشارة صديقه الفرصة التى يرجوها ويتشبث بكل دقيقة من الزمن لتهيئتها والظفر بها ، فافتتح محلا فى المحمودية وخصص للذهاب اليها يومين أو ثلاثة فى الأسبوع ، فسر بها وارتاح الى معاملة أهلها واستمر على هذا نحوا من أربعة شهور : يوم الخميس لمطوبس ، وثلاثة أيام للمحمودية ، والباقى لشمشيرة .. ولكن فيم هذا العناء ؟ انه قد اختـــار

هذه الصناعة البسيطة النظيفة حتى لا تشغله عن العلم وطلبه ، وقد اجتاز فى ذلك شوطا بعيدا وبلغ مرتبة العلماء الباحثين المستقلين ، فما له وهـذه الميادين الثلاثة ومحل واحد يكفيه ؟ وقد اكتفى فعلا بمحل المحمودية واقتصر عليه ، فانتقل اليها نهائيا هو وأسرته ورافقه اليها والده أيضا وكان ذلك فى سنة ١٣٢٤ هـ (١) واستقر فيها نهائيا واطمأن بها ، وفى نفس سنة ١٣٢٤ (٢) ولد له أول مولود ذكر فسر لمولده وتفاءل به وسماه : « حسنا » .

* * *

وطاب له المقام بالمحمودية وتعرف الى أهلهاووجهائها وفضلائها وكبار تجارها ، أمثال على بك العشرى عمدتها اذ ذاك ، والشيخ أحمد ربيع ، ومحمد بك المعتال من كبار التجار والأعيان ، والشيخ عبد الرحمن موافى من أعيان التجار ومن المتفقهين فى المدين ، وكان الشيخ عبد الرحمن مغرما بتفسـير القرآن فهو يلتقى بالشـيخ أحمد فيتناقشان فى التفسير ومسـائل العلم ، ويشترك معهما من عساه أن يكون موجودا ، وأعانهما على ذلك أن الشيخ أحمد كان قد اقتنى مكتبة نفيسة جمعت كثيرا من الكتب القيمة التى يحتاج اليهـا العلمـاء والباحثون من مختلف العلـوم والفنـون ، وتوثقت العلاقة بينهما واشتدت قصارا لا يفترقان ، وتصادق كذلك مع الشيخ محمد زهران من كبار رجال العلم وفقهائه ، وفى يوم استصحب الشيخ عبد الرحمن معه رجلا وقورا من كبار الموظفين المتقاعدين ومن ذوى الأملاك واسمه أحمد أفندى الصفتى له نظارة على مسجد ، فطلب اليه أن يكون امامه وخطيبه فرفض الشيخ أحمد هذا العرض ، اذ أن للمسجد امامه وما ينبغى — وليس من خلق الرجال — أن يزاحمه مادام يؤدى واجبه كاملا ، ولكن الرجل ألح حرصا على افادة الناس من علمه فقبل غير أنه اشترط أن يعمل متطوعا لله وللعلم ، وأن يبقى الامام حيث هو بمرتبه وأن يستشار أيضا فيتحقق بذلك الغرضان ، واتفقا على ذلك ، ورحب امام المسجد بالفكرة وسر لها .

* * *

وفى سنة ١٣٣٢ هـ (٣) ألح عليه عمدة البلدة وأهلها وأولوا الرأى فيها أن يكون مأذونا ثانيا للمحمودية فما وسعه الا القبول ، وقد قضى هـذه الفترات كلها على ما وهب نفسه له من تحصيل العلم والاستزادة منـه والاتصال بالعلماء والتدريس بالمساجد ، حتى تمكن من فقه المذاهب ونبـغ فى السنة وأحاط بما لا يتاح لمن فى مثل سنه ، ونزعت نفسه الى التخصص ووجد فيها الميل الى علوم السنة فاقبل عليها يدرسها بافاضة وعمق ، وعكف

---

(١) سنة ١٩٠٦ م
(٢) أكتوبر سنة ١٩٠٦ م
(٣) سـنة ١٩١٣ م

على البحث فيها لا يفتر عن ذلك الا لضرورة،فقرأ الكتب الستة وموطأ الامام مالك ومسند الامام الشافعي وسننه ·· الخ ، وتوج جهاده العلمي الطويل بأثر باق ، فعمد الى مسند الشافعي فرتبه على أبواب الفقه مع حذف المكرر وتمييز أحاديث السنن من المسند فوفقه الله الى ذلك وأخرج فيه كتابا سماه : « بدائع المنن فى جمع وترتيب مسند الشافعي والسنن » وعلق عليه شرحا لطيفا ولكنه لم يتمه ، ذلك أنه انتحى ناحية أوسع وأكبر فائدة ، فأقبل على مسانيد الأئمة الأربعة : مسند الشافعي وموطأ مالك ، ومسند أحمد ، ومسند أبى حنيفة وقرأها جميعها فوجد مسند أحمد بحرا لا تنفد ذخائره ، وموسوعة كبرى لكل راغب ، ومنهلا عذبا لكل طالب ، شهد له علماء السلف أنه أجمع الكتب الستة للحديث وأصحها بعد الصحيحين ؛ تنبه لهذا ·· وذكر ما قاله أحد الأئمة حين سئل : أتحفظ الكتب الستة ؟ فأجاب : أحفظها ولا أحفظها ·· ! — فقيل : وما ذاك ؟ ! قال : انما أحفظ مسند الامام أحمد وما يفوتنى الا قليل ·

ذكر هذا وغيره مما ورد فى هذا المعنى عن مسند الامام أحمد فكاد يطير فرحا ، وانصرف الى المسند يرتبه على الحروف فرتبه بعد أن كان غير مرتب ، ثم رتبه كذلك على الكتب والأبواب والفصول ، وقد أعانه الله ووفقه ، فأتم هذا المجهود العلمي الضخم الذى يحتاج الى عصبة من الفقهاء أو الى مجمع علمى ، ولكن هذه النفس التى ألفت الكفاح والصبر ومرنت عليهما لن يثنيها عن هذا العزم عبء مهما كان جسيما ، وبهذا العزم الماضى شرع فى مهمته العلمية الخطيرة فى سنة ١٣٤٠ وفرغ منها فى سنة ١٣٤٩ ، فرتب المسند وسماه : « الفتح الربانى فى ترتيب مسند الامام أحمد الشيبانى » ، وشرحه وخرج أحاديثه وأبان درجاتها ورواتها ، وذكر فى آخر كل باب الأحكام والحكم التى تستخلص منه وسمى الشرح : « بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى » وشرع فى طبعه من سنة ١٣٥٣ وقد ظهر منه ثلاثة عشر جزءا والباقى تحت الطبع تام التأليف ، وأعانه على ذلك تفرغه له اذ انتقل الى القاهرة من سنة ١٣٤٣ (١) ·

★ ★ ★

— ٦ —

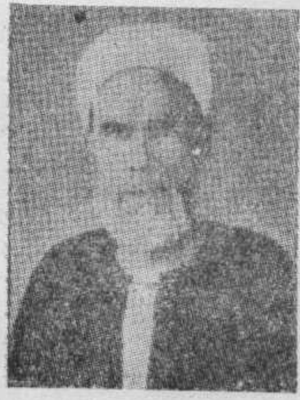
الشخصية

فى المنزل رقم ٥ بعطفة الرسام بالغورية تجد مكتب فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عبد الرحمن · ينتهى بك مدخل المكتب الى حجرة واقعة عن اليسار ما ان تقف على بابها حتى يطالعك وجه الأستاذ الشيخ ، وتراه

---

(١) سنة ١٩٢٤ م ·

مستويا على مكتبه المتواضع ، تلتئم عليه المهابة السابغة ، وتسطع فى وجهه خصائص العلماء ، وتلمع نضارة الصلاح ووسامة التقى · نفس هادئة تغذيها شعلة الفكر المتزن المستقر ، وتسيطر عليها روح الكفاح المنتظم المستقيم وانتظار النتائج بصبر وايمان ، وانصراف مطلق الى أداء الواجب ودأب على العمل ، واعتماد على النفس ودقة لا يختل ميزانها ونظام ثابت وتقدير للوقت لا يتخلف ·



فضيلة الشيخ
أحمد عبد الرحمن الساعاتى

وهو فى هذا كله نموذج قليل المثال ·· تغص أرجاء مكتبه بما تم طبعه من أجزاء كتاب الفتح الربانى ، الى جانب أمهات الكتب الأخرى التى يقتنيها ، وكلها تملأ رحاب المكتب وجوانبه ، وأنت تلمح هذا كله فى صورته وحركاته ، وفى كلماته ونبرات صوته ونظراته ، بل تلمح هذا كله فيه من قبل أن تلقاه ، فلن تقع لك زيارته الا بموعد ، ولو جازفت فذهبت اليه بلا موعد سابق لوجدته مشغولا بعمل آخر لا يتخلى عنه ، فيرجئك بلطف الى موعد آخر يحدده ، وهذا العمل الذى يشغله لن يكون فى أى يوم أو أية ساعة من ليل أو نهار الا مجهودا علميا ، ولو عرفت نظام عمله اليومى وتعقبته فيه بعد عام ، أو تتبعته وتحريت عنه واستكشفت خبره واستعرضته من قبل خمسة أعوام أو أكثر لما وجدته قد تخلف يوما عن هذا النظام ؛ ولن تطالع فى هذا الوجه ولن تقرأ فى عينيه الا شخصية تقهرك وتنتزع منك الاعجاب انتزاعا من غير أن تعرف لذلك علته ؛ فهو يحيا حياة مثالية ·· وهذا أدنى ما يظفر به منك ان نظرت اليه نظرة عابرة ، أما اذا ألهمت نظرة عميقة تسبر بها غور هذا العمق الممتد الى ما وراء هذه الجلسة السمحة الهادئة والحديث العادى ، والشخصية التى تخفى عنك عناصر ميزاتها ببساطتها عن غير جهد منها ولا صنعة ولا قصد ، ولكن بطبيعتها المرنة ·· اذا سددت النظرة البعيدة الفاحصة وقعت على سر تكوين هذه الشخصية وعلى أثره فى بنائها ، هذا الأثر الذى دار دورة ثورية متمردة وقهر كل ما أمامه ، وظهر صورة واضحة ترمز للكفاح الذى مارسته هذه النفس فسمت به أوسما بها سموا يفسره هذا الرضاء بالنجاح ، وهذا الضمير المطمئن ، وهذه الروح المستقرة تعيش فى عالمها الداخلى وتنعم بحقيقة الحياة ·

نفس مثالية : مثاليتها من هذا الكفاح الدائب الذى يطبع صاحبها ويفسر تصرفاته واتجاهاته ، ويبين عن ميزان شخصيته ومعدنها ، فهو قد تأثر حتما بحياة البيئة وظروفها ، وما لازمه واجتمع عليه من ظروف مرت

بنا فى هذا الاستعراض السريع لحياته ، فبيئة المكتب – وهى التى خرجت كل رجال الجيل الماضى – هى التى خرجته فى صغره ووجهته ، وهى بيئة لها خصائص كثيرة لا نريد التعرض لها هنا باسهاب ، على أن الجانب الذى لا ينبغى اغفاله منها أنها بيئة لا ينجح فيها الا المكافحون ، وهى تستلزم دأبا ونضالا ، وقد كان يجب ويلزم بعد الفراغ من مرحلتها أن يفر منها فرارا لو لم يكن الكفاح من طبيعة نفسه ، ولذا وجدناها تسلمه الى مرحلة جهاد علمى طويل لا يصبر عليه ويحتمل مشقته ، ولا يؤمل نجاحا من اقتحام ميادينه الا من وهب عزما بعيد الهدف · وبيئة المنزل كذلك تعارضه وتراوده ، بعد أن علقت قلبه بالقرآن وربطته به وشغفت نفسه بحب حفظه وتعلمه ، فتجدد مثله الأعلى بعد ذلك وارتقى الى ما فوق هذه الغاية ، وصناعة الســـاعات فى دقتها وفى عنايتها بالصغير والكبير ووضع كل شىء فى موضعه باتقان مهما كان صغيرا والا اختل الترتيب واضطرب ، والاستعداد الطبعى الذى وجهه اليها وجعله يختارها ويؤثرها – لكل ذلك أثره على النفس والذهن وعلى الحياة نفسها ، وهذه الأحاديث السياسية والاجتماعية والعلمية التى كانت تدور فى محل الحاج ســـلطان بالاســـكندرية هل كانت تمر مرورا عاديا بذهن عالم مثقف كالشيخ أحمد بلغ به حب العلم ما رأينا ؟ والتدريس فى المساجد وما يكسب من خبرة ، ودوافع الخير النفسية وحب النفع العام التى ساقته النفس اليه ، كل هذه عوامل لها أثرها وتأثيرها ولاشك ، وهى تستقى من نبع واحد هو مثالية هذه النفس التى تنحدر من شغف بالكفاح متأصل فى طبيعتها ، والا فما له يختط لنفسه هذا الطريق ويناضل لدفع كل ما يعترضه فيه ؟ أفما كان يستطيع لو أنه فرد عادى أن يسير حيث تســير الريح رخـــاء ؟ وانمـــا العبرة بذات الكفـــاح وليســت بنوعه . فالكفاح روح قبل أن يكون عملا وتصرفا ، وهو معنى قبل أن يكون مادة ، وهو كيف وليس كما ·

وان لهذه الشخصية خصائص عدة ، ولكنى أجدها جميعا ملتقية فى حقيقة واحدة ، هذه الحقيقة هى التى دارت دورتها الكاملة حتى أدت مهمتها وأقامت صرح مجدها ، وأفادتنى درسا لن أنساه ، اذ علمتنى أن النجاح فى الحياة هو سرها ، والطريق اليه شاق طويل ليس منثورا بالأزهار والرياحين، ولن يقوى على اجتيازه وعبوره بســلام الا من تســـلح بهذا الســـلاح : « الكفاح » ···

* * *

— ٧ —

نفوذ العبقرية

تختار الأقدار أنموذجهـــا المثالى من الناس وتنتـدبه لأداء دور هام فتكونه وتعده وتهيئه لأداء هـذا الدور ، وقد يؤديه فعلا ويقع فى فترة من فترات التاريخ من غير أن يحسب له هو نفسه حسابا أو يلقى اليه بالا ، واذا كان هذا الدور خطيرا جسيما غير محدود ، بمعنى أنه يتناول حياة الأجيال ويمس الأحداث التاريخية والعالمية ، فقد تهيىء الأقدار بعمل سابق بسيط أو « دور أولى » الطريق لصاحب الدور ، أو طريق الاعداد والتهيئة لهذا الدور ، وقد تؤدى هذه المهمة على يد شخص سابق ، أو بدور متقدم كما قلنا ، وفى سلسلة من أعمال المصادفات ، أو فى حالات من القيام بأعمال مثاليـة يدفع اليها التشبث برغبة من رغبات النفس ، أو الحماسة لاقامة تقليد من التقاليد ، أو ما يشبه هذا وذاك ، أو بكله أو بعضه مجتمعا ٠٠ متى كانت مدفوعة ومسيرة بمثل أعلى يجذبها ، وغاية سامية توجهها ، وقد تنتهى من هذا الدور فى صورة عمل من الأعمال العادية البحتة التى تؤلف حياة الناس ولكن تميزه روح النفس التى أصدرته ، وان لم يظهر خطره ولا يبدو أثره الا بعد حين ٠٠

وعندى أن هذه مثالية فى وضع سليم من عنصر كريم ، فاذا أديت دورك فى نجاح غير مصنوع فانت مثالى ، واذا أتيت بالمعجز فأنت عبقرى ، وانما العظيم من يأتى بما يعجز عنه معاصروه كما يقول محمد بك فريد ٠

ولسـت أرى العبقرية « فنا » يمارس بقانون « ميكانيكى » ، أو أرى الحياة « جامعة » يتلقى فيها الناس أصـول العبقرية والمثالية على قوانين موضوعة لها ميكانيكية القواعد المحســوسة ، ويلقنهم اياها مدرســون مختصون ليخرجوا جميعا عباقرة ومثاليين ٠ فعنصر العبقرية الثابت «الأول» هو الذى تصدر عنه حقيقتها ، لأن لزوم قانون الوراثة وطبيعتـه ــ مثلا ــ ان هو الا أمر نظرى بحت ، لاختلاف ما يسمونه ناحية التكوين وناحيـة التحريك ، وكلتاهما متروكة للتجارب والمشاهدة ٠

ثم ان الصـــفات العامة ، والخاصة أيضـا ، لها قانون تدخل عليـه التأثيرات وتكيفه الظروف فلا يبقى بعد هذا الا العنصر الأول العريق بتكييفه الثابت ، وهو الذى يكون العنصر اللازم الثبوت والاستقرار ٠

فأنا أخضع لقانون الوراثة ولا بد من هذا ، وأخضع كذلك لصـــفات النوع والجنس ، وأخضع أيضا لكل المؤثرات التى عرفها العلم وقال بها والتى لم يعرفها أيضا ، ولكن خصـوصيتى المستقلة المنفصـــلة عن القـــوة المتكونة من فعـــل هـذه العنـــاصر ــ مع كون هـذه العنـــاصر أبين منها وأظهـــر نظريا ــ هـذه القـــوة المنفصـــلة المســـتترة هى التى

تتغلب ، اذ لا وجود لأثر هـذه العنـاصر اطـلاقا ، ولا عمـل لهـا الا بوجودى ، ووجود خصـوصيتى هـذه ، بل ربما كانت بعد هـذا ، الوجود نفسه معطلة أو معوقة أو ذات أثر عكسى : فهذه القوة المنفصلة ذات الكيان المنفصل عن فعل قانون الوراثة وأمثاله من القوانين العاملة والسابقة للقوة الناتجة من فعلهما ·· هـذه القوة هى العنصر الأشـد فى التأثير والتوجيه والمتغلب على ما عداه ·

وليس معنى هذا أننا نريد الغاء قانون الوراثة – وأمثاله – او محوه وتعطيل فعله ، لا ·· بل اننا نريد اشاعة الروح فيه مقبوسة من أضـواء حياة العظماء منتزعة من صميم واقعها · فظاهر بداهة أن تنازع قوى آثار مختلفة فى الفرد تكون فيه الغلبة للأقوى ، وهـذا الأقوى – والغـالب – لا يكون بالطبع أقوى الا اذا كان عنصرا آخر له من الروح ومن الحيـاة ، ومن توافر أسباب النماء كيانات عريقة ثابتة متأصلة وهذا واضح ··

واذن ··· فشخصية الفرد البادية للناس تظهرها شخصيته الحقيقية الكامنة فى وعائهـا بمعزل عن كل المؤثرات الخارجية وان تأثرت بهـا ، ولا تظهرها أبدا هـذه القواعد العامة التى قد تتعطل عن الأداء ، وهى ان نفذت وسرت فهى انما تسرى على كل الأفراد فلا تعطى للفرد خصوصـية معينة ، أو تمنحه ميزة منفصلة ·

وشخصيتى الحقيقية التى تخالف شخصية الناس هى فى هذا الجزء الذى يؤلف القوة الحية النامية المسيطرة ذات النفوذ التى لا يستند وجودها ولا تستمد حياتها من فعل قانون الوراثة ، اذ قد عرفنا بطلان ضرورة سريان تأثيره المطلق كأمر حتمى لا بد منه ، ولكن وجودها هو وجود الكائن الحى اللازم من تكون حقيقة الفرد الوجودية كفرد مستقل الميزات فى الحياة ، منفرد بخصوصياته هو عن الخصوصيات العامة لجنسه أو بيئته أو أسرته · وقانون الوراثة ماشاكله انما يفعـل فى هذا الجـزء الموجود فعلا اذ ليس معقولا أن يفعـل فى معدوم ·· وهذا الكائن الحى هو من روح الفرد التى يحيا بها ولا وجود له بغيرها ، أما هذه القوانين التى تفنن العلم فىاستخدامها وتطبيقها والتى لا ننكر أثرها فما هى الا كالعوارض الجوية بالنسبة للكون ، سلطانها عليه وتأثيرها فيه كمثل سلطان هذه على الكون وأثرها فيه ، فهذا الروح هو كون الانسان ، وهذه القوانين هى العوارض كالريح والسحاب والمطر والتقلبات المختلفة الأخرى ، ومع ذلك فالكون هو الكون – قبل ذلك وبعد ذلك – ولا شىء غير هذا ، وكذلك الشخصية والعبقرية لها كونها القائم الثابت بنفوذه وخصوصياته ، وهذه القاعدة أوضح وأبين فى حياة العباقرة منها فى حياة الأفراد العاديين ·

★ ★ ★

وبعد : فلقد حرصت على أن أقدم شـــخصية « الوالد » فى عرض سريع ، وما أظننى مع هذه السرعة قد فرطت فى امدادك بأركان تطبيق قانون الوراثة أو ما تشاء من قوانين هى ظاهرة الأثر واضحة التأثير ، بل لعلنى أنصفت قانون الوراثة وأرضيت القائلين به من هذه الناحية أكثر من أى شىء آخر ، وما على من بأس فى استعمال قياس هذه القوانين لأن أثرها قائم غير منكور • ولكننى مع هذا لست أرى صـــاحب « الروح والريحان » الا سلالة الأصلاب الكريمة ونبت الأعراق الطاهرة اختاره الله من صميم الشعب ومن خلاصة روحه لأداء دوره فى التاريخ •

أما ثروة الدم المنحدر فقد وقفت عليها فى شخصية الوالد : « ايمان وصبر وكفاح » وما أرى عبقرية الابن الا هذه العبقرية المنفصلة المســتقلة ، متفاعلة تفاعلا روحيا بكهربائية عبقرية التاريخ (١) الدائرة • ومن ذلك بنى هذا « الكون الواسع » لشخصية صاحب الروح وعبقريته التى فاقت هـذه القوى المؤثرة كلها وغلبتها ، وستؤمن معى بهذه الحقيقة بعد حين ، وبعد اذ تعلم ماذا كان من أمره ••

★ ★ ★

---

(١) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب •

الفصل الثالث

من الميلاد الى الحادية والعشرين

— ١ —

فى الحمى

فمربعى فى كتاب الله من صغر ومرتعى سـنة المختار من مضر
ومنهجى قد علا عن نزغ شـيطان .

« الله أكبر » ..

كانت هذه الأنشودة العذبة وجرس لحنها السارى كالسلسبيل هى أول ما استقبله سمع الصغير ساعة مولده ، ولم تكن المصادفة وحدها هى التى أشارت بذلك أو رتبته ، ولكنه الاقتداء بالسـنة ، فهو عمل حددته النية ، وتصرف أوضحه القصد .. هى السنة أقامها أبوه وأحيا شعيرتها فأذن فى أذنه ..

الله أكبر .. هذا هو شعار الابتهاج بمولده ، وليس فى هذه الحيـاة حق يناسـب أن يسـتقبل به الا ذلك النداء ، وهكذا وقع تحالف المولود مع شعاره الدائم فى الدنيا : حالفته معه الأقدار منذ أول لحظة برز فيها الى الوجود .

شب فى حجر والديه كما يشب كل طفل ، وتعهدته يد من صميم الشعب ، وقام عليه عقل من خلاصة روحه .. فى شخصية والده التى اجتمعت لها كل تلك المزايا العاليـة التى مرت بنا ، والتى طبعت نفسـه فطارت بها الى منازل العظماء النابغين .

من صميم الشعب ومن خلاصة روحه — ذلك هو المتلائم مع ما ينتظر لمهمة صدارة الشعب من نجاح ، وتلك هى العوامل المتفقة مع الأهلية لحمل التبعة العظمى فى قيادته .

احتوته هذه البيئة العادية المعروفة فى وسائل تربيتها للأطفال والناشئة، ولكن شـــخصية الوالد وما طبعت عليه ، وأثر البيت وما امتاز به ، كانا يبســـطان نفوذهما بخصـــائصهما وكان أثرهما واضـــحا بارزا ، كانت شخصية الوالد تبرز وتتصدى وتتصرف ، وكانت تدير تصرفها وتدبره أحيانا فى عمل أشبه بالالهام ، وان قرب الى فعل تدبير ذى الرأى والخطة ٠٠ وهو فى مواقف الهامه المؤمن العميق الايمان بما يفعل ، وفى تقرير رأيه وخطته البصير بسلامة الرأى الواثق من نجاح الخطة ، لا تفارقه هذه اللازمة فى كبير أو صـــغير ، بل انها تسـعفه فيعالج بها كل ما يواجهه ويعرض له من الأمور ٠

يعود فى مســـاء يوم وقد انتصف الليل أو كاد ٠٠ وطفله لم يتجاوز الستة شهور بعد ، وهو وأمه يستغرقان فى نوم عميق ، ولشد ما يدهشــه أن يجد حية كبيرة جاثمة عند الصغير ورأسها الى جانب رأسه وهى ملتفة على نفسها ، وليس بينها وبينه مسافة يمكن أن تقاس ٠٠ !

يرتاع الوالد لهذا المنظر المرعب المخيف ٠٠ وماذا يفعل ؟ لقد تســمر فى مكانه ، وما أظنه قد أتيحت له فرصة للتفكير ، فكل تصرف مع حروجة هذا الموقف مقبول وان أفسد خطة النجاة ٠٠ ولكن الهام الايمان الذى أشرنا اليه ، لن يأتى الا بما يتطلبه الموقف ، فهى عناية الله وحدها تهبط على الوالد فى هذه اللحظة وتلهمه الالتجاء الى ما تعلم من الســـنة ٠ ذكر الحديث الشريف الوارد فى التحذير من الحيات (١) فاستنجد به وما فرغ منه حتى قامت الحية فزعة تسعى لا تلوى على شىء ودخلت فى جحر كبير ، فحمد الله واطمأن على عنايته البالغة ٠

---

(١) التحذير من الحيات جاء فى حديث عبد الرحمن بن أبى ليلى عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن حيات البيوت فقال : « اذا ظهرت الحية فى المسكن فقولوا لها : انا نسألك بعهد نوح وعهد سليمان بن داوود ألا تؤذينا فان عادت فاقتلوها » رواه الترمذى وقال حديث حســن غريب ٠

ويذكرون أن سبب ذلك ما رواه مســـلم وأحمد (واللفظ له) عن أبى السائب أنه قال : أتيت ابا سعيد الخدرى رضى الله عنه فبينما أنا جالس عنـده اذ سمعت تحت سريره تحريك شىء فنظرت فاذا حيـة فقمت ٠ فقال أبوسعيد : ما بك ؟ قلت : حية ها هنا ٠فقال : فتريد ماذا ؟ قلت : أريدقتلها ٠ فأشار الى بيت فى داره تلقاء بيته ، فقال : ان ابن عم لى كان فى هذا البيت، فلما كان يوم الأحزاب استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهله — وكان حديث عهد بعرس — فأذن له وأمره أن يذهب بسلاحه معه ؛ فأتى داره فوجد امرأته قائمة على باب البيت ، فأشار اليها بالرمح فقالت : لا تعجل حتى تنظر ما أخرجنى ، فدخل البيت فاذا حيـــة منكرة فطعنها بالرمح ثم خرج بها فى الرمح ترتكض ٠ ثم قال (الســـائب) : لا أدرى أيهما كان

مثل هذا الحادث قد يكون صغيرا عاديا ولكن لا تخفى دلالته ، ولا ينبغى أن نغفل فيه موضـــع العبرة البالغة ، وحسبنا أنه يرينا كيف رعت العناية مبعوثها وكيف حمته وذادت عنه ، وكيف سارت به الى شاطىء الأمان ٠٠

★ ★ ★

— ٢ —

أول الطريق

بلغ الصبى الرابعـــة من عمره ٠٠

وهى سن يراها الوالد تؤهله لبدء مرحلة العلم والتعليم ، فأسلمه الى فقيه المكتب ليعلمه مبادىء القـــراءة والكتابة ويبدأ فى تحفيظه القـــرآن الكريم ، وأوصاه أن يعنى به ، وأفهمه أنه من ناحيته حريص كل الحرص على أن يرى نتيجة ملموسة قريبة فى حفظ القرآن خاصة ، ــ ولم ينس الوالد ما كان من أمره حين دفع به أبوه الى المكتب وهو بعد لم يحسن النطق والتمييز ــ ومكث الصغير بالمكتب غاديا رائحا نحو عام تعلم فيه شـــيئا مما يمكن أن يتعلمه الصغار فى مثل سنه ، ولو أنه أصاب من النجـــاح أكثر مما يصيبون فى بيئة تعليمية بطيئة الانتاج تقعد طبيعتها ووسائلها عن النجاح السريع لصاحب الاستعداد وتعوقه ٠

ولكن الوالد لا يرضيه هذا ولا يروقه ٠٠ انه كان يؤمل أن يكون هذا العام أوفر نتيجة وأوفى ثمارا ، فماذا تغنيه هذه السور القصيرة التى حفظها ابنه بجانب الآمال الكبيرة التى يعدها له ؟ واذن فلا بد من عمل ٠٠ لا بد له من نقله الى مكتب آخر ، عسى أن يكون حظه فيه يرضى آماله ونظرته فى ذكائه واستعداده ، وقدرته على الافادة والتحصيل بأكبر من هذا لو وجد المعلم الناضج المجد ٠ وفى هذا المكتب أدركه شقيقه عبد الرحمن (١) وكان أصغر منه بعامين ، ولكن الوالد لم ترضه نتيجة هذا المكتب أيضا فنقلهما الى مكتب ثالث ، وهكذا أخذ يتنقل بهما من مكتب الى غيره حتى لم يبق

=

أسرع موتا الرجل أو الحية ! فأتى قومه رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ فقالوا ادع الله أن يرد صاحبنا ، قال : « استغفروا لصاحبكم مرتين ٠٠ » ثم قال : « ان نفرا من الجن أسلموا فاذا رأيتم أحـــدا منهم فحـــذروه ثلاث مرات ، ثم ان بدا لكم بعدها فاقتلوه » ٠

(١) الأستاذ عبد الرحمن الساعاتى المراقب العام للاخوان المسلمين ٠

فى البلدة مكتب الا وكان لهما نصيب الانتظام فيـــه ، والوالد غير راض ولا قانع ، لأن همة نفسه ومثاليته تأبى عليـــه أن يقنع بهذه القشور التى يرضى بها الرجل العادى ويجد فيها كفاف مطالبه ، ولأن مواهبه تحفزه الى مجد نفسه الكبيرة من طريقه المشروع ٠٠ انه يريد أن تطوى هذه المرحـــلة مهما تكن طويلة ، ويريد أن يقفز بذكائه واستعداده الى نهاية هذا الشوط ٠ فما هـذه الحيـاة التى يقنع بها النـاس ويرضـــونها لأولادهم ؟ هى دورة ميكانيكيـــة آليـــة يلقون بزهرة شـــباب أبنائهم فى « آلتهـــا » ويتركونهم فيها للحظ والنصيب ، وكيف يعلقون مصير عدة الجيل والوطن « بدورتها » البطيئة ، ونظامها الخامل الممل من غير أن يعنيهم قليلا أو كثيرا ، أفاد أبناؤهم منها أو لم يفيدوا ٠٠ ؟!

ان النفس الحيـــة لتثور على هذه الأوضــــاع وتتمرد عليها وتأبى الرضوخ لها ، فهى تطلب نظـــاما وتسعى الى وسائل من وحى روحهـــا المتوثب ، فاذا لم تتح لها البيئة الاجتماعية ذلك ، ولم تمكنها النظم القائمة ، وحالت الأوضاع السائرة السائدة دون أن تعلن ثورتها عملية اجتماعيـــة ، وترسلها عالية مدوية فلا أقل من أن تسلك ســـبيلها الى ما تريد فى ثورة موضعية متأججة تعلنها فى محيطها الخاص ، تحرر بها نفسها من هـــذا الوضع وأفقه الضيق المحدود طائرة الى آفاق أوســـع وأرحب وأكثر عونا على تحقيق آمال النفس الواسعة ومطامحها العاليـــة ٠ فكأنها اذ تأخـــذ طريقها الى غايتها بوسيلة من الوســـائل المشروعة ــ التى تكيفها وفق ما تريد ــ تعلن عدم رضائها عن هذا الذى تأباه وخروجها عليـــه ؛ وما على المرء بأس ولا عيب ولا ملام أن يكون عالى الهمة ، والبـــاز لا يأوى الا عـــالى القمم ٠٠!

واذن فلن تضيق الدنيـــا بهذا الوالد الثـــائر الطموح ولن تعجزه الوسائل ، فاذا لم يكن فى بلده المكتب الذى يتفق وما يريد ففى البـــلاد المجاورة ، وهذا ما لجأ اليه ٠ نقل ولديه الى مكتب فى جهة مجاورة قريبة المسافة وأوصى الفقيه بهما خيرا ، وصارحه بأن غايته من الحاقهما بالمكتب وتحمل بعد هذه المشـــقة كل يوم ليست فى هذا الغدو والرواح والذهـــاب والجيئة يقطعانها كل يوم ، ويضيعان الوقت فيها باسم العلم والتعليم من غير أن يفيد شيئا ٠٠ لكنما هى الرغبة الصادقة فى الحصول على أوفر قسط من الفـــائدة ٠

وقد وجد فى عناية هذا الفقيه فائدة ارتاح اليهـــا بعض الراحة ، عاونها هو بعنايته بهما فى المنزل ، فأتم الأكبر حفظ ثلثى القرآن حفظـــا جيدا متقنا وحفظ الأصغر نحو ثلثة كذلك ، وقد أجاد الأكبر القراءة والكتابة اجادة تامة وحينئذ عول الوالد على أن يتعهده بنفســـه ، وعقد عزمه على أن يباشر هو مهمة تحفيظه القرآن ٠٠ وقوى هذا العزم عنده أن الحكومة أنشأت مدرســـة اعدادية بالبلدة على نظام المدارس الابتدائية الا أن اللغة الأجنبيـــة ليست ضمن منهاجها ، فألحقهما بها فى الصباح للتثقيف والدراسة على أن

يتولى هو تحفيظ القرآن بعد ذلك فى بقية اليوم ، وبذلك تم له ما أراد ، فسار مع ابنه الأكبر على طريقة المكتب بالحفظ فى اللوح ، ومازال معه حتى حفظ القرآن جميعه حفظا تاما ، وسنه لم تتجاوز التاسعة أو تبلغها ..

وقد عرفته المدرسة الاعدادية الطالب النابغ المجد المتفوق ، الذى لم يجاره فى جده وتفوقه وذكائه واحد من أقرانه ممن هم فى مثل سنه أو أكبر منه ..

* * *

— ٣ —

على الشاطىء

اشتد ساعد صاحب الروح وعرف من صغره بالصلاح وكمال الاستقامة والحرص على أداء الصلوات والاستمساك بتعاليم الدين ، وذلك ما نشأ عليه ونبت فيه ، ونمت ملكاته وظهر حسن استعداده وبدا ذكاؤه وسعة مداركه .

وقد نشأه أبوه على الطاعة والوفاء والحرية النافعة والاستقلال المفيد والترغيب فى العلم ، فأقبل عليه وتعلق به صغيرا وجد فى تحصيله ، ولم يترك له اشتغاله به من فراغ : فهو فى الصباح فى المدرسة الاعدادية ، وبعد الظهر مع والده يحفظ القرآن ، وفيما بين ذلك ألقى اليه والده مكتبة تضم كتبا تلائمه وتناسب مداركه فى الدين والفقه والنحو والحديث ، وأباح له ما يشاء من كتب فى مكتبته هو ، وكل ما يرضى شوقه الى المطالعة وشغفه بالقراءة اللذين ظهرا فيه ظهورا غير محدود .

وكان والده يساعده ويلقنه دروسا فى النحو والفقه والحديث والتفسير خاصة ، الى جانب ما تلقاه فى المدرسة وما يكتسبه بنفسه ، فلم يكن يخلو الى اللعب الا قليلا فى وقت يختلسه اختلاسا هو وشقيقه الأصغر عبد الرحمن ، ولعل بعض ميول نفسه الراسبة فى أغوارها ، واتجاهاتها الراسبة فى أعماقها فقد ظهرت فى هذا الدور ، وأخذت تطفو فى اللعب وتبدو فى حركاته وأعماله وتصرفاته فيه أكثر من ظهورها فى نواحى أخرى من منافذ النفس كالمطالعة ، وحدة الذكاء ، وتنبه الذهن ، وحضور البديهة مما عرف عنه منذ حداثته :

ففى اللعب كانت تنطلق نفسه على سجيتها ، وتبدو على طبيعتها حرة من كل قيد الا قيد هذا العالم الكبير الذى تعيش فيه ، وتسبح فى ملكوته وتستوحى من سمائه ، فكانت تتصرف بأحكام عالمها الداخلى هذا من غير أن تعير العالم الخارجى أهمية ، أو تجعل له حكما فى قياسها وحسابها ، حدث

مرة أنه كان يلعب على شاطىء النهر فرأى سفينة فى المرسى وعلى مقدمتها تمثال من الجبس لامرأة عارية فتأججت الثورة فى نفسه ، وقصد ضابط البوليس من فوره ودخل عليه شاكيا صاحب السفينة ، وقد أخذ الضابط العجب والسرور لهذا ، فالتفت اليه وقربه وسأله عن اسمه وحاله ثم قال له : ما الذى ضرك من وجود هذا التمثال ؟ فقال : ان هذه الصورة (يقصدالتمثال) حرام لا يجوز النظر اليها ، وكونها عارية يزيد فى حرمتها ، ووجودها فى مكان يختلف اليه الناس من رجال ونساء ينافى الآداب ، ولا يتفق مع الأخلاق ٠٠ فسر منه وتفاهم فورا مع صاحب السفينة وأمره برفع التمثال اكراما لهذا الصغير الغيور على الدين والأخلاق ٠٠

وكان مسلكه على كل حال يخالف مسلك الأطفال فى سنه ، اذ كانت تلونه حاجات النفس الداخلية ، وتشكله صورها الثابتة المطبوعة ، فاذا قرأ قصة الأميرة ذات الهمة ، أو قصة عنترة وما اليها من قصص البطولة ، فهو لا يصغى اليها بأذنه وكما يقع لمن فى مثل سنه ، بل انه يتابعها بوجدانه فتستهويه صورة البطولة فيها ، وتذكى حماسته ومنازع نفسه وقائع الشجاعة من حوادثها ، فتغلى الدماء فى عروقه وينهض لكى يهيىء فى المساء مع شقيقه وصغار الحى معركة يفترض فيها اغتصاب الحقوق وعدوان المغير ، ويقف الصفان وجها لوجه ، ويتقدم هو أمام صفه يقوده وبيده منشار كبير بمنزلة السيف ، ويهجم على قائد (١) صف العدو فيضربه بالمنشار على عنقه حتى يسيل منه الدم وهو يهتف :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

وهكذا كانت تبرز ميزات نفسه فى مناسباتها ومواقيتها ، وتطل من منافذها كلما أتيح لها الظهور ، وكان بالمحمودية مسجد يسمى « المسجد الصغير » ـ غير تابع للأوقاف ـ له امام اسمه الشيخ محمد سعيد كثير التخلف عن الحضور الى المسجد ، وان حضر جاء متأخرا ، فدأب هو وشقيقه على الاختلاف الى هذا المسجد واقتسما العمل فيه ، فعبد الرحمن يصعد الى سطح المنزل للأذان وهو يتهيأ للصلاة ويحتل المحراب للامامة حتى ضج الامام ، وكثيرا ما صاح فيهما مستغيثا : الآن لا عمل لى فى هذا المسجد أحدكما للامامة والثانى للأذان ٠٠ !

واستقر رأى الشقيقين يوما على الزهد والتقشف وألا يتناولا شيئا من طعام المنزل ، وكان خبزه من القمح الصافى فأضربا عنه ، وعبثا حاول أحد الوقوف فى وجه هذه الرغبة ، وأصرا على أن يصنعا خبزا خاصا لطعامهما من الشعير بأن استحضرا شعيرا وقاما بطحنه على الرحى بيدهما

(١) هو ابن الشيخ محمود نوح من أعيان المحمودية وكبار تجارها ٠

وصنعا منه فعلا بنفسهما خبزا يتناولانه ، وكانا يؤديان عملية الطحن بحماسة كبيرة ونشاط جم وسرور عميق ، وهما يرددان انشاد هذين البيتين :

سـلطان الجـوع العيش ∗ وان كان ناشـف بله
والجتـة بيسـترها الخيش ∗ وايش لازم لدا كلـه

ولما كبرت مداركهما اتجها الى الأعمـال الأكبر أهمية ودلالة اتفاقا مع تطور النفس واتساع آفاقها ، فألفا جمعية للأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر ، وقد اتسعت بهما أغراض هذه الجمعية ووسائل العمل لها ، ومطالب تنفيذ المقاصد التى تدعو اليها · فقد أرادا مرة طبع منشـورات ولم تكن بالبلد مطبعـة يمكن أن تؤدى فيها هذه المهمـة ، والحصـول على مطبعة (بالوظة) متعسر كذلك ، فتفتق ذهن صاحب الروح عن امكان اعـدادها بشراء ألواح من الغراء تذاب على النار ممزوجة بالعسل الأسود ، ثم توضع فوقها طبقة من النشـا وتصـفى فى حوض من الصفيح ، وبذلك تمت عملية اعداد بالوظة للطبع ··

ورأى كذلك أن العلة فى الرؤوس واذا فسـق المترفون هلك الآخرون فاتجه بالنصح والارشاد الى أعيـان البلد وأغنيائها ، وطبعت أول نشرة تتضمن الحض على كراهية لبس الحرير والتختم بخاتم الذهب للرجـال لحرمته ، وأذيعت النشرة وألصقت على أبواب المساجد والمقاهى ، ووزعت بالبريد على أعيان البلدة وأغنيائها ·

وكان أعضاء الجمعية يترصـدون للمخالف ويتبعونه الى المسـجد ويقفون فى صف الصلاة بعضهم عن يمينه وبعضهم عن يساره ، فاذا سلم من الصلاة صافحوه عن اليمين وعن الشمال ، فاذا كان الخاتم بيمينه نبهه صاحب اليمين ، واذا كان فى شماله قام بذلك المترضد عن الشمال ؛ وكانت عبارات النهى من الفقه والحديث ··

★ ★ ★

وكان ينتظر يوم الأحد من كل أسبوع بصبر نافد وشـوق شديد ، ذلك أنه يوم السوق فى المحمودية ، ويحضر فيه الشيخ حسن الكتبى ويأخذ مجلسه بجوار المسجد الكبير ، فيأخذ صاحب الروح مجلسه بجواره كذلك ، ويظل يقلب كل الكتب والأوراق حتى يقع اختياره على ما يريد من مطبوع ومخطوط ، ويعود بها الى المنزل وكأنما قد حاز كنزا أو احتوى ملكا ، وقد فاق سروره فرح الحكم بن الناصر حين احتاز أول نسخة من كتاب الأغانى وأغلى ثمنها فى يوم مشهود بسـوق الوراقين بقرطبة · ! هذا الى جانب ما تزخر به مكتبة والده ومكتبته الخاصـة ، فقد كان مولعا باقتناء قصص

البطولة والجهاد والغزوات والتاريخ وسير أبطال المغرب وأبى محمد البطال وسيرة بنى هلال وعنترة .. الخ ..

ومع هذا فقد كان وأخوه يقسمان وقتهما بارشاد والدهما بدقة وعناية ، ولهما جدول ثابت دقيق لترتيب الوقت وتقسيم العمل ؛ وكان دائم الحديث لشقيقه عن أمر المستقبل وطريقة رسمه ، وما سيكون من أمره فيه مع النقاش فى المسائل العلمية والقرآن والحديث .

وفى منزل الشيخ شلبى الرجال بالمحمودية كانت تعقد حلقات الذكر ، ويطالع فى فصول كتاب الاحياء للغزالى ؛ وقد سمعا عن عارف بالله اسمه الشيخ الأخضرى بدسوق فركبا مركبا بالنيل وذهبا اليه وقابلاه وتحدثا اليه ، وعادا منه بذخر كبير هو شرح حكم ابن عطاء الله ؛ وكانت للشقيقين رحلات غير هذه بعضها على القدم وبعضها بالقطار وبعضها بالنيل ، منها رحلة على الأقدام من دمنهور الى دسوق (٢٠ ك . م) وقد زاملهما فيها الشيخ محمد عامر من عباد دمنهور وصلاحها ، وقد عجز عبد الرحمن عن اتمام هذه الرحلة لصغره فتوقف معهما فى الطريق بعد أن قطع (١٨ ك . م) فحمله الشيخ محمد عامر بقية المسافة .

وكثيرا ما سارا على قدميهما الى مسافة ٧ ك . م لزيارة ضريح الشيخ سيد سنجر من الصالحين للتبرك به ، ولهما فى مساجد التوبة والبلقطرى والعمرى وغيرها من مساجد دمنهور ذكريات عاطرة بالحوادث الشيقة وأكرم الآثار .

★ ★ ★

— ٤ —

الى الهدف

فى سنة ١٣٣٩ (١) قررت وزارة المعارف تحويل مدرسة المحمودية الاعدادية الى مدرسة ابتدائية وأدخلت فيها تدريس اللغات ، وقد ألحق بها الوالد عبد الرحمن ، أما صاحب الروح فقد التحق بمدرسة المعلمين الأولية بدمنهور ؛ وقد جاز امتحان الالتحاق بتفوق فكان أول المتقدمين ، وكانت سنه اذ ذاك أربعة عشر عاما ، وهى دون سن القبول بسنة ، ولكن ناظر المدرسة لم يرقه أن يكون صغر سن طالب نابغ مبررا لحرمانه من التعليم فى سن مبكرة ، أو أن يقف فى وجه رغبته العالية ، فقبله بصفة استثنائية .

---

(١) سنة ١٩٢٠ م

وما عرفت أية بيئة تعليمية من المكتب الى المدرسة الاعدادية الى مدرسة المعلمين ، ما عرفت واحدة من هذه البيئات والمعاهد طالبا فى هذه السن ، كان نموذجا عاليا نادرا فى خلقه وكمال صلاحه ، واستعداده وذكائه الخارق ، وملكاته الواسعة وذهنه المتوقد وعلمه الوافر ٠٠ كما عرفت عن الطالب « حسن » ، فكان المثل العالى الرفيع فى هذا كله بمدرسة المعلمين ، كما كان خارجها الطالب التقى الصالح المحافظ على دينه ، يصوم شهر رجب وشعبان ورمضان ، ولا يتخلف عن هذه السنة ، وعرف بذلك واشتهر بين عارفيه ومخالطيه فظل محبوبا مهابا وقورا ٠

وفى سنة ١٣٤٠ أنشىء القسم التجهيزى لدار العلوم ، ففكر الكثيرون من الطلبة فى الالتحاق به ، وأخذوا فى الاستعداد لذلك ، فرغب فى أن ينهج نهجهم ، ولكن الوالد أشار عليه بالانتظار ، وقد عرفنا نفسية الوالد تتصرف دائما تصرفات تعمل على طى أمثال هذه المراحل واختصارها باجراء أو « عملية » يتحقق بها الحصول على ثمرة المرحلتين معا فى مرحلة زمنية واحدة ، وقد ساعدها على هذا دائما استعداد الابن ونبوغه وفرط ذكائه ٠

وما التجهيزية ؟ ان الوالد لابد أن يدرس بنفسه منهاجها ، ويقف على كل شىء من أمر مستقبل ابنه التعليمى ، ويشترك بيده وعقله فى وضع أساسه وبنائه وترتيبه ، طلب المنهاج فقارنه بمنهاج مدرسة المعلمين فرأى الفارق لا يكاد يذكر ، وعهدنا بمهمته ألا تقنع بهذا الكفاف أو ما يشبهه ، وإذن فاذا كانت للطالب رغبة علمية أخرى فلتكن بتطور الى مثل أعلى ، ورقى الى درجة أكرم وأسمى فى مماشاة للحالة العقلية والنظامية ٠

فلا بأس ، وليستعد الطالب من الآن ولكن الى القسم العالى بدار العلوم ، وهذه هى الخطوة التى يجب أن تثب اليها همة الطالب « حسن » والا ففيم هذه الجهود التى أنفقت وهذا الدأب المتواصل فى استذكار الكتب وتحصيل مختلف العلوم ؟ ! وبذلك يتاح له أن يحصل على كفاءة التعليم فى نفس العام الذى يتقدم فيه الى القسم العالى بدار العلوم فيسبق زملاءه بعامين ، وقد كان ٠٠



الطالب « حسن البنا »
بالقسم العالى بدار العلوم

ولكن تشـــاء المصادفات أن يجيء موعد الامتحان لدار العلوم قبل امتحان الكفاءة ، فيجيء الى مصر سنة ١٣٤١ لأداء الامتحان ويؤديه كعادته بنجاح وتفوق ملفت للأنظار ويرجع مسرورا ٠

وقد حدث والده بعد العودة من الامتحان بالقصة التالية :

« فى ليلة امتحان الجبر نمت وفى نفسى بعض الهم والكدر ، لأننى لم اكن متمكنا منه التمكن الذى اعتدت أن أدخل به كل امتحان فأجوزه بالتفوق الذى أريده ، وفيما أنا نائم رأيت نفسى على شاطىء نهر ومعى كتاب الجبر ، فأقبل على شيخ تلوح عليه علامات الصلاح وسلم على وقال لى : مالى أراك مهموما ؟ فقلت له : اننى خائف من امتحان الجبر ، فقال : لا تحزن وتعال معى ، فأخذنى وأنزلنى معه الى سطح الماء فركب زورقا واستصحبنى معه فيه ، وطلب منى أن أفتح الكتاب ليذاكر معى ، وأخذ يفهمنى بعض المسائل ويحلها معى ويشرحها لى وهو يقلب الصفحات ، والزورق يسير بنـــا الى الشاطىء المقابل حتى بلغناه فأنزلنى ثم ودعنى وانصرف ٠

فاستيقظت فرحا وتناولت الكتاب وأخذت أراجع هذه المسائل فوجدتها قد انطبعت فى ذاكرتى انطباعا تاما ، ولشـــد ما كانت دهشتى حين دخلت الامتحان فما كانت الأسئلة فيه الا هذه المسائل بعينها التى أفهمنيها الشـــيخ فى الزورق ، فدونت اجابتى عليها بسرعة ، وخرجت من الامتحان فرحـــا وحمدت الله ، وعرفت أن هذا نتيجة التوكل على الله والثقة به » ٠

استمع الوالد الى هذه القصـــة وهو مسرور منشرح قـــرير العين ، وسر ناظر المدرسة كذلك لنجاح طالب مدرسته وتفوقه وفاخر به ؛ وجـــاء امتحان الكفاءة بعد ذلك فأداه بنفس النجـــاح والتفوق الذى كان وقفـــا عليه ، والذى انعقد لواؤه له يناله بجدارة فى كل امتحان ، وعين معلمـــا أوليا بالفعل ، ولكنه آثر الالتحاق بدار العلوم كما أوضحنا وهى الرغبـــة التى اســـتعد لها وأدى امتحانها ، وهكذا طويت هذه المرحلة الحافلة بكثير من الحـــوادث التى يجب الوقوف عنـــدها ، ولكنا آثرنا الاجتزاء بهـــذه الاشارات المختصرة ، ولعل لنا عودة ٠٠ وعودة — أما الآن فحسبنا أن قد تعرفنا بصاحب الروح نموذجا فى الذكاء والعلم والخلق والدين والصلاح والجد وكل مقومات الانسان الكامل وهو نموذج مختار ممتاز مرموق ، فما نظرت اليه عين الا فى هذا المقام الأسمى ٠٠

ومن قمته العالية ومنارة مجده سار الى هدفه ٠

★ ★ ★

— ٥ —

ميزان

ليس فيما قصصناه عليك من أنباء حوادث صاحب الروح ما يصح أن يسمى خارقا للنواميس الجارية ، خارجا على مألوف أوضاع النفس الانسانية ، وان عز حقا بين الناس وجوده وندر نظيره ، والعظيم من يأتى بما يعجز عنه معاصروه على أبسط التصاوير ٠

ولم نجعل مهمتنا فى هذا الكتاب احصاء الخوارق أو حصرها وتتبعها ، أو ايقاع الأذهان فى ربكة سواء من واقع ملموس ، أو من خيال منسوج ؛ انما المهمة الأساسية والغرض الأول والحقيقى من كتابة هذه الصفحات فى المقصد الأسمى بتقديم حياة مثالية فى شخصية عبقرية صاحبها ، وتقديمها من واقعها المنظور وصور حقيقتها المشاهدة المحسوسة لتقريب هذه المثالية الى الأذهان والدنو بها من حياة الناس بعد أن جفت فيها هذه المثل وانطفأت معانيها ، وهى مهمة تعتمد على التبسيط لا على التضخيم ، وطبيعة التجسيم فيها — أى الاظهار — تنتهى الى تبسيط المركب ؛ ثم هى عملية تعرض هذه المثالية على العقل للايمان والاهتداء ، وتدنيها من الحواس للمحاكاة والاقتداء ٠٠

وليست المثل العليا كما قدمنا فى فصل سابق خوارق أو خروجا على نواميس البشر ، وانما هى صفات للتمايز والتفاضل ، وحتى الفضائل النفسية فى مستواها العادى المجرد يتفاضل بها الناس ويتمايزون فى هذا الحد وحيزه ، وتبقى مسافة الفوارق بينها شاغرة واسعة توضح معالم الخلف بين النفوس وتفصلها وترمز اليها ؛ وتتسع هذه المسافة فى المثاليات وتزيد فرجتها حتى تطاول السماء ٠٠ !

فصاحب الروح مثالى عبقرى ، صاحبته مثاليته وبرزت عبقريته منذ نشأته ، أطلت واضحة المعالم ، وتكونت ونمت حتى ظهرت وسيطرت فى ميقاتها ناضجة كاملة ٠

وما فى هذا من عجب ولا خارقة وان كان نادر الوقوع : فالعبقرية سمو متناول ، والمثل العليا فضائل عملية ؛ وان قلت انهما هبتان ، فلتتصورهما على ما تشاء فهما على كل حال متناولتان ٠٠ !

★ ★ ★

نقول هذا لأن صديقا مجهولا كتب الينا يقول :

« سمعت انك ستكتب عن الأستاذ المرشد وانك متتبع حياته الماضية ، جاد فى معرفة تفاصيلها ودقائقها منذ الصغر ، وأغلب ظنى انك تخال

ان ستقف فى هـذه الحيـاة على كثـير من الخوارق والمعجزات ، وانـا اريحك ٠٠ فليس فى حياة الأستاذ المرشد فى صغره شىء مما يظن من مثل هذه الخوارق ، ولقد عاصرته فى فترة من شبابه ، فكل ما كان من أمره أنه كان دائم التلاوة للقرآن الكريم ، فما رأيته مرة فى الفصـل أو المدرسة أو المنزل أو الشارع أو الطريق ، أو فى أى مكان آخر حيثما كان فى ليـل أو نهار ، الا وهو مشتغل بقراءة القرآن » ٠

وشكرا لك ايها الصديق المجهول ٠٠ وصدقنى أننى لم اطلب الخوارق فى حياة أستاذى ، ولا دار بخاطرى أنها تكون جزءا من حياته ، ولا عشـت معه فى عالمها ، أو امتزجت روحى بروحه من تأثير عجائبهـا ، وان هذا الا شعور سبق الى نفسك فسـقت به الى خيرا بالواقعة التى ذكرت ، وقد قضيت اكثر من ستة شـهور لتحقيقها حتى تحققت لدى ، وليس هذا عن عدم ثقة فى روايتك ، ولكنها الأمانة العلمية والتاريخية ، واذن فلتطمئن ، وقـد عرفت تثبتى فيما أنقله أو يصل الى ٠

أفكان الأستاذ دائم التلاوة للقرآن فى كل فترات يومه ؟ ـ لقد ألقيت الى قولا ثقيلا ٠٠ ولقد صدقت : فالقرآن ربيع قلبه ، ونور بصره ، ومصـباح روحـه ٠

القرآن هو مبدأ أمره ونهاية سيره ، وهو فاتحة الكتـاب وخاتمة الجهاد ، والحمد لله رب العالمين ٠٠

★ ★ ★

اما انا فما سعيت الى تتبع الحوادث الا لتحقيق الأمانة العلميـة فى مهمة اضطلعت بها فوجب أن أتوفر على دراستها ، وما أظننى فى هذا قـد وفيت حق المهمة وواجبها ، بل لعلنى أشعر بنقص كبير ، وكم حالت ظروف كثيرة مختلفة ـ ينبغى أن تقـدر ـ بينى وبين كل ما أريد الوقوف عليـه ، ليكون عملى على النحو الذى أنشده ، ومن أجل ذلك خرج الكتاب فى هـذا الثوب ٠

على أنه ليس فيما رويت حادثة يمكن أن تجوز عليها احكام الخارقة ، أو تنسحب عليها أركان المعجزة وهذا هو الطبعى فى حياة البشر : فدلالة حادث رؤيا الامتحان ثابتة بدونها ، وقد عرف صاحب الروح بالصـلاح والخلق الكريم ، ومثاليته فى ذلك كاملة الثبوت واضحة ، والاجماع عليها منعقد ؛ أما النجاح فى الامتحان فلعله بدونها أوقع لو كان القصـد ابراز ناحية اعجاز لا اثبات الحقـائق ، ولكن لماذا نغفل ذكر الوقـائع الثابتة الصحيحة ؟ اننا لا نتحدث عن شخصية عاشت أو تعيش فى المريخ أو مضت عليها مئات السنين ، ولكننا نتحدث عن عبقرى معاصر ، فليتدبر أصـحاب الموازين ٠٠

وان للرؤيا الصادقة ميزانها فى صفاء الروح واجتلاء النفس وزكاء الحواس ، ولم تكن نفس صاحب الروح فى هذا كله الا الجوهرة الناصعة الخالصة النقاء والصفاء ·

وصدق الدلالة فى النفس لا يعبر عنه بالخوارق ، ولا يستدل عليه بالمعجزات حتى من طبيعة فعل صاحبها نفسه ، لأن المعجز فى حياة العباقرة وأعمالهم انما هو نجاح لا يتاح للغير ادراكه ، وحالات نفسية روحية عقلية لا يرقى اليها سواهم ·

والرؤيا الصادقة من خصائص النفس ومزايا عالم الروح ، ويقرها الدين ولا ينكرها الاسلام ، ولا ترفضها حتى القوانين الفكرية الحديثة ، فماذا يبقى علينا ؟

يبقى ما أردناه أصالة من اقامة هذا الميزان وهو تقدير الأعمال الصادرة من شخص ما ، عادية كانت أو غير عادية ، فليست مقاييس الأعمال وقيمتها فى وجودها المادى وصدورها عن الحواس ، انما قياسها بالملكات المصدرة والباعثة ، وقوى النفس الفاعلة والموجهة ، والعمل الذى يؤدى اعتباطا ليس كالعمل الذى يؤدى عن قصد النتيجة الحاصلة منه ، ومع سابق لزوم تقديرها ، وحسن استعمال الملكات والقوامة على الحواس وسداد التصريف لأفعالها فى أدائه ، كل هذا له دخل وله نتائج فى ميزان قيم الأعمال ، كالمال فى يد المبذر المتلاف غيره فى يد المقتصد المجرب الحكيم ·

فليس العمل من شخص ما عاديا لأنه شابه عملا آخر فى الحياة ، أو لأن شخصا غيره أتاه ، فالغبى البليد يقوم بنفس الأعمال التى يقوم بها الذكى النبيه ، ومع هذا يبقى لذلك غباؤه ، ويثبت لذاك دهاؤه وحذقه وذكاؤه ، وهكذا سائر الأعمال ·

والفارق فى الروح الموجهة والمعانى والأفكار التى تعتمل فى النفس ، والنبوءات التى ترسل مع هذه الأعمال ، والبشائر التى يلمع ضوؤها فى تلك التصرفات ، متى سندتها حقيقة الحقائق من عبقرية الفرد وقوتها وقامت الى جانبها ، فمازتها بين الأعمال وكرمتها بين التصرفات ، وآثرتها بالخلود والبقاء ·

العمل من الأعمال مقياسه نفس صاحبه وحاجاتها ومطالبها ، وروحه واتجاهاتها وأهدافها ، وقوة سيطرة هذه المعانى ونفوذها ، ثم وضوحها فى النفس ودرجة رقيها ومبلغ عمقها واستقرارها ، والظروف التى كونتها والدوافع التى رتبتها وأظهرتها ، لأن عظمة النفس فى محيطها الخاص وبيئتها المحدودة هى أساس لعظمتها الاجتماعية التى تتحفز للظهور بها ·

وبهذا يقاس ذلك الجزء الصغير من حياة العباقرة والعظماء ممثلا فى الأعمال العادية من حياتهم فأدوار نمو الملكات ومراحل ظهور خصائص

النفس ، ومواقيت بروز الشخصية ، انما تظهر فى أعمال الانسان وتشكلها على نحو من الأنحاء ، فتكون هذه الأعمال المرآة التى تنعكس عليها التيارات النفسية والموجات الروحية التى يزخر بها الباطن المغلق ، وهـذه هى التى تمنح صفة التمييز لا العمل فى نفسه وذاته ٠

فلا تقل لى هذا عمل عادى وهذا عمل غير عادى ، فأعمـال النـاس متجانسة ، والعمل الخطير كالعمل الصغير من حيث صدوره عن الجوارح ، وانما الفوارق فى النفوس والأرواح وفى كمالات النفس المصدرة ٠

والملكات فى ابتداء نموها تصدر عنها الأعمال الصغيرة صدى لما فى النفس من عمل كبير أى من تفاعل شعورى أولا شـعورى ، ارادى أو غير ارادى ٠ فالشجاع يمثل أعمال الحروب فى طفولته ٠ وهكذا كل ملكة تصدر عنها أعمال صغيرة أو كبيرة تدل عليها ، فاذا كبر واستوت عبقريته وبلغت نضوجها وأدرك الناس أنه عبقرى فلهم أن يفسروا هذه الأعمال الماضية بما تقره العقول ، ولهم أن يستدلوا بها على ما يريدون ولن يرتكبوا بذلك شططا ٠

ولا يقلل من قيمة الأعمال أن قد جرت بها حواس أناس آخرين ليسوا من عداد العباقرة ، فهى ليست وحدها مقياس العبقرية ، ولكنها من دلالتها ووحيها : من دلالتها الواضحة فى نفس صاحبها تنطبع فى أعماله وتصرفاته، فهى ميزة فى الأعمال ، وليست الأعمال دليلا عليها ، وتبقى بعد هذا للعمل قيمته الكمية والكيفية ، كبير أو صغير عادى أو غير عادى ، بسيط أو مركب ٠



— ٦ —

وقفات

هكذا طوينا هذه المراحل مع حياة صاحب الروح : عرفناه وهو صغير يظفر به والده أملا عزيزا غاليا بعد صـبر الى اللقاء طويل ، حتى اذا بلغ الرابعة دفع به الى المكتب لحفظ القرآن الكريم والالمـام بمبـادىء القراءة والكتابة ، وأفهم فقيه المكتب أن الغاية الأساسية التى يهدف اليها هى حفظ القرآن الكريم ، فاذا أبطأ به المكتب نحو غايته ولم تسعفه وسائله وطرائقه ثار عليه وتمرد ، وهى ثورة تمس شظاياها كيان نفس الصغير وتهز أوتار قلبه فتصله بهذه الغاية التى لا يعرف غيرها ، فى مرحلة من حياته مثله الأعلى فيها والده ومن حوله ، فتنطبع بداهة بهذا الاهتمام الفائق الذى رآه من والده لأول نشأته ، والذى يراه منصرفا اليه بكل همة نفسه ٠

وما ظنك برجل لا يدع مكتبا فى البلدة الا ويقتحم بابنه بابه أملا فى الاهتداء الى أقرب المسالك وأقومها للوصول الى الغاية التى ينشدها ، فاذا فرغ من تجربة المكاتب جميعها هاجر برغبته الى البلاد المجاورة ينشــد فى مكاتبها أمله المرجى ، فترضى نفسه وتسكن شيئا ، ولكنها تظل متحفزة مترقبة، ولا تلبث أن تعاودها نزعة المثالية فتتكيف بهـا ثورتها المتأججة على هـذه الأوضاع ، وهذه البيئات التعليمية التى لا تتلاءم مع السرعة التى رتبتها عوالم نفسه ، أو كمال المثالية الذى كشف عنه مقدور آفاق ذكائه ٠

وتبدو هذه الثورة ملفوفة فى غشاء من نبوغ ذهنه وملامح نفسيته ، لتحقق غاية أخرى من غايات النفس ومطالبها ، فاذا أخرجه من هذا المكتب فليستقل هو بتحفيظه القرآن بعد الظهر فيؤمن هذه الأمنية الغالية ضــد كل عادية ، ليلحقه فى الصباح بالمدرسة الاعدادية الجديدة بالبلدة ، وينم له هذا فيفيد منه الصغير دراسة عملية ، تضـاف الى ما اسـتفاد من طوافه بالمكاتب ٠

وبيئة المكتب معروفة فى نظامها وجوها ووسائلها ، ولم تكن طريقة الوالد فى التحفيظ بمختلفة عنها كثيرا ، فهى الطريقة المعروفة المجربة المفيدة للحفظ والتحفيظ فى هذا الزمان ، ولكن غير المعروف هو الثورة عليها ، وبهذا الأسلوب تستل فيه قوى النفس للنفوذ الى غرض أسمى بتحطيم حواجز هذه البيئة التعليمية فى هدوء ولين ، أشبه بالرضوخ والاذعان ، وما هو الا ترويض لها فى مقاومة وتسخير ، أو هو على الأقل نزوع الى هذا الترويض وشروع فيه ٠٠

وشعور الطالب بعدم رضاء والده عن أى مكتب ينعكس على نفســه فيربى فيه صفة مثالية ، ويفرغ فى نفسه معانى خاصة من الكمال المبهم ، يفسرها بأن مهمته والمطلوب منه والواجب عليه غير ما لهؤلاء الكثيرين الذين يرضون بأى مكتب ، ويرضـاه أيضـا لهم آباؤهم قانعين مرتاحين مطمئنة نفوســـهم ٠٠ والا فلماذا يتنقل به والده من مكتب الى مكتب ؟ وهـذه المهمة المزدوجة التى يؤديها فى المدرسة الاعدادية فى الصباح وبعد الظهر فى البيت ٠٠ من شأن هذا كله أن يشعره بخطر نفسه ويفسح المجال للقوى العاملة فى النبوغ وفى انماء الملكات ، وهذا ما حدث فعلا : فأى مهمة لدى هذا الطالب آثر فى الحياة من الجد فى هذا السبيل الذى يكسـبه الفخار ويرضى أمل والده ، ويسعد نفسه ويحقق رغباتها الداخلية التى تنشد ذلك الأمل الذى يقدسه الجميع ؟ !

وهكذا كان القرآن الكريم ربيع قلبه ونور بصره ٠٠

واذا كان هذا المعنى قد أضـعف ثقته فى البيئة التعليمية حوله ، فانه كذلك أنفذ الى ذهنه شعاع المثالية فى كيف غير محدود فتنبهت قواها ، وأثار فيه فضيلة الاعتماد على النفس وأيقظ صفة الاستقلال فأدت كلتاهما مهمتها،

ومثل هذه الحوادث والدوافع فى محيط الصغير تغذى حاجات الطفولة فى ذلك الدور من الحياة وتنشط ادارة قانونها ومفعوله فى صلته بالغرائز ، فاذا سندتها قوة أخرى من عناصر العبقرية وروحها التى أشرنا اليها فى الفصل السابق ، كان المفعول قويا والأثر كبيرا ٠٠ وهكذا تعهدته صغيرا عوامل خاصة استقبلت استعداداته الأزلية الطبعية لفطرته القديمة وسليقته المجردة ، وكان لها أثرها فى حياته الحاضرة والمستقبلة ٠

★ ★ ★

هذا الى أن بيئة المكتب دينية خالصة ترتكز على تقاليد ومقومات ثابتة، ومرحلتها الطويلة الشاقة توحى برهبة ، وتلقى فى الروع معنى يربى الايمان بالغاية ويلهم الصبر عليها ويرشد الى العمل المتواصل لها ، وبذلك تتمرن الحواس والجوارح على هذه الفضائل عمليا ، وناهيك بقداسة الشعور بجلال هذه المهمة التى يقضى فيها المتعلم جزءا كبيرا من سنى حياته وهى حفظ القرآن الكريم : انه حين يسلم نفسه لهذه البيئة مصمما على اجتياز هذا الطريق الى نهايته ، ويقيس هذه المسافة الزمنية من حياته يشعر بقداسة وخطر المهمة من أصل طبيعتها ، ومن امتداد الزمن المتكافىء مع قيمتها ٠

وحسبنا من هذه البيئة أنها بيئة دين وتقاليد ، فاذا اتحدت معها بيئة المنزل وتحالفت بنفس هذه الميزات وبمثلها ، وقد علمنا أنها وسط العلم والدين والتقى والتقاليد تنحدر خصائصها مع الدم فيه ٠٠ أمكن أن نتصور الجو الدينى المصفى الذى شب فيه ، ونما وترعرع وتكونت عقليته ونمت نفسيته ٠

والد حريص على تنشئته تنشئة استقلالية ، شأنه فى تربية أولاده جميعا ، وهو أيضا حريص على أن يصب العلم فى قلبه صبا فروضه على المطالعة وحببها اليه ، حتى تحول هذا فيه شغفا زائدا لا يقاوم ، وحبا قويا لا يقهر ، حتى لتراه يستولى على مكتبة والده كلها ، وقد خلى الوالد بينه وبينها وأباحها له ، ولكنه لا يقنع بما ضمته من كتب ، فاذا كان يوم السوق من كل أسبوع ذهب فجلس بجوار الكتبى يقلب فيما عنده ويعود الى البيت بما يروقه منها طالبا اليه جلب الكثير منها فى الأسبوع التالى ٠

فاذا أتم السادسة عشرة فهو الطالب المجد الذى قرأ علوم الدين والتفسير والتوحيد والحديث والنحو وغيرها ، واستوعب مسائلها وقواعدها استيعاب الباحث المدقق ، وهو دائم النقاش لوالده ولغير والده ممن يحيطون به فيها ٠ أما العلوم الحديثة ــ كما كانت تسمى يومئذ ــ فقد كان فارسها الذى لا يدرك ، يقصد اليه الكثيرون من اخوانه لمذاكرتها والاستعانة بحذقه فيها ، والتاريخ والقصص وسير الأبطال والمجاهدين ٠٠ كانت كلها من برنامج وقته وما استغرقته أوقات مطالعاته وصرفت فيه ثم هو الصالح التقى المتصوف الذى لم يترك كتابا فى التصوف الا وطالعه وكان له فى مكتبته منزلته ومكانه ، ولا عجب فى هذا فمصدر العلم معرفة الله العلى الكبير

وهذه لا تأتى الا من زكاء النفس وصفاء الفكر أى من ثمار التدين ومن أثر انتاج المدرســـة الروحانية ، فليس العلم من ثمرة تربية العقل وحده دون النفس ، أو تربية النفس وتعهدها دون العقل ، بل هو من مزج هذين المعينين ومؤاخاة هاتين الحقيقتين ، فلا دين بغير عقل ، ولا عقل بغير اتصال بمصدر العلم والمعرفة وهـو الله العليم الحكيم ، ولعلنا نعود الى هذه القضـــية فى مكان آخر من الكتاب بأوسع من هذه الاشارة ·

وان الدين كما قال الأستاذ الامام محمد عبده (١) : « أشبه بالبواعث الفطرية الالهامية منه بالدواعى الاختيارية وهو قوة من أعظم قوى البشر ، وانما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى ، وكل ما وجه الى الدين فتبعته فى أعناق القائمين عليه الناصبين أنفسهم منصب الدعوة اليه أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه ، وما عليهم فى ابلاغ القلوب بغيتها منه الا أن يهتدوا بهديه ويرجعوا الى أصوله الطاهرة الأولى ويضعوا عنه أوزار البدع فترجع اليه قوته وتظهر للأعمى حكمته » ·

واذن فالمتدين عالم كبير ، والمسلم بصفة خاصة مكتشف خطير،والحكمة ضالته ، وأول آية نزلت من القرآن أشادت بالعلم ومنزلته ، والقائلون بغير ذلك جاهلون بحقيقة الدين وروح الاسلام ·

ولأمر ما اهتدى صاحب الروح بنور هذا الهدى فاعتصم بالاســـلام وحقائقه الخلقية ورجع بنفسه الى أصوله الطاهرة ، ثم كان العلم والتعليم غايته ، كل هذا والوالد مسرور مغتبط ، وقد شجعه على هذا وأغراه به حتى صار فيه طبعا ثابتا متأصلا كما رأينا ، لا يغنيه عنه مطلب مهما عز أو غلا ، أو تعوضه عن سعادته به غاية أخرى ، وقد أدرك مع كبره لذة العلم وحلاوته، وطابت له طلاوة البحث والتنقيب والجهاد فى سبيله ، فتكونت معلوماته واتسعت من مجهود نفسه وجهاده ودأبه على العلم والمدارســـة والبحث والتحصيل ، ولا أحتاج أن أقول ان هذا هو الذى كون حياته العلمية وثبت أساسها الراسخ ، وأمده بفيض الثروة الواسعة التى اكتنزها من ذخائر العلوم ، فهو ينفق منها عن سعة والناس يعجبون من أين له هذا ، وانهـا لآيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، وهو فضل الله يؤتيه من يشـاء والله ذو الفضل العظيم ·

نفس صالحة مقبلة على العلم محبة له مجدة فى ســبيله ، وعقل ذكى منصرف الى هذه الغاية متعلق مشتغل بها ، وبيئة علمية ووقت يصرف فيما جعل له ·· وهذه هى الأسس التى كونت وتكون كل عالم عبقرى وكل نابغة فى هذا الوجود ، فما خرجت المدرسة نابغة ولكنها هى مدرســـة الحيـــاة

---

(١) ص ٤٧ رسالة التوحيد ·

تكون الرجال وتصنعهم ، وهى مدرسة النفس والملكات ، ومدرسة الجهاد الذاتى ٠٠ وليس فى الدنيا نابغة أو عبقرى تخرج فى غير هذه الجامعه التى ينشئها البيت والوسط الخاص والعام ، وليس هذا البناء المحدود الضيق المحصور الذى يسمى المدرسة ٠

بيئة دينية علمية فى الوسط الداخلى والخارجى ، تعرف للعقائد قداستها وللتقاليد حرمتها ، ولهذه الغاية الجلى سموها وشرف مقصدها ٠٠ هذه هى العوامل التى ربت ملكاته ورتبتها وكونتها ، وليس أفعل من هذا ولا أقوى فى تربية الملكات فان : « قوام (١) الملكات هو العقائد والتقاليد ولا قيام للأمرين الا بالدين ، فعامل الدين هو أقوى العوامل فى أخلاق العامة والخاصة ، وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم » ٠

وعامل الدين كان موجودا فى نفسه كما أوضحنا ، ثم هو كامل موفور فى بيئته أيضا ، والعصر نفسه عصر دين وتقاليد بصرف النظر عن البيئة الخاصة ، فكان لهذا أثره واضحا جليا ٠

وانك لترى آثار هذا العامل مطبوعة فى أعماله من الصغر : فما شأن هذا الصغير بذلك التمثال للمرأة العارية ؟ حقا اننا نرى الطفل العادى يقبل عادة على مثل هذه الصورة مستفسرا ويكثر السؤال حولها وعن أجزائها ، شأنه فى كثرة السؤال والالحاح فيه عن كل ما يحيط به أو تقع عليه عينه ، ولكن هذا لا يسأل عن شىء ، انما هو يثور ويغضب وتغلى فى عروقه الدماء ، فيذهب الى الحاكم محتجا ٠٠ !!

فما هو الا النزعة الدينية فى الدم تأتلف مع غرائز النفس الأصلية وحقائقها الفطرية ، بل تغلب هذه الغرائز وتطغى عليها فتصبح هى الغريزة وهى المحركة والحاكمة صاحبة الفعل والمفعول ، أو قل هو فعل العقل ملتئما مع الدين ، أو ما سميناه سابقا تربية النفس وبعض آثاره ثمار المدرسة الروحانية ؛ فالدين « هو حاسة (٢) عامة للكشف على ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات » ٠ والعقل : « هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله والاذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال » ٠

وبهذا يمكن أن تفسر كل التصرفات الدينية الصادرة عن هذه النفس الصافية المؤمنة ، القائمة على هدى من ربها وتعاليم دينها ، المؤسسة على تقوى من الله ورضوان ، واننا لنرى هذه النفس تزكو ثم تزكو ، وترقى

---

(١) ص ١٤٥ رسالة التوحيد ٠ الامام محمد عبده ٠
(٢) ص ١٤٥ رسالة التوحيد ٠

صعدا فى مدارج الكمال ، حتى تصل الى مستواها الرفيع الذى أعده الله للمؤمنين الصادقين ، وحسبى هذا ٠٠ فليست تلك المقامات مما يمكن أن تحدد ماهيته ٠

ويعجبنى ويريحنى فى مثل هذا المقام أيضا قول الامام محمد عبده (١) : « أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء ، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال فى النوع أو الخبر ، لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شىء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يحدث به عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ومن ذاق عرف ومن حرم انحرف ؛ ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح فيهم ، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم ، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم المتلألىء فى بصائرهم الى دعوة من يحف بهم الى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة » أ هـ ٠

وفى مثل هذا القول الفصل وفيه عبرة ، وآيات القرآن كثيرة فى انارة هذا الطريق للأذهان ، وذلك الفضل من الله ، ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، وللذين أحسنوا الحسنى وزيادة ٠

وانظر اليه يأتى أحد (٢) اخوانه فى دار العلوم فيقول له : لقد اعجبتنى هذه العبارة من كلام السيد المسيح عليه السلام بما معناه : « انى اذا تحدثت الى الناس فلا أتحدث باختيارى وانما بقوة ناطقة تقهرنى على الكلام فلا أجد مفرا من مطاوعتها فأتكلم حتى يفرغ ما فى نفسى » ٠

وهذا ينير بعض الجوانب فى عوالم نفسه ويجلى حقيقة الجو الذى كان يعيش فيه والمعانى المسيطرة عليه ، ويكشف عن المنظار الذى ينظر به حتى الى مدلول الكلمات والألفاظ ، فلا يملك أن يخفى موقعها من نفسه أو يستأثر به لفرط هذا الاعجاب وبالغ أثره وطغيان معناه ٠

وبالنظر الى هذا المزاج الذى كون نفسه من ظروف وعوامل ، نجد أنها ظروف ارتقاء بالنفس وسمو بها : بيئة علمية فى البيت والمدرسة وعوامل مختلفة تتكاتف على خلق المثالية والارشاد الى منارتها ، وأحداث

---

(١) ص ١٣١ رسالة التوحيد ٠

(٢) الأستاذ البهى الخولى رئيس منطقة الأخوان بالغربية ٠

سياسية واجتماعية ، وتصرفات شخصية متفاوتة من وحى النفس وأثـر الروح ، وكلها سارت به الى غايته وأهدافه ٠

يحفظ القرآن ويتقنه ويجد فى استكمال الثقافة الدينية الواسـعة ، والعصرية المدنية على ما يسمونها ، ويبلغ من هذا نجاحا يتيحه له نبوغه وهو فى سن مبكرة جدا لم يؤلف (١) معها هذا النبوغ وذلك النجاح وتلك السعة فى تحصيل العلم والفقه به وهضمه والانتفاع منه ٠

وهو يتصـوف ويتعبد ويمضى فى أشـواط تزكية النفس ومراحـل تصفية الروح فى مسالك منتظمة معبدة كأنما ترتب له ترتيبا ، وكأنما يسير فيها على منهاج خاص موضوع ٠

تصوف يوصل الى باب الزهد فى طعام المنزل ، وتعمق بعد النفوذ من هذا الباب يطرق بابا أوسع لفلسـفة تزهدية بعيدة النظر تصـدر عنه ، تقرؤها فى هذا النشيد الذى يرتله وأخوه أثناء عملية طحن الشعير ٠

ثم الرحلات ، والسياحة ، والاتصال بالصالحين ، وغشيان المساجد ، ومجالس الذكر ٠٠ هذه كلها مراحل تحتاج كل مرحلة منهـا الى وقفـة مستقلة ، ولكل وقفة من الحوادث والوقائع ما يحتاج الى كتاب ، وهى كلها حوادث تعيد الى الأذهان ذكرى كبار رجالات المدرسة الاسـلامية الأولى وسيرة أعلامها المجاهدين ، الذين كانوا مصابيح الهداية ٠

ومن سار على الدرب وصل ٠٠ والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ٠

★ ★ ★

---

(١) ومما يذكر أن أحد زملائه فى فرقته حقد عليه لتفوقه ، وأراد أن يكيد له وينتقم منه ــ وكان يضمهما مسكن واحد ــ وفى المساء تسـلل الى حجرته وهو نائم وسكب فى عينه (ماء نار) من زجاجة كانت معـه لهذا الغرض ثم خرج مضطربا ونسى الزجاجة فلقيه بعض اخوانه وهـو مذعور فادعى أنه رأى شبحا أخافه ٠ أما صاحب الروح فانه استيقظ من فعل الألم وألهمته العناية أن يذهب من فوره ويغسل وجهه بالماء البارد ففعل ثم عـاد فنام ولم يتنبه للزجاجة الا فى الصباح فتعجب اذ أصبح فى وجهه بعض الورم من آثار الماء وعندما عرف جيرانه الأمـر أخبروه بما لاحظوه على زميلهم فى المساء وأن بعضهم رأى معه هذه الزجاجة فى النهار قبل ليـلة الحادث وأحدث ذلك ضجة بين الطلبة وانتهى أمره بالتسامح ٠ وكان هذا من الأسباب التى جعلت والده ينتقل الى القاهرة ٠

روح وروحانيـــــة

كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبيل البعثة يأوى الى غار حـــراء متعبدا منصرفا الى الله تعالى اذ حبب اليه الانقطاع عن الناس فى هذه الفترة خاصة ، ولم يكن عنده صلى الله عليه وسلم أحب من هذه الخلوة ، يركن اليها متزودا بما يكفيه من بسيط الطعام ٠

والخلوة يتوفر فيها وبها فـراغ القلب والانقطاع الى الخالق وكمال الاتصال بالعالم الربانى العلوى ، فهى فى حقيقتها انطلاق روحى يصـيبه أصحاب الرسالات ويجدون فيه متعة الروح وسعادة النفس ؛ وهى رياضة عرفتها المدرسة الاسلامية ، وتربيـــة للنفس وضـــع منهاجها على طرائق سليمة ، وفى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم أصل لهذا المنهاج ، وتطبيق لقواعده على قدر لم يخل بأصول الاجتمـاعية الاســلامية التى جعلت منه صلى الله عليه وسلم سياسيا وحاكما وقائد جيش ٠٠ الخ وجعلته ــ مع كونه العابد الذاكر القائم المتهجد ــ وثيق الصلة بالمجتمع يباشر شئون الناس فيه ويصرفها « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ٠

ولو نظرنا الى ما قاله الصوفية ، أو على الأصح لو تأملنا فى مراحل تربية النفس للفوز بسعادة الوصول الى الله تبارك وتعالى والاتصال بالملأ الأعلى ٠٠ نجد أن السبيل اليها من طريق واحد هو الاعتصام بالكتاب والسنة ومتابعة الرسول صـلى الله عليه وسـلم ، أعنى ما رسـمه الاسلام للنفس الانسانية لتسمو به الى منازل السعادة ٠

وهذا مما يدخل فى نطاق كلامنا اذا قلنا المدرسة الاسلامية ٠٠

وتمر (١) النفس بذلك فى مراحل أربع :

١ ــ مرحلة العمل الظاهر ــ من عكوف على العبادة وانقطاع الى الله واعراض عن زخرف الدنيـا وزينتهـــا ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للاشتغال بالذكر والاستغفار ٠٠ الخ ٠

٢ ــ ومرحلة العمل الباطن ــ من مجاهدة النفس وتطهيرها من الأخلاق الذميمة وتحليها بالأخلاق الفاضلة ، ومحاسبتها على الصغير والكبير من أعمالها ومراقبتها فى هذه الأعمال ٠

---

(١) هذه المراحل مأخوذة بتصرف من العدد ١٤ من مجلة الاخوان المسلمين السنة الأولى بتاريخ ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٥٢ ٠

٣ ـ مرحلة الأحوال والمقامات والأذواق والمواجيد ، وذلك أن رياضة النفس ومجاهدتها والمداومة على العبادة وأداءها يرقق حجاب الحس ويقوى سلطان الروح ، ويقذف فى القلب نورا ينكشف لها به ما لم تكن تعلم من جمال الكون وجلاله ، ودقائقه وأسراره ، وحقائقه ومظاهره ، فتجد لذلك نشوة فى الفؤاد ولذة فى المشاعر ، ولا تزال هذه المشاعر ـ التى يسميها القوم واردات وأحوالا ـ تقوى فى النفس حتى تصير صفة لازمة لها فتكون مقامات ، ثم تتوارد على القلب واردات أخرى هى أحوال جديدة تقوى فتصير مقامات ، وترقى بها النفس الى المرحلة الرابعة وهى :

٤ ـ مرحلة الوصول ، أى زوال الحس وتجرد النفس ووصولها الى مرتبة شهود الحق بالحق ، وليست هناك عبارة تحد تلك المرحلة أو تحيط بوصفها ، وكل ما يعرف السالكون عنها لمحات بوارق أنوار القرب منها فيدفعهم ذلك الى السير ٠

قد فصل القرآن الكريم والسنة المطهرة حدود المرحلتين الأولتين وأرشد اليهما ، وهما الأساس واللب ، والمرحلة الثالثة لا تحد بأوصاف لأن الأذواق والمواجيد لا حد لها ، وهى عند كل شخص بما يناسبه فهى شخصية لا عامة ، ومطلقة غير محدودة ، فهى اذن مرحلة خاصة ، والرابعة فوق الأفهام وليس للكلام مؤدى فى أمر لا يفيد فيه الا العيان ٠٠ !

وعندنا أن المرحلتين الأخيرتين تأتيان عفوا من الأولتين فالأولتان واجبتان ، والأخيرتان هديتان ـ فاشتغل بما وجب ، يصلك ما وهب ٠٠

★ ★ ★

وقد وضعنا هذه الخطوط من منهاج المدرسة الاسلامية وآراء معلميها فى تربية النفس وتكوينها لنتأمل المراحل التى مرت بنا من حياة صاحب الروح منذ نشأته الأولى ، وسنجد فيها ـ فيما نجد ـ مقومات أركان هذا المنهاج الاسلامى مجتمعة فى الدراسة والتطبيق العملى ، أى التحصيل والعمل ، أو الاستمداد والامداد ٠٠ هذا الذى لا يكون الا بعد تذوق فهو تصريف العارف المتمكن ، وتوجيه الخبير المكين ٠

وانك لن تجد من تصرفاته وأعماله وما مر به من أدوار وما كونه من ظروف أثر فيه من عوامل ، ليس فى شىء من هذا يخرج به عن مجال هذين الركنين : « الدراسة والتطبيق » ، فأشرقت نفسه ولمعت فيها أنوار الهداية ، وأضاءت له سبيل سعادة النفس فأدرك هذه السعادة فى محيط نفسه بالسمو بها سموا روحيا لخصها ـ وجعل لبها ـ فى تلطيف آلام الآخرين ، بامتزاج سعادته الفردية بسعادة المجموع بالفناء فيه ٠٠ وتلك هى أسمى أنواع السعادات ، وهى نتيجة لازمة للمراحل التى تنقل بحياته فيها ٠٠

وانما وقفنا عند هذا المعنى لنقول ان أصحاب الدعوات والفكر لابد لهم من هذا الدور أو ما يؤدى الى نتيجته ان كانوا حقا رجال دعوات ، فكيف برجل الدعوة الاسلامية ؟! ·

ولقد أخذ صاحب الروح قسطه من هذا الدور وافرا كاملا كما مر بنا وعرفناه عن تصوفه وسياحاته وأذكاره واتصاله بالصـــالحين ·· الخ ··

وان هذا الدور هو الذى ينقل نفس الداعية ويصعد بها الى هذا العالم الذى تكيفه كل نفس بحسب حالتها وحالة مجتمعهـا ، ثم هو الذى يمدها بالقوة الروحية التى تهبها قوة خارقة عجيبة هى عدة النصر دائما فى كل ما عرف من معارك ، فليس النصر فى حقيقته الا غلبة القوى المعنوية ، أو نتيجة السيطرة على زمام هذه القوى والتحكم فى منابعها ، وهذا يأتى أولا من قوة داخلية ذاتية مبعوثة من قوة النفس ومرسلة من سلطان الروح ·

ويرقى بنا هذا الى حقيقة أكبر وأهم ، وهى أن القيادة لابد لهـا من السلطان الروحى ، والفكرة نفسها أو الدعوة والمبادىء لابد لها من هـذا الجانب أيضا ، وهذا الركن من مقومات القيادة هو أول العناصر فيها وأهمها وأقواها ، وعليه يتوقف وجودها ونجاحها ، وكذلك هو سر نجاح الدعـوة وأساس بقائها ، ثم هو حقيقتها ـ لأن القيادة ليست صفة تنتحل أو توهب ، ولا هى ثوب يرتديه المرء متى شاء ، أو عمل يزاول وصناعة تؤدى وتتعاطى، ولكنها حقيقة وكيان وروح وأمر معنوى ، وهذه جميعا انما تكونها وتربيها الروحانية التى تســيطر على القائد فى معانى نفســه ، فتوجد فيه وله معنى القيادة وحقيقتها ، ثم تربطه بالناس كذلك فتمنحه صفة قيادتهم قيادة حكيمة وعملية ·

فليس هذا الركن فى شخصية القائد من العوامل المنفصلة عنـه ، بل انه أمر رئيسى وثيق الاتصال بوجود أصول عنصر القيادة فيه من حيث كونها حقيقة موجودة ، لا أقول انه كحاسة من حواسها بل كمركز العقل المصرف للحواس كلها والمسيطر عليها ، لأن هذه القوة الروحية فى القائد تسبغ عليه السلطان الروحى وعليها عماد نجاحه ·· وانما نعنى القوة الروحية الحقة النقية ، والسلطان الروحى الخالص : القوة المتحصلة من ثمرة صفاء النفس ونقاء الروح فى تكون حالة سمو متعادل ، أعنى بعيدا عن التفريط والافراط ، وحده العملى ومظهره الوجودى قد وضحه الاسلام وجعل مستواه فى الأخذ بنصيب من الدنيا والآخرة كلتيهما ·

ولا نريد أن نخرج عن موضوعنا بالطواف حول هذه المعانى ، وحسبنا أن نقول اننا نقصد فيما نرمى اليه ـ أو فى ناحية مما نرمى اليه ـ بالقوة الروحية فى الفرد ، سلطانه على نفسه أولا وتمكنه من اسلاس قيادها ، فهى قدرة نفسه على نفسه وحكمه اياها ترقى حتى تنقلب أو تتطور فتصبح قوة وسيطرة وسلطانا على الآخرين ·

★ ★ ★

أما فى الدعوة والفكرة أو المبادىء نفسها ، فان أظهر ما يمكن أن يشار اليه من هذه القوة المستترة المضمرة هو التجاذب الروحى بين هذا الثالوث المنسجم : القائد والشعب والمبادىء ، وهذا يقتضى أن يكون رحيق هذه المبادىء من محلول يتركب مزيجه من خلاصة آمال الشعب وآلامه أيضا .. من ثمرة زهرة ايمان قائد من خلاصة الشعب وروحه ، ذاق هذه الآلام وصهرته « بوتقتها » وعرف آماله وارتوى منها ، وأنبتته وأنضجته شجرتها .



قائد الدعوة الاسلامية الأستاذ « حسن البنا »

ومتى كانت المبادىء نفسها كذلك ، كانت لها القوة الروحية التى تثبتها وتحرسها وتضمن لها البقاء ، لأنها حينئذ تتصل بمشاعر الناس واحساساتهم ووجداناتهم ، فاذا قام عليها قائد تربطه بها الصلة الروحية أيضا ثم تربطه مع الشعب وتوثق صلته به العوامل التى أشرنا اليها ·

اذا كان هذا كله فقد كمل توفر المعنى الروحى فى الفكرة ، وتم قيام هــذا العنصر الرئيسى فيها ، وهــذا طرف من الحقيقة الكـــبرى التى أردنا الاشارة اليها ·

ويبقى بعده أن نقول : ان الرسالات العامة الروحية هى أقوى الرسالات أثرا فى نهضات الأمم ، والقيادات الروحية أبلغ سيطرة على الشعوب ، وكل فكرة اصلاحية ، أو مبادىء يراد أن تقوم عليها نهضة من النهضات أو تشاد عليها حضارة من الحضارات ، اذا لم يتوفر لها الجانب الروحى فانها تفقد ــ كما ذكرنا ــ عنصر الحياة والبقاء ·

ما من أمة استبدلت حياة بحياة ولا حالا بحال ، ولا انتقلت من وضع الى وضع ، الا وكان السبب فى ذلك رسالة روحية تتصل بألباب النــاس وقلــوبهم وأرواحهم وتهيمن على هــذه القلـــوب والأرواح وتتمكن منهـــا فتوجههـا · فاذا كان ذلك ســـخرت الأجســـام والعقول والقوى والمواهب والكفايات كلها لتحقيق هذه القوى الروحية التى آمن بها الناس واطمأنوا اليها ·

هذه الرسالات الروحية هى وحدها التى غيرت وجه التاريخ فى حيــاة الأمم المختلفة ، فليست الاصلاحات الادارية أو التشريعية ، وليست النظريات العلمية أو الحقائق الفكرية ، ليس هذا وحده هو الذى تتغير به أوضـــاع الأمم أو يغذى نهضـــاتها ولكنه أولا وقبل كل شىء آخر مهما كان ، انه : « الرسالات الروحية » ·· فهى وحدها ولا سواها ، التى تنقل الأمة من وضع الى وضع ومن حياة الى حياة ، وهى التى تحرك العوامل الأخرى وتدفعها وتعبئها وتسيرها فى ركابها لخدمة النهضة ، ولولاها لما كان لهذه من فعل أو أثر ·· بمعنى أن هذه العلوم والمعارف والنظريات أو الفنون والتشريعات، ان لم تكن لها صفة القومية التى تسبغ عليها صفة الروحية وتجعلها منسجمة مع الرسالات الروحية العامة للأمة ، فانها لا تفيد فى النهضة بل تكون عاملا معوقا ، ومن هنا كانت الرسالات الربانية هى أوضح الرسالات الانسانية فى نهضات الأمم ، لأن الناس يسيرون فى حياتهم اليومية مستنيرين بأضــواء عقولهم ، ونور العقل وحده قاصر ،ضعيف لا يدرك كل حقائق الحياة . وهو فيما أدركه لم يصل الى كل ما له من خواص ، ثم هو بعد ذلك قاصر عن ادراك كل حقائق الحياة ، غير مستطيع تكييف الأمور تكييفا صحيحا سيما ان كانت بعيدة عنه ، ولذا أبت رحمة الله الا أن يمد هذا العقل الانســـانى بالوحى والأنبياء والرسالات ، الوحى يتنزل بين الفينة والفينة ، والرســـل يحملون مشاعل النور الى الناس ، وينقلونهم من طور الى طور بهداية وتســـديد ، وتوفيق معصوم ·

وتمتاز الرسالات الربانية بأنها أعمق أثرا فى النفوس،وبأنها معصومة من الخطأ لأنها من وحى الله العليم الخبير لا من صنع العقول القاصرة ٠

وقد مرت الانسانية بأدوار من هذه الرسالات حتى جاء خاتم الأنبياء أستاذ البشرية الأعظم ومحرر العقول وهاديها محمد صلى الله عليه وسلم ، فكانت رسالته هى الخاتمة التى أراد الله أن تكون نهاية الرسالات ، وأن تكون جماعا لفضائلها وجميل آثارها ، وأن تكون عامة للأمم والشعوب ٠

ولهذا جاء الاســلام ــ فتضمن فيما تضمن ــ رسالة روحية عامة ، نقلت الانسانية من وضع الى وضع ، وكانت رسالته الروحية العامة دعامة النظام السياسى والاجتماعى ، وكل ما اشتمل عليه الاسلام من أوضــاع مدنية أو اصلاحية ٠

زكى الاسلام الروح وقواها ، ثم أحال قوتها الى اقامة المنافع المادية التى هى واقع المجتمع وجانب الحياة الملموس عند الناس ، فكان نظـاما شاملا يفرض نفسه على كل مظاهر الحياة ، ويفتى فى شئونها ويتغلغل فى أعماقها ، ثم هو يتخذ من هذه القوة فى الفرد وفى الجماعة قوة الحراسة والدفاع ، وعدة الغزو والاتساع ، وهكذا ٠

وهذا عين ما قصدنا اليه من هذه الوقفة لنطل من هذه المنافذ جميعا على جوانب نفسية صاحب الروح وحياته الفسيحة ، ثم لنقول : انه لا نجاح لقائد تخلى عن الناحية الروحية أو تخلت عنه ، فهى بالنسبة له ليســت كموهبة من المواهب ، أو حاسة من الحواس ، ولكنها العقل ، وهى الروح الذى يفيض الحياة ويهبها ، وهى الجيش الذى يحمى هذه الحياة ويقـوم عليها ٠٠

فاذا أطلت الروحانية فى حياة قائد من القادة ، ظهرت ملامحها فى شخصيته ، وبدت أضواؤها فى سيرته وتصرفاته ، وتجلى سلطانها فى أعماله وحركاته وتوجيهاته ٠٠

كان هذا من آيات توفيقه ، وكان هو الفجر الصــادق لقيادته المظفرة المسددة الناضجة ٠

ولن يكون هذا الرجل أبدا ــ وأكاد أقول بفطرته ــ الا قائدا لأمته ٠٠

ولن يكون الا رجل الوقت والجيل والقائد المنتظر ٠٠

★ ★ ★

الفصل الرابع

فى الميـدان

— ١ —

على المسرح

بهذه النفس العظيمة التى صورنا ملامحها ، وعرفناها بما تحمل للدنيا من آمال واسعة ومرحمة سابغة ·· وبهذا القلب الكبير الذى أنصت لشدو الآمال فاستعذبها وارتقى الى سمائها ·· وبهذه الهمة الرحبة الفسيحة التى رباها وبعثها الأنين المتواصل والهمس الخافت للشعوب المهضومة ، فلبت وسارعت الى النجدة · ودفعها شوق البطولة الى زحمة النضال الشريف فى حومة معارك العمل على تحريرها ·· وبهذا المزاج المتين المتناسق والعوامل المتوافقة المتلائمة ، التى أقامت بناء هذه الشخصية على الأساس السليم من قواعد تكوين النفوس وتربية الملكات ·· بهذه المعالم الواضـــحة كلها ، والقسمات المشرقة لشخصية من صـــميم الشـــعب ومن خلاصة روحه ، صقلتها وعجمت عودها آلامه ، وغذتها وأذكت حيويتها آماله — فهى منه واليه : روح من جوهر ذلك النور المتألق فى سماء الخلود ، المضىء من التئام دورة كهربائية آلام الشـعوب وآمالها واحتكاكها فى فلك الزمان ، فهو كريم العنصر طيب الجوهر ، عريق بانحداره من أطايب أصول الشـعب وصـحة انتسابه الى صميم روحه ··

بهذه الشخصية التى اكتملت لها كل الموافقـــات من عوامل وظروف البيئة الخاصة والعامة فى البيت والمدرسة والمجتمع العام ، فألمت بأطراف المكونات الحقيقية لبناء النفس ولاءمت بين عناصرها — النفس الطائفة بخضم الحياة تغوص فى أعماقها وتسبح فى ملكوت حقائقها ، فتقبس من كل حقيقة ضوءها ، وتتناول من كل شـــعاع عنصر الحياة فيه ، فنمت ملكاتها فى ميقاتها ، وظهرت تنساب فى أناة تؤدى رســالتها ووظيفتها ، فجاء كل شىء سائرا فى نظامه والى منتهاه ومداه ··

بهذه الحقائق كلها ، فى هذه النفس الكاملة العدة والسلاح ، المجهزة بمراتب الكمال ، وثب الأستاذ حسن البنا الى غمار الحياة فى ميدان النضال بمهمته المحدودة التى اختارتها له الرسميات كما اختارتها للآلاف من غيره

وحصرتهم فيها ، وهى المهمة التى عرفها عنه الناس وعرفوه بها يومئذ (١) مدرسا بمدرسة الاسماعيلية الابتدائية ٠

وماذا عسى أن يفعل فى هذا المعترك ؟ ماذا عسى أن يصنع هذا المدرس وفى البلد سوق الزعامات الزائفة تروج فيها المضاربات السياسية ، وعلى مسرح الضلالات حشرات وطفيليات من حملة أوبئة الأفكار وعدوى المذاهب ، وجراثيم المبادىء الدخيلة التى يروج لها تجار السياسة والمشعوذون ، وسماسرة المستعمرين وصنائع الغاصبين ، من المتخرجين فى مدرسة الاستعمار التى أنشئت من قبيل حوادث الثورة العرابية لتخريج جيل ممالىء متخاذل ، وتطورت وتشكلت مع الأيام ، ففى كل مناسبة يجد المستعمرون من رجالها أدواتوأخدانا ممن اتخذوا السياسة حرفة وكلمات الاصلاحونداءاته تجارة ، فهم يعيشون من هذا الدخل على حساب البلد المنكوب ٠٠!

ماذا عسى أن يصنع هذا المدرس وفى البلد آلاف المدرسين مثله ؟ ألا ينصرف الى عمله الرسمى القليل الأعباء وما أعذبه ، وما أسعد النفس حينئذ بهذه المهمة ومتعتها ٠٠ !

ماذا عسى أن يصنع ؟ هنا تظهر عبقرية هذه النفس الكبيرة بقلبها الكبير ، وتبدأ قصة الايمان الخالد والمجد الرفيع ، قصة الجهاد والبطولة والنضال والشرف والتضحية والفداء ، وكذلك يضرب الله الحق والباطل ٠

استمع الى صيحته الأولى لأول مرة فى الميدان عندما أعلن دعوته :

« فى هذا الصخب الداوى من صدى الحوادث الكثيرة المريرة التى تلدها الليالى الحبالى فى هذا الزمان ٠٠ وفى هذا التيار الجارى المتدفق الفياض من الدعوات التى تهتف بها أرجاء الكون ، وتسرى بها أمواج الأثير فى أنحاء المعمورة مجهزة بكل ما يغرى ويخدع من الآمال والوعود والمظاهر ــ نتقدم بدعوتنا :

هادئة ٠٠ ولكنها أقوى من الزوابع العاصفة ، متواضعة ٠٠ ولكنها أعز من الشم الرواسى ، محدودة ٠٠ ولكنها أوسع من حدود أقطار هذه الأرض جميعها ، خالية من المظاهر الزائفة والبهرج الكاذب٠٠ولكنها محفوفة بجلال الحق وروعة الوحى ورعاية الله،مجردة من المطامع والأهواء والغايات الشخصية والمنافع الفردية ٠٠ ولكنها تورث المؤمنين بها ، والصادقين فى العمل لها السيادة فى الدنيا والآخرة ٠٠ » ٠

---

(١) سبتمبر سنة ١٩٢٧

واقرأ نبذة من مذكراته نشرت فى مجلة الاخوان المسلمين سنة ١٣٦١ (١) :

« فى يوم الاثنين الموافق ١٩ من سبتمبر سنة ١٩٢٧ — ويؤسفنى ألا أذكر التاريخ الهجرى الموافق لهذا اليوم — اجتمع الأصدقاء ليودعوا صديقهم المسافر الى الاسماعيلية ، ليتسلم عمله الجديد الذى أسند اليه ، وهو التدريس بمدرسة الاسماعيلية الابتدائية الأميرية ٠

ولم يكن هذا الصديق يعرف عن الاسماعيلية شيئا كثيرا من قبل ، الا أنها بلد ناء بعيد فى شرق الدلتا الأقصى ، يفصله عن القاهرة فضاء فسيح من رمال الصحراء الشرقية ، ويقع على بحيرة التمساح المتصلة بقناة السويس ، وأخذ الصديق يستقبل أصدقاءه ليودعهم ويودعوه ، وأخذ الأصدقاء يتجاذبون أطراف الحديث ، وكان فيهم محمد أفندى الشرنوبى ، وهو رجل ذو تقوى وصلاح ، فكان مما قال : « ان الرجل الصالح يترك أثرا صالحا فى كل مكان ينزل فيه ونحن نأمل أن يترك صديقنا أثرا صالحا فى هذا البلد الجديد عليه » ، وأخذت هذه الكلمات مكانها من نفس الصديق المسافر ، وانفض الجمع ، واستقل المسافر قطار الضحى ليصل الى الاسماعيلية ظهرا حيث يواجه لأول مرة حياته العملية وجها لوجه ٠٠

وسار القطار ، والتقى المسافر بزملاء له ، عينوا حديثا فى نفس المدرسة التى عين فيها ، وكان منهم على ما يذكر محمد بهى الدين سند أفندى ، وأحمد حافظ أفندى ، وعبد المجيد عزت أفندى ، ومحمود عبد النبى أفندى ، والتقى المسافر بزميل مدرس بمدرسة السويس الابتدائية للبنات ، ينتمى الى الطريقة الحامدية الشاذلية ، ويفضى اليه المسافر بآماله فى الاصلاح الاسلامى والدعوة الى الاسلام ، ثم يكتب عنه فى مذكراته هذه العبارة : « هذه الفرصة القصيرة لا تكفى للحكم على نفسية الرجل وروحه ، وان بدا لى أنه انسان يعيش ليحفظ حياته بعمله : يسعد بعقيدته فى ربه ودينه وشيخه ، ويسر بما يرى حوله من مظاهر احترام الاخوان له » ٠

واذن فقد كان المسافر لا يفكر فى أن يعيش ليحفظ حياته بعمله فقط ، واذن فقد كانت عقيدة المسافر لا ترضى أن تكون قاصرة عليه وحده ٠ واذن فقد كان هم هذا المسافر شيئا آخر غير ما يرى من مظاهر احترام الاخوان له ٠

وصل القطار الى محطة الاسماعيلية ، وتفرق المسافرون كل الى وجهة ، وأشرف صاحبنا على هذا البلد الجميل ، الذى يبدو جماله كأروع ما يكون اذا نظر اليه المسافر من فوق قنطرة سكة الحديد ، واستهوت هذه المناظر قلب القادم الجديد وأخذت بلبه ، فوقف هنيهة وسبح لحظة فى عالم من الخيال والمناجاة يحاول أن يقرأ فى لوح الغيب ما كتب له فى هذا البلد الطيب ،

---

(١) سنة ١٩٤٢ ونأسف لأن المجلة لم تواصل نشر هذه المذكرات ٠

ويســأل الله تبارك وتعالى فى حرارة وصــفاء مناجاة ، أن يقدر له خير ما فيه ، وأن يجنبه فيه الشرور والآثام ، فانه كان يحس من أعماق قلبه أنه لابد له فى هذا البلد من شــأن غير شــأن هؤلاء الغادين الرائحين من أهله وزائريه ..

ويصل المسافر الى الفندق فيودع فيه حقيبته وليس معه غيرها ، ويزور المدرسة التى سيعمل فيها ، ويلقى الناظر والمدرسين ، ويتناول الجميع أطراف الحديث ، ويتعرف هذا الضيف الى صديق له قديم ، هو الأســتاذ ابراهيم البنهاوى افندى المدرس القديم بالمدرسة ويرغب أن يرافقه فى سكنه ، فاذا بهذا الصديق يؤثر أن يسكن فى « بنسيون » ولا يرى صاحبنا الضيف بأسا فى موافقته على ما يرى ، ويحتل الصديقان غرفة واحدة فى نزل الســيدة « أم جيمى الانجليزية » ثم فى نزل « مدام ببيتا الايطالية » .

ويقضى هذا المدرس الجديد وقته بين المسجد والمدرسة والنزل ، لا يحاول أن يختلط بأحد ، ولا أن يتعرف الى غير بيئته الخاصة من زملائه فى وقت العمل ، أما وقت فراغه فهو مكب فيه على رياضة أو دراســة لهذا الموطن الجديد ، من حيث أهله ، ومناظره ، وخصائصه ، أو مطالعة أو تلاوة ، لا يزيد شــيئا مدى أربعين يوما كاملة ، ولم تزايله لحظة من اللحظات كلمة الصديق المودع :

« ان الرجل الصالح يترك أثرا صالحا فى كل مكان ينزل فيه ، وانا لنرجو أن يترك صديقنا أثرا صالحا فى هذا البلد الجديد عليه » .

وفى المســجد اســتطاع هذا النزيل الجديد أن يعرف كثيرا من أنباء الاسماعيلية الدينية وظروفها الاجتماعية وقد عرف فيما عرف أن هذا البلد الذى تغلب عليه النزعة الأوربية، اذ تحيط به المعسكرات البريطانية من غربيه وتكتنفه مستعمرة ادارة شركة قناة السويس من شرقيه ، وهو محصور بين ذلك ومعظم أهله يعملون فى هاتين الناحيتين ويتصلون بالحياة الأوربية من قريب ، وتطالعهم وجوه الحياة الأوربية فى كل مكان .

هذا البلد مع هذا كله فيه شعور اسلامى قوى وفى أهله حب للاسلام وللعاملين له والتفاف حول العلماء وتقدير لما يقولون .

ولقد عرف هذا النزيل فيما عرف ، أن مدرسا اسلاميا سبقه فى هــذا البلد وطلع على أهله بنظرات فى الفكرة الاسلامية بدت غريبة أمام معظمهم ونشط لمقاومتها بعض علمائهم ، فنتج عن ذلك انقسام بين الناس وتحيز لآراء وأفكار لا تجتمع عليها القلوب ولا تنبنى معها الوحدة المنشودة التى لا تتحقق بدونها غاية .

فأخذ يفكر فيما يصنع وكيف يواجه هذا الانقســام وهو يرى أن كل متكلم فى الاسلام يواجهه كل فريق بفكرته ويحاول أن يضمه الى جانبه أو أن

يعلم على الأقل أهو من حزبه أو من أعاديه وهو يريد أن يخاطب الجميع وأن يتصل بالجميع وأن يلم شتات الجميع ·

فكر طويلا فى ذلك ثم قرر أن يعتزل هذه الفرق كلهـــا وأن يبتعد ما استطاع عن الحديث الى الناس بالمسجد · فالمســـجد وجمهور المسجد هم الذين ما زالوا يذكرون موضوعات الخلاف ويثيرونها عند كل مناسبة · واذن فليترك هذا النزيل المسجد وأهله وليفكر فى سبيل أخرى يتصل بها بالناس · ولم لا يتحدث الى جمهور « القهوة » فى « القهوة » ·

ساورته هذه الفكرة حينا ثم اختمرت فى رأسه وبدأ ينفذها فعلا واختار لذلك ثلاثة « مقاه » كبيرة تجمع ألوفا من الناس ، ورتب فى كل منها درسين فى الأسبوع وأخذ يزاول التدريس بانتظام فى هذه الأماكن ، وقد بدا هــذا اللون من ألوان الوعظ والتدريس الدينى غريبا فى نظر الناس أولا ثم ما لبثوا أن ألفوه وأقبلوا عليه ·

كان المدرس دقيقا فى أسلوبه الفريد الجديد ، فهو يتحرى الموضوع الذى يتحدث فيه جيدا بحيث لا يتعدى أن يكون وعظا عاما تذكيرا بالله واليوم الآخر وترغيبا وترهيبا فلا يعرض لتجريح أو تعريض ولا يتناول المنكــرات والآثام التى يعكف عليها هؤلاء الجالسون بلوم أو تعنيف ، ولكنه يقنع بأن يدع شيئا من التأثير فى هذه النفوس وكفى · وهو كذلك يتحرى الأسلوب فيجعله سهلا جذابا مشـــوقا خليطا بين العامية أحيانا والفصحى أحيانا ويمزجه بالمحسوســـات والأمثال والحكـايات ، ويحاول أن يجعله خطابيا مؤثرا فى كثير من الأحيان ، وهكذا يتحايل دائما على جذب هذه النفوس بأعنة الرغبة والشوق الى ما يقول ، وهو بعد هذا لا يطيل حتى يمل ، ولكنه لا يزيد فى الدرس على عشر دقائق ، فاذا أطال فربع ساعة مع الحرص التام على أن يوفى فى هذا الوقت معنى خاصا يقصد اليه ويتركه وافيا واضــحا فى نفس السامعن · وهو حين يعرض فيما يعرض لآية أو حديث يتخيرها تخيرا مناسبا ثم يقرأها قراءة خاشعة ثم يتجنب التفاسـير الاصـطلاحية والتعليقات الفنية · ويكتفى بالمعنى الاجمالى يوضحه والاستشهاد المقصود بشرحه ·

كان لهذا المسلك أثره فى الجمهور الاسماعيلى وأخذ الناس يتحدثون ويتساءلون وأقبلوا الى هذه المقاهى ينتظرون · وعمل هذا الوعظ عمله فى نفوس المستمعين أنفسهم وبخاصة المواظبين منهم فأخذوا يفيقون ويفكرون ، ثم تدرجوا من ذلك الى سؤاله عما يجب أن يفعلوا ليقوموا بحق الله عليهم وليؤدوا واجبهم نحو دينهم وأمتهم وليضـمنوا النجاة من العذاب والفوز بالنعيم ، وابتدأ هو يجيبهم اجابات غير قاطعة جذبا لانتباههم واسـترعاء لقلوبهم وانتظارا للفرصة السانحة وتهيئة للنفوس الجامحة ·

وتوالت الأسئلة على المدرس من هذه القلوب المؤمنة الطيبة ، ولم يشف غليلها هذا الجواب المقتضب ، وألح نفر من الاخوان فى وجوب رسم الطريق

التى يجب أن يسلكوها ، ليكونوا مسلمين ينطبق عليهم بحق وصف الاسلام ٠ هم يريدون أن يتعلموا أحكام الاسلام بعد أن تحرك وجدانهم بشعور أهل الاسلام ، فيشير عليهم المدرس باختيار مكان خاص يجتمعون فيه بعد دروس المقهى أو قبلها ليتدارسوا هذه الأحكام ، ويقع اختيارهم على زاوية نائية فى حاجة الى شىء من الترميم لتصلح لاقامة الشعائر ٠

يالله ، ما أطيب قلب هذا الشعب وما أعظم مبادرته الى الخير متى وجد الداعية المخلص البرىء : لقد أسرع هؤلاء الاخوان وفيهم أهل المهن المعمارية المختلفة الى الزاوية يرممونها ويستكملون أدواتها ويهيئونها لما يريدون ، وفى ليلتين اثنتين استطاعوا أداء المهمة على أكمل وجوهها ، وانعقد بالزاوية أول اجتماع ٠

كان المجتمعون حديثى عهد بالتعبد أو بعبارة أدق كان معظمهم كذلك ، فسلك بهم المدرس مسلكا عمليا بحتا ، انه لم يعمد الى العبارات يلقيها أو الأحكام المجردة يرددها ، ولكن أخذهم الى « الحنفيات » توا وصفهم صفا ووقف فيهم موقف المرشد الى الأعمال عملا عملا حتى أتموا وضوءهم ثم دعا غيرهم ثم غيرهم ، وهكذا حتى أصبح الجميع يتقنون الوضوء عملا ثم أفاض معهم فى فضائل الوضوء الروحية والبدنية والدنيوية وشوقهم بما ورد فى مثوبته من الأحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ٠ من مثل قوله عليه الصلاة والسلام « من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره »وقوله صلى الله عليه وسلم « ما من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلى ركعتين يقبل بقلبه ووجهه عليهما الا وجبت له الجنة » يثير بذلك شوقهم ويرغبهم فيما ندبهم الله له ٠

ثم ينتقل بهم بعد ذلك الى الصلاة شارحا أعمالها مطالبا اياهم بأدائها عمليا أمامه ذاكرا ما ورد فى فضلها مخوفا من تركها وهو فى أثناء ذلك كله يستظهر معهم الفاتحة واحدا واحدا ويصحح لهم ما يحفظون من قصار السور سورة سورة ، مقتصرا فى حديثه اياهم على الكيفيات المشربةبالترغيب والترهيب لا يحاول أن يفرع المسائل أو يلجأ الى المصطلحات الغامضة حتى رقت للأحكام قلوبهم ووضحت فى أذهانهم صورها ، ولم تعد هذه الناحية الفقهية البحتة تبدو لهم خشنة جافة ٠

ثم هو فى أثناء ذلك كله وخلال كل مجلس من مجالسه يطرق باب العقيدة الصحيحة فينميها ويقويها ويثبتها بما يورد من آيات الكتاب الحكيم وأحاديث الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم وسير الصالحين ومسالك المؤمنين الموقنين ٠

لا يعمد كذلك الى نظريات فلسفية أو أقيسة منطقية ، وانما يلفت الأنظار الى عظمة البارى فى كونه والى جلال صفاته بالنظر فى مخلوقاته ، ويذكر بالآخرة فى أسلوب وعظى تذكيرى لا يعدو جدل القرآن الكريم فى هذه المعانى كلها ، ثم هو لا يحاول هدم عقيدة فاسدة الا بعد بناء عقيدة صالحة وما أسهل

الهدم بعد البناء وما أشقه قبل ذلك ، وهى نظرة دقيقة ما أكثر ما تغيب عن ادراك المصلحين الواعظين ·

وهو بعد هذا كله يبتعد عن مسائل الخلاف فلا يثيرها ويغلق أمامها الباب فلا يطرقها ويجاوز نطاقها فلا يدنو منها ، وبذلك انقادت له هـــذه القلوب الطيعة ، وتطلعت الى ناحية أسمى والى مرتبة أعلى » ·

★ ★ ★

— ٢ —

حقــائق

نحن الآن فى سنة ١٣٤٦ (١) ··

مصر كما نراها بلد أنهكه الاستعمار وحطمه ، وتألب عليه وعرف كيف يغزوه فى الصميم من كيانه ، فحلل قواه المعنوية ، وأضعف عناصر الحيوية فيه ، وقتل روح المقاومة ، وأخمد جذوة الشعور والاباء الوطنى ·· وتلك هى مهمة الاستعمار فى كل بلد ، ووظيفته وهدفه فى كل أمة محتلة وشــعب غافل ، وهى بالنسبة لمصر قضية بدهية مسلم بها تاريخيا ، ولا نريد الآن أن نتناولها بالبيان أو التفصيل ·

تلك هى الصورة الصادقة لحالة مصر كما رأيناها وكما كانت حينذاك ، وحسبنا أن نلقى نظرة سريعة على مرافق الأمة جميعها يومئذ ، والى سائر طبقاتها ومعانى الاستقلال الوطنى والعزة القومية فيها ·· حسبنا أن نلقى نظرة على معـــالم مقاييس سمو الادراك الوطنى العام ومظاهر ومعـــانى التقدير الصحيح لفهم التكاليف والأعباء الوطنية القومية ·· حسبنا نظرة سريعة نقيس بها المستوى الذى هبطت اليه حالة البلاد وتدهورت فيه قواها المعنوية لنقف بحق على ما أصابها فى صميم حياتها العامة ·

وقد كان هذا نتيجة سياسة مدبرة باتقان ، أحكم الاستعمار نسجها على أنوال وأنماط من دهاء الغاصب المحتل ، وثمار تجاريبه فى سياسته مع الأمم المغلوبة ، تلك السياسة التى تفوق هؤلاء القوم فى حذقها وبرعوا فى تطبيقها لاذلال الشعوب وتسخيرها لأهوائهم وحاجاتهم ، وأول خطواتهم فى هـــذا السبيل قتل المشاعر الوطنيـــة أو تحويل دفتهـــا واتجاهاتها وشغل الأذهان بالمشـــاكل التى تخلق خلقا لتصرف الأمم عن الجهاد وأهداف الوطنية الى

(١) سنة ١٩٢٧ م

المتنازع والفرقة وما الى ذلك من أساليب انخدع بها السذج من رجالنا يومئذ فلم يعرفوا كيف يفوتون على المستعمرين غايتهم ، بل التهموا هذا « الطعم » التهاما وأقبلوا عليه : فشغلوا بالدستور والبرلمان والحكم كمظاهر وأسماء وقشور وتركوا الاستقلال وقضية الوطن العليا ، وشغلوا عن الجهاد الوطنى الصحيح ، بل حتى عن روح هذه المبادىء التى يتقاتلون على أشكالها وحروفها ، وبذلك تمزقت وحدة الأمة ، ونجح الاستعمار ٠٠

تلك هى حالة البلد فى عام ١٣٤٦ ، وهذه حقيقة أولى ٠

والحقيقة الثانية : ما فى البلد من زعامات وأحزاب ، وأفكار ومذاهب اصلاحية ليس فيها ما يحقق أملا ، ومنها ما هو من أبواق الغاصب ومن صنع يده ، يحركه كيف شاء ومتى شاء ، والقليل النادر من هذه المذاهب ما تحركه أيد مخلصة أمينة ، ويوجهه ويقوم عليه وطنيون صادقون ، وهذا القليل من الرجال قد أضعفه وأنهكه وأسأمه النضال الحزبى المحتدم ، والمؤامرات التى كانت تحاك وتدبر للمخلصين ، هذا الى أن هذه الطبقة نفسها لم تكن بعد على هدى ونور من موطن الداء وسر البلاء ، فلم تعرف الدواء ، ولم تهتد الى موطن العلاج الصحيح ٠

والحقيقة الثالثة : أن من عندهم الاستعداد للعمل من رجال المدرسة القديمة المعاصرين للاستعمار قد سئموا النضال لما أشرنا اليه من أسباب ، ومنهم من أخلد الى الراحة والعزلة السياسية واستطاب له هذا القعود فى أمة محتلة ، ومنهم من بقى فى الميدان ولكن فى موقف المتفرج ، ان تحرك يوما أرسلها أنة خافتة فى بيان أو مقال أو حركة ضيقة محدودة لا تشفى غليلا ٠ كلما وجد قضية الأمة فى خطر ، وهى أنة تذهب مع الريح ٠

وقد خلف هذا بدعة التنحى عن الجهاد الوطنى من تفشى داء الجبن ، وضعف الوطنية وروح المقاومة والنضال ، والهروب من الأسلحة غير النظيفة التى استخدمتها الأحزاب القائمة يومئذ،فصار عندنا نائمون متخلفون لا يكاد يسمع لهم صوت وان بيعت البلاد ووضعت حقوقها فى المزاد للمساومة تحت سمع وبصر أبنائها ٠ ! وحسب هؤلاء أنهم مصريون بالاسم ، ولا عمل لهم الا أن يظهروا فى الميدان ليؤدوا على المسرح الدور الذى يلقنونه ، وبذلك يرضى الضمير الوطنى لرجال من أبناء أمة مستعبدة ٠٠ وكفى الله المؤمنين ٠٠ !

والحقيقة الرابعة : الشباب ٠٠ عدة البلد وقلب الأمة ، قد انتكس هو الآخر وسارت مواكبه مع أعقاب الأحزاب ، وتحت لواء الزعامات وعشاق المناصب وطلاب الحكم ، البعض منه مخدوع أو مندفع ، والبعض تسيره المطامع وتجذبه المغريات ، والبعض يسير مع الريح يهتف تحت كل لواء ، ويصفق لكل خطيب ، ويستمع لكل ناعق بلا تعقل أو تمحيص ٠٠!

وهذا من أصداء غفلة الشعب كله ووقوعه تحت تأثير « المخدر السياسى » الذى تعاطته الأحزاب فأذهلها عن طريق الجهاد الوطنى ، والأخذ

بالوسائل المثلى المستقيمة للاصلاح ، فسارت فى عماية هى والشعب ، وكان منه هذا الصدى الذى رجع فلحق طوائف الأمة كلها ٠

وهكذا تحلل الشعب معنويا فى خلقه ودينه ووطنيته وكل معالم حياته، فكان ما رأينا من خمود وجمود واستكانة للذل ، ورضاء بالأوضاع المهينة بل والتشبث بها والترويج لها والدفاع عنها ، حتى لتباع البلد وتشرى وتداس حقوقها ويضيع استقلالها ٠٠ والشـــعب غير موجود ولا هو شـاعر بما حوله ، والرأى العام صوروه ومثلوه ، وجمعوه وحصروه — فى هؤلاءالنواب الذين اصطنعتهم الأحزاب لتتسلق الحكم على أكتافهم ، وليس لوجودهم مهمة ولا غاية الا هذا الغرض ، وهو تمكين الحزب من الحكم لاسـباغ الصـفة الشرعية الدستورية الديموقراطية كما يسمونها على هذا الحكم — والا أن يقولوا : « موافقون » حين يراد منهم ذلك ، وأن يجتمعوا وينفضوا حين يشير عليهم سادتهم بهذا ، وهذه هى مهمتهم فى نظر وتقدير هذه الأحزاب التى جنت بهذا على الحياة النيابية ٠ !!

والحقيقة الخامسة : نتيجة من النتائج المنطقية الطبعية لهذا كله ، وهى نتيجة يهمنا اثباتها ، فضعف الروح الوطنى جعـل الشـــعب لا يثق بالزعامات أو القيادات أو الحركات الاصلاحية ، وزعزع ثقته فى الرجال المتصدرين لها وفى الحركات نفسها حين تطلع عليه ، وهو فى الوقت نفسه أسام الراغبين فى الاصلاح وجعلهم يتهيبون تكاليفه وأعباءه ، لما أشرنا اليه من اتهام كل متصد لحركة اصلاحية أو عمل وطنى جليل وتجريحه ، والمثل فى ذلك معروفة مشهورة ، والوقائع حاضرة ٠

كان لهذا المعنى أثره الواضح ٠٠ ثم ان انصراف من كانوا فى مظهر الزعامة ومكان الصدارة ، الى القصور والترف وحياة الدعة ، وبعدهم عن الشعب وعدم معرفتهم بحاجاته الأصلية ، وشـــعور طبقات الأمة بأنها فى معزل عن هؤلاء المصلحين والقادة ، وادراكها أن اناشيد الاصلاح وأنغامه التى تسمعها ان هى الا خدع وأحابيل للمنفعة ، والشعب دائما هو الضحية على مذبح الأغراض ، والزعماء والقادة هم المترفون الناعمون فى القصور، لا يعرفون الشعب أو يذكرونه الا عند الحاجة اليه والمتاجرة باسمه وبدعوى زعامته وقيادته ٠

وهـــذا المعني قد ظهر الى جـانب المعنى الأول فقواه وأعمل داءه ٠٠ وظهرت الى جانب هذين عارضة أخرى ، وهى تفشى الطمع وظهور داء الدجل السياسى ، وانتشار أعراض الردة القومية ، وقفزت على المسرح السياسى الزعامات الزائفـــة المضللة ٠٠ فكل من حصـل على ليسانس ، أو أخطاه التوفيق فى وظيفة تشبع نهم أطماعه الواسعة ، أو أجاد صناعة الكلام ، أو وجد فى نفسه ناحية من التوفيق فى ميدان من الميادين ، ركبه الغرور واستحكم فيه الطمع ، وأقبل على لواء الزعامة ينتحله انتحالا ويدعى أحقيته ويتصدى لقيادة الأمة ، وكأنما الأمم تقاد بالتهريج والحماســـة الفارغة والجعجعة

والصياح ، أو الألسنة البذيئة التى تعرف كيف تؤذى الناس ، وتنال من وطنيتهم واخلاصهم وتقبح أعمالهم ، وتتقن التهجم على أعراضهم وكرامتهم ٠٠ !!

كثر المتزعمون والدجالون من دعاة الاصلاح فملتهم الأمة وسئمتهم وازورت عنهم ، ووضع الشعب أصابعه فى آذانه دون سماع هذه الأنغام المعوجة ٠٠ وله الحق : فما هى الا تجارة باسمه وباسم الاصلاح والاستقلال ، تجارة باسم الفلاح والعامل والصانع،ونتج عن هذا — مع تزعزع ثقة الشعب فى المصلحين — أن غاب المخلصون والمصلحون الحقيقيون فى زحمة هذا العراك وغمرته ، واختلطت أصواتهم بهذا البحيح ورجعت جنبات وادى النيل أصداء نعيق البوم ، مع شدو البلابل وأغاريد الطيور ٠ !

هذه الحقائق التى نوجزها ونشير اليها ولا نحصرها — عندما تبدو أمام المصلح العادى الذى يريد النهوض بأمته فى ناحية من النواحى تجعله ولا شك يفكر كثيرا اذا كان جادا مخلصا لفكرته ، فهو يعرف منها أنه عرضة للاتهام والمحاربة والتشهير ، والمكيد والانتقام بكل الوسائل الاجرامية وما زخر به قاموس زعانف السياسة وتجار الحكم والمتزعمين من أساليب لا يعرفها الرجال ، ويعافها الشرفاء فى ميدان النضال الشريف ٠٠ !!

اذا كان الأمر كذلك أمام المصلح العادى الذى يريد أن يدعو لفكرة اصلاحية اعتنقها ، أو مبدأ نافع تعشقه ، أو حركة تملكته ٠٠ فماذا يكون شأن الطبيب الحاذق الذى لا تقنع همة نفسه ، ولا ترضى آماله بعلاج جزء من البدن ، أو مداواة عضو من أعضائه ، ولكنه هيأ صيدلته لعلاج البدن كله وابرائه ، وقد أعد الدواء وركبه ٠٠

ماذا يكون من شأنه ٠٠ وقد أعد السفين فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ليحمل المرضى والمنهكين الى شاطىء الأمان، فماذا يفعل لمقاومة هذه الأنواء والأعاصير ؟ ! أفيستجيب الى اغراء النزق وحب الشهرة أو يستهويه داء الظهور وما اعتاد الصغار أن يطنطنوا به ، ليقال عنه انه زعيم خطير ومصلح كبير ؟! ومتى كانت الزعامة أو القيادة فى هذه الأسماء والنعوت والألقاب ،يتقلدها الناس بأنفسهم أو يسبغها عليهم أذنابهم وسماسرتهم ٠٠ ؟!

واذن فقد وجب على ربان السفينة أن يعد لكل أمر عدته ، وحسبه أن يدرك النجاح مادام هذا هو الهدف ، وأن يعنى بالنتائج والثمرات ، وليس ضروريا ولا من شروط هذا النجاح ، أن يسير الموكب فى صخب وضجيج ولفت للأنظار ، فما قيمة هذه المعانى الصورية فى ميزان الحقائق والمحسوسات ؟ !

ان العاقل الحصيف من ذوى الرسالات الاصلاحية ، انما يستمد نجاحه من عبقريته الذهنية ومن أصداء نفسه أولا ، بدون توقف على أى

معنى من المعانى الخارجية مهما كان : فرسالته وقد آمن بهـا صارت فى نفسه مرحلتان ، يكيفهما ابتداء لابد منه وانتهاء مفروغ منه ، أعنى : عمل ونصر بدون توقف على المعاونات أو المقاومات الخارجية ، وبدون الالتفات الى وسائطها ومناواتها أصالة ، مع أنها وان لم تكن داخلة فى التقـدير مبدأ الأمر دخولا محدودا معمولا حسابه ، فان لها فى المسـتقبل آثارها اللاارادية ، فاذا كان الأمر كذلك بالنسـبة لكل مصـلح ـ لهذا المعنى النفسانى الملحوظ اللازم لنجاحه المقدور ـ فكيف يمكن أن يتخلى عنـه مصلح عالمى تعلقا بالمظاهر الفارغة ، ومع ما هو مقرر من أن طلب الشهرة والنجاح ضدان لا يجتمعان ٠

من أجل ذلك ٠٠ نزل الأستاذ حسن البنا الى ميدان الاصلاح لا كمـا ينزل الناس ، وعلى غير ما ألفوا ، لأنه صاحب دعوة آمن بها وحدد أهدافها ومراحلها على قدم الدعوة الأولى من خطوات محمد صلى الله عليه وسلم ٠

نزل الى الميدان وأمامه هذه الحقائق وهى بعض ما فى حسـابه ، ودعوته الاصلاحية أن ينهض بأمته فى جميع مرافقها ويأخـذ بيدها الى مرفأ الأمان والنجاة ٠٠ فماذا كان من أمره ؟ وكيف تأثرت نفسه بدعـوته أولا فسارت فى هدى من تعاليمها ، وعاشت فى حدود هذه التعاليم ، تأخذ عنها ، وتعمل بها ، وتسير فى ضوئها حتى مكن الله لها وصارت رسـالة الانقاذ والأمل المرجى ؟ ٠

★ ★ ★

ـ ٣ ـ

مبادىء ورجال

ان أشد النهضات رسوخا وأوسعها نجاحا ، ما جاء على يد رجال من صميم طبقة الشعب وسواده ، فتكون دعوتهـم ممثلة لروح الشعب وغالبيته ، وتكون المبادىء التى يجيئون بها مسـتوحاة من منابع هـذا الروح ٠

ومن التوفيق أن يتهيأ ذلك لمصر فى هذه الفترة الهامة من تاريخهـا لتؤدى دورا رئيسيا هى فى أمس الحاجة اليه ، لتقيم على أساسه نهضـة قوية الدعائم راسخة البنيان ، تطلع على الانسانية بمـا تطلبه من قواعـد الحضارة السامية التى توطد السلام العالمى وتركز أصوله على أقـوم الشرائع وأكملها ٠

ولقد أتى على مصر حين من الدهر كان المستعمر فيه يقظا ، يتربص بالرجال المعروفين البارزين الذين يتصـدون لحركات الاصـلاح فيحبط

أعمالهم ، أو يسبغ عليها بوسائله الماكرة ما يشاء لتكون فى خدمته ، وهذا ان لم يصطنعها اصطناعا فتكون ـ مهما أخذت من صبغة شعبية وطنية قومية ـ فكرة المستعمر ، هو الذى يغذيها ويدفعها ويفيد منها ، وهو الذى يحركها من وراء الستار ٠

نجح المستعمرون فى هذا نجاحا منقطع النظير ، فتغلغل الغاصب المحتل فى كل شئوننا ، وسيطر على الرجال والأعمال ، واستحوذ على الأيدى والعقول ، وتحكم عن هذا الطريق فى ثقافتنا وأموالنا ، وكل مصادر ومنابع الشعور الوطنى أو القومى بوسيلة من وسائله المتعددة ، وبذلك فشلت كل الحركات الاصلاحية عندنا فشلا ذريعا ، ووصلت الحياة الاجتماعية الى حال من التدهور والانحلال لا يتفق مع كرامتنا كأمة تشعر بأن لها ماضيا وتاريخا ، ولها رسالة انسانية يجب أن تؤديها ، فضلا عن أن تفقد حق الحياة نفسها ٠

★ ★ ★

وما أشبه الليلة بالبارحة : فحينما جاء محمد صلى الله عليه وسلم أعلن الأخوة الاسلامية ، وأشاع المساواة بين الطبقات وأذاب الفروق الاجتماعية وحطم حواجزها ، ونادى بأن المسلمين سواسية فى الحقوق والواجبات مع تفاضلهم فيما يكون فيه التفاضل لاقامة توازن المجتمع ، وذلك كله مشهور عن شريعة الاسلام لا يحتاج لأكثر من الاشارة العابرة ٠٠ فكنت ترى فى المجتمع الاسلامى الغنى والفقير وذا الجاه والمتوسط والحر والعبد ٠٠ الخ وكلهم سواء فى الحقوق والواجبات العامة ، ولا فضل للواحد منهم على الآخر الا بالتقوى والانتاج ٠

رأينا المجتمع الاسلامى المحيط بمحمد صلى الله عليه وسلم : تشكيلة من الناس ، ومجموعة قليلة العدد والعدة ، مختلفة الصفات ولكنها متحدة القلوب والمشاعر والأهداف : ففيها الغنى كعثمان ، والفقير كعامر ، والكهل كأبى بكر ، والصبى كعلى ، والحر كطلحة ، والعبد كبلال ، وفيها السيد والمولى والرجل والمرأة ٠٠ الخ ٠

عناصر من الناس تكون طبقات المجتمع الانسانى كله ، لأنها تمثل دعوة المجتمع الانسانى بكافة طبقاته ٠٠ فليست دعوة طائفية أو مذهبية ، بل هى دعوة الانسانية الكاملة جاءت فى وقت سادت فيه الفوضى الاجتماعية وتفشت ، فكانت رسالة الانقاذ للجميع ، ولو أنها اقتصرت على تمثيل الأغنياء لكانت دعوة الرأسمالية ، ولو اكتفت بالفقراء لكانت دعوة طلاب القوت والشيوعية المادية الهدامة المخربة ـ وهكذا ٠٠ فانتظم فيها الجميع على أنها دعوة الخير والاصلاح والعدالة الاجتماعية تحققها وتضمنها لهم جميعا ، وبذلك قدم محمد صلى الله عليه وسلم للعالم والانسانية والتاريخ أول نموذج للقوة الانسانية المتضامنة تضامنا مطلقا فى مجموعة متآخية متكافلة وان رآها الناس متباينة ٠

ومن أجل ذلك وجب على المصلح لكي يكون مسدد الخطى قابضـا على لواء النجاح والظفر أن يترسم خطوات هذا الطريق الذى قضى به الاسلام على معالم الفوضى المتفشية ، واجتث جذورها من القلوب والنفوس أولا باعلان مبدأ الأخوة الاسلامية العامة ، فالأخوة الاسلامية هى الأمل الذى يتحرق العالم اليوم شوقا اليه لتلطيف لوعة الظمأ الذى قتل فى الناس مشاعر الخير والمرحمة ، ومزق أواصر التضامن العام .

وحين يتصدى المصلح لمهمة قيادة النهضة فى مجتمع كالمجتمع المصرى ، حاله على ما صورنا ، وعلى نحو ما هو معروف من تمزق وانحلال .. لابد له أن يقف ويطيل الوقوف ، ولابد له من التريث والأناة ، فليست المسـألة اشتراكا هزليا فى دورة ميدان سباق ، وما هى اقبال على شوط يتسـلى به فى ملهاة ، ولكنهـا عبء وواجب ، وتبعة وأمـانة ، وايمـان ورسـالة ، وهو طريق محفوف بالصعاب والمكاره على ما فيه من لذة مسـتعذبة ، وعلى ما يعقبه من سعادة النفس وغبطة الضمير .

وهى مناسـبات يجب أن ترتقب ، ومراحل يجب أن تختار مواقيتها ، والقائد فىكل هذا كالزارع الصبورالبقظ ، أن يجد الأرضثم يهيئها بالحراثة والسقى ، ثم يلقى البذور ويديم تعهدها بالرى والحراسة .. الخ فان أخطأته واحدة من هذه المراحل أو أخطأه التوفيق فى اختيارها ورصد مواقيتهـا ، فلا زرع ولا حصاد ولا محصول ولا ثمار .. !

وانما تنتصر المبادىء ويسود أصحابها اذا أحسنوا السير بها وتخيروا الوقت الملائم لظهورها ، وعرفوا متى يجب عليهم أن يتكلموا ومتى يحسـن بهم الصمت ، ومتى تجمل منهم الحركة ومتى يحق عليهم السكون ، ومتى تكون سرعة السير فضيلة ومتى تكون خفة ونزقا ، ومتى يكون الابطاء وقارا وتكون الأناة سكينة مطلوبة .. وهكذا : فدعاة الاصلاح كثير ولكن القليل منهم المخلص الذى تعنيه النتائج والحقائق لا الجعجعة الفارغة والقيل والقال ودق الطبول ، والقليل منهم الفطن البعيد النظر الذى يضع الأمور فى نصابها، لأن القيادة عقل يصرف الايمان والعقيدة فى مصرفهما الطبعى بمقـدار ، وحيث يجب أن يكونا بلا زيـادة أو نقصـان ، ثم هـو يحـدهما ويشرف على توجيههما باحكام ، وسـلامة هذا العقل انما هى فى سـداد هذا التصريف وهذا الاحكام .

على أن المعول عليه فى نجاح المبادىء ليس مقصورا على صلاحيتها أو ظهورها فى الوقت المناسب وعند الحاجة اليها وغير ذلك من المقدرات ، ولا هو أيضا فى قيام رجال من معدن خاص عليها ، مع ما هو مقرر من أن هذا كله من عوامل النجاح وأسباب النصر الرئيسية ولا كلام ، ولكن يجب أن توجد قبله وبعده وأهم منه عوامل وأسباب ، تتلخص هذه العوامل وتجتمع فى عامل واحد هو : « الايمان » فهو الذى يبنى الرجال ويحرك المبادىء ، وهو الذى يهيىء الوقت المناسـب وما الى ذلك من ارهاصـات وعوامل

ومقدمات ، ولولاه لما قامت مبادىء أو ظهر رجال ، وبالتالى لما قامت نظم ولا انهارت أخـرى ·

يقول الأستاذ العقاد (١) « فاستحقاق النظم القائمة للضياع هو فى وقت واحد سبب ضياعها ، وهى حجة العقيدة التى تخلفها وتنتصر عليهـا فى ساحة النزاع ، اذا كان أدعى الدواعى لظهور عقيدة جديدة أن النظم القائمة قبلها لا تتماسك ولا تصلح لحماية ذمارها ·

فاذا قيل ان العقيدة الجديدة قد انتصرت لتداعى النظم التى اصطدمت بها ، فليس هذا تعليلا وكفى ·· ولكنه كذلك شفاعة وحجة للظهور ، ودليل على أنها حق صالح كأصلح الحقوق الكونية وأنها علاج عالمى مطلوب جاء فى الأوان ·

لكن القول بانتصار العقيدة هنا لا يغنى عن كل قول : فكل مناضـل متذرع بالعقيدة صالح فى تلك الآونة للانتصار ، ينبغى أن يكون الأمر كذلك لو كان تعليل النصر بالعقيدة مغنيا عن كل تعليل ، ولكن الواقع أن الذين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالا أولى خبرة وقدرة يؤمنون بها ويعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائها ، وقد أفلح أناس وأخفق آخرون ·· الخ ·

فلا انحلال بمغن عن الاعتراف للعقيدة المنشئة بحقها فى الغلب وحاجة العالم اليها فى تلك الآونة ، ولا العقيدة المنشئة بمغنية عن فضـل رجالها وحماتهـا وكفـاية سـواسها وقادتهـا ، فهى عقيـدة منشـئة يذود عنها حماة قادرون ··· الخ » ·

ونحن نؤمن بهذه الحقائق جميعها ونحسب حسـاب أحكامها ولكننا نقول معها : ان انحلال نظم قائمة تصارعها مبادىء جديدة يسـتفاد ـ أى يحصـل ـ سلبيا وضـمنيا ومعنويا ، لأنه فى حقيقته نتيجة لظهور رجال مناضلين فهو حكمى منذ ظهورهم ، ولأن مظهره العملى الايجابى ـ ومعه هذا الاسـتحقاق للضـياع ـ انما يأتى مسايرا لايمان هؤلاء الرجال ، مقترنا بجهادهم لمبادئهم تبعا لذلك ، وهذا الايمان هو الذى يحكم على النظم القائمة بالضياع وليس حينئذ ما يمكن أن يسمى استحقاقا للضـياع من عدمه ، لأن هذا الحكم الذى أصدره الايمان يقرر عدم بقائها مهما كانت قوتها ، ومهما كان سلطان الرجال الذين يسندونها ·

فكل مبادىء اصلاحية جديدة تنازع غيرها البقاء وتزاحم ما قبلها ، ويواجه هذه الحالة بادىء الأمر وينهض بعبئها قلة مؤمنة من أول أسلحتها النضال ، هذا النضال وطبيعته أن يكون من قلة هو الرمز المعنوى لما ينبغى أن يفهم من أنه غير لازم أن يكون الانحلال ذا شكل مادى ·

---

(١) ص ١٥٣ ، ١٥٤ فى عبقرية خالد ·

وكل دعوة اصلاحية على كل حال مرجعها فى الأصل الى فكرة فى ذهن شخص يبرزها الايمان ويجليها ، وهذه الفكرة هى التى تبنى نهضة وتكون دولة وتسوس أمة وتفعل الأعاجيب بما يصل اليه مستوى ايمان هذا الشخص، وما من دعوة اصلاحية الا صدق عليها هذا ومرت بدوره ، فالرجال ـ بايمانهم ـ هم روح المبادىء ومظهر حياتها مهما قام بجانبهم من عوامل أخرى ، وعندما نتصور تقدم ظهور المبادىء على الرجال يلزمنا ولا مناص أن نتصور حالتى الموت والحياة ، أو الوجود واثبات الوجود، وذلك نفس ما يقال فى الرجل مسلحا بالايمان أو مجردا منه ٠

هذه الحقائق كلها تعيننا على أن نتصور الدعوة الاسلامية بروحها ومنهاجها تظهر بعد هذا الأمد الطويل ، وتنهض من جديد لتشق طريقها فى المجتمع المصرى وفى الشرق العربى الاسلامى كله وتبسط نفوذها على كل معالم الحياة ٠٠ وسلاحها وعدتها : « ايمان رجل » ٠ أفليس لازما أن نتريث قبل أن نقدم على هذا التصوير وأن نمهد له ونلتمس المعونة ؟ !

فما الايمان ؟ ـ تستطيع أن تتصور الرجل انسانا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق أو يتيه فى الألقاب ويزهو بالجاه وينعم من مباهج الدنيا بما يشاء ، ولكنك لن تجد هذه الصورة لو تأملتها أكثر من آلة تدير نفسها أو يديرها غيرها ، وذلك مثل الرجل يعيش لنفسه لا يربطه بالناس هذا الشعور الكريم الذى يصله بالمجتمع والانسانية ، فهو مجرد من سر الحياة وروحها ٠ محروم من الايمان بمبادىء عليا وأهداف سامية ٠

هناك مبادىء يصوغها أصحابها ليرددوها تجارة ، ويضعونها نظريات ينادون بها بعد اذ يرسمونها على الأوراق حروفا وأشباحا ، وهذه لا أثر لها فى الحياة ولا تأثير حتى على حياة القائلين بها أنفسهم لأنها لم تصدر عن عقيدة ولا ايمان فهى ميتة خامدة ٠

وليس الايمان سر الحياة لأنه مودع فى تلك القوة الخارقة التى تصلنى دونك بحقائق الحياة وأسباب النجاح ، بل انه أكبر من هذا وأغلى ، لأن تكييف الاعتراف بالحياة والنجاح يتداوله الخلاف ويدخل عليه ما يجعله محل نظر وكلام ككل أمر اعتبارى ، ولا يتم التحرر من هذا الا بالنفوذ الى حقيقة الايمان من أقرب طريق ، ولن أدلك على تلك الحقيقة الا فى برهان من قصة ايمان ٠

تستطيع أن ترى أثرا واضحا للايمان فى صورة من صوره الرائعة عندما تطالع قصة السحرة مع فرعون اذ جاءوه بقلوب مريضة مليئة بحب المال وعبادة الجاه ، تلاحظ ذلك فى قولهم أول ما دخلوا عليه : « **أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين** » ؟ (١) ولذلك نرى فرعون يجيبهم بلغة

---

(١) الشعراء : ٤١

الاغراء : « **نعم وانكم اذن لمن المقربين** » (١) ٠ وكل هذا طبعى مألوف من نفوس محجوبة عن ربها ونور الايمان به وقلوب غشاها الصدأ ، ولكن هذه النفوس والقلوب هى بعينها التى تتغير وتتبدل بعد اذ يمسها تيار الايمان حين يلقى موسى عصاه ، واذا بهؤلاء الذين كانوا منذ لحظة يسخرون ويساومون يسجدون مذعنين لقوة الحق وهم يقولون : « **آمنا برب العالمين ٠ رب موسى وهارون** » (٢) فيعجب فرعون من هذا التحول العجيب وهذا التحدى ويتوعدهم ويتهددهم بلغته المادية قائلا : « **فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى** » (٣) ٠ فيردون بلغة الايمان وفى ثقة المطمئن الهادىء : « **لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحياة الدنيا ٠ انا آمنا بربنا** » (٤) ٠ وهكذا ذهب حب الدنيا والتعلق بالمال وما كانوا يساومون عليه من قبل ، وحل محله ضوء الايمان الذى قذف فى قلوبهم فأصبحوا الآن ربانيين بعد اذ مست قلوبهم نفحة من نفحات الله ، وكانوا من قبل ماديين دنيويين : نقلهم الايمان من الذل الى العزة ومن الفقر الى الغنى ومن الخوف الى الأمن ، فلا يخيفهم فرعون بقوته ولا يغريهم بما يملك من مال أو يذلهم بما حوله من جاه وسلطان ٠

هذا هو الايمان وهذا هو فعله وأثره ، وهو ليس الا الثقة والاطمئنان حيث يكون ذلك مطلوبا وحيث يكون فى نصابه ، كما هو فى موقف هؤلاء من فرعون ، وفى ثقتهم واطمئنانهم وهم يحاجونه ٠٠ وكما نتلقاه أيضا من موقف محمد صلى الله عليه وسلم فى الغار يوم هجرته ـ اذ يقول لصاحبه : لا تحزن ان الله معنا ٠٠ والمشركون فوق رأسهما وانهما لعلى مرأى بصرهم ، فهذه هى ثقة المؤمن المطمئن ، وليس الايمان الا هذا ٠٠

ومن حرف الكلم عن مواضعه وقال لك ان الايمان فى هذه السفسطة الجوفاء التى تلزمك أن تفعل كيت وكذا ، وأن تقتصر منه بالحرص على دخول السجن بمناسبة وغير مناسبة وحتى حين يكون ذلك فى خدمة خصمك ، وأن تريق الدماء بغير حق ، وتشهر بالأعراض وتلغو فى الكرامات ، وتتخلى عن كل ما عرف الناس من ذوق وأدب ، وما تواضعوا عليه من تقاليد وحرمات ٠٠ ليقال انك مؤمن جرىء مقدام ٠٠ !

من قال هذا فلا تصدقه وقل له انك مغرر جاهل ٠

وحسبك من الايمان الثقة والاطمئنان فتحقق بهما وانطلق بعد ذلك الى آفاق الدنيا الواسعة لتبنى وتعمر ، وتربى وتسوس ، وتخلف الآثار

---

(١) الشعراء : ٤٢
(٢) الشعراء : ٤٧ ، ٤٨ ٠
(٣) طه : ٧١ ٠
(٤) طه : ٧٢ ، ٧٣ ٠

الصالحات ، وبهذا تدنو من الناس بثمرات ايمانك وميزات نفسك ، وتشعرهم بوجودك وترغمهم على الاعتراف بك والاقرار بأنك مؤمن صالح للبقاء ٠

التمس الايمان دائما عند الواثق المطمئن ، واياك أن تنخدع فتطلبه عند الحمقى من الخادعين والمخدوعين فتحسبه بضاعة الذين قالوا آمنا وما هم بمؤمنين فيهم : « **يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون ٠ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** » (١) ٠

اننا لا نعرف الايمان الا بما ذكرنا من سمات ، لأننا نرفض أن نتلقى دروسه الا من سيد المؤمنين ، ونأبى أن نتتلمذ فيه الا على امام المجاهدين محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس فى سيرته المثلى شىء مما يدعون من هذا التحريف ٠ و « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** » (٢) ٠٠٠ وما أعجب الحكمة فى هذا التوافق المحكم اذ يقول القرآن بعد هذا مباشرة : « **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هـذا مـا وعدنا الله ورسـوله وصـدق الله ورسـوله ، وما زادهم الا ايمانا وتسليما** » (٣) ٠

فهذا هو الايمان ٠٠ وهذا هو السلاح الذى فتح به « حسن البنا » القلوب وربى النفوس ، وصقل الأرواح فمكن له من نشر دعوته فسرت فى مصر والشرق مسرى الكهرباء ، لا تقف فى وجهها قوة ٠٠ والله غالب على أمره ٠

★ ★ ★

— ٤ —

تربية ومنهاج

الأمم كائنـات حيـة تقـاد بالتربيـة وتعـالج أمورها وأدواؤهـا بالصبر والمصابرة،ومحال أن تنتقل أمة من وضع الى آخر أو تجد فيها نهضة الا بتحقق هذا المعنى : من تربية وعلاج بالصـبر وحسـن تطبيق للقـاعدة الذهبية ـ « الزمن جزء العلاج » ٠

---

(١) البقرة : ٩ ، ١٠ (٢) الأحزاب : ٢١
(٣) الأحزاب : ٢٢

يقوم بتلك المهمة غالبا شخص غير عادى من تلك الشخصيات العالمية الفذة التى تصنع تاريخ الأمم صنعا ، وتملى عليه قوائم المجد من غير أن تأخذ من مألوف ما يحترمه الناس من مناهج ، أو تعبأ بما يعرفون من وسائل تتحقق بها غاياتهم وما يطلبون ٠

تظهر هذه الشخصية فى الأمة « رجلا » يمثل عقلا جديدا يفرق بين حق وباطل ، أو قديم وجديد وصالح وغير صالح ، ويكون هو رمزا حيا وعنوانا صادقا للمبادىء التى جاء بها ، والأفكار والتعاليم التى يدعو اليها — وتلك أولى ميزاته ٠٠ يعيش فى جو هذه التعاليم ، ويأخذ عن هذه الأفكار ويرسم من أصولها منهاج حياته — وذلك هو المصلح والقائد العملى الناجح ٠٠

وتكاد تجتمع أركان النهضة على يده بعد ذلك فى تحديده الهدف العام لدعوته فى نفسه ، ثم فهمه لمبادئها وتحديده اياها بوضوح ، مع استخدام ما وهب من صبر وثبات على الكفاح فى سبيلها ، ومقدار ما يبذل بعد ذلك عمليا لنشرها ٠

وذلك ما فطن اليه الأستاذ حسن البنا حين تصدى لحمل لواء الدعوة الاسلامية ليجدد بها نهضة مصر والشرق العربى بخلق جيل جديد يفهم الاسلام فهما صحيحا بعيدا عن تزمت المتزمتين ، واباحية الملحدين الزائغين المتحللين ، ليوجه النهضة اليه حتى تكون مظاهر حياة الأمة كلها مستمدة من تعاليمه ، آخذة من أصوله ٠٠ فطن الى هذا فالتزمه وتخلق به وسار على ضوء من توجيه سديد يحسب لكل أمر حسابه ويعد عدته ، ويزن الأمور بميزان الحاذق الخبير ٠

يقيس الناس الأمور بموازينهم الخاصة فيعتبرون اتمام الشاب لدراسته وحصوله على الشهادة انتقالا الى ميدان الحياة العامة ، ومقدمة لحمل أعباء ضخمة جديدة يتمثلونها فى شئون الوظائف وأمور المعاش وتكوين المستقبل وتربية الثروة ٠٠ الخ — يسمون هذا وما شابهه ميدان الحياة العامة بأعبائه الثقال فيتفرغون له ويشتغلون به ويهبونه كل وقتهم وتفكيرهم ومواهبهم ، للظفر بالحياة السعيدة المستقرة التى ينشدونها وحسبهم من الحياة هذا المعنى ٠

ذلك هو ميزان الحياة العادى الغالب عند جميع الناس ، وأحكام هذه المقاييس هى التى تميز ملامح شخصية الفرد وتعزل الناحية الخاصة فيه عن العامة ، والفردية عن الاجتماعية ٠٠ وذلك أيضا هو مناط تقدير شخصية كل انسان : أن ينفصل الجانب الاجتماعى الانسانى فيه عن الجانب الفردى بخصائص عملية وتصرفات ايجابية من سلوكه وفعله ٠

أقبل الأستاذ حسن البنا على هذه المرحلة فى سن الحادية والعشرين ، فنظر الى ذلك الميدان الذى يقدسه الناس ويجلونه نظرة ثانوية تافهة ، فاذا

سافر الى مقر عمله المدرسى فنفسه منصرفة عن التفكير فى أمر هذا المستقبل وما يخبأ فيه ، وليس يعنيه من هذه الناحية الا أن يختار المسكن المناسب ، أما بقية المطالب بعد ذلك فلم تدخل له فى حساب ٠٠ !

وما هذه الأعباء والتبعات والمطالب التى يحسب الناس حسابها وماذا تكون عنده ؟ ــ انه قد عاهد ربه فى ليل لا يطلع فيه الا اللطيف الخبير ، ووحدة لا يؤثر فيها الا الضمير ــ أن يكون مصلحا مرشدا ، يربى الأبناء فى النهار ويتعهد آباءهم بالليل ٠٠ أما تراه مشغولا بقول صديقه : ان الرجل الصالح يترك أثرا صالحا فى كل مكان ينزل فيه ، وما كان انشغاله عن مفاجأة داهمته فهو يريد أن يعد لها ويكيف أمرها ، أو عن شعور بأن هذه « الآثار » التى يسميها الناس « صالحة » صعبة المنال تحتاج الى جهد وجهاد ٠٠ ولكنه كان خاضعا فى هذا لبواعث أكبر وأخطر : فما هذه الآثار الصالحات حقا التى يطلبها الناس والتى ينبغى أن تقدم لهم وأن ينشغل المصلحون بالتفكير فيها ؟ أهى فى اكتساب الحمد والثناء من أيسر سبلهما بنشر قالة الخير والائتمار بالمعروف ، وفى هذه الأعمال التى لا ينكر ما فيها من خير ونفع ولكنه محدود لا يتجاوز صاحبه ولا يعدو من قد تناله كالاحسان الى بائس أو اطعام فقير أو كسوته أو تكفين ميت وتلطيف آلام مصاب وما الى ذلك من أعمال الخير التى اقتصر الناس عليها وفهموا أن فيها رسالة المسلم، وأن حسبه من حسن اسلامه مجهود ضئيل يصرفه فى اقامتها ٠٠ !

لم يقتصر حسن البنا على هذا الفهم وحده ، ولا كانت هذه الصور من الآثار الصالحة هى التى يريدها أو يبحث عنها ، ولا هذه التبعات الهينة هى التى تشغله ٠٠ انه يريد تربية الأمة كلها ونقلها من حال الى حال ، يريد من هذه الآثار الصالحة ما يعم خيره المجموع كله وينهض بالأمة جميعها ، يفكر فى هذه الآثار التى تشعرنى وتشعرك وتشعر غيرنا من أفراد المجتمع ومن الجماعات بل وغيرنا من الأمم الأخرى ، أننا اليوم ــ بعد اذ وجدت فينا هذه الآثار ــ أحسن حالا منا بالأمس واننا أقوى جانبا وأعز نفرا . وأن الأمة كلها بطبقاتها المختلفة تتطور الى الكمال ويرتفع مستواها فى مختلف نواحى حياتها ٠

فماذا تستفيد الأمة فى مجموعها من أن عاريا قد اكتسى ، أو جائعا قد شبع أو حصل على قوت يوم أو أيام ٠٠ ماذا تستفيد من هذا ومثله من ضروب أعمال الخير مادام مستوى الحياة العامة فيها فى هبوط مستمر ، ومادامت هى ذليلة مستعبدة محتلة قتلت أبناءها الفاقة وأذلتهم ، وهم لاهون عنها منشغلون عن التفكير فى أمرها : حاضرها ومستقبلها ، قانعون بهذه الحياة الرخيصة المهينة ؟ !

هذا ما أدركه حسن البنا وقصد اليه فانشغل به وفكر فيه ٠٠ انه منصرف الى اعداد « الجرعة » الأولى من الدواء لهذا المريض المحطم المتداعى المشرف على الفناء ، كيف تعد وماذا ينبغى أن تكون حتى تحفظ للمحتضر

حياته ؟ هذه الأمة كيف تنهض بعد هذا الأمد الطويل وبعد ما آل اليه أمرها ؟ انه قد أعد منهاجه وليس هذا ما يستغرق كل تفكيره ، لكنها هى الخطوة الأولى كيف يأمن العثرة فيها وكيف يضمن السلامة ؟

ان الناس حين تحدثهم عن الله ومراقبته والصلة به وخشيته والاقرار بربوبيته وعما يجب أن يبثوه فى المجتمع من آثار صالحة ، يحسبونك تدعوهم الى غشيان الصوامع والزوايا ، وأنك تؤلبهم على هجر المجتمع والناس وعلى الفرار من واقع الحياة نفسها ، فهم لا يفهمون الكلام عن الاصلاح والنهضات السياسية والاجتماعية ، وسياسة الأمم وحكمها وترتيبها وترتيب شئونها الا منفصلا عن المعانى الوجدانية الحية مستقلا عن آفاق سلطان الضمير وعن هذه المعانى التى تستمد من العقائد وتتآخى معها لتجعل المجتمع ساميا فاضلا سعيدا فى كل مرافقه مستعينة فى هذا بتلقينه مبادىء اصلاحية من توجيه عقيدة الفرد ·

فكر حسن البنا فى هذا كله وفى غيره مما يتصل بهذه الشئون ، وأدرك أن الأمة تحتاج الى التحول الكلى الشامل فى كل شىء : فى نظرتها الى الحياة وقياسها وفهمها للأمور ، واختيارها لنوع النهضة التى تطمح اليها والصبغة التى تريد أن تصطبغ بها ، وفى المشاعر التى تغذى آمالها ·· الخ ـ هذا كله وما فى حكمه يطلب التغيير الكامل ولا يتم ذلك الا بالتربية وتعهد الأمة ومصابرتها بجمعها على أهداف تتجه بها الى أصول المنهاج السليم الذى اختير لها ، والى صميم قواعده تلتئم عليها ولا تبغى عنها حولا ، وبهذا يتحقق الاصلاح لا بمجرد وضع المناهج واختيار المبادىء ·

أدرك هذا كله فاختط خطة عملية ايجابية من أول يوم ، ولم يجعل همه فى أن يقبل على برنامجه ومنهاجه يصبه فى القوائم صبا ويفرغه فى الأوراق يكتبها ويوزعها بعبارات منمقة مختارة خالية من قوة الروح النافذة وروحانية الايمان المسيطرة مستغلا اثارة المشاعر بما يستهوى الناس ، فيجتمع عليه القليل من سريعى التأثر الملبين لكل نداء ، الذين يستجيبون للمبادىء على أنها ألفاظ من قبل أن تقع بينهم وبينها تلك الصلة الوثيقة صلة القربى والايمان ، ومن غير أن يعنى فى هذا بطريقة قويمة تهدف الى تربيتهم على أصول تلك المبادىء وتجمع قلوبهم على مقاصدها ، فاذا ما حزب أمر وجدهم الى جانبه يفتدونه ويفتدونها ، لا أن يبحث عنهم فلا يجدهم ولا يجد مبادئه معهم ·· !!

لم ينظر حسن البنا هذه النظرة القصيرة بل سلك وجهات بعيدة المدى·· انه يريد أن يجمع الأمة على منهاج ويربيها على مبادىء ، ولكنه محصور فى هذا البلد الذى استقر فيه ، وهو يرى مهمته العامة ـ كصاحب فكرة اصلاحية واسعة شاملة ـ لدى البدء فى تحقيقها صعاب جسام ، فأى مشقة اذن تنتظره لأداء رسالته للمجتمع كله ؟ !

ان الناس لا يجتمعون على المصلح بسهولة ،ولا يكونون طوع ارادته يلتئم له جمعهم كلما أراد ، أو يولونه ثقتهم متى طلبها ٠٠ بل ان لهم فى استقبال أصحاب الدعوات ومعاملتهم سننا لا تتغير ، وانه ليدرك أن الاصلاح يجب أن يتجه أولا الى النفس الانسانية فيصلحها ويقومها ، وأن أزمة الأمم ناشئة فى حقيقتها من فساد النفوس وصدأ القلوب ، وهى الخطوة التى فطن اليها الاسلام وأرشد المصلحين اليها ؟ فحثهم على اصلاح النفوس وعلاجها أفهمهم أن هذا أساس أصلى لازم لنجاح كل اصلاح ، وتكاد التعاليم الاسلامية كلها تتجه الى تعبيد هذه الدعامة : اصلاح النفس والسمو بها لتنظيم المجتمع واقامة أصوله على قواعد ثابتة ٠

فالاسلام كدين دنيا - أى منظم للمجتمع - سلك فى هذا التنظيم مسالك عدة أولها تعهد النفس الانسانية ، لأن النجاح فى تهذيبها وقاية للنظام الاجتماعى الانسانى كله خاصة وعامة ، ولا سلام ولا أمان ولا طمأنينة بين الأمم ، بل ولا نهضات قبل ذلك فى المجتمعات الا على أساس صلاح النفس ٠

صلاح النفس واصلاحها اذن هو أول ما يجب أن يهدف اليه حسن البنا كمصلح ينظر النظرة الواسعة عندما يحاول تغيير حال الأمة ، وانما يكون هذا بطهارة القلب لأنه اذا صلح صلح الجسد كله ، وهذا يأتى بأن تصل القلب الانسانى بخالقه وتشعره بعظمته ، فاذا عرف المرء ربه اهتدى واطمأنت نفسه ، واطمئنان النفس هو السبيل الى التعامل معها والاتصال بها وقيادتها - ومعهد اصلاح النفس وتربيتها فى الاسلام هو المسجد ، وحسن البنا المصلح الاسلامى الذى جاء يدعو الى الله على بصيرة ، يقتفى فى اصلاحه آثار الدعوة الأولى من خطوات محمد صلى الله عليه وسلم ، يتلقى عنها دروس الاصلاح ، ويأخذ أصوله ومناهجه ٠٠ حينما يفكر فى اقامة معهده لتخريج النفوس الصالحة المؤمنة لا يراه الا فى المسجد ، وهذه هى اللبنة الأولى والأساسية التى يجب أن يضعها فى بناء الاصلاح كيما يترك أثرا صالحا حقا فى هذا المكان الذى حل فيه ، وكيما يحقق آماله فى اصلاح شامل ٠٠ وهذا ما فعله : أن يسلك سبيله الى الأمة وقلوب الشعب عن طريق المسجد ، فيكون رواد المسجد هم أول جيش يعبأ لتكون منه « حامية الأساس » الأولى التى تنهض بعبء هذا الاصلاح الجسيم ٠

المسجد هو المكان الطبعى يتجه اليه المصلح الذى تواجهه ظروف كالتى تعترضنا ، وهو الجامعة العامرة بالرجال التى يلجأ اليها فيجد طلبته ، فما كان المسجد فى الاسلام أبدا الا هذه الجامعة الشعبية الكبرى يتخرج فيها المصلحون وقادة النهضات ، ومن محرابه انطلقت صيحات الثورة على كل حكم جائر أو وضع ذليل مهين ، ومن منبره ارتفعت الأصوات فى وجه الظلم والظالمين ، ومن بابه خرجت صفوف الجهاد متراصة تكتسح مبادىء الافك والزور ، وتديل دولته وتأخذ عليها السبيل ، فى المسجد تربى الجندى المسلم الذى حطم امبراطورية كسرى وقيصر ، والذى طرق أبواب أوروبا ، والذى سخر من نظامها العسكرى فى معارك صلاح الدين ، ولا عبرة بعد هذه

الحقائق بما قد يقال من أن ضعف الروح الدينى جعل جمهور المسـجد قد انزوى منه العنصر الحى وأصبح مأوى أفراد محطمين ما بين شـيخ فان أو مقعد أو ذى عاهة ، أو فريق الضعفاء المتواكلين ، فلعل هذا ان صح فى وجه من وجوهه يكون آتيا من تقصير القائمين على المساجد فى أداء رسالتها كما ينبغى أن تكون ، وعلى أى حال فقد اختار حسن البنا هذا السبيل ووجد فى المسجد عدة قوية يمكن أن توجه فتكون ذخيرة صالحة ، تلتئم من هؤلاء الذين مازالت قلوبهم معلقة بالمساجد ، أما الذين انصرفوا عنها وهرعوا الى المقاهى وأمثالها من ضروب اللهو فلنردهم نحن الى المسجد ، وسـبيلنا ولا ريب أن نغزوهم فى أماكنهم ونقتحم عليهم مقاهيهم ، ونبارزهم حيث هم بشتى الأسلحة : بالكتب والنشرات أو الخطابة ، ونجتذبهم الى بيئتنا بوسائل مغرية مشوقة متلائمة شيئا ما مع نوع الحياة الذى يألفون ، حتى نستطيع بهذا أن نشكلهم حيث نريد ونوجههم الى الغايات الكريمة .

هذه واحدة من الطرق التى شرعها حسن البنا لتربية الأمة وبدأ يجربها عمليا فى الاسـماعيلية كما رأينا فى المقتطفات التى نقلناها عن مذكراته ، فاستطاع أن يجمع حوله عصبة من الشباب ، وكان أول من اسـتجاب له نفر من العمال ضـئيل ، وهى سـنة الدعوات أن تستجيب لها الطبقات الشعبية أولا لأن قلوب أفرادها أقرب الى الطهارة والصفاء ، لم تدنسـها الشهوات أو تغريها ضلالات الترف والاستكبار .

وقد تناول القرآن الكريم بتفصيل واف محكم دقيق عميق شـئون الدعوة والدعاة ، وتعرض باسهاب لاحتمال ما يقوم من نزاع بينهم وبين الناس أخلاطهم ومترفيهم ، ونبه الى ما طبعت عليه أخلاق الناس ونفسياتهم المتباينة فى طرائق معاملتهم للدعاة ، وأرشد الى ما يجب أن يقابل به كل صنف من هؤلاء ، فرسم بذلك للقائد والمصلح طريقا واضحا مؤمنا .

نرى هذا كله فى جدال قوم نوح له عليه السلام اذ يقولون : « **ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** » (١) فيقول لهم عليه السلام : « **أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . وياقوم لا أسألكم عليه مالا ، ان أجرى الا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، انهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . وياقوم من ينصرنى من الله ان طردتهم ، أفـلا تذكرون . ولا أقول لكـم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، انى اذن لمن الظالمين** » (٢) . فاذا أفحمهم

---

(١) هود : ٢٧ (٢) هود : ٢٨ ـ ٣١

بهذه الحجج الواضحة قالوا : « **يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين** » (١) فيقول متوعدا فى ملاينة مستسلما لربه : « **انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين • ولا ينفعكم نصحى ان أردت ان أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم ، هو ربكم واليه ترجعون** » (٢) • فيوحى اليه أنه : « **لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** » (٣) • ويتنزل اليه أمر ربه : « **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ، انهم مغرقون** » (٤) • فيمتثل : « **ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون • فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم • حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه الا قليل** » (٥) •

من مثل هذا الدرس اتخذ حسن البنا دستوره الذى يوجهه ويهديه ، وتلقى أصول الايمان وواجبات القيادة وتكاليفها من منابعها الأصلية العملية فى كتاب الله ، وهو الذى عكف عليه فى ليله ونهاره وكل أوقات يومه الا قليلا ، ينقب فى أسراره وما انطوى عليه ، فأخذ عنه ما يثبت به فؤاده ويضىء له السبيل ، ولهذا سار غير عابىء بما لقى من صعاب وما واجهه من حملات ووجه اليه من سخرية من أول ساعة بدأ فيها ، فقد عرف أنها سنة الله فى الدعوات وأصحابها ولن تجد لسنة الله تبديلا •

هكذا بدأ حسن البنا موفقا مسددا لم يخط خطواته الأولى الا على بصيرة وبعد أن اكتشف معالم طريقه الطويل بكل ما فيه ووقف على دقائق مسالكه وما ينتظره ، فلم يفاجأ بشىء أو يدهمه جديد فى هذه الناحية ، وهذا فى الوقت الذى راق فيه للبعض أن يقلد الحمقى والمفتونين ممن ظهر من رجال الغرب •• أما هو فقد درس القرآن واستخلص منه أروع القصص وأمثل الطرق فى تربية الأمم وقيادتها ، وبذلك عرف كيف يقتحم الحياة من مناحيها الواقعية وكيف يسوس الناس بما يتفق مع طبائع النفس الانسانية ، لأنه لم يرتجل خطته ارتجالا ، ولا لفقها من الحوادث والمناسبات تلفيقا ، أو قلد فيها هؤلاء الحمقى الذين أذلتهم الأيام بما صنعوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ••

تلقى حسن البنا مما تجمل به وأرشد اليه أستاذه محمد صلى الله عليه وسلم : « **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى**

---

(١) هود : ٣٢
(٢) هود : ٣٣ ، ٣٤
(٣) هود : ٣٦
(٤) هود : ٣٧
(٥) هود : ٣٨ ــ ٤٠

هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (١) . « ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » (٢) .

وبهذا التوجيه القرآنى الربانى سار الى نجاحه المقدور ..

بدأ كما عرفنا واستجاب له نفر من العمال ، ووجد فى القرآن الحقائق العملية التى يجب أن يتحلى بها المصلح ، ونفسه اسلامية بطبعها من نشأتها ، فانطبعت تصرفاتها مع دواعى تلك الأخلاق وتجاوبت أصداؤها مع مطالبها .

انحصرت مهمته فى معالجة النفس باقامة صلة بينها وبين خالقها ، فاذا اجتلى هذا الصدأ الذى لحق النفوس ، أشرقت جوانب الفرد الباطنية ، وأمكن الاستفادة منه واستغلال مشاعره وقوى الخير فيه ، فليس الاصلاح فى حقيقته المنشئة الا تجنيد هذه القوى واحسان الاستفادة منها للبناء والتعمير ، وبذلك تشاد نهضات الأمم على نوازع الخير الشائعة فى أفرادها متى وكل أمر تصريفها الى عقل حكيم بيد أمينة .

وهذه هى الربانية كصفة فى الفرد بمعنى من معانيها ، فاذا قيل لك ان المسلم ربانى فمعنى هذا أنه قد ارتبط بربه ، وأقام صلة بين نفسه وبين مجتمعه فلا يصرف قوة من قوى النفس الا فى خير خاص أو عام ، وهى محالفة يحرسها الضمير وان قامت عليها القوانين الى جانبه فى بعض أشكالها المادية وصورها العملية ، فاذا استطعت أن توقظ الضمير وأحسنت استخدام سلطانه بأن أقمته حارسا يقظا فذلك هو النجاح .

حسبك من النجاح أن تحصل على الضمير اليقظ فتجدد شعبا معبأ يقظا يشتعل ايمانا بحقه ، وذلك هو الجيش الأول الواجب على المصلح اعداده وتكوينه ، وهذا ما لم يهمله حسن البنا وهو المقبل على بناء أمة وتجديد نهضة .

أقبل على هذا النفر الذى اجتمع له يحضهم على الخير ويؤلف بين قلوبهم على الطاعة والحب والاخاء ،والتعاون على البر والاصلاح،واشعارهم جميعا أنهم اخوة لا يؤمن أحدهم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأنهم متكافلون متضامنون كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تألمت له سائر الأعضاء ، أسرة واحدة : الواحد منهم أخو الآخر لا يظلمه ولا يخذله ، وأن حسب الواحد من الشر أن يحقر أخاه هذا .. فكيف به يتلمس له العيب تلمسا ويجد فى الصاق التهم به الصاقا .. ؟ !

---

(١) هود : ١٢٠ (٢) الفرقان : ٣٣

وهـو بينهم واحـد منهم له ما لهم وعليـه مـا عليهـم ، وانما يميزه عنهم أنه أكثرهم واجبا وأثقلهم تبعة،لهم جميعا عليه حق النصيحة والرعاية، وفى عنقه واجب توجيههم وارشادهم ، وهى تبعة الأمر الذى تصدى له ، فلن تبرأ ذمته الا بأدائها ما استطاع الى ذلك سبيلا ٠

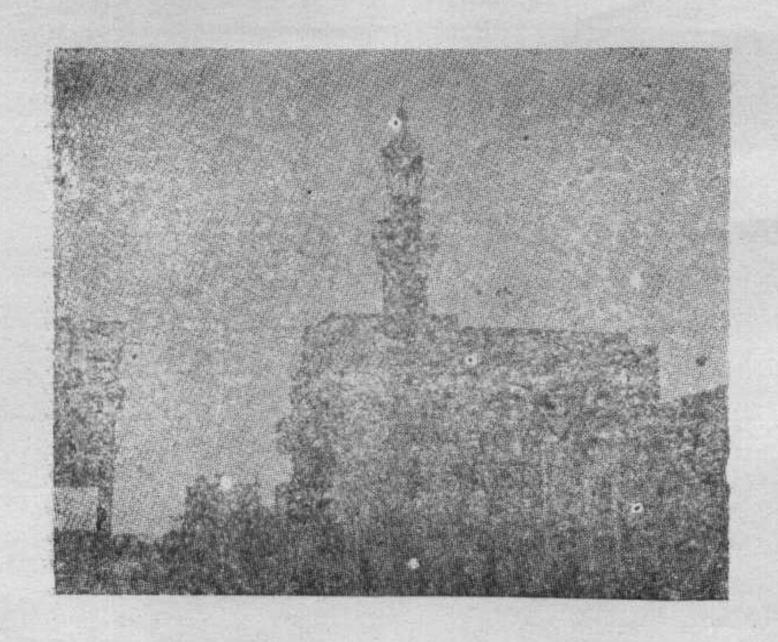
ولئن كانت ظروف الاسماعيلية الخاصة جعلته بادىء الأمر ينصرف عن المسجد وجمهوره ، أو على الأصح يوقف ويرجىء فكرة غشيان المسـجد لتجنيد رواده ، فانه لم يمض وقت طويل حتى كانت هذه الظروف قد زالت ، فكانت هذه الخطة من وسائله ، ووجدناه يعد هو مسجده كمعهد شعبى يدرب فيه النفوس على الجهـاد ويجهزها للغاية التى يهدف اليها ، ويعبئها لادراك مجدها ، فلقد كون أسرته الأولى على نحو ما رأينا من جمهور القهوة ، وربط بين قلوب أعضائها بالرباط الوثيق الذى لا ينفصم ٠٠ رباط الأخوة والحب ٠ فاذا اطمـأن الى أن هذا المعنى قد لصـق بالجوانح وخـالط القلوب ، وأن هذه النفوس قد شحنت بقوى روحية دافعة تسـتمدها من معان داخليـة نفسانية من أحكام تلك الأخوة التى أشربتها ، فهى تسـلمه زمامها تلبية لسلطان هذا المعنى الداخلى القاهر ، وهى تتطلع اليـه ليبلغ بها غايتها التى استمدتها من غايته ، والتى صار يحدوها هذا الشعور بحب الناس ٠ والسعى فى خيرهم واسعادهم ، بالارتباط معهم والاندماج فيهم والتقـرب اليهم بما ينزلهم منزلة العضو فى الجسد الواحد ٠

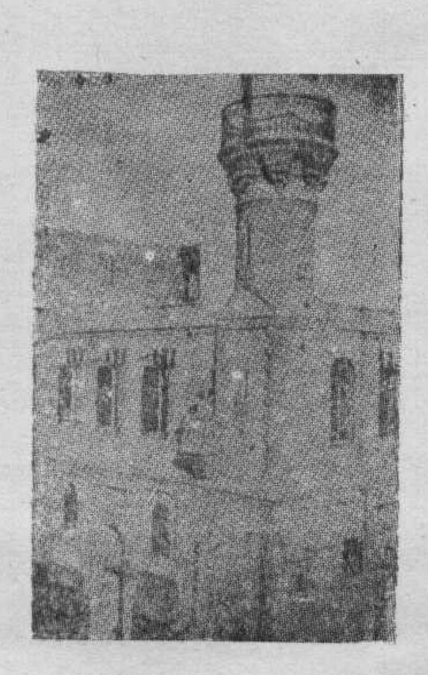
وقد كان له ما أراد ٠٠ تآخى هؤلاء النفر على الحب البرىء فيما بينهم، وآثروه هو بالمكان الأرفع فى قلوبهـم ، واجتمعوا واياه على أكرم غاية وأسمى هدف تهفوا اليه قلوبهم ، فماذا يريدون بـعد هـذا وقد أصـبحوا بنعمة الله : « اخوانا ٠٠ »

يطلبون المكان يجتمعون فيه ، يرفرف عليه علم الأخوة ، وينبعث منه صوت دعوة القوة : الله أكبر ٠٠ هذا الشعار الذين كان للمؤمنين به عدة وعتاد ، ففتحوا به الممالك وقوضـوا العروش ، فهو ليس مجـرد نداء ، ولكنه رمز القوة والتضحية والفداء ، سـطع شـعاع ضوء الايمان وانبرى ساريا يقتحم الفضاء فى معركة بينه وبين الظلام ليبدد حلكته ، وانجلت المعركة عن انتصار الايمان واستقرار شعاع ضوئه فى اقامة دار ومسـجد الاخوان بالاسـماعيلية ، وهى أول دار ارتفع فيها صـوت الدعوة الى الله، وأول مؤسسة فى القـرن العشرين قامت على تقوى من الله ورضـوان ، و « اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصـال ٠ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصـلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصـار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملـوا ويزيدهم من فضله » (١)

---

(١) النور : ٣٦ ــ ٣٨





فى الصورة العليا مسجد ودار الاخوان بالاسماعيلية وفى السفلى منظر مستقل للمسجد ·
ننشرها تحية لذكرى هذه المؤسسة الاسلامية الخالدة ·

ولقيام هذه المؤسسة واقامتها قصة طريفة من أمتع قصص الايمان الزاخر به كتاب جهاد قائد الدعوة ومنشئها ، لعلنا نأتى على تفاصيلها فى مكان آخر من هذا الكتاب أما الآن فحسبنا أن عرفنا فى اجمال كيف أقر حسن البنا فكرته فى الاسماعيلية وتمكن من اقامة قواعدها ، وكيف كانت الاسماعيلية مهد الدعوة ومشرق الفكرة وهى حقيقة كريمة ذات بال لها فى التاريخ اسمها ومكانها ، وفى القلوب ذكرها وسحرها ٠

كفل حسن البنا هذه الأسرة المتآخية ، المتحابة ، وعلى سواعدها ومن مدد معين ايمانها شاد هذا البناء ، فكان قيامه آية النصر ، وبشير الفتح ٠

سار حسن البنا بكتيبته الأولى باسم الله ، يحمل لواء الدعوة الى الحق فى ثقة ويقين من النصر ، يغالب بايمانه الصعاب ويقاوم التيارات المتقلبة ، مكتفيا من الناحية الايجابية الانشائية بما شرحه فى مذكراته التى نقلناها ، لا يزيد عليه الا بما تدعو اليه ضرورة ، أو يحكم به ويحتمه موقف خاص ٠

أعد داره فهى مقر دعوته ومركز قيادته ٠٠ وانشا مسجده فهو جامعته الكبرى تضم ما يشاء من فروع المعاهد ودرجات الثقافات ، وتعد لما يطلبه تطوره فى فكرته من اتساع الدراسات ، ومن أجل هذا فقد اتسع المسجد فى الاسلام وانفسح لكل الثقافات ، فضم الصوفية والعباد والذاكرين وأواهم ، فكانت فيه حلقاتهم وندواتهم ، ورحب بالعلماء والفقهاء والقضاة والمشرعين والمقننين فانتظمت مجالسهم فى رقعته ، وصافى الحكام ووالاهم فاتخذوه سبيلهم الى الشعب ، وكان برلمانهم ودار نيابتهم ، يتحدثون الى الشعب عن طريقه ومن على منبره ، فمنه ألقيت مراسيم تعبئة الجيوش وتسييرها ، وأذيعت أنباء الفتوح ٠٠ وهكذا كان المسجد جامعة تضم شتى الثقافات الى جانب الفنون الحربية والعسكرية والتشريعية ، وهى الجامعة التى يريد حسن البنا أن يعيد اليها هيبتها ومقامها ومهمتها ، وأن يجعلها كما كانت مركز الثقافات ؛ ولهذا أعد داره وأنشأ مسجده ٠٠ وماذا بعد هذا الا الاتصال بالشعب لتوجيهه الى هذه التعاليم وتنشئته من جديد عليها ، ولتحقيق هذا نظمت الدروس والمحاضرات وطبعت النشرات ، ورتبت اجتماعات أخوية تناجى فيها قلوب هؤلاء الاخوة من يفد عليهم مناجاة فيها اخلاص دقيق وتصدر عن شعور عميق يدرك معه الزائر الجديد بأنه حقا يقيم بين أفراد أسرة تربطه بهم علاقة خاصة خفية قوية ، يتم كل هذا وأكثر منه بكل ما يمكن من وسائل الاتصال المباشر ووسائط النشر والاذاعة ، وتسير السفينة رخاء باسم الله ، تشق طريقها بهدوء وبمعزل عن أمواج الفتن والخصومات ومثار الخلافات ٠

ويتكون معهد حراء الاسلامى وهو معهد خاص يتلقى فيه الاخوان مبادىء الدعوة على منهاج معد بتركيز وعمق ، ويتعلمون كيف يكونون

دعاة أى كيف يدعون الناس ؟ وما يجب عليهم أن يتخلقوا به وهم يقتحمون هذا الميدان ؟ وأستاذهم ومرشدهم فى هذا هو أخوهم الأكبر حسن البنا ٠

رسخت قوائم الدعوة فى الاسماعيلية ونمت وترعرعت ، فلاحظ الاخوان على أستاذهم اتجاها جديدا : بدأ يزور البلاد منفردا فى أحيـان كثيرة ، ومستصحبا واحدا أو أكثر منهم فى حالات أخرى ، ووجدوه يسلك فى هذه الزيارات مسلكا خاصا يتكيف فى كل بلد بتكيف ظروفه ، وتمر الأيام فاذا به يتطور ويعتمد عليهم أنفسهم فى زيارة البلاد منفردين ، فيكون هو فى بلد وواحد من الاخوان غيره فى بلد آخـــر ، واذا بالاخوان يفاجأون من حيث لا يشعرون بأن دارهم هذه صارت مركزا لقيادة الدعوة الاسلامية ، وأن أخاهم وأستاذهم يحتل قلوب اخوان لهم فى بلاد أخرى غير الاسماعيلية ، وهؤلاء يرتبطون به وبهم برباط الأخوة ، تجمعهم عقيدة واحدة وتؤلف بين قلوبهم غاية واحدة ، فلم تمض أكثر من سنتين الا وكانت لهــم شعبة فى أبى صوير وبور سعيد والبلاح ، ثم فرع فى السويس بعد نحو ثلاث سنين ٠

ولم تهمل الدعوة فى ابان نشأتها فى الاســـماعيلية أمر المرأة ، بل عملت على تهذيبها واصـــلاحها وتعبئتها فى كتيبتها ، ولم تنس أن خديجــة كانت أول جندى فى كتيبة الدعوة الاسلامية الأولى ، وأنها أول من آمن بمحمد وصدقه وعضده ، وأن المجد يفرد لها وحدها بابا مستقلا من أبوابه ، وأن التاريخ على كل حال قد تعرف الى المرأة المسلمة فعرفها مجاهدة تزاحــم الرجال ولكن فى ميدان الصراع للحق ، وتسابقه وتسبقه ولكن فى زحمـــة الدفاع عنه واحراز شرف نصرته ٠٠

ذكرت دعوة الاخوان هذا كله فتكون فى الاسماعيلية معهد أمهـــات المؤمنين لتربية البنات واعدادهن ليكن أخوات مسلمات قانتات عابدات غير متبرجات ، يقمن على شئون البيت والأسرة بما يضمن السعادة الزوجية ، ويحقق هناءة البيت وحسن تربية الأولاد فى ظل توافق قلبى عائلى وانسجام زوجى وسلام مطلق تؤكده الطاعة وتبادل الولاء ٠

على هذا سارت الدعوة تلائم بين عوامل النصر المختلفة ، وتنتقل من نجاح الى نجاح ، وتجاوز ميدان نصر الى ميدان غيره ، وتفرغ من مرحلة توفيق لتستأنف أخرى أوســـع وأكمل حتى ناهزت من عمـــرها أكثر من اربع سنوات ، أصبح لها بعدها ما يقرب من عشرة فروع ، وكان الأستاذ عبد الرحمن الساعاتى شقيق الأستاذ وظله ورفيق حجره وصباه قد انفرد هو الآخر فانشأ بالقـــاهرة جمعية الحضـــارة الاسلامية ومعـــه عدد من أصـــدقائه حيث وظف بالقاهرة بعد حصـــوله على دبلوم التجارة العليا ٠

والتقى الشقيقان فى جهادهما بعد هذه الفــترة ٠٠ وتحولت جمعية الحضارة فحملت اسم : « الاخوان المسلمين » ٠ وبعد نحو خمس سنين من

تأسيس الفكرة بالاسماعيلية نقل حسن البنا مدرسا الى القاهرة · وأخذت الدعوة طورا جديدا ، اذ أصبح المركز العام ومقر القيادة فى القاهرة ··

وبدأت قصة الايمان تتجدد فتعرض على الزمن صفحة أخرى جـديدة يانعة من صفحات المجد والخلود ·

★ ★ ★

— ٥ —

محـــاولات

عرف جمهور المســـافرين من راكبى الدرجة الثـــالثة ممن تضطرهم ظروفهم وأعمالهم الى السفر المتواصل وكثرة التنقل ــ شابا فى مقتبل العمر عادى المظهر نحيف الجسم جم النشاط كثير التنقل خفيف الحـركة سريع الخطو ، ولقد لفت أنظارهم اليه ما لاحظوه عليه من البساطة وعدم التكلف والاغراق فى التواضع ، ونبههم اليه سلوكه فى صعوده الى القطار ونزوله منه ، وفى دخوله وخروجه من العربة ، وفى مبادرته من يلقاهم بالقاء السلام حين يقدم وحين ينصرف ، وفى جلسته الهادئه المتواضعة حيث ينتهى به المكان، فلا يعنيه ما يهتم به الناس عادة من ايثار النفس بالمكان المريح ، وهو ان اضطر الى معاملة أحد أو محادثته · جانب الخشونة ولزم اللطف واللين ، ثم هو لا يجلس فى مكانه مقطب الجبين معرضا عما حوله وكأن بينه وبين الناس قطيعة أو ثأرا ، ولكنه البشوش صبوح الوجه ، يفتـــح للحديث مع الناس أبوابه ومداخله وينساب فيه ، ويحرص فى هـــذا الحديث على أن يعرف اسم محدثه وبلده وأسماء العائلات فيها ومراكزهم ويلم بكل ما يمكن الالمام به من المعـــلومات عن هذا البلد وأهله وطبائعهم وعاداتهم وطـرق معاشهم وعدد المساجد والمدارس عندهم ، فاذا وصل القطـــار الى المحطة التى يريدها غادره فى خفة واختفى عن أنظار المســـافرين ولا يفوته قبل أن ينزل أن يقرىء من حوله السلام · ولم يكن هذا المسافر الشاب الا حسن البنا يجوب أنحاء مصر فى سياحاته المتكررة لنشر مبادىء الاسلام ·

انتقل مدرسا الى القاهرة فانتقل المركز العام للاخوان اليها ــ أى انتقلت قيادة الدعوة ــ والقاهرة مدينة كبرى ، الحياة فيها غيرها فى الاسماعيلية ، فلا بد اذن من تطور فى الوســـائل والخطط ولابد من اعداد واســـتعداد لمواجهة هذه الحالة الجديدة ·

فالناس هنا أصناف متفاوتون وطريقة جمعهم والتأثير فيهم والاتصال بهم تحتاج الى تدبر وتفكير وبعد نظر ·

هنا جمهور القهوة وجمهور السينما والمسرح وجمهور الشارع وجمهور المسجد فعلينا أن نعد للأمر عدته ونأخذ للنجاح أهبته ٠

هذا بالنسبة للقاهرة ٠٠٠ وبقية المدن والأرياف أفنسقطها من الحساب ؟

هؤلاء اخواننا المنبثون فى القرى والعزب والكفور ، والذين تضمهم المدن ٠٠ أليست لهم علينا حقوق ، أليس واجبا علينا أن ننتقل اليهم لندرس حالهم ونتعرف شئونهم ونوجه النصح اليهم ونتدارس واياهم شئون الأمة والوطن ؟

أليس مفروضا على المصلح وقد أخذ على عاتقه هذه المهمة أن يكون دائم الاتصال بهؤلاء الذين لم يعرفوه ولكنه عرفهم لأنه أدرك أنهم محتاجون اليه والى جهوده تنتشلهم مما هم فيه ٠

اذن فقد حانت الساعة التى ينفذ فيها حسن البنا ما عاهد ربه عليه وهو طالب ، ألم يقل انه قد أعد لتحقيق أمله الاصلاحى هذا : الثبات والتضحية ، ودرسا طويلا يحاول أن تشهد له به الأوراق الرسمية ، وتعرفا بالذين يعتنقون مبدأه ويعطفون على أهله ، وجسما تعود الخشونة على ضآلته وألف المشقة على نحافته ، ونفسا باعها لله تجارة منجية ؟

الى الجهاد اذن والى القرى والى الشعب فى بيته وفى مزارعه ومصانعه وفى كل مكان يحتمل أن يكون فيه انسان تدب فيه الحياة ؛ الى الجهاد والى الشعب يا من تريد أن تقود الأمة الى المجد ، ويا من تريد أن تنتزع اليأس من النفوس ؛ ان الأمة تطلب انقاذا ليس فى هذه المبادىء ترسل فى المقالات تقرأها فى الصحف ، والخطب ترسل عليها من محطات الاذاعة ، ولكنها تريد مبادىء من روح رجال يؤمنون بما يقولون وينزلون الى مستوى الشعب يأكلون مما يأكل ويشربون مما يشرب وينامون حيث ينام فيحسون باحساسه ويشعرون بشعوره ويعرفون ماذا يريد ٠

فقيادة الشعب واصلاحه أن تتعرف اليه وتأتلف معه وتدرس حاله بنفسك والا فكيف تعالج مريضا لم تعرف أين موضع الألم والداء من جسمه ؟

الى الشعب اذن لننقذه ونطب له ٠٠ وهذا ما نهجه حسن البنا : ففى الوقت الذى كان فيه الفلاح والزارع والعامل لا يعرفهم أحد من رجال هذه الأمة الا فى موسم انتخابى كسبا للأصوات وطلبا للحصول على كرسى النيابة بعد الاغراء بالوعود المعسولة وبهرج القول ؛

فى هذا الوقت كان حسن البنا يسعى للأمة سعيا فيذهب الى الزارع فى حقله والى العامل فى بيته لا ليستجديه أو يخطب وده أو يطلب صوته

فى الانتخاب ولكن ليرشده ويعلمه وليلقنه ما ينفعه ، يدفعه الى هذا حبه ومصلحته ٠

فاذا كان يوم الخميس من كل أسبوع أعد حقيبته واستقل القطـار كما يستقله أى فرد عادى من أفراد الشعب فخالط المسافرين وتحدث اليهم وعرف آلامهم وما يطلبون هم واخوانهم فى بلادهم ٠

وفى القطار تتجلى نفسية المسافر وينطلق لسانه بالاعراب عما يجول بنفسه ، والبصير يمكنه أن يتخذ من هذه الجلسة وسيلة لدراسة اجتماعية عميقة ، وقد استفاد حسن البنا من هذا ثروة أمدته بفيض من المعـانى النفسانية المتوارية فى الناس والتى يحتاج اليها المصـلح لتشخيص أدواء النفوس والوقوف على ما ينتابها ٠

هذا الى أن التعارف واقامة العـلائق الشخصية وتوثيق الصـلات بين الناس له أثره سواء فى نشر المبـادىء والتبشير بهـا ، أو اعتناقها والايمان بها والعمل لها ٠

على أن حسن البنا لم يكن يهدف بأسفاره وتنقلاته الى هذه المعـانى وحدها فهى مهمة يسيرة قليلة الأعبـاء لو كان الأمـر أمر سفر واتصال أو معرفة لحالة الشعب أو انغمار فى آماله ٠٠

ما أيسر المهمة لو كانت هكذا ، ولكنها أكبر من هذا وأعمق أثرا ٠٠ انها فى معنى انسـانى ينشده العالم وتطلبه الجماعة الانسانية كلها ، انها رسالة الأخوة الاسلامية التى تريدها الحضارة والتى لن يتحقق للعالم أمنه وسلامه الا اذا أخذ من روحها وقبس من ضوئها ٠

انها الرسالة العالمية فى أخوة انسانية محددة شرع يبلغها للناس هذا الشـاب العميق الايمان القوى الأمل فى عصر طغت فيه النزعات القومية وجرفت النفوس تيـارات العصـبيات المذهبية وما اليهـا فانقلب الناس ذئابا يفترس بعضهم بعضا ٠

انها الرد الطبيعى المنطقى على مفتريات الثورة الفرنسـية وخدعها ، هذه المبادىء التى طلعت بها فرنسا على الشعوب تغرر بها وتقول (أخـوة وحرية ومساواة) فاذا الأخوة خصومة واذا الحرية عبودية واذا المساواة فوارق وطبقات ، واذا المسألة كلها رواية على المسرح ، ولكن الشرق الاسلامى يريد أن يعلن عن الأخوة الانسانية فى معناها السابغ ٠

وقد نهض حسن البنا ليتولى الرد الطبيعى المنطقى على هذا التغرير الذى حاكته الثورة الفرنسية ، والاسلام هو الرسالة الانسانية الخالدة التى

يجد الناس فيها ملاذهم كلما دهمتهم المطالب أو ضايقتهم الكروب ، واذن فهى الأخوة الاسلامية يرتفع لواؤها من جديد لتتعلم أوروبا : أين هى من حقيقة المبادىء وأنها بعملها وبرقيها الفكرى وتقدمها الفنى لم تبلغ فى المعـــانى الانسانية مبلغا عمليا مشرفا ٠

أما مبادىء الاسلام فقد وجدت فى رجالها مثلا صادقة يرعونهـــا ، وما عرفت الانسانية عن قادة المسلمين وحشية ولا وجدتهم يوما يتنكرون لمبادىء الأخوة ، وينسون اليوم ما أعلنوه بالأمس ، فيســـتبعدون الأمم والشعوب باسم ترقيتها ، وانما كان الفتح الاسلامى فتحا للعقول والقلوب ٠

وكذلك يتصـــل حسن البنا اليوم بالشعب ليعيد لبنيه أخوتهم بعد أن درست معالمها فيقيم على أساسها أمة يتكافل أبناؤها ويتراحمون ٠

الأخوة الاسلامية هى التى تحل مشكلة الطبقات ، وهى التى تحل كل مشكلة مستعصية ٠

وما علينا كأمة تطمح الى النهوض وترنو الى العزة والحرية والاستقلال الا أن نوحد الأمة ونجمع قلوب أبنائها برباط الأخوة الاسلامية ، فليســت الوحدة فى هذه الائتلافات الشكلية التى يلفقونها بالمواثيق النظرية تلتقى بها الأجساد دون القلوب ، فيقال ان القوم مؤتلفون متوحدون مع أن قلوبهم شتى ، انما الوحدة ثمرة ناضجة من ثمار الأخوة التى توحد القلوب والمشاعر ومحال أن تتحقق وحدة بدونها ، ومن أجل ذلك فشـــلت كل المحاولات فى اقامة أى ائتلاف فى الأمة الواحدة ، أو ايجاد أية روابط بين أمة وأخرى لأنها انما تقوم هياكل لا روح لها ٠

الأخوة الاســـلامية تقضى على الميل الشخصى وتذيبه ، وتنمى الايثار وتربيه ، ومن أجل ذلك فلا حزبية فى الاسلام ولا عصبيات ولا جنســيات ولا نعرات قومية ، ولكنه مجتمع واحد ، الأمة الواحدة فيه متفقة على الأهداف العليا مرتبطة قلوبها بغايتها ، والأمم جميعها كذلك تسير به الى غاية واحدة تتعاون على تحقيقها : أن تقيم أسس الحضارة على أشرف المقاصد وأنبلها ٠٠ وتلك بعض أهداف الأخوة الاسلامية فى مراميها الخاصة فى الأمة الواحدة والعامة للانسانية جمعاء ، وتلك هى بعض مقاصد الدعوة الاسلامية كمـا فهمها حسن البنا وكما عقد عزمه على نشرها واذاعتها وتربية الأمة عليهـا من جديد ، فقد نسى الناس هذه المعانى ولا بد لهم بمن يذكرهم بها ، نســيها الناس وبعدوا عنهـا وجهلوا أنهـــا من عقـــائدهم ومن تعـــاليم أنبيـــائهم ومقدسات دينهـــم ، فاذا ذكروها فعلى أنها نعمة من نعـــم أوروبا ونفحة من نفحات العقل الغربى الحديث ، وما عرفت أوروبا هذه المبادىء ، ولا جاء بها الغرب الا لتكون تجارة وتغريرا ٠

★ ★ ★

بروح الأخوة الاسلامية والرغبة المطلقة فى سيادتها وانتصارها ٠٠ انطلق حسن البنا يذيع هذه المبادىء من جديد ويدعو اليها ويوصلها الى الزارع والعامل وكل فرد من أفراد الشعب بعد أن غزته حضارة أوروبا وضربت نطاقا بينه وبين معانيها الفاضلة ، فالمترفون منه فى عماية منصرفون الى اللهو والعبث وكل طبقة فرحة بما عندها وهكذا ٠٠ أما صميم الشعب وسواده فهم بمعزل عن كل ما يجرى فى البلد لا يكاد يفكر فيهم أحد ، محرومون حتى من وسائل النشر والاذاعة ، وان تلقوا منها شيئا فهو الضئيل التافه الملفق الذى لا نفع فيه ٠

ولأول مرة فى تاريخ مصر يرى الشعب صديقه يصافحه يدا بيد ، ويقطع اليه المسافات ويتحدث اليه بلغة جديدة صادقة ، ويلقنه تعاليم مخلصة ، ويعامله معاملة جديدة لم يعرفها ولم يألفها ٠

تعود الناس ألا يسمعوا العظات الدينية الا من رجال الدين وبأسلوب خاص وعلى طريقة معروفة ، ولكنهم اليوم يسمعون هذه العظات بلسان آخر وأسلوب جديد يتحدث به اليهم شاب ليس من صنف هؤلاء الرجال الذين عرفوهم ٠

فما هذا الأمر الجديد ؟ لقد عرفوا الدين وقفا على طائفة من الناس يفتونهم فى شئونه كلما عرض لهم أمر دينى ، ويستشيرونهم فى مسائله المحصورة المتصلة بحياتهم اليومية كمسلمين ، ولكنهم اليوم يسمعون جديدا ، فهذا التخصيص والقول بأن هذا رجل دين وهذا رجل دنيا أمر يحض على نكرانه هذا الشاب المسلم ، فكل مسلم عنده رجل دين ، والاسلام لم يعرف هذه التفرقة بين رجل الدين والدنيا ، وكل المسلمين مطالبون بأن يكونوا رجال دين ٠٠ هكذا يعلمهم هذا الشاب ويلقى اليهم هذه الحقائق بمنطق سليم مرتب ، وأسلوب عذب دقيق يقنعهم بأن هذه الأسطورة التى تجعل من المسلم رجلين ، رجلا للدين ورجلا للدنيا ، هذه أسطورة غير اسلامية قد شاعت فى الأديان الأخرى ، ووجدت عند أهلها للاشراف على انفاذ تعاليم دينية خاصة ينكرها الاسلام الذى لم يجعل واسطة بين العبد وربه : « **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان** » (١) ٠

وهم قد عرفوا المصلحين طوائف لكل ناحية من الاصلاح طائفة ، فهذا رجل اجتماعى دعوته اجتماعية ، وذلك خيرى ، وغيره سياسى ، وهكذا لكل ناحية من نواحى الحياة رجل ، وكأن العقليات فى الأمة أو الحياة نفسها يجب أن تعود الى نظام قبلى خضوعا لهذا الفهم الذى جعل وحدة الحياة الاصلاحية فى تفكك واضطراب ، وعلى كل حال فقد فهم الناس مسائل

---

(١) البقرة : ١٨٦

الاصلاح وشئونه على هذا الوضع مجزأة موزعة ، ولكن هذا الشاب يعالج هذه النواحى جميعا ويفتى فى شئونها ويقول ان فكرته الاصلاحية جامعة شاملة تتناول هذه النواحى جميعا ولا تترك ناحية الا تعرضت لها وعالجتها . وهو من أجل ذلك يندد بنظرية الفصل التى جزأت قضية الاصلاح وجعلت لكل جزء منها رجالا ومختصين .. فما هذا الأمر الجديد ؟ انهم قد عرفوا شئون الحكم والسياسة لا يعالج أمورها الا الذين اختاروا أنفسهم لخوض ميدانها — وان كنا لا ندرى بم اكتسبوا هذه الميزة ولماذا كانت وقفا عليهم — ولكن هذا الشاب يسفه هذه الآراء ، ويرى الاصلاح وشئونه وحدة لا تقبل التجزئة ويرى المسلم مطالبا بألا يقصر جهوده وجهاده على ناحية فيها دون غيرها ، وأن ينهض بها جميعها .

وهم قد عرفوا التصوف وقفا على جماعة من العباد والذاكرين لهم فيه وبه مسالك خاصة ، ولكن هذا الشاب يحدثهم عن فكرة تصوفية جديدة ويأتيهم بمذاهب فيه لم يسمعوا بها من قبل ، وهكذا عرف الناس حسن البنا الشاب الداعية عقلا جديدا يسعى اليهم حيث هم ليلقنهم مبادىء جديدة ، ويلقى عليهم تعاليم لم يألفوها ..

فما هذا الأمر الجديد الذى يعتزمه هذا الشاب ؟ : وما هذا التحويل الخطير الذى يهيىء له ؟ انها الرسالة الكبرى فى فهمها لحقائق الحياة وتكييفها تكييفا جديدا يردها الى الأصول السمحة الفاضلة لأسس الحضارة العالمية الانسانية كما جاءت بها مبادىء الاسلام ، وهى دعوة القرآن التى قاد بها محمد أمة لم يكن لها نظام ولا وحدة ، فجمعها بها على نظام لم ير العالم أحكم منه ، وأقام به حكومة لم يعرف التاريخ أرشد منها .

الأمة اليوم فى حاجة الى هذا المصباح الوهاج والسراج المنير ، يضىء لها السبيل ويوضح الطريق حتى تتخير ما يناسبها من القوانين والشرائع والدساتير والحضارات .

فلا تذكروا الاصلاح والنهضة ، ولا الدستور والحياة النيابية ، ولا الاستقلال والاحتلال ، ولكن خذوا القضية على وجهها ، وافهموها على وضعها الصحيح : قضية الاصلاح والاستقلال فى مصر تحتاج الى نظر جديد وتكييف جديد يعود بالأمة أولا الى دينها واسلامها ، ولا اصلاح ولا نجاح بغير هذا .

فالدعوة الى الأخوة الاسلامية ، والدعوة الى نظام الاسلام هى التكييف الصحيح لوضع القضية المصرية فى الظرف الحاضر ، وهى التكييف الصحيح السليم لقضايا الشرق الاسلامى كلها ، ثم هى أيضا الرد الطبيعى على حضارة الغرب المنهارة المتداعية التى تحكمت وسادت فترة من الزمان فلم تر منها الانسانية الا الشقاء .

★ ★ ★

جاء « حسن البنا » ليتسلم راية الحضارة الانســانية ويعيد قيادتها الى الشرق من جديد ليرجع العالم الى حضارة فاضلة مشرقة من مبــادىء الاسلام التى جربها التاريخ من قبل وسعدت فى ظلها الانسانية ٠

فقل للمتسائلين ما الأمر الجديد ؟ : انه علم الحضــارة يخفق على ربوع الشرق من جديد ٠٠ وهو الشرق قد رفع رأسه ليحتل مكانه الطبعى فى قيادة العالم ، وقد ظل شاغرا طوال هذه القرون ٠

★ ★ ★

— ٦ —

تطبيقات

حمل « حسن البنا » علم الأخوة الاسلامية يبشر به فى أنحاء مصر لاحياء معالم الحضارة الاسلامية الشرقية العربيــة ، ليؤدى الشرق دوره من جديد بعد أن انتزع الغرب منه قيادة العالم فكان ما كان من نتائج تشير اليها هذه الحروب المتوالية والمنازعات المحتدمة بين الدول ؛ ولا خير فى حضارة لا تعرف كيف تؤاخى بين الأمم والشــعوب ، وهى انما جــاءت لخدمتهم واسعادهم ، وكيف تقيم هذه الأخوة على أساس من الحب والتعاون ينظم صلات الناس ويسود العلاقات القائمة بينهم حتى يتحقق الهدف الأول لكل حضارة وهو جمع القوى البشرية لاقامة العمران الانسانى والنفع العام ، وذلك هو العنصر المفقود فى حضــارة الغرب مهما جاء معها من تقــدم عقلى أو فكرى ، ومهما ظهر فى عهــدها من معجزات الفنــون وخوارق العــلوم ٠

تلك هى المرامى البعيدة التى كان يهدف اليها « حسن البنا » لتتحقق بها رسالة الاسلام كما فهمها ، وأخذ ينشرها ، ويدعو الناس اليها ٠ ولقد سلك طريقه الى ذلك بمحاولاته التى أتينا عليها فى طــوافه وتنظيم صلاته بالشعب ودراسة شئونه وأحواله ، ولكنه كان يطرقها من بعد ، ويمسها مسا رقيقا ، ويعرض لها فى اجمال ، فكشف له هذا عن مبلغ اســتعداد الناس لقبولها وتلقيها ووقعها فى نفوسهم ٠

ولقد وجد من هذا كله فى طوافه ما طمأنه وزاده ثقة فى النجــاح وايمانه به ٠٠ فلم يبق اذن الا أن يواصل جهاده ويسير فى خطته فيتصل بالشعب بكل الوسائل ويعرفه بتلك المبادىء ويجمعه على الأمر الجــديد الذى يريده ، فهذا المنهاج وقد آمن به غاية ، وجب أن يؤمن به وســيلة ، ووجب أن يبلغه الناس ليتكون له الجند الذين يشاركونه الايمان به والجهاد فى سبيل نشره واذاعته ، وهذا ما فعله : فانه منذ أن استقر بالقاهرة شعر بتضخم العبء الملقى عليه ، وأحس بأن فترة الدراسة الماضــية لا تقبــل

الامتداد لأطول من هذا وأنه لابد من تطور سريع يتناسب مع المرحلة الحاضرة ، مرحلة التطبيق والعمل والبناء ؛ وما هذا التطبيق وما هذا العمل والبناء ؟

أما هو فيعرف أن حياته تستقى من منهاجه ، وهو وقد آمن به ايمانا عميقا جعله لابد أن يكون فى حياته الخاصة والعامة مثلا له يرى الناس فيه القدوة العملية ، وانه لمطمئن الى هذه الحقيقة ، والى تجرده لغايته واخلاصه لها ٠

ولكن الناس كيف يؤمنون به وبما يقول ؟ وبالتالى كيف يتآخون ويجتمعون على هذا الايمان الموحد ؟ وهذه الأخوة ما هى وما حدودها؟لم يعبأ كثيرا بالاجابة على مثل هذه الأسئلة التى ألحت عليه واعترضته ، فحسبه أنه آمن بمنهاجه وهو بهذا الايمان أخ للجميع ، وهذه الأخوة رسالة تفرض عليه الجهاد لتحقيقها بلا حساب لما عسى أن يكون ، ان هذا الشعب البرىء المسكين فى حاجة الى من يرحمه ويفكر فى انقاذه عمليا ، فليس للمصلح اذن أن يرميه بالغفلة والغباء وعمله أن يجلو هذه الغفلة ويبدد ذلك الغباء ، فاذا أشفق من المسئولية أو تهيبها ، ووقع فى نفسه أن يستمع الى ما قد يقال : ماذا يصنع وماذا يعمل ؟ فقد تراخى فيه الاقدام ووهن عنصر الايمان ٠٠

انما الدور الأول لجهاد المصلح : ايمان مطلق وثقة واطمئنان ، وما ترك هذا الايمان له من فراغ يستمع فيه لغير صوت الحق يهمس فى أذنه ببشائر النصر المبين ٠

ويتحداك التاريخ أن تدله على ايمان كايمان هذا الشاب فى عمقه ورسوخه وتحديه : ايمان بالغاية والوسيلة ، وايمان بالنفس ، وايمان بالايمان نفسه ٠٠

لو أنه كان للمصاعب تقدير أو حساب وتكييف عند تصوير أحكام الايمان لكان لنا مندوحة أن نقول أن ظروف مصر التى بدأ فيها « حسن البنا » جهاده لاتشجع على أمل فى نجاح ، ولكنه بايمانه أخذ يذرع القطر شبرا شبرا ، ويتغلغل فى أعماقه ، فى مدنه وقراه ، وفى نجوعه وكفوره ؛ ينزل البلد وهو لا يعرف من أهله أحدا ، وماله بهذه المعرفة وماذا يصنع بها الآن وقد قدم من أجلها ، وما تحمل المشاق الا ليحققها ، وما جاء الا وهو يعرف سبيله اليها ، فى المسجد حيث يلتقى المسلمون للصلاة فى مكان واحد ؛ هذه العبادة التى شرعها الله للناس يجتمعون لأدائها فى جماعة خمس مرات فى اليوم يتدارسون شئونهم وينظرون فى أحوالهم ، فما شرع الاسلام هذه العبادة ولا اعتبرها ركنا من أركانه الا للارشاد الى معان عميقة ومرامى بعيدة لم يحسن المسلمون اليوم فهمها والانتفاع منها ، فاذا وجدنا « حسن البنا » ينزل البلد من البلاد لا يعرف فيه أحدا ثم يتجه من فوره الى المسجد فهو التصرف الطبعى للمصلح المسلم الذى نفذ الى

أعماق دقائق دينه وفقه مراميها ، وهو الفكر الدقيق يسيطر على صاحبه ويصرفه بسداد واحكام ؛ هنا ٠٠ وفى المسجد تعرفت الدعوة الاسلامية بجندها الأول ، عرفهم « حسن البنا » أصدقاء ومعجبين استمعوا الى عظاته وأحاديثه فى أمور الدين وشئون المسلمين ، ورأوه يفيض فيها بعلم غزير وحكمة متدفقة ، فاذا هم بعد هذا يقبلون عليه مصافحين ، واذا به يسترسل معهم فى أحاديث فردية ، واذا هم منجذبون اليه مرتبطون به ، واذا به يقضى معهم الساعات الطوال لا يفتر لسانه عن الحديث وهم فى اصغاء واعجاب ، واذا به بعد ذلك يغادرهم وقد ترك فى نفوسهم مكانا ، فاذا سافر حدث بعضهم بعضا بما سمع وذكر هذا الشاب بالثناء والاعجاب ، وتحدث أيضا عن المبادىء الجديدة التى سمعها منه ، وعن النظرات الدقيقة التى فتح مسالكها له ، وعن هذه العلاقة الكريمة التى أراد أن يقيمها بينه وبينه ، وكيف كان يخاطبه بيا أخى ، وكيف أسهب معه فى الحديث ليشعره أنه حقا أخوه ، أخوة من نوع وثيق عميق ، أعمق فى صلاتها وأصدق فى رباطها من أخوة الدم والنسب ، وأن هذه الأخوة تحتم عليه شعورا خاصا وواجبات معينة ، وأنها يجب أن تكون عنده كريمة الجانب عزيزة القدر ، وما يلبث الا عشية أو ضحاها حتى يجيئه البريد برسالة يفضها ويتلوها فاذا هى من أخيه الشاب يؤكد له فيها أخوته ويشكر له جميل لقائه ويذكره بحقوق هذه العلاقة التى نشأت بينهما ، وأنه كان جادا حين تحدث اليه فى أمرها ، وأن عليه من الآن واجبات جديدة رعاية لحق هذه الأخوة ، لا تقتصر هذه الواجبات فى شعوره بالارتباط به وحده ، والنهوض بما يطلبه هذا الارتباط ولكنها تتسع فتشمل الارتباط باخوة كثيرين ، ثم تمتد أيضا فتحتم عليه بأن يشعر بأن الناس جميعا أخوته فاذا بلغ هذا من نفسه واستقر فى أعماقها فهو الساعى الى الناس ، وهو من يحذو حذو أخيه الشاب ، يلتمس فى قلوبهم المعرفة ، ويقيم بينه وبينهم صلة كالتى أقامها الشاب معه ويظل يحدوها ويتعهدها وينميها حتى تصل به الى مثل ما وصلت اليه بينهما ٠٠ وبهذا انبث فى مصر العشرات والمئات من الناس يعرفون مبدأ الأخوة ويؤمنون به ويبشرون له ٠

وهذه واحدة من الوسائل التى ألف بها « حسن البنا » بين القلوب وربطها برباط الأخوة فدانت له بالطاعة والولاء ٠٠ وقد تتغير به الحال فى بعض المدن ولكن خطته واحدة لا تتبدل تستقى من ايمانه بمنهاجه ، وحرصه على تأليف القلوب وجمعها ، وبذلك صار له فى كثير من الجهات معارف وأصدقاء ومعجبون ، وهو فى خبرته بالنفوس ، ونفوذه الى أعماقها ، وقراءته ما يجول بها ، عرف كيف يصطفى من هؤلاء من يعتمد عليهم ، ومن يتخيرهم دعاة من نوع خاص ، فسعى سعيه الى هؤلاء المختارين يلقاهم فرادى أو مجتمعين ويتحدث اليهم فى أمر هذه الأخوة كرسالة متشعبة متعددة المناحى ، وأنها تهبط وتنحدر من رسالة أخرى عامة ، وتتكيف هذه الرسالة العامة بالمبادىء الكبرى والتعاليم الواسعة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن هذه الرسالة تتلخص فى تعاليم ومبادىء صيغت نصوصها من القرآن فهو دستورها ، وروح هذا الدستور فى قيام جند

يؤمنون به ويعتنقون تعاليمه ، ويقيمون من بينهم حكومة تحميه ، وأن هذا التصوير الصادق الصحيح المبسط لهذه الرسالة يجب أن يكون غاية لكل مسلم ، ويلزم أن يؤمن به ايمانا عميقا كايمانه بأحقية الصلاة والصوم والزكاة والحج وفرضيتها .

وتتعدد هذه الاتصالات ويتكرر أثرها ، ويزداد معها ايمان المؤمنين بهذه الفكرة ويكثر أنصارها ، فيقوم فى كل بلد رهط متآخ مترابط يكون قلة مؤمنة هدفها أن ترى الاسلام دينا ودولة ، دينا يصحح العبادات وينظم المعاملات ويرسم للحياة الاجتماعية مسالكها ، ودولة تشرع لهذا النظام وتحميه . وتؤمن هذه العصبة بهذه الغاية وتجتمع عليها وتبشر بها وتدعو الناس اليها .. ويشتد ساعدهم فاذا بهم يأخذون مكانا واعتبروه مركزا لهم ، وقد أرشدهم أستاذهم الشاب الى أن هذا المكان أمر رئيسى لكيان دعوتهم ، فاذا كانت دعوتهم فى نظرهم ايمانا فى القلوب لا سلطان لأحد عليه ، فهى عند الناس فى ذلك البناء يلفت الأنظار اليهم وهو على كل حال المكان المختار الذى يلم شعثهم ويجمع شملهم ويتيح لهم الاتصال بأكبر عدد من الشعب بحرية كاملة تحقق الفائدة المرجوة .. من أجل هذا أوصاهم أستاذهم بالعناية باختيار المكان ومراعاة حرمته واعتباره من بيوت الله ، فاذا لم يجدوه ولم يكن فى وسعهم اعداده فدارهم فى المسجد أو فى بيت أحدهم ، ولا بد لهم من هذه الديار يجتمعون فيها ، فاجتماعهم وصلاتهم الروحية هى روح دعوتهم ، وهى ضوء فكرتهم ، وبهذا قامت فى المدن دور يقوم عليها رجال يؤمنون بمبادىء جديدة ، هذه الدور هى النواة التى كونت شعب الاخوان المسلمين التى تراها عصب البلاد ، منتشرة فى مدنه وقراه معها المبادىء والدور بل يبنى الممالك والعروش :

★ ★ ★

لقد أسرعنا بك الخطا الى هذه المرحلة وغايتها لتقف على السر فى النجاح الملموس الذى أدركه « حسن البنا » فى دعوته ، السر فى هذا النجاح هو فى شخصية الداعى ، والتئام صفاتها مع ما تدعو اليه وما تؤمن به من مبادىء ، فاذا آمن القائد بمبادىء فكرته ، فحياته مرآة هذا الايمان ، مبادىء ورجال وشعب ودور وكثرة وقلة ، كل هذا تافه لا وزن له فى القيم المعنوية والحقائق الكونية ، انما المعول عليه وذو القيمة هو هذا الايمان الذى يقتحم المصاعب والمجاهل ، الايمان الذى يبنى الرجال فيبنى معها المبادىء والدول بل يبنى الممالك والعروش :

يبنى الرجال وغيره يبنى القرى ٭ شتان بين قرى وبين رجال

فبناء الرجال وبناء النفوس هو المعول عليه فى قيام الدعوات ونشوئها ، وهذا هو عمل عنصر القيادة وأثر العقل الحكيم المصرف ممثلا فى شخصية الداعى الأول لها ، ولم يعرف تاريخ مصر الحديث شخصية فذة أتيح لها أن تتألق فى عالم المجد بمواهبها وما واتاها من النجاح فى أشق

المهام وأصعبها كما عرف عن « حسن البنا » فى قيادته لدعوته ، ونشره لفكرته ، وكيف استطاع فى فترة وجيزة من حياة الأمم — وان ظنتها العقول القاصرة طويلة — أن يشيد هذا البناء الشـــامخ ٠

★ ★ ★

السر فى هذه العلاقة القوية التى ربطت بين القائمين على هذا العمل ٠ وفى التطبيق الدقيق الذى استمده هذا القائد الحكيم من منابع الدعوة فربى اخوانه عليه وطبعهم به ، لقد التأم له هذا الجمع فمن أين يلتمس القدوة فى سياسته ؟ ليس أمامه الا دعوته يأخذ عنها المثل ، وليس له الا أســـتاذه يتلقى منه ٠

هذا هو محمد صلى الله عليه وسلم حوله أصحابه من مختلف الطبقات وقد جمعهم بعد أن كانوا فى حيرة ، منهم الغافل والمتردد والضال ٠٠ الخ وهم جميعا أفئدتهم هواء ليس لهم فى الدنيا من هدف ولا فى الحيـــاة من غاية ٠٠ فجاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم فطهر قلوبهم وزكاها ، وملأها بالايمان القوى الذى انتظم كل ذراتهـــا وتخلل كل مســـاربها ٠٠ ملأها بالايمان بالله ولقنها كلمـــة التوحيد ، علمهم كيف يعتقدون أن لا اله الا الله ويعتنقون مبدأها ، وعاب على المستكبرين منهم أنهم اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ٠٠ ملأ الرسول صلى الله عليه وسلم قلوبهم بكلمة التوحيد وأقرهـــا فى أعمـــاق هـــذه القلـــوب ، فلم يتخذوهـــا كلمـــات ويرددوها ألفاظا ، بل وضعوها نصب أعينهم تملى عليهم ايمانا جازما بأن الله أكبر من كل شىء فى هذا الوجود ، وأنه القاهر فوق عباده ، وكان القرآن يتنزل من السماء فيذكرهم بهذه الحقائق ويقرأون : « **هو الله الذى لا اله الا هـــو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم** » (١) ٠ فاذا انتهوا منها فاجأهم الوحى بما يثبت هذا المعنى ويزكيه فيقرئهم : « **ســـبح لله ما فى الســـموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ٠ له ملك الســـموات والأرض ، يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير** » (٢) فاذا انتهوا من ذلك جاءهم من آيات كتـــاب الله ما يشعرهم دائما ويذكرهم بأنهم تحت رقابة الله ونظره سبحانه : « **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبـــة فى ظلمـــات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين** » (٣) كانوا يقرأون كل هـــذا وينزل عليهـــم والقرآن مملوء به ، فكانت كل كلمة تترك الواحد منهم رجلا ربانيا مؤمنـــا أنه ان تلفت فهـــو مراقب من الله « **ما يلفظ من قـــول الا لديه رقيب عتيـــد** » (٤) ٠ وأنه : « **ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادســـهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا** » (٥) ولم تكن هذه العقيدة

---

(١) الحشر : ٢٢
(٢) الحديد : ١ ، ٢ ٠
(٣) الأنعام : ٥٩
(٤) سورة ق : ١٨
(٥) المجادلة : ٧

عندهم كلمات تتردد على الألسنة ، بل كانت تبدو فى تصرفاتهم وتنطبع بها أعمالهم ، لأنهم اتصلوا بالله حق الاتصال ..

وهذا أساس من أسس الحياة التى ربى محمد عليها أصحابه والمؤمنين به ، فعلى مجدد هذه الدعوة أن يرمى الى هذا المعنى فى تربيـــة الملتفين حوله ، وذلك ما فعله « حسن البنا » فلم يخل حديث من أحاديثه من التذكير به وابراز معناه والحث عليه ، حتى وضحت حقيقته فى نفوس من معــه ، وحتى أصبح الواحد منهم ربانيا يخشى الله ويراقبه ويعتز به تبعـــا لذلك ويؤمن بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وبأنه من كان يريد العزة فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين ؛ على هذا المعنى القوى من تربية النفوس راض « حسن البنا » اخوانه ، ومكن له فى نفوسهم بالتذكير والتكرار ؛ وأمـــر آخر اقتدى به مجدد الدعوة الاســلامية بما فعله قائدها الأول : فان النبى صلى الله عليه وسلم جاء يصارح أصحابه ــ وقد آمنوا به وبدعوته وعاهدوه على الموت فى سبيلها ــ بكل أعباء الدعوة ومطالبها ولم يخف عنهم شيئا ، كاشفهم بأن سنة الله قد مضت فى أصحاب الدعوات أن يمتحنهم ويختبرهم حتى يعلم المجــاهدين منهم والصادقين ويبلوا أخبــارهم ، وحتى يكشف المترددين من الثابتين ، فيقرأ عليهم صلى الله عليه وسلم من آيات القرآن « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء** » (١) . « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** » (٢) . « **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصـــابرين** » (٣) . وهكذا .. ثم يندد بالنفعيين والدخلاء الذين يلتصقون بأصــــحاب الدعوات لينتفعوا بها ويخلطوا بين الايمان بالدعوة واحتمــال الأذى فى ســـبيلها ، وبين غير ذلك من الأغــراض فيقــول : « **ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله** » (٤) . وبمثل هذه القوارع والتحذيرات والانذارات لفت أنظارهم الى أعباء الجهاد وما ينتظرهم فى ميدانه ، حتى لا يفاجأوا بشىء وحتى يصبروا ويحتملوا اذا وقع الامتحان .

وكذلك ربى مجدد الدعوة اخوانه على هذا وأفهمهم أن الدنيا ستتألب عليهم ، وستحاربهم فى أرزاقهم وفى أقواتهم ، وأن السجون ستفتح أبوابها لايوائهم واستضافتهم ، فساروا معه على هدى وبصيرة موطدين العزم على دفع الثمن مهما عز أو غلا ، وقالوا كما قال أســــلافهم : « ربح البيع ولا نستقيل » .

---

(١) البقرة : ٢١٤ (٢) آل عمران : ١٤٢
(٣) محمد : ٣١ (٤) العنكبوت : ١٠

وكان صلى الله عليه وسلم يضع هذا الأمر - أمر الامتحان والابتلاء - أمام أصحابه ويطالبهم بالصبر والاحتمال ، فهى تربية على الصبر وترويض عليه ، واشادة بالصابرين واكرام لهم بقربهم من الله فيقول لهم القرآن : « **اصبروا وصابروا** » (١) · « **والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا** » (٢) · « **وبشر الصابرين** » (٣) ·

فماذا تكون النتيجة ؟ - تكون أن يظفر من ثمرة هذه التربية بمجموعة مرنت على الصبر والاحتمال ، تضرب وتعذب وتشرد وتقتل وأخيرا يكره أفرادها الى الخروج عن أولادهم وأموالهم بالهجرة الى المدينة ، يضطرون الى هذا فلا يترددون بل يتركون الأهل والأولاد والأموال ابتغاء مرضات الله وفى سبيل عقيدتهم ودعوتهم ، ويصبرون عليه صبر الكرام ··

على هذه الخصال ربى محمد صلى الله عليه وسلم مجموعته ، وكذلك نهج « حسن البنا » مجدد الدعوة فى القرن العشرين بقبس من سيرة محمد ينير به جوانب العقول والنفوس ويربيهـا تربية محمدية مثالية ، مثله الأعلى فيها تربية محمد صلى الله عليه وسلم لأصحابه ·

بعد هذا ننظر فنجد محمدا قد ملأ نفوس أصحابه بالأمل الفسيح الذى لا حد له ، فهذه المجموعة التى حوله فى قلة وفاقة ، ومع هذا تصبر معه وتلبث فى مكة على ضنك واضطهاد نحو ثلاث عشرة سنة ، مال قليل وعدد لا يؤبه له أو يحسب حسابه ومع هذا فلم يخامر الواحد منهم فى ساعة من ليل أو ساعة من نهار أدنى شك فى أن الله سينصر هذه الدعوة ويعزها ويعلى كلمتها، بل كانوا على أعظم درجة من الايمان مع هذا الذى يقاسون ، والقرآن يزكى الايمـــان فى نفوسهم ويقـــويه وينميـــه فيقول لهم : « **ولينصرن الله من ينصره** » (٤) « **كتب الله لأغلبن أنا ورســـلى** » (٥) « **ويأبى الله الا أن يتم نوره** » (٦) « **ليحق الحق ويبطل البـــاطل** » (٧) « **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض** » (٨) يقرأون هذا فينزل على قلوبهم بردا وسلاما ·

ايمان وصبر وأمل : مثل عالية بنيت عليها النفس الاسلامية الأولى بيد محمد ، وهى تبنى عليهـا من جـديد بيد المقتفين أثره المهتدين بهديه ، العاملين بسنته ·

ومعنى آخر : ستة أشـــخاص عابرو ســـبيل من أهل المدينة يلقاهم الرسول مصادفة فيقول : لماذا قدمتم ؟ فيقولون للحج وللتحالف مع قريش

---

(١) آل عمـــران : ٢٠٠ (٢) البقرة : ١٧٧
(٣) البقرة : ١٥٥ (٤) الحج : ٤٠
(٥) المجادلة : ٢١ (٦) التوبة : ٣٢
(٧) الأنفـــال : ٨ (٨) القصص : ٥

أولاد عمنا ولشئون أخرى ، فيقول لهم صلى الله عليه وسلم : ألا أدلكم على خير مما جئتم له ـ تؤمنون بى وتصدقون برسالتى ، فيتهامسون : والله ما هو بوجه كاذب وان لهذا القول لصولة ، وان لهذا الكلام لعذوبة ، وان فيه لسمات الصادقين وانه لخير حقا مما جئنا له ، ويقول أحدهم لآخر منهم : أتتذكر أن اليهود قد تخوفوا فى المدينة وقالوا ان هذا الزمان سيظهر فيه النبى ، فيقول الآخر : نعم ، انظر اليه ٠٠ ان وجهه مشرق بالنور تلمع فيه بوارق الهداية ٠ لقد آمنا بك وصدقناك يا رسول الله ، فيقول لهم صلى الله عليه وسلم : شكر الله لكم وثبتكم ٠

هؤلاء ستة أشخاص عابرو سبيل لا معرفة لهم بالرسول من قبل ، لم يجتمع بهم أو يتعرف اليهم ، أعطوه كلمة أن ينصروا هذه الدعوة وهى كلمة الايمان ، فلم يملأوا استمارة عضوية كما نفعل نحن اليوم أو يقدموا طلب انتساب ، وانما هى كلمة الرجال القادرين ، ولذلك تراهم يعودون الى أوطانهم وهم ألسنة صدق فى نشر الدعوة والحديث عنها وعن قيادتها ، وتمضى سنة كاملة لم يكاتبهم النبى فى أثنائها أو يكاتبوه ، ولم يقرأوا أخباره فى الصحف أو يتصل بهم بأى نوع من أنواع الاتصال ، ومع هذا كله فبعد سنة كاملة يعودون اليه ، وقد صاروا اثنى عشر أى تضاعف عددهم، ثم فى السنة الثالثة يجيئون وقد ازدادوا أضعافا مضاعفة ، وصاروا اثنين وسبعين رجلا يقدمون فى وفد كبير وكأنهم جيش كامل يملأ النفس بهجة وأملا ، يقبلون على الرسول صلى الله عليه وسلم ليبايعوه قائلين قولة صدق : تقدم يا رسول الله واشترط لنفسك ولربك ما شئت ، فيقول صلى الله عليه وسلم : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أموالكم ونساءكم فهل تقبلون » ؟ فيقولون : آمنا بك وصدقناك وبايعناك ٠

هذا هو الايمان العميق والاخلاص الدقيق الذى وجدته الدعوة الأولى فى جندها البررة الذين تجردوا لها وخرجوا من كل شىء بعد أن دخل الايمان فى أعماق قلوبهم ، ومن أمثلة هذا الايمان العجيب أيضا سعد بن معاذ فانه بعد أن ذاق الايمان وأحس بحلاوته يأتى قبيلته فيقول : ما تظنوننى يا قوم فيكم ؟ يقولون سيدنا وابن سيدنا ٠ فيقول لهم : كلام رجالكم ونسائكم وأولادكم على حرام حتى تؤمنوا بما آمنت به ، وتكون نتيجة هذا أن تشتغل المدينة بنشر دعوة محمد ولا يمضى وقت حتى تشرق بأضوائها بجهاد وآثار ايمان هؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، والذين لا ينسى محمد عهدهم له فيأتى فى غزوة بدر ويقول : أشيروا على أيها المسلمون ، فيقف أبو بكر فيقول له : اجلس أنت ، فيقف عمر فيقول له : اجلس أنت ، ثم يقف سعد ويقول : كأنك تعنينا يا رسول الله ـ أى نحن الأنصار ـ فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : نعم اياكم أعنى ٠ يقول سعد : والله يا رسول الله انا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولقد آمنا بك وصدقناك فامض لما أمرك الله به ، وسيريك الله منا ما تقر به عينك ٠

ويقول آخر : والله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى ، اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ، بل اذهب أنت وربك وقاتلا انا معكما مقاتلون ·

ثم نجد وفاءهم واخلاصهم له يتجلى حينما كان صلى الله عليه وسلم فى خيمته ومعركة بدر دائرة ، فيأتى سعد ويقول : سنبنى لك عريشا يا رسول الله ونضع عندك أسرع ركائبك فان كانت الدائرة لنا فبها والفضل من الله ، وان كانت علينا لحقت بالمدينة وان وراءك قوما ما نحن بأشد حبا لك منهم يؤيدونك وينصرونك ويفتدونك بأعز الفداء ·

هى الكلمة الواحدة قالوها فعاشوا عليها وجاهدوا فى سبيلها ومجد القرآن ذكرهم فقال : « **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا** » (١) وهكذا لا يمكن أن تتكون مجموعة بغير وفاء واخلاص وثقة ، فان وجد هذا اجتمع الناس فتكونت الجماعة ، كان ذلك من وسائل البناء والاجتماع فى الدعوة الأولى ، وهى من وسائله اليوم أقامه محمد فى مجتمعه فقوى دعائمه وتكفل له بالقوة المتجددة والحياة المتفجرة ·· وأخذه ·· عنه « حسن البنا » فارتقى بناؤه على أقوى الدعائم وأحقها بالحياة والبقاء ·

هو الايمان والصبر على الشدائد والأمل الفسيح فى النصر والظفر والوفاء بالعهد : عناصر بنى عليها محمد النفوس ليرشد القادة والمصلحين الى الخطوات التى يجب أن يسلكوها فى قيادة الأمم وبناء المجتمعات ، فاذا جاوزنا مع الدعوة هذه المراحل جميعها ، وانتهينا الى المرحلة النهائية ، وقلبنا النظر فى أرجاء المدينة وقتئذ رأينا أمرا عجبا ، فقد كانت المدينة قبل مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم فيها الخليط من الناس ، الأوس والخزرج يتقاتلون بل ويأكل بعضهم بعضا ، واليهود يوقظون الفتن ويشعلون الدسائس ويهيئون لها ، فكل يوم فتنة ، وكل سنة حرب وهكذا ··· ثم جاء الاسلام وهبط الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأتى بالأوس والخزرج وقال لهم : لا حزازات ولا فتن بعد اليوم ، وطهر القلوب مما كان فيها من غل ، آخى بينهم وقضى على المنازعات ، والقرآن يزكى هذا المعنى ويمتن به عليهم فيخاطبهم : « **واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا** » (٢) · كانوا اخوانا صادقين تجمع بينهم صلة الأخوة القوية ، وليسوا اخوانا بالاسم ، اخوانا امتزجت قلوبهم وتصافت أرواحهم ، وهم يعتزون بهذه الأخوة ويعملون على تدعيمها ، نراه صلى الله عليه وسلم يؤاخى بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف فيقسم سعد ماله شطرين ويأتى بزوجتيه فيقول : يا أخى هذا مالى شطرته شطرين فخذ أحدهما ، وهاتان زوجتاى اختر أحبهما الى قلبك فاطلقها لك ، فيقول

---

(١) الأحزاب : ٢٣ (٢) آل عمران : ١٠٣

عبد الرحمن : يا أخى أما الزواج فلا حاجة لى به · وأما المال فأنا تاجـر وقادر على الكسـب فما عليك الا أن تدلنى على السـوق ، وبذلك يبرهن عبد الرحمن على أنه مؤمن عف غنى النفس ، معـه ثروته وزاده من الايمان والصبر والأمل ، فلم يغتنم هذه الفرصة المواتية ليكون كلا على أخيه ويبتز ماله ، ولقد تاجر فعلا واكتسب من كده ومن ذات يده وصار من أغنى أغنياء المسلمين حتى أن السيدة عائشة داعبته يوما فقالت له : انك يا عبد الرحمن ستدخل الجنة حبوا · فسألها : لماذا يا أم المؤمنين · قالت : سيثقلك مالك الكثير · قال : لا والله بل سأدخلها عدوا أن شاء الله ، أفما سمعت بالقافلة التجارية التى وردت من مصر وفيها مائة بعير محملة بأنفس التجـارة ، تقول : ومن منا لم يسمع خبرها فيقول لها : لقد جعلتها لله وتبرعت بها كلها لبيت مال المسلمين ، فتقول عائشة : اذن فستدخلها عدوا ان شاء الله ·

ويأتى رجل من المهاجرين فيستضيفه أحد أصحاب رسول الله صـلى الله عليه وسلم ويذهب به الى بيته فتقول زوجه : ليس عندنا والله يا صاحبى غير عشاء الأطفال فيقول : راوديهم وعلليهم ، ثم قومى الى المصـباح فأطفئيه ، ويتظاهر بالأكل مع ضيفه حتى يشـبع الضـيف ، ثم يرافقه فى الصباح الى النبى فيلقاهما صلى الله عليه وسلم هاشا باشـا مسرورا ، ويبشره بأن الله تعالى قد تقبل جميل صنعه وأجزل له به المثوبة ، ويقول له : يا أبا طلحة عجب ربكما من صـنعكما من ضيفكما فباهى بكم الملائكة وخلد ذكركما فى كتابه وتنزل بعد ذلك الآية الكريمة « **والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** » (١) ·

هذه هى المعانى التى ربى محمد عليها مجتمعه : ايمان عميق بالله ، وثبات وصبر فى الشدائد ، وأمل فسيح فى النصر ووفاء وحب للقيـادة وصل شغاف القلوب فكانت له منها عدة النصر والجيش الذى لم يقهر ، واليوم والعالم كله يتطور ويتهيأ لحضارة جديدة ، ويبحث عن فكرة جديدة ، يؤمن « حسن البنا » بما أرشده الله اليه ويأخذ مما تركه الرسول صلى الله عليه وسلم من ثروة عزيزة وتراث مجيد يعتز بها ويؤمن ايمانا عميقا ، لا يقتصر فيه على الاعجاب والتأييد · بل انه يخطو خطوات ايجابية لتتحقق بهـا القدوة العملية ، وهذا ما نجده نماذج واضحة فى مجتمعـات الاخـوان المسـلمين لأنها نماذج لم تقم على النظريات والخيالات ، وما علينا لنحيى هذه الدعوة ونسعد الدنيا بها من جديد الا أن نذيع فى الناس هذه المبادىء وننشر عليهم رسالة محمد ·

وفى بدء النهضات حيث تحتاج الأمة الى القيادات الصـالحة ، على المصلح الفطن أن يتصل بسيرة محمد صلى الله عليه وسلم علما وعملا وروحا

---

(١) الحشر : ٩

وأن يعكف على تلاوتها وتبين مراميها ويجتهد فى تطبيقها على حياته وأعماله ويعلمها للعاملين معه والمؤمنين به ، وأولى الناس ولا شك بالأسوة به صلى الله عليه وسلم تلك الجماعة التى ندبت نفسها وجعلت مهمتها ، احياء دولة الاسلام ، واعادة العمل بمبادئه .

ومن توفيق قيادة الاخوان المسلمين أنها اسلامية بطبعها ، أخذت عن الاسلام وتلقت عنه ، وما حادت عن هذا السبيل ولا خرجت عنه قيد شعرة، فكانت من أول يومها ربانية قرآنية ، فكتب لها النصر والتوفيق .

وهذا ما توفر فى قيادة « حسن البنا » للدعوة الاسلامية المحمدية فى القرن العشرين فجدد هذه السيرة عمليا ، وبرهن للدنيا أن أصول هذه المبادىء والتعاليم التى جاء بها محمد صالحة لأن تشيد نهضة وتقيم دولة متى وجدت الرجال الذين يؤمنون بها ايمانا عميقا ، وقد أعد للأمة نماذج منهم على المنهاج الذى ربى عليه محمد أصحابه — فهى دعوة محمد على منهاج محمد — وبهؤلاء الجند الذين صنعهم سلك الطريق الى غايته ، فتحقق له عنصر المنهاج الصالح ، والجند المؤمنين ، وبذلك انعقد له لواء القيادة ، فبرزت الدعوة الى الوجود كائنا حيا يفرض وجوده ويستحق البقاء .



— ٧ —

فى الصميم

والآن نستطيع بما ألقينا من ضوء أن نتبين معالم الطريق الى شخصية هذا القائد مقبوسة من سيرته فى تجديد هذه الدعوة ، واشاعة الروح فيها، ووسائله فى اعادتها مبادىء حية يهتف بها الشباب ويترقبون ساعة الموت فى سبيلها ، ويهىء لها الشيوخ وينتظرون اليوم الفاصل لتطبيق دستورها .. فتعال نقفوا آثار هذا المجد الخالد ونستمتع بأروع قصص الايمان . ونعرف كيف نجحت دعوة الاخوان .

طلع « حسن البنا » على الأمة بدعوته كما رأينا ، وكما هى فى حقيقتها وفى جوهرها وروحها دعوة اسلامية صميمة دستورها القرآن ، وصبغتها صبغة الله ، وقيادتها من سيرة محمد ، وقد تلقاها الناس بدهشة وغرابة ، وعجبوا لهذا الشاب وما يدعو اليه ، هذا الذى أماتته القرون ، طريقه اليه كيف يكون ؟ !

هذا الطريق الشاق الطويل أنى لشاب متواضع أن يقوى على اجتيازه ، وهذه الأعباء الضخمة كيف يستطيع حملها والنهوض بها ؟ ولذلك حسبوها صيحة من الصيحات ، لا تلبث أن تتبدد من الأيام أو تخفت مع

العقبات ٠٠ هكذا ظن الذين سمعوا هذه الدعوة ووصل اليهم صوت الداعي اليها ، وقليل ما هم ؟

قالوا : ماذا نسمع ؟ وما هذا الذي يدعو اليه ذلك الشاب ؟ أفي عصر المدينة وفي عصر النور والمعرفة يمكن أن يجرؤ صوت على الارتفاع بمثل هذه الخيالات ؟ وكيف يصح في الأذهان أن نعود بالناس بعد ما وصلوا اليه من رقي وتقدم الى جهالات القرون وبدائيات الماضي ، وأين هذا مما تطمح اليه الشعوب من رقي وتقدم ومن حرية وعزة ؟ فاذا كان هذا الشاب جادا في أنه صاحب دعوة فليتخذ له وجهة أخرى ، والا فلن يستمع اليه أحد ٠٠ أو بعد ما أدرك الناس من فهم للحرية ، وما عرفوا من مبادىء المساواة والاخاء ، وما هذبتهم به القوانين العصرية ، وما وصلوا اليه بعد كفاح وتضحية بالدماء ، أفبعد هذا نرجع بهم القهقرى لنقول لهم اسلام وقرآن ؟ !

بهذا المنطق الخاطىء اليائس تلقى الكثيرون الدعوة وجابهوا الداعي ، وتقدموا اليه بخالص النصح أن يدع هذا الأمر وطرق الخير أمامه كثيرة ، فان شاء فليتقدم الى هذا الميدان أو ليختار ذاك ، أما هذا الذي يقول من أنه يعود بالناس مسلمين على هذا الاسلام الجديد الذي يصوره لهم على أنه سياسة وحكم ومعاملة كما انه عبادة وتوحيد ٠٠ الخ ٠ فانهم في حل من النجاة بعقولهم أن تقع في تصديق هذا الذي يدخل في دائرة الأساطير ٠٠ !!

هكذا تلقى الكثيرون الدعوة بادىء الأمر ٠٠ أما هو فقد طلع بها دعوة اسلامية صميمة يحددها في نفسه فهم دقيق ، ويحرسها ايمان عميق ، وهذا هو عنصر النجاة للدعوة ، وهو لم يخترعها اختراعا ، ولم يلفق مبادئها أو يستحدثها ، ولكنها دعوة خالدة بمبادئها ، حية بما تضمنته هذه المبادىء من تحقيق السعادة الشاملة لكل مجتمع ، وان ما يقال له قد قيل لمحمد وقيل أكثر منه ، والقرآن يهون عليه الأمر فيقول له : « **ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك** » (١) ٠ فماذا ينتظر هو اذن غير هذا ؟ انه يؤمن ايمانا جازما لا شك فيه أن دعوة محمد بدستورها معطلة الأحكام ، ومبادئها متروكة منسية ، وأن الدعوة الى هذه المبادىء معطلة كذلك ، وليس في المسلمين اليوم من يذكرها ويشرحها للناس ويعرفهم بما يجهلون من روعتها وما تضمنته،وأن هذا الذي بلغته الانسانية اليوم انما تلقت أصوله من منابع حضارة هذه المبادىء التي سبقت الحضارة الحالية ؛ فما كان منها متفقا مع هذه المبادىء فهو راجع الى هذا الأصل ، وما كان مخالفا لها كان محل نظر ٠ رأى أن ميراث محمد المجيد لا وارث له — وهو ميراث كل مسلم وما أكثر عدد المسلمين — فليضع يده على هذه الثروة ، ويقيم نفسه وارثا لها قيما عليها ، وهكذا فطن الى واجب الجهاد لاحياء دعوة محمد احياء يجعله يظفر بمجد بعثها ، ويتهيأ لاحتمال عبء تكاليف العمل لها ،

---

(١) فصلت : ٤٣

وإذن فلا جديد عليه مما سيلقى من أقاويل النـاس ، وما سـينالـه من أذى واضطهاد ، فهى دعوة محمد بدستورها ومبادئها ، وما ينتظر القائمين بها من أعباء ومتاعب · طلع بها « حسـن البنا » على الأمة رسالة انقاذ يؤمن بها ويجاهد فى سبيلها ويربى الأمة عليها ·

★ ★ ★

ولقد رأينا كيف بدأ : ففى الاسماعيلية تقرب الى الشعب حتى أشعره بأخوته ، ومن روح هـذه الأخوة أحيا الهمم الفـاترة ، وانتزع اليـأس وكون الكتيبة المؤمنة ، وقد كانت مرحلة العمل فى الاسماعيلية مرحلة دراسة واستكشاف ومحاولات ، اجتاز بعدها مرحلة انتقال وتطور حين صار مقـر الدعوة فى القاهرة ، فقد أخذت الدعوة طورا جـديدا ، وبدأت شخصيته كداعية وقائد تظهر وتتحكم وتفرض نفسها ، وبدت عبقريته تطل ناضـجة متأهبة مناضلة ·

سلك « حسن البنا » أول الأمر مسلك المقبل على الدراسة ، يأخـذ الامور بطبيعتها ويقبلها كما هى ، لا يحـاول أن يشـترك فى توجيههـا وجهة خاصة الا بقدر وبحـذر ، توارى بشخصيته واستتر بعبقريته ، فلم يحاول أن يبرزها أو يلفت أنظار النـاس اليها ، فكان يتحدث الى النـاس فى الدعوة وأهدافها حديثا كليا لا يعرض فيـه الى التفاصيل بل يطرق العناصر التى يريد أن يفتح عليها العيون بما يشغل بها الأذهان ، ثم يتركها لمنطق الناس بعد أن يكون قد أسبغ عليها من شخصيته بما يصـلها بمعنى كريم فى نفوسهم أو شـعور عزيز بين جوانحهم ، فتسـتغرق من وقتـهم وتفكيرهم ما ينتهى بهم الى الاتصال بالمبادىء الكلية نفسها ·

انه يريد بعث أمة ، واحياء مبادىء ، فالغاية مزدوجة ، وانما يأتى المصلح أو القائد فى العادة ومعه أفكار جديدة بالقيـاس الى ما عـرف الناس ، تأخذ عندهم صفة الجدة عن طريق الابتكار والانشاء ·· والشأن فى دعوتنا غير هذا : فالمبادىء قديمة ، وانما المراد من الجدة فيهـا أن يفهمها الناس على حقيقتها فهما يرتفع بها عن هذا المستوى الذى بلغتـه فى أذهانهم ، ويجليها على حقيقتها الناصـعة وينفض عنها غبار القرون ، يتحقق هذا المعنى فى أذهان الناس بوسائط عملية تكوينية تخضع واقـع الحياة الحاضرة ومألوفها للوضع النظرى للمبـادىء القديمة ، أو تقيم نسبا تجعل النظرى عمليا فى أعين الناس لأنهم انما يؤمنون بالمحسوسات ويطالبون بالمشاهدات ؛ ولن يكون هـذا — فى مثل حالتنـا — الا بتبليغ الناس حقيقة تلك المبادىء ثم تربيتهم عليها · ولهذه الغاية كون «حسن البنا» دور الاخوان المسلمين ، وأقامها لتكون معاهد للثقافة الاسلامية المختلفة ، ثم لتربى الأمـة وتطبعها على حقيقة تلك المبادىء ، وذلك هو الأصـل والجوهر لحقيقة رسالة شعبة الاخوان المسـلمين ومهمتها فى كل بلد ، وهو الغرض الأول الذى سعى اليـه قائد الدعـوة عند ما طلع بها على الناس تتضمن رسالة انقاذ ·

بهذا الأمل طلع « حسن البنا » على الأمة ، أو على الأصح شرع فى تنفيذ أمله الذى تربى عليه وناجته به روحه منذ كان فى المهد صبيا ، وهى دعوة آمن بها وعاهد ربه على أن يفنى فيها ويهبها أعز ما يملك ، وقد بر بهذا كله منذ أول يوم خرج فيه الى ميدان الجهاد ·

واذا كنا قد تعرفنا الى « حسن البنا » منذ حداثته فردا فى مثاليته فذا فى عبقريته فسنجده كذلك فى قيادته ·

عرف التاريخ كثيرا من رجال المبادىء وأصحاب الدعوات ، وعرف عنهم صدق الاخلاص لمبادئهم فى ايمانهم بها وجهادهم لها ، ولكنه ما عرف « كحسن البنا » فى ايمانه بدعوته واخلاصه لغايته ، ايمانا ينسيه كل شىء ويخضع مظاهر حياته كلها وحاجات نفسه كفرد فى المجتمع لمطالب هذه الدعوة ، فتصبح حواسه وملكاته ، وقواه العاملة كلها فى قبضة نطاق القوة الأولى الحاكمة المسيطرة توجهها كيفما أرادت ، واذا تحدينا التاريخ وتحدينا العصر كله أن يدلنا على الشخصية المماثلة لقيادتنا · فذلك هو ايمان الجندى ، ايمان الجندى ايمانا مستنيرا قائما على الحجة مبينا على المنطق ، واذا جهرنا بهذه الحقيقة هنا فذلك بعد أن نقدم شخصية قيادتنا ، ونقول بعدئذ للناس : هاتوا برهانكم أو ابرزوا بحقائق رجالكم ··· !

هذا هو قائدنا فى الحادية والعشرين من عمره ، تعالوا فتعرفوا اليه واعرفوه فردا عاديا فى مجتمعه فماذا تجدون ؟ لن تجدوا لهذه الفردية آثارها ، ولن تعثروا على مظهر من مظاهرها أو ناحية من نواحيها ، فقد طغى عليها محيط آخر ابتلعها وفنيت فيه ·· أما أنه معلم كسائر المعلمين يذهب الى مدرسته ، ويؤدى عمله الرسمى ، ويباشر مهمة التعليم التهذيبية فذاك ، ولكن هذه الفردية التى تبرز وتتجلى فى العمل الشخصى البحت ، وتتحكم فى تصرفات الفرد وتلون أعماله وتصرفاته فتجعله دائما يسعى لنفسه ، أين هى فى تصرفات هذا الشاب ؟ لن تجدها لأنها لا مكان لها فى نفسه ، وانما تصدر مثل هذه الأعمال صدى لما فى النفس من آمال ، فهل عرف المجتمع الخاص « حسن البنا » فى المدرسة الا المعلم المخلص المجد المثالى ، القدوة فى مواظبته على عمله واتقانه له وفى قيامه بكل تكاليفه وأعبائه ؟ ·

عندما سئل معالى وزير المعارف سنة ١٩٤١ فى البرلمان لماذا يضطهد « حسن البنا » المدرس بنقله الى أقاصى الصعيد قال أنه كثير الأسفار يدعو بدعوة تشغله عن عمله ! وقد أراد المركز العام أن يصحح هذا فأعد مذكرة لتوزع على نواب الأمة استقاها من المعلومات والمصادر الرسمية أثبت فيها — فيما أثبت — نصوص تقارير المفتشين وكلها تشهد بمثالية حسن البنا — الموظف — أما الاجازات فانه لم يحصل على شىء منها ولا مرة واحدة ولا أخذ نصيبه من اجازة عرضية أو عادية ، ومن هذا نستطيع أن نعرف أن مثاليته لم تفارقه فى عمله الحكومى فكان يؤدى واجبه

فيه اكمل اداء ؛ يكون قادما من السفر صرف فيه الليالى والأيام ويصـــل مبكرا من المحطة الى المدرسة ، وكثيرا جدا ما رأيناه يعود من الســـفر مبكرا من المحطة الى المدرسة ، ومن المدرسة ظهرا ليستقل القطار ثانيـة ، وان خلا فترات قصـــيرات فى أثناء اليوم فهى لمباشرة العمل فى المركز العام وتصريف شئونه يواصل هذا ويدأب عليه أياما متواليات ·

واذا استثنينا عمله الرسمى الحكومى هذا فلا نكاد نظفر بعمل من أعماله يمكن أن يطلق عليه أنه شخصى فردى ، نقول هذا ولا نبالغ ونسأل ونتحدى أن يدلنا الناس أو يرشدنا المنكرون الى عمـل زاوله هذا القـــائد المتفانى لأمته المضحى لفكرته وكان لشخصه فيه نصيب ، حتى هذه الوظيفة اننا نسرف فى ظلم الحقيقة ، واننا لنغبنه أشـــــد غبن حين نضرب عليها الاستثناء ونعتبرها فى بعض مناحيها عملا شخصيا فرديا ، فهذه الوظيفـة قد عاونت معاونات قيمة كبيرة هى التى أشادت هذا البناء الضخم العتيد الذى يعتبره الجميع اليوم قبلة الآمال ·

ان قائدنا فى اخلاصه لدعوته ، وفنائه لغايته ، قد انغمر فى موجة الايمان تحركه وتصرف حواســه بسلطان أحكامها،فلا يصدر عنه عمل أو تصرف الا وهو موجه الى غرض من الأغراض الواسعة لهذا الايمان ، ثم ان عبء الواجب له أثره ، فهو الذى يشعر بالتبعة وخطرها ، وجلال المهمة وما تحتاج من وقت وجهد وصبر وكفاح،ويبين عن قوة المعسكر الذى يواجهه،وما تطلبه منه هذه المواجهة · يبدو هذا جليـــا فى نداء من نداءات قـائدنا اذ يقول : « من الحق أن نعترف أن موجة قوية جارفة وتيارا شديدا دفاقا طغى على العقول والأفكار فى غفلة من الزمن وفى غرور من أمم الاسلام وانغماس منها فى الترف والنعيم ، فقامت مبادىء ودعوات ، وظهرت نظم وفلسفات ، وتأسست حضارات ومدنيات ، ونافست هذه كلها فكرة الاسلام فى نفوس أبنائها ، وغزت أممه فى عقر دارها وأحاطت بهم من كل مكـــان ، ودخلت عليهم بلدانهم وبيوتهم ومخادعهــــم بل احتلت قلوبهم وعقولهم ومشاعرهم ، وتهيأ لها من أسباب الاغواء والاغراء والقوة والتمكن ما لم يتهيأ لغيرها من قبل فاجتاحت أمما اسلامية بأسرها وانخدعت بها دول كانت فى الصميم والذؤابة من دول الاسلام وتأثر ما بقى تأثرا بالغا ، ونشأ فى كل الأمم الاسلامية جيل مخضرم الى غير الاسلام أقرب ، تصدر فى تصريف أمورها ، واحتل مكان الزعامة الفكرية والروحية والسياسية والتنفيذية منها فدفع بالشـــعوب الغافلة الى ما يريد بل الى ما ألف ، وهى لا تدرى ما يراد بها ولا ما تصير اليه ، وارتفعت أصـــوات الدعاة الى الفكرة الطاغية أن خلصونا مما بقى من الاســلام وآثار الاســلام وتقبلوا معنا راضين لا كارهين مستلزمات هذه الحياة وتكاليفها وأفكارها ومظاهرها ، واطرحوا بقية الفكرة البالية من رؤوسكم ونفوسكم ، ولا تكونوا مخادعين منافقين عابدين تعملون عمل الغربيين وتقولون قول المسلمين » ·

فانظر : هل ترى ممن يقدر المسئولية هذا التقدير ويشعر بخطرها ، هل ترى له من فرصـــة يفكر فيها فى غير ما اعتزمه من أمر ، وما أخذ به

نفسه من الجهاد المتواصل لفكرته ؟ ان هذه العبارة التى نقلناها تصـــور نفسيته أدق تصوير فى انشغالها بحقيقة مهمتها فى هذه الحياة ، يؤكد هذه الاشارة قوله فى نفس هذا النداء : « عجيب أن تجد الشيوعية دولة تهتف بها وتدعو اليها وتنفق فى سـبيلها وتحمل الناس عليها ، وأن تجد غيرها من النظم كذلك أمما تقدمها وتجاهد لها وتعتز باتباعها تخضع كل النظم الحيوية لتعاليمها ، وأن تجد المذاهب الاجتماعية والسياسية المختلفة أنصارا أقوياء يقفـون عليهـا أرواحهـم وعقولهـم وأقلامهـم وأموالهـم وصحفهم وجهودهـم ويحيون ويموتون لها ٠٠ ولا تجد حكـومة اسـلامية تقـوم بواجب الدعوة الى الاسلام الذى جمع محاسن هذه النظم جميعا ، وطرح مساوئها وتقدمه لغيرها من الشعوب كنظام عالمى فيه الحل الصحيح الواضح المريح لكل مشاكل البشرية،مع أن الاسلام جعل الدعوة فريضة لازمه وأوجبها على المسلمين شعوبا وجماعات قبل أن تخلق هذه النظم وقبل أن يعرف فيها نظام الدعايات « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون** » (١) ٠

أفليس فى هذا ما يشعرك بتدفق الثورة المتأججة فى هذه النفس تحتدم فى داخليتها من خطورة العبء وفداحة المسئولية التى حملها صـاحبها ؟ ومن أجل ذلك فلم يبق له هذا الشعور من وقت يصرفه فى غير ما يتصـل بهذه المهمة ، فهو أبدا الداعى الأمين المخلص لدعوته ٠

ولعل حظ الفردية فيه ومقامها من نفسـه كان فى هذه الوظيفة التى حمل أعباءها الى جانب تكاليف الدعوة الضخمة ولم يكن نصيبها من اكرامه وايثاره الا فى أدائها واجبا وطنيا قوميا — بصورته الخاصة والعامة — يحتمه الدين ويحث على رعايته الضمير وتفرضه الحياة العزيزة فى مجتمع ظالم غشـوم ، فاذا ذكرتم « حسن البنا » الموظف ، فتحدثوا عن سـيرة عطرة كلها عفة وشرف ، وكلها اباء وتضحية ، وكلهـا مثل نادر للحياة الكريمة العزيزة واذكروا صاحبها فى قائمة المجد الذى لا يدرك أو يدانى ، هذا كل ما يمكن أن يقال من الحديث المباح فيما يصح أن يطلق عليه الجانب الفردى أو الشخصى من حياة « حسـن البنا » ، وأن كان الحق والعدل — للكاتب والقارىء كليهما — أن من العسـير جدا تمييز الجانب الفردى فى شخصيته أو تصرفاته فقد طغى العامل العام فيها على العامل الخاص وجرفه تيار الايمان ، أقول من العسـير تمييز هـذا الجانب أو فصله ، فليسـت لقائدنا الا شخصية واحدة بادية فى مركز الداعى ومنزلة القائد ، ومهمـا تلمسنا السبيل هنا أو هناك ، فلن نعثر الا على هذه الحقيقة الثابتة الناصعة تفرض نفسها فرضا ، وتنادى « بحسن البنا » : قائدا موفقا وداعيا ملهما ولا شىء الا هذا ٠

---

(١) آل عمران : ١٠٤

هذا الداعى الأمين اختاره الله لهذه الدعوة ، وانتدبه لحمل هـــذه الأمانة ، واختصه ليحوز هذا الميراث المجيد ، ميراث دعوة رســول الله ، هذا هو « حسن البنا » الشاب الأعزل يخرج الى الميدان ويحمل علم الجهاد قائلا فى قوة وصراحة ووضوح : « ان مهمتنا أن نقف فى وجه هــذه الوجهة الطاغية من مدنية المادة وحضارة المتع والشهوات التى صرفت الشـــعوب الاسلامية وأبعدتها عن زعامة النبى صلى الله عليه وســلم وهداية القرآن وصرفت العالم عن أنوار هديها ، وأخرت تقدمه مئات السنين ، حتى تنحسر عن أرضنا ويبرأ من بلائها قومنا ، ولسنا واقفين عند هذا الحد بل سنلاحقها فى أرضها وسنغزوها فى عقر دارها ، حتى يهتف العالم باسم النبى وتوقن الدنيـا كلهـا بتعاليم القرآن ، وينشر ظـل الاسـلام الـوارف على الأرض وحينئذ يتحقق للمسلم ما ينشده ف « **لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** » (١) و « **لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون · بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم** » (٢) ·

هذه بعض الملامح فى شخصية الداعى من ايمانه العميق ، وهــذه بعض العنــاصر فى بنائها ، فاذا احتجبت عنك تلك الحقــائق ولم تســتطع تمييزها والابانة عنها فالتمس هذه المعرفة من سيرته العملية ، وانك لواجد فيها ما يقنعك ويعجزك ·

★ ★ ★

لقد جاء « حسن البنا » ليقول للسابقين واللاحقين ، ان الايمان هو عدة المجاهدين ، ويقدم لهم من سيرته العملية مثلا صادقة فى الجهاد ، ومن الصعب العسير أن تتبين المسالك المفقودة الى شخصية حسن البنا المجاهد أو تعثر على مفتاحها ، فان أردت أن تأخذ طريقك اليها ، فتعرف معى الى هذه الوسائط من صفاته ، فستضىء لك الطريق ، وستنتهى بك مجاهدا مع هذا المجاهد المكافح :

المظهر الأول الذى لن يخفى عليك فى حياة « حســـن البنا » المجـاهد وتراه مطلا بارزا ، واضحا يناديك ويتحداك ويواجهك: هاأنا فى وضــوحى الباهر أقهر المصاعب ، وأسخر من المنكرين وأبنى وأشيد وأروض الحوادث وأقتحم المعاقل وأغدو وأروح سلاحا ماضيا لا يغلب ·· هذا المظهر تعثر عليه فى ايمان « حسن البنا » ·

كل داعية أو صاحب فكرة مؤمن بما يدعو اليه ، وبصلاحية مبـادئه وأحقيتها فى البقاء ، وهو يلقى فى سبيل هذا الاعتقـاد ما ينتظره ، ولكن

---

(١) الأنفال : ٣٩ بلفظ : « حتى لا تكون ··· » ·
(٢) الروم : ٤ ، ٥

ايمان « حسن البنا » ليس من هذه الوتيرة ، انه فى الثبـــات والاطمئنان وكفى ٠٠ هذه الصورة للايمان هى عدة الأنبياء ، يلقى الله اليهـــم الحق فيؤمنون به ويبقون ثابتين مطمئنين فهى صورة ربانية تلقـــاها « حسـن البنا » من القرآن الكريم ومن المثل العليا فى سيرة الأنبياء المجاهدين ؛ آمن بربه لأنه اتصل به وراقبه واتقاه حق تقاته ، فأيقن أنه معـه ينصره ويؤيده « **ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز** » (١) ، وآمن بمبادئه فهى : فكرة وعقيدة ونظام ومنهاج لا يحده موضع ولا يقيده جنس ولا يقف دونه حاجز لأنها نظام رب العالمين ، وحكم كتابه المبين ومنهاج رســوله الأمين ، فلا يوازن بين دعوته التى تتخذ نورها من نور الله ومنهاجهـا من سيرة رسوله بغيرها من الدعوات التى تخلقهـا الضرورات وتذهب بهـــا الحوادث والأيام ؛ وآمن بنفسه فهو حامل راية محمد صلى الله عليه وسلم ورافع لوائه وناشره ، كما رفعه صلى الله عليه وسلم ونشره هو وأصحابه ، وهو المبشر بقرآنه ، المجاهد لدعوته كما بشر وجاهد صـلى الله عليه وسلم ، ومن كان يريد العزة « **فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين** » (٢) فهو يسـير فى طـريقه يهتف بزعـــامة رســـول الله وهيمنـة نظـــام القـــرآن ووجـوب النهوض للعمل وتخليص الغاية لله يجاهد فى هذا ويكافح من أجله مرتقبا النصر واثقا به مطمئنا اليه ٠

الايمان بالله هو المرحلة الأولى التى تجلت فى شخصية « حسن البنا » المجاهدة ، فاذا قيل له ماذا تصنع وأنت الفرد الأعزل ، أين لك المال والقوة وأين لك العزة والمنعة وأين لك القوة العاملة ، وكيف تقاوم هـــذه التيـارات التى تهب من هنا وهناك ، قال : « **ان معى ربى ســـيهدين** » (٣) ، ان الله معنا ، اننا لا نحتاج فى نصرة المبادىء الى القوى المادية ولكننا نحتـاج الى هذه القوة الفعالة ، عـدة كل مؤمن ومجـــاهد ، الايمان بالله والثقـــة به واستمداد المعونة منه ، لم يتزعزع فى نفسه الاعتقاد بأن الله ناصره ومؤيده ، وانه مصدقه وعده فقد « **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى** » (٤) ٠

يبدأ جهاده فى الاسماعيلية ولا عدة معه ولا رجـــال الا هذا النفر القليل من العمـــال يستجيبون له ويظل على هذا فترة طويلة لا تلبى نداءه كثرة مغرية ، ومع هذا فهـــو المؤمن بربه لا يعنيه ماذا يكون غدا ولا ما سيأتى به المستقبل ، وحسبه ثقة بالله واطمئنان الى نصره من غير نظر الى تلك الأسباب المادية أين هى منه فى حاضره وما طريقه اليها فى مستقبله وكيف سيعد عدته لاجتياز هذا الطريق ، لم يفكر فى هذا ولا فى شىء منـه وحسبه أن ملأ قلبه ثقة بالله واعتزازا بقوته واتخذ شعاره : الله أكبر ٠

---

(١) الحج : ٤٠
(٢) المنافقون : ٨ بلفظ « ولله » ٠
(٣) الشعراء : ٦٢ (٤) المجادلة : ٢١ ٠

ماذا تساوى هذه القوى المادية وبماذا تنفع ؟ واذا كان لها حساب أو ميزان فى مقارنة بقوة فما نصيب هذا عند أصحاب الدعوات ، وهم انما يريدون فتح القلوب أولا وهم انما جاءوا لغزو النفوس والعقول والسيطرة عليها فليس لهم لهذه الغاية الا ثقة بالله واطمئنان الى الحق الذى اليه يدعون ، فاذا أعذروا الى الناس بعد استخدام الحجة والمنطق والبرهان ، أو اذا ظلموا وأوذوا وأخرجوا من ديارهم ، وسلبت حرياتهم فى الدعوة الى حقهم ومبادئهم ــ وهذا بعد ما يكونون قد صاروا فى كثرة ومنعة ــ كان حقا لهذه القوة المادية حينئذ أن تظهر وأن تعمل :

والناس ان ظلموا البرهان واعتسفوا فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

أما حين يبرز الداعية الى ميدان الجهاد أول الأمر فما هى هذه القوة المادية التى يفكر فيها وما قيمتها عنده وما نفعها له ؟ انما ينفعه ايمانه بربه واستناده اليه وثقته به واطمئنانه المطلق اليه سبحانه ، والى هذا أرشدت سيرة الأنبياء ، وهدى القرآن الكريم ٠٠ وذلك ما نراه مطبوعا فى نفس « حسن البنا » المجاهد حينما برز الى الميدان وهو الذى يفسر لنا اقدامه بشجاعة منقطعة النظير على الاضطلاع بهذه المسئولية الخطيرة فى التبشير بهذه المبادىء ٠

والا فماذا ترى ؟ أين الناس فى القرن العشرين من الاسلام ومبادىء الاسلام ، أين هذه الحياة التى نحن فيها مما جاء « حسن البنا » يدعو اليه ؟ اننا فى عصر اذا تحدثت فيه الى الناس عن أبى بكر وعمر وخالد وبطولتهم ظنوك تتحدث اليهم عن جماعة من الجن أعمالهم فوق ما تدركه العقول ، فالحديث عن مبادىء الاسلام على أنها أصول واضحة وخطوط عملية تشيد الأمة عليها نهضة أو تبنى مستقبلا ان هو الا أمر يصغى اليه الناس بعجب كما يصغون الى أسطورة من الأساطير ، ولم يكن هذا يغيب عن « حسن البنا » بل كان يقدره ولكنه لم يكن يحسب حسابه فقد كان يعرف أن مهمته ورسالته انما تستمد وجودها من قيام أمثال هذه الحقائق وأنه لولاها ما فرضت عليه مهمة الجهاد ليطلق العقول من أسارها ٠

كان يتحدث مرة الى كبير ذى رأى وحيثية كان من رأيه أن الدعوة الى هذه المبادىء وقوف بالعقل عن تقدمه ورجوع بالحضارة ، وهى النغمة التى يرددها خصوم الاسلام أو الجاهلون بحقيقة أمام دعاته ليضعفوا حماستهم لدعوتهم أو يصدوهم عن سبيل الله ، فأسهب معه فى الحديث وعلمه كيف أنه ثابت تاريخيا أن مبادىء الاسلام مبادىء واضحة عرفتها الانسانية ، ارتفعت بالبشرية كلها ومنحتها من الحقوق ما لم تنله على يد شريعة أخرى سابقة أو لاحقة ، وأن هذه الحقيقة لا يمكن أن تنكر ، وأن حضارة الغرب لم تجىء فى بعض ما جاءت به من مفاخر الا بما سبقتها به الحضارة الاسلامية ٠٠ وأقام له البرهان على ما يقول فاذا بعد

هذا الاقتناع يقول : لم اكن أعرف أن هذا موجود فى الاسلام ، وعلى كل حال فالظرف الآن غير مناسب للعمل بهذه المبادىء والأحكام .. !!

قالها هذا الكبير بكل صراحة وكأنه لم يقل شيئا ، وسمعها « حسن البنا » أيضا بكل وضوح وكأنه لم يسمع شيئا .. !! وهذا يدلنا على مبلغ بعد الناس عن فهم حقيقة هذه المبادىء يومئذ ، وعن انصراف العقول انصرافا تاما عن الدعوة اليها ، وعدم تهيؤ النفوس لها الأمر الذى يضعف أمل الداعية ويفل من عزمه ، ولكن « حسن البنا » كان على ثقة بالله لا تتزعزع وايمان به لا يفل ، وبهذا الايمان وحده برز الى الميدان غير عابىء بما قيل أو يقال ، أو حاسب حسابا لما هنا وهناك ، وحسبه أن الله حاديه وفى هذا يقول : « سيقول الذين يسمعون هذا انه الخيال بعينه انه الوهم والغرور وأنى لهؤلاء الذين لا يملكون الا الايمان والجهاد أن يقاوموا هذه القوى المتألبة المجتمعة والأسلحة المتنوعة المختلفة وأن يصلوا الى حقهم وهو بين ذراعى وجبهة الأسد ؛ سيقول كثيرون هذا ولعل لهم بعض العذر فهم قد يئسوا من أنفسهم ويئسوا من صلتهم بالقوى القادر ، فأما نحن فنقول انها الحقيقة التى نؤمن بها ونعمل لها ونحن نقرأ قول الله تعالى : **« ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون . وترجون من الله ما لا يرجون » (١) .** – وان الذين فتحوا أقطار الدنيا ومكن الله لهم فى الأرض من أسلافنا لم يكونوا أكثر عددا ولا أعظم عدة ولكنهم مؤمنون مجاهدون وكفى .. وسنعتد نحن بما اعتد به الرسول صلى الله عليه وسلم يوم بشر حبيبا بظهور هذا الأمر حتى ليسير الراكب من عدن الى عمان لا يخشى الا الله والذئب على غنمه ، وكانوا اذ ذاك يستترون، ويوم وعد سراقة بن مالك سوار كسرى وكان مهاجرا ليس معه الا ربه وصاحبه ، ويوم هتف مطلعا على قصور الروم البيضاء وقد حاصره المشركون فى مدينته بجنود من فوقهم ومن أسفل منهم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، ثم ماذا كان بعد ذلك ؟ كان أن أصغى مسمع الدهر لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وترددت فى فم الزمان آيات قرآنه ، وأشرقت شموس الهداية فى كل مكان من قلوب أصحابه وأتباعه ، وعم الكون نور ، ورفرف على الدنيا سلام ، وتذوقت الانسانية حلاوة السعادة بعدالة الحكم ، وأمن المحكوم فى ظل هذا الرعيل الأول من تلامذة محمد ، وفتحت قصور الروم ، ودانت مدائن الفرس ، ومدت الأرض بأعناقها واستسلمت مختارة للهداية المنقذة ترف عليها أنفاس النبوة وتمازجها أنفاس الوحى المقدس وتحف بها رحمة الله من كل جانب **« ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف**

---

(١) النساء : ١٠٤

فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا • وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها ، وكان الله على كل شىء قديرا » (١) •

« سنعتد أيها الناس اليوم بهذه العدة وسننتصر بها كما انتصر أسلافنا بالأمس القريب وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، وسيتحقق لنا وعد الله تبارك وتعالى – « **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين • ونمكن لهم فى الأرض » (٢) « فاصبر ان وعد الله حق » • (٣)**

وهذا يصور لك ما كان يتردد فى نفسه من ايمانه العميق بربه وهى العدة التى سار بها موفقا مسددا ، هذه عدة « حسن البنا » من ايمانه بربه وهى قوة لا تقهر ، تراها فى هذا الشعور المتدفق المسيطر على نفسه يهبه الثقة ، ويمنحه الاطمئنان ، فيمضى الى صميم غايته مصرا عليها مصمما على الوصول اليها والناس من حوله يعجبون ، هذا الايمان الصادق بالله قد أمده بالخلتين العمليتين من خصال الايمان : « الثقة والاطمئنان » •

آمن بربه فاعتصم به ، ثم آمن بدعوته •• وقبل أن نتغلغل فى رواق هذا الايمان الممتد – ايمانه بدعوته – **نقول** كلمة لا مغنى عنها . ونلقى حقيقة نستضىء بها : كانت الثقافة الاسلامية هى عماد ثقافة « حسن البنا » منذ نشأته كما رأينا ، وكانت التربية الاسلامية هى المنهل العذب الذى غذى ملكاته ورباها وتعهدها ، فنشأت نفسه اسلامية بطبعها واتجاهاتها ، وأمدته دراساته وما حصله من العلم بقسط وافر من حقائق الثقافة الاسلامية ومراميها ، أضفى عليه من عبقرية ذهنه وذكاء عقله ، فاتجه به الى مرامى وأهداف استشفها من معانى نفسه وصفاء روحه « فبلغ من التعمق فيها والوقوف على كنه أسرارها مبلغا لم يتح لأحد غيره فى هذا العصر •

هذه واحدة يجب أن تكون فى حساب المؤرخ عندما يطرق باب الكلام عن ايمان « حسن البنا » بدعوته وبمبادئه ، أن يقرن هذا الايمان باطلاعه الواسع وغزارة علمه فى العلوم الاسلامية وتمكنه من ثقافاتها تمكنا فاق به معاصريه والسابقين عليه •

الحقيقة الثانية : صلته الوثيقة بالقرآن •• لا نريد أن نقول حفظه أو فهمه أو تفهمه أو ما الى ذلك ، انما نقول صلته الوثيقة به ، صله لا يتاح لنا تصويرها أو ادراك كنه حقيقتها ، الا أنها مصدر لايمان عميق خالط المشاعر والجوارح ، وكان أشبه بسيال كهربائى سرى تأثيره فى كيان نفسه فهزها واستأثر بها ، فهو يأتيك بكل شىء من القرآن لا على طريق الاستشهاد

---

(١) الأحزاب : ٢٥ – ٢٧ (٢) القصص : ٥ ، ٦
(٣) الروم : ٦٠ ، وغافر : ٥٥ ، ٧٧

والاستئناس،ولكن على سبيل العقيدة والتقرير والقاء الحقيقة الثابتة لا تقبل مزاحمة ولا نقضا ، يصول الناس ويجولون ويتكلم المتكلمون ، ويتعمق المتفلسفون ويطير ذوو الثقافات كل مطار ، و « حسن البنا » لا يؤمن بشيء من هذا مهما أكثر فيه العلماء وخاض فيه المختصون ، واذا به يلقى عليك الآية من القرآن فيحسم الأمر ويفصل فيه وتقطع جهيزة قول كل خطيب ، يجهد الناس ويتعبون ، ويذهبون المذاهب فى البحث من البحوث و « حسن البنا » أغناه قرآنه عن كل هذا : يقرأ الكتاب وفيه أحدث النظريات العصرية سواء فى القانون أو التربية والأخلاق أو الاقتصاد أو السياسة والتشريع أو الاجتماع أو فى أى فن من الفنون فاذا فرغ منه فاجأك بالآية أو الآيات تتضمن كل ما أعجبك أو استحوذ عليك من نظريات وردت فى هذا الكتاب ، وما جف مُعينه يوما ولا وقف اطلاعه عن اسعافه بما يريد فى أية ناحية فى هذا السبيل ، فالقرآن نبع ثقافته تتفجر له منه الحكمة وتسير فى مسارب نفسه وهو يلقيها على من حوله فيجذبهم ويستولى على احساساتهم ومشاعرهم ٠

يطوف المصلحون هنا وهناك ، ويتطفلون على هذه الثقافة أو تلك ، ويتكالبون على ما وضعه الغربيون فى كثير من الشئون الضرورية اللازمة للحياة المتصلة بشئون الناس والمجتمع ، ولا يخطر لهم أن الاسلام قد تعرض لهذه النواحى أو طرقها بخير مما وصلت اليه العقول فى العصر الحديث ، الا اذا استمعوا الى الأستاذ « حسن البنا » والا اذا رأوه يطالع كتابا من هذه الكتب ثم يعقب عليه بما يسفه هذا المجهود الضخم الذى بذل فيه بالآية الواحدة من القرآن يفيض فى شرحها والتعليق عليها والابانة عن مقاصدها ويترك سامعه فى حيرة ودهشة ، وقد يكون من حفاظ القرآن فيخال أنه لم يسمع هذه الآية أو الآيات من قبل ٠

ان علم الاجتماع الذى تفاخر بفلسفته الثقافة العصرية الحديثة ، وهذه النظريات التى يعتمد عليها المتاجرون بالمبادىء فى تربية الأمم وطريقة قيادتها وسياستها ، وأمثال هذه المسالك العقلية والعلمية الى ما يتصل بحاجات الناس ٠٠ هذا كله يطالعه « حسن البنا » كما يطالعه الناس ، وقد يعجب به كما يعجبون ولكنه دائما مستغن بقرآنه وقد وجد فيه جماع الثقافات، يتحدث اليك من ثقافته ، ويطرق بك أصول هذه العلوم ونظرياتها بافاضة واسهاب ، ويضع أمامك من مسائلها ما يزرى بانتاج عقل العصر الحديث ومضمون نظرياته وخلاصة ما انتهى اليه ٠

هاتان حقيقتان يجب ادراكهما قبل الكلام عن ايمان « حسن البنا » بدعوته ومبادئه ، وهما تستمدان من حقيقة كبرى تخضع لمنطق نفسيته ٠٠ منطق نفسيته فى تناولها من أضواء عبقريته العقلية والذهنية أشعة تكشف بها معالم الطريق الى أهدافها العامة ٠

وبهذا الشعاع المضىء من صلته الوثيقة بالقرآن واستمداده من منابع ثقافته الخالصة ، ومن التلقى من أحكام بيئته الأولى التى احتضنته وربته –

يمكن أن تنفذ الى شخصيته المؤمنة بدعوتها المتفانية فى مبادئها ، وكما قلنا ان كل الناس يؤمنون بمبادئهم ويفتدونها ويعملون على نصرتها ، ولكن ميزة الايمان الحق انما هى فى الثبات والاطمئنان ، ثبات صاحبها عليها فلا يدور بها ، واطمئنانه اليها فلا يشك لحظة فى أنها منتصرة لأن حقها أن تكون كذلك ، فالناس صائرون اليها حتما مهما عاندوا ، ومهما أخذتهم العزة بالاثم وظنوا أنهم لها غالبون ·

وبهذين العنصرين : الثبات على المبادىء والاطمئنان الى انتصارها أقام حسن البنا ايمانه بالحجة الدامغة ، يلقيها الى الناس فى رداء من المنطق المستقيم ، نتيجة لتحدد ايمانه ووضوحه فى نفسه ، فكلما لف الناس أو داوروا ، وكلما تذبذب بهم البرهان أو تلعثم المنطق لتجريح هذه المبادىء واثبات أنها تتنافى مع ما ينشدون من مثل وما يطلبون من حاجات ، مهما دار الناس لايقاع هذه الحقيقة فى الأذهان ابطالا لحجة المبادىء الجديدة أو اضعافها على الأقل ، لقيهم الداعية بمنطق ايمانه المحدد ، فأراهم الآية الكبرى ، فتنقلب حجتهم عليهم ، لأن ايمان الداعى يقطع الطريق على هذا الوهم ، ويقبل عليه بعبقريته فيحيله الى نتائج عملية تتفق مع ما يطلب الناس وفى الوقت نفسه تتناسب مع الصور العملية التى تضمنتها مبادئه ، وهذا بعض ما يفعله الايمان المحدد ، وهذه ميزة من ميزات « حسن البنا » فى ايمانه قهر بها المكابرين وأبطل حجة المنكرين ·

فان قلت لك بعد هذا ان ايمانه بدعوته أثبت من الجبال الراسيات فلن تحار فى هذه الحقيقة ، فانما هى البديهة الصادقة تلهمنى واياك هذا التصوير ، والا فان ايمان قائدنا فى حقيقته فوق هذه التصويرات اللفظية التى اصطنعها الناس يخاطبون بها العقول ، ويتفاهمون بها مع المدارك ·

ماذا أقول ؟ انها معجزة الايمان ، أو انه الايمان المعجز · ذاك الذى نراه ونحسه فى ايمان « حسن البنا » بدعوته ايمانا يسد كل سبيل على المنكرين المناوئين ويدعهم فى حيرة ، ويقتلع كل يأس من المؤمنين فيثبتهم ويتركهم فى أمل فسيح ·

آمن « حسن البنا » بالقرآن دستورا ، ونادى فى الناس أن مبادىء هذا الدستور تكفل لكم أرقى ما وصلت اليه الدساتير الحديثة من حقوق وواجبات خاصة وعامة وان كنتم فى شك من هذا فما عليكم الا أن تأتونى بمادة فى دستور من الدساتير تتضمن حقا عاما أو خاصا من الحقوق الصالحة للانسان لأدلكم على مكانها فى دستورى الربانى « **صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة** » (١) فهاتوا برهانكم ·· فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فتعالوا اذن الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن نرجع الى الأصلح ونعود الى

---

(١) البقرة : ١٣٨

الأقـــدم والأقـــوم ، فان أســلمتم فقد اهتديتـــم ، وان توليتم فانمــا أنتم فى شقاق ، وســوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، يقرون فى الأرض دســتور الســماء ·· فهل تراه حاد يوما عن هذا المنطق أو أخل بأحكامه ، تثور الدنيا وترعد ، ويرغى الجاهلون ويزبدون ، ويحلفون بالجبت والطــاغوت أن يعطلوا نشــاط هذه الدعــوة ويناوئوها ، فيصــنعون القوانين ويضعون التشريعات ، ويلفقون كما يشاءون فلا ينالون من هــذه الدعوة ولا من القائمين بها ، واذا بنشاطها يزداد ، واذا بها تســاير كل وضع ، ولا تتنافى مع أى تشريع أو قانون ·· لماذا ؟ لأنها حق ، ولأنها حق طبعى ، ولأن طبيعة الحق ألا يتعســف ، ومن طبيعة الحق أن يكون عذبا ســائغا ، ومن طبيعة الحق ألا يناوىء أو يهدم ، ومن طبيعة الحق أنه صالح للبقاء فلا تزاحمه القوانين ولا تضــيق عليه التشريعات ، ولا تميته أو تقضى عليه التلفيقات ، ولكنه هو الذى يزامل هذه الأوضــاع ويماشــيها ويمدها ، فيقوى الصالح منها ويعضده ، ويفنى الباطل ويبدده ·· !!

هذه هى الحقيقة الباهرة فى ايمان « حســن البنا » بدعوته وتفانيه فيها ، وهى الحقيقة التى تفسر لنا تجرده لها وتضحيته بكل ما يملك فى سبيلها ، ووقفه حياته عليها لا يمل ولا يلين ، فهو قد فهم مبادئها وحددهــا فى نفسه ، ثم ثبت عليها ، وضحى من أجلها ، فهى عناصر ثلاثة تكــون ايمانه بدعوته ، تزكيها وتحركها هذه الصلة الروحية الوثيقة التى ربطته بمبادئها ووصلته بحقائقها ·

ليس الايمان بالمبادىء فى هذا الاسـهاب الطويل فى الكلام عنها أو شرح ما تضمنته وما يمكن أن تدل عليه ، ولكنه فى هذه الصلة الروحيــة التى تقوم بينها وبين الداعية فتملك عليه حواسه وتسيطر على منافذ نفسه وتجعله فى انشغال دائم بها ، تلك الصلة الروحية بأثرها هذا هى التى تمنح الداعية صفة الثبات والاطمئنان وهى التى تكتب لمبادىء الدعوة البقــاء والخلود ·

وقد انطبعت نفس « حســـن البنا » بهذين العنصرين من صغره ومنذ نشأته ، فقد أعدته ظروفه الخاصة والعامة وهيأته للاتصال بهذه المبادىء وأقامت بينه وبينها صلة روحية أسبغت عليه ايمانا عميقا بها تلمســه فى سلسلة هذا الكفاح المتتابع الطويل الذى لازمه فى جهاده لدعوته حتى انتهى به الى نتيجته الطبيعية المنطقية من نجاح هذه الدعوة وانتصارها ، وفرض مبادئها كحق طبعى يستحق البقاء ، ومبادىء صالحة تحكم وتسود ، ودستور قدسى واجب النفاذ ·

ايمان عميق بالله ، وايمان فسيح بالمبادىء : هذان سلاحان ماضيان تسلح بهما « حسن البنا » فى جهاده ، وسار بهما الى غايته من انتصــار هذه المبادىء باجتماع القلوب عليها تفتديه واياها بأعز العزيز ، وتؤمن به

وبها ايمانا عميقا ، وترى أنها أصلح المبادىء لقيادة الأمة والانســانية الى حضارة فاضلة تفرض نفسها وتحكم وتسود ، ولا ترى لغيرها حقا فى البقاء أو الوجود .

ثم ايمان بالنفس تراه فى الثقة بها ثقة تامة مطلقة تذلل كل صعب وتقتحم كل ميدان ولا تعبأ بما هنا أو هناك أو تحسب حساب متاعب النفس وآلامها ومشقاتها ، ايمان بالنفس ينتزع منها هذا اليأس الذى ملأ قلوب الناس من أنفســـهم وأمتهــم ، وضرب عليهــا نطاقا من الغفلة صرفها عن التفكير فى أمر الأمة وصلاحيتها للنهوض والسيطرة على منابع حضارة انســانية تسير بالعالم الى حال من الرقى والاسعاد ، تستمد أصولها من ماضى هذه الأمة المجيد .

الايمان بالنفس هو هذا الأمل الفسيح يغمر مشاعر الداعية ويهيمن على احساساته ويبسط نفوذه على منافذ النفس المشرفة على العالم الخارجى فتراه فى قبضتها ، وترى هذه الوسائط الصورية ، والأســباب الظاهرية التى يرتب الناس النتائج على أساسها قد ذابت وتحطمت .. فتلمس النجاح وتدنو منه ، وبذلك تسير الى غايتها فى ثقة واطمئنان .

الايمان بالنفس هو القوة الدافقة التى تشيع ذراتها ، وتنساب تياراتها فى نفس الداعية فيتخطى بها الحواجز ويجــاوز العقبـات ، ويبلغ النصر المؤزر ــ فما حقيقة هذا الايمــان بالنفس وما هى حدوده ؟ وكيف يمكن أن نتعرف اليه بعيدا عن المغالطة ودواعى الغرور ؟

أفكل ناعق ــ أجاد صناعة الكلام ونزل الى ميدان الحياة بما يجرى على ألسنة الناس من أننا قادرون على أن نصنع المعجزات ونفعل الأعاجيب لأننا أبناء زيد وورثة عبيد وأصحاب أمجاد ــ مؤمن بنفسه ؟ !

كلا .. وما يمثل هذه الدعاوى تحدد ايمان « حسن البنا » بنفســه ، لأن اثارة الأمجاد ، وبعث المشاعر القومية ، وتغذية هذه الآمال وازكائها ، أمر آخر ووجهة ثانية ، ان اتصلت بمعانى الايمان بالنفس فصلتها اكتسابية، تنال بالتربية وما شابهها من العوامل ، فلا تكون لها صفة الثابتة المستقرة ، ذلك العنصر اللازم توفره فى كل حقيقة ايمانية .

يقول الله لسيدنا موسى «**واصطنعتك لنفسى**» (١) ويقص عليه قبل ذلك ما كان من أمره منذ نشأته ، ويقول لمحمد صلى الله عليه وسلم : « **وانك لعلى خلق عظيم** » (٢) ويعطيه حق القوامة المطلقــة فيقول « **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم** » (٣) ثم يزكى مركزه فى الدعوة . «**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس** » (٤) .

---

(١) طه : ٤١
(٢) القلم : ٤
(٣) الأحزاب : ٧
(٤) المائدة : ٦٧

« **قل ان كنتم تحبون الله فاتبوني يحببكم الله** » (١) . **وما آتاكم الرسول فخذوه** » (٢) . ثم يذكره بما ذكر به موسى : « **ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى** » (٣) .

ومن مثل هذه الحقائق صيغ ايمان الأنبياء بأنفسهم وجاءهم التثبيت الالهى عليه ، ويتضح هذا أكثر في قوله تعالى : « **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها** » (٤) .

وعلى هذا فحقيقة الايمان بالنفس أن تكون أهلا لما تدعو اليه من مبادىء ، وكل ماعدا هذه الحقيقة فهو مترتب عليها ومن لوازمها ، ومكتسب من وجودها .

العنصر الثابت المستقر لحقيقة الايمان بالنفس عند الدعاة هو الأهلية لحمل مبادىء هذه الدعوة ، وهو معنى ظاهر الوضوح حتى بالنسبة للأعمال العادية الصغيرة ، فمثلا ليس يكفى التاجر ليكون ناجحا أن يعتقد أنه قادر على اقتحام ميدان التجارة ، وأن يسيطر هذا الاعتقاد على نفسه ، وليس يعينه أيضا أن أباه كان تاجرا ، أو أن لديه معدات التجارة كرأس المال والالمام بالمسائل التجارية ونحو ذلك ، ولكن لابد له من صلاحية نفسه لأعمال التجارة ، ولابد له من الأهلية الحقيقية العملية الفعلية لمباشرة شئونها ، لأن هذه الأهلية هى التى توجد الثقة بالنفس وتبرزها فيتحقق الايمان .. ولا ايمان بالنفس ما لم تتحقق هذه الأهلية .

وهذا مثال مع الفارق ، والا ففى الدعوات تكون هذه الأهلية أصلا كليا تنعدم بفقدانه كل ظواهر الحياة فى المبادىء .. وقد آمن « حسن البنا » بنفسه ، لأن نفسه حقيقة بهذا الايمان جديرة به ، وهى أهل لأن تحمل هذه المبادىء وتذود عنها ، فهى ثقة عن حقيقة كائنة موجودة يترتب على طبيعة منطقها هذا الايمان بالنفس الذى أشرنا اليه .

وليس « كحسن البنا » أهل لدعوته ولحقيقة مبادئها وروح تعاليمها ، واننا نتحدى الدنيا وتاريخها ، والعالم ورجاله ، أن يأتونا برجل كان نموذجا حيا لمبادىء دعوته « كحسن البنا » ، وهذه حقيقة سنفرد لها جزءا مستقلا من « الروح » .

انه أهل لمبادئه ، صورة صادقة لها منذ نشأته ، ولا تظنوا أننا قد أحصينا لكم فى هذا الكتاب الصغير والكبير من دقائق هذه الحياة ،

---

(١) آل عمران : ٣١
(٢) الحشر : ٧
(٣) الضحى : ٦ ــ ٨
(٤) الفتح : ٢٦

فمازال السجل زاخرا بالكثير مما لا يعلمه الناس ، وسيعلمونه فى حينه ويأتون اليه مذعنين ، ثم هو أهل لها فى قيادتها قيادة سليمة على ضـــوء الدعوة الأولى ، وعلى معالم الطريق الواضحة النيرة التى اختطها محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذه هى الحقيقة الكبرى لما أدركه من نصر ونجاح ٠

انها ثلاثة : ايمان بالله ، وايمان بالدعوة ، وايمان بالنفس — تلك هى قوى النفس التى تحقق بها « حسن البنا » وعدة المجاهد التى عبأها وجهزها ليقطع بها طريقه الطويل الى غايته ، وهى القوة التى لا تقهر ، والعدة التى لا تكسر ، ومن أجل ذلك قلنا انه سار بها الى الصميم ٠٠

★ ★ ★

— ٨ —

جهـاد

تركنا القافلة حيث بلغ بنا الركب القاهرة وأشرفنا على حياة جديدة وأعبـــاء كبيرة ، ولم يعد الأمر أمر محاضرات أو نشرات ، أو دراســـات واستكشافات ، أو زيارات عابرة واقامة صلات خاصة فقد فرغ « حســـن البنا » من هذا كله ، وأوفى منه على الغاية فزار المدن والقـرى والنجوع والكفور ، وعرف مسالكه اليها والى أهلها ، واتصل بطبقات الشـعب كلها اتصالا مباشرا فزاد ايمانه بأحقية هذه الدعوة فى الظهور والانتصار ، وأن مبادئها آمال الشعب وعلاج الأمة ، وأن عليه واجب ابلاغها للناس وجمعهم على لوائها ، فالمهمة الآن قد أصـــبحت دعوة تتحرك ، ومبادىء تزحف ، أصبحت فى هذا الشعور الذى يعتمل فى النفس يريد أن ينطلق ويشق طريقه ويقتحم كل ما أمامه ، وفى هذا العقل الجديد يظهر ليأخذ مكان الصدارة فى الأمة ويوجه نهضتها ، ذلك هو الوضع الآن ٠ فهى مهمة الايمان ، وهو الكفاح والنضال ، هو الجهاد التنظيمى والسلبى ، يؤدى الى نتيجته الايجابية بالبناء والاعداد والتربية أولا ، ثم بالنصر ثانيا ، وتلك هى خطة الحصيف ، وليس هذا الاعداد الا فى اقامة هذه الدور فى كل بلد وقرية لتجهيز النفوس لقبول الدعوة الجديدة وتلقى مبادئها ٠

وابتدأ فى تكوين الشـــعب على الطريقة الأولى بالزيارات واقامـة الصـلات الشـخصية التى تنمو حتى تصبح أخوة مشتركة فى الجهاد ، كل هذا وقائد الدعوة يسبغ على هذه الخطوات من روحـــه وميزات نفســه ، ويهب دعوته كل وقته وماله ، وتضاعف عدد الشعب ، وكثر اقبال الشباب على الدعوة وصار مركز قيادة القاهرة معقلا اسلاميا ٠

ويضيق بنا المقام لو أردنا أن نستقصى كل حركات القائد فى هذه الفترات وكيف كان يوجه السفينة ، ويقود الباخرة بتوفيق وحكمة وسداد ، ولكننا سنمر بهذا كله مرا سريعا ، نأخذ منه النزر اليسير مما لا ينبغى أن يترك ٠

جاء « حســـن البنا » الى القاهرة فماذا يفعل فى هذا الخضم الذى يموج بالفتن وكيف يشق طريقه فى هذا المعترك الصاخب ؟ سلك طريقه كما بدأه فى الاسماعيلية ، التعرف الى الناس وكلهم خير ، والاتصال بقلوبهم وكلها صفاء وطهر ، واقامة صلة جديدة بينه وبينهم أساسها الأخوة والحب، وتكوين المجتمعات الاخوانية الخالصة على الأسس التى أشرنا اليها ٠

تكونت شعب الاخوان ومجتمعات الاخوان المسلمين على هذا الأساس المتين الذى رباهم عليه أستاذهم وأخوهم ، فارتبطوا برباط دقيق ، فلم تقم شعب الاخوان على أفراد تنظمهم وتجمعهم لوائح وقوانين ويســـمون لجنة أو مجلس ادارة أو نحو ذلك مما تقوم عليه الجمعيات والجماعات ، وانما قامت على رجال يجمعهم لواء الدعوة والعقيدة ووحدة الغاية ، وتربطهم رابطة الأخوة التى تتحكم فى تصرفاتهم وتوجه أعمالهم ٠

على هذا كون « حسن البنا » مجتمعاته الاخوانية ، وجهز منها كتائبه، فصارت كل شعبة وحدها مركزا مستقلا للقيادة ، وصورة متكررة من المركز العـــام فى القاهـــرة تؤدى رســـالته فيما حولها ، وفى اقليمها وما جاورها ، والقائد يشرف على هذا كله ، ويمده من توجيهه السديد ٠

هذه لمحات ومقتطفات ، وفى ســجل الجهاد تضـــحيات جســـام ، فتعال نستمع الى قصة المجد والبعث والتضحية والفداء ، جاء حسن البنا الى القاهـــرة وســـلاحه ايمانه كما عرفنا ، وهو الشـــاب الذى لا قبل له كما قال الناس بمقاومة هذه التيارات المناوئة فى ميدان العمل الذى تصدى له ، ولكن المؤمنين يطيب لهم الجهاد والعمل فى هذه الصعاب وهذه المشقات، ولولا المشقة ساد الناس كلهم ، فماذا يقف فى وجه « حسن البنا » وهو المؤمن العميق الايمان ؟

المال ٠٠٠ ؟ : ما أتفه أمره ، وما أقل شـأنه ، ومتى كان المال عـدة المجاهد ، أو سلاح المؤمن ؟ ولكنه العصر ولغته ووسائله فكيف ننتصر ونسود ولا مال ننفق منه على هذه المهمة الضخمة ؟

انها مرة ثانية ليســـت لغة العصر ولا منطقه ، ولكنه حكم الايمـــان ونفوذه ، وهى حجته وأساليبه ، فمتى كان المال عدة المجاهد أو سلاح المؤمن؟ هل كان عدة محمد حين خرج من مكة الى المدينـــة ؟ لا وربى بل يخيل الى الآن انه كان من دروس الايمان فى الهجرة،تجريد النفس المهاجرة–المجاهدة – من هذا الوهم : «المال» ليتم صقلها ويكمل ايمانها،فلا تذكروا المال والنفقات ، ولكن اذكروا ايمان القائد واذكروا « حسن البنا » فى ايمانه بربه وبمبادئه وبنفسه ، اذكروا هذا الايمان أولا ، وتعالوا الى ما يرشد اليه من معانى

التضحية وتجرد النفس لغايتها ودعوتها ، ومن هذه التضحية ، وهــذا الايثار للدعوة تكونت « ميزانية » حسن البنا المؤمن ٠ ماذا أريد أن أقول ؟ اننى أحاول أن أطوى هذه الصفحة طيا ، ولا أريد أن أذكر لأستاذى جهاده بماله وخروجه بكل ما يملك لدعوته ، فأنا أعرف أن هذا يثيره ولا يرضيه ، وأعرف أن سماحته وواسع حلمه لا يطيقان التجاوز عنى ان طرقت هــذا الباب بافاضة ، أعرف أن أستاذى ان تجاوز عنى فى الكثير مما أسرده فى هذا الكتاب ، فانه لن يرضى أن أشير الى شىء فى هذا الباب ، ولن أضيع على المجاهد مثوبته ، أو أحرمه المتعة بما ينعم به من اخفاء مبرات جهاده ، ولكننى سأقولها متحديا بها ، سأقولها لله وللحقيقة والتاريخ ، سأقولها فى اشارة مجملة اعترافا بالفضل لأهله ووضعا للأمور فى نصابها . سأقولها ليعلم القريب والبعيد أن نفقات تأسيس هــذا البناء كانت من مال هـــذا الشاب الذى خرج عن كل ما يملك لدعوته ، وتجرد لها ، وفنى فيها الفناء المطلق ».

لم يكن للاخوان من مورد من يوم أن بدأوا الا هذه القروش القليلة المتجمعة من اشتراكات الأعضاء ، أما الجزء الأكبر فكان من هذا الاشتراك الذى آثر به « حسن البنا » دعوته ٠ ٠

نستطيع أن نقول فى ثقة واطمئنان ، واستنادا الى أوثق المصادر ، أن موارد « حسن البنا » الخاصة كانت هى نفسها موارد المدعوة التى تنفق منها من مشرق الفكرة الى سنوات قليلة ٠

قال محدثى : وتستطيع أن تقول انها كانت موردها الوحيد ، ثم أردف : أثبت هذه الحقيقة فى كتابك متحديا بهـا ، فلن تجد فى تاريخ الدعـــوة وفى صدور من اتصلوا بها من أول نشأتها الا معانى رائعة تؤيد لك هــذه الحقيقة التى ضربت أول مثل للتضحية الحقة فى تاريخ الدعوات والدعاة فى العصر الحديث ٠

★ ★ ★

هذا هو « حســن البنا » فى صورة من صور ايمانه وجهاده ، فنــاء مطلق فى دعوته وتجرد تام لها ، فهل وقف الناس على سر هذا النجاح من مطالعة الحقائق فى بناء شـــخصيته ؟ ان الناس ينظرون دائما من زاوية واحدة ، فتارة ينسبون مثل هذا النجاح الى الاخلاص ، وتارة يعزونه الى الايمان ، وتارة يرجعونه الى ما فى حكم هذا وغيره من وسائط النجاح . ولكن الحقيقة فى نجاح « حسن البنا » ترجع الى هذا كله ، ثم هى ترجع قبل ذلك الى أسباب أخرى تستمد من طبيعة نفسه ، فاذا قلنا انه قد توفرت له صفات القيادة من ايمان وأمل وصبر وعزيمة واخلاص وفنــاء ، فليس هذا بكاف لتعليل هذا النجاح ، وليست هذه الصفات ببالغة يوما فى نفس داعية مبلغا يؤهله لأى نجاح ، الا اذا استطالت فتمكنت من نفسه تمكنا يحيلها من صور مثالية ، الى صفات كمالية ، الى معانى تصدر عن النفس

فى تصرفاتها اليومية الخاصة والعامة ، لا تلبث هذه التصرفات أن تصبح طبعا لازما لا تتخلى عنه ، وعملا مألوفا لا يستريح ان فارقه ، وهذه بعض ميزات « حسن البنا » القائد الداعية تستطيع أن تلم بها فى تتبعك لحركاته فى يومه ، ولن تجد فيها الا هذه الأعمال الكبيرة الصادرة من نفس كبيرة . تفسر تاريخه فى جهاده ، وتصرفاته فى علاقته باخوانه وتلامذته وجنده ، وعلاجه وتصريفه للأمور .

★ ★ ★

يستقبل « حسن البنا » صباحه كما يستقبل مساءه وهو منشغل بهذه الغاية التى لا يعرف سواها ، وهذه المهمة التى وقف حياته عليها ، لا يصرفه عنها أمر طارىء . ولا تشغله عنها أية عارضة مما يعرض للنفوس بعد بدء المسير ، لا تزيده الأيام الا اقبالا على الجهاد ، ولا تزيده وعورة الطريق وخشونته الا حبا للكفاح واستطابة له ، لأن نفسه مناضلة بطبعها يشوقها الكفاح فتمضى اليه فى انشراح وغبطة .

يمر فى الصباح مبكرا بدار المركز العام وقد لا يجد فى الغالب أحدا سبقه اليها ، فيترك مذكرات فيها توجيهات وأعمال فى محيط الدعوة تتطلب انجازا ثم يذهب الى عمله المدرسى ، هذا اذا لم يكن قادما من سفر ففى هذه الحالة هو متجه من المحطة الى المدرسة ، وهو فى الظهر مار أولا بدار المركز العام يلقى من فيها ويوجههم ويصرف ما يجد من أعمال ، وفى المساء هو بين هؤلاء الاخوة الذين ارتبط بهم روحيا فهو يحبهم ويحبونه .

وقد تطالعك هذه الأعمال فتظنها عادية فى مقدور كل انسان أن يصرفها ، وقد تظن هذه الأسفار الطويلة الشاقة المتلاحقة ، وهذا الغدو والرواح من دار المركز العام الى المدرسة والمنزل ، وهذه المقابلات للزائرين أو وفود الاخوان القادمة من البلاد ، واجتماعات اللجان ، وتصريف أمورها ، أو حضور حفلة والقاء محاضرة وما الى ذلك من سلسلة هذه الأعمال المتلاحقة التى لا يفرغ من عمل منها الا ليستأنف غيره بعده مباشرة بنشاط عجيب ، وتصريف حكيم ، وقدرة فائقة على مواصلة العمل بلا سآمة أو ملل ، قد تطالعك هذه الأعمال فتظنها أمرا سهل المنال ، وأنها لا تحتاج لأكثر من المجهود العادى ، ولكنك اذا أنعمت النظر تصدت اليك الحقيقة سافرة ، تأخذ بيدك الى حقائق الأمور ، وتصعد بك الى سماء لا تطاول ، والنفوس بطبيعتها ترى الأمور المعجزة فتظنها سهلة الأداء . وكم من أعمال كبيرة مع اتصالها بحياة الناس ومصالحهم وأعمالهم اليومية — تبدو للناس وكأنها لا تحتاج فى انجازها الا الى جهد بسيط ، فاذا أوكل اليهم أمرها ، واذا وقع لهم اكتشاف سرها ، أدركوا الحقيقة من أمرها وأنها عمل فوق طاقة الرجل العادى ، مثل ذلك هذا المجهود المضنى الذى يقدمه رجل وهب نفسه لله ولدعوته فهو فى كفاح دائم متصل من أجلها ، يسمع الناس من غير الاخوان أن المرشد مسافر فيظنون هذا السفر سياحة قليلة الأعباء ، أو نزهة للراحة من عناء الأعمال ، ويسمعونه يخطب فى حفل من الأحفال ،

أو يلقى محاضرة أو يناقش مسألة من المسائل ويفيض فى هذا كله افاضة المدقق المحقق ويخالون أن هذه الحقائق المرتبة بمنطقها الدقيق المعجز قد تعب صاحبها فى اعدادها وسهر فيها الليالى الطوال . بينما الرجل قادم من سفر منذ ساعات أو لحظات ، يرى الناس هذا ومثله فيفسرونه تفسيرا عاديا لأنهم ينظرون اليه لا على أنه تاريخ يؤلف حياة مجاهد مناضل لفكرته ، وان هذه الأعمال كلها لا تصرفها الحواس بمجهود عادى ، وانما تشرف على تنفيذها من النفس خصال ثابتة ، وتقوم عليها صفات مستقرة ، وبهذه الخصال وهذه الصفات تتم هذه الأعمال وتسير فى دورتها والى غايتها ٠

وان الرجل الذى يؤمن بأن هذه الفكرة الاسلامية انما هى فى روحها وجوهرها تقوم على تعاليم يجب أن تؤمن بها أمة لتقوم منها حكومة تحمى هذه التعاليم وتنفذها فهو يريد ايجاد هذه الأمة ، وهو يسعى اليها بجهاده السلبى التكوينى الذى أشرنا اليه ، هذا الرجل ليست طبيعة نفسه ولا طاقة أعصابه ، وليس مقدور حواسه وائتمارها بنوازعه الداخلية وآماله ، ليس هذا كله وما فى حكمه مشابها لعملى وعملك ، وما أقوم به أنا وتقوم به أنت ، فهذا هو الخطأ المركب الذى يضل فيه الناس ، فلا يحسنون تقدير المثل العليا فى حياة الناس ، ولقد قدمنا أن الأعمال انما توزن بالروح التى تصدرها وتوجهها ، ومن ثم فالأعمال المثالية تستوحى من نفس الفرد وتستقى من خصائصها وصفاتها ، وهى تصدر متوجهة بأحكامها ، متأثرة بسلطانها ٠

فما هى بعض هذه الخصال والصفات التى تحكمت فى الأعمال المثالية الصادرة من نفس « حسن البنا » ؟ انها أولا الايمان ، فهو فى ايمانه كالطود الراسخ ، مثل لجنده وتلاميذه ، ونموذج حى عملى يجذبهم الى حقيقة الايمان ويربيهم عليها ، وكلتا الخطوتين تحتاج منه هو أولا الى الايمان ، فالايمان بدهى من طبيعة نفسه وعدة جهاده يوجه أعماله ويتحكم فى تصرفاته ، فهو يعمل مدفوعا بالايمان ، ايمان بالله وايمان بالمبادىء ، وبالنفس ، وبالغاية ، وبالنصر ، وبالوسائل والأسباب ، وبهؤلاء الجند حوله الثابت منهم والمتردد ، وبغيرهم من أفراد الشعب ممن اتصل بهم فلم يستجيبوا له ، أو من لم يتصل بعد بهم ، فهو محوط بموجة من الايمان بكل ما حوله ايمان بالمؤمن وبمن ينبغى أن يكون مؤمنا طمعا فى الانتفاع به واصلاحه وتكوينه فلا يأس ولا غرور ولا استكبار ، انما هو ايمان فسيح واسع المدى ، وبعد ذلك فالطريق واضحة ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، والبقاء للأصلح ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ، وانما العبرة بالايمان وبالثبات والاطمئنان ، وما عرف التاريخ الحديث مؤمنا ثابتا فى ايمانه كحسن البنا فى جهاده ، هو قوته الدافعة وهو ميزة نفسه ، وقد تلقاه دروسا عملية من سيرة محمد فى جهاده ٠

فاذا رأيت المعجز مما سنقص عليك من أنباء هذا الجهاد وما طوته قصته ، فانسب ذلك الى حقيقته الكبرى ، انسبه الى الايمان كخصلة من خصال النفس ، وصفة من صفاتها ٠

ثم بعد هذا أمل يزكيه عمل ، أمل فسيح يسع الدنيا كلها وما فيها ، وعمل يحدد هذه السعة فى أشواط ومراحل ومسافات ويقربهـا ، ولم اليأس وفيم ؟ أفى الناس ومن الناس وقد انصرف عنهم غيرهم ونسـيهم قادتهم ، أو تزعمهم الجاهلون من الذين ضلوا وأضلوا ، ما أيسر الطريق لاصـلاح هذه النفوس البريئة ـ مهما استتبع ذلك من وقت وجهد ـ وتلك هى مهمة المصلح الذى يقصد الى الجد من جهاده ويؤثر البناء ويتوخاه ٠

الطريق الى اصلاح النفوس وتربيتها اذن سهل ميسور ، ويقدر عليه « حسن البنا » ولا يراه محالا فماذا يبقى من دواعى اليأس ؟ أهو فى تجديد هذه الدعوة وبعثها بعد أن مرت عليها القرون ؟ أهو فى أن الناس قد نسوا الاسلام فليس يسيرا ارغامهم على أن يتذكروه ؟ أو هو فى هذه المحن التى تواجههـا الفكرة الاسـلامية من خصـوم متألبين وأبناء عاقين ؟ ٠ لا : فالاسلام ربيب المحنة وابن حجرها ، ظهر به محمد بعد سلسلة من أعمـال الكفاح الطويل والنضال المستمر ، وبعد أن ذاق من العذاب ألوانا فما يئس ولا سئم النضـال ولا شقت عليه مرحلة الطريق ، وهو بعد محمد يتعرض لأكبر محنة فى تاريخه ، وتتعرض العقيدة الاسلامية كلها للضـياع فيرتد المؤمنـون ويثورون على القيادة ويشـقون عصا الطاعة ، ويكاد الأمـر يضطرب وتشتعل فتنة واسعة المدى ويرتاع لهذا أشد الناس ايمانا وأثبتهم عقيدة ومن اشتهروا بالتطرف ويظنون أن من المحال مقاومة هذه المحنـة أو القضاء على هذه الفتنة ٠٠ لولا أمل أبى بكر وايمانه ، فهو وحده الذى بدد اليأس وأزال الحيرة ، وأعاد الطمأنينة الى النفوس ٠

فهذا عمر وهو من نعـرف شـدة وصـلابة وتطرفا ، يقول لأبى بكر : «يا خليفة رسول الله ٠٠ ألف بين الناس وارفق بهم ، فانهم بمنزلة الوحش» ٠ فيقول له أبو بكر : « رجوت نصرتك ، وجئتنى فوجدتك جبـارا فى الجاهلية خوارا فى الاسلام ، بماذا عسيت أن أتألفهم ؟ أبشعر مفتعل أو بسحر مفترى؟ هيهات هيهات ٠٠ مضى النبى صـلى الله عليه وسـلم وانقطع الوحى ووالله لا أدعهم ولا أغمد سيفى حتى لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله » ٠ ثم هو يخرج بنفسه الى القتال حتى يتصـدى له على بن أبى طالب خـارج المدينة فيقول له : « الى أين يا خليفة رسـول الله فانى أقـول لك ما قاله لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : « أغمد سـيفك ، ولا تفجعن بنفسك ، وارجع الى المدينة ، فو الله لأن فجعنا بك لا يكون للاسلام نظـام أبدا » ٠ فيعود رضى الله عنه مرغما ٠

وهكذا واجه الاسلام المحن ولقيها من فجر تاريخه ، ونشأ فيها وتربى بين أحضانها ؛ واجهها فى حياة محمد صلى الله عليـه وسلم وبايمـانه وحده ، وواجهها أيضا بايمان الرجل الواحد أيام أبى بكر ، فأبو بكر وحده بايمانه وأمله هو الذى أعاد للاسلام هيبته ، وقضى على هذه الفتنة الجائحة ، وهكذا الاسلام فى كل محنة ينتشـله ايمان الرجل الواحد ، وينفذه جهـاد الرجل الواحد ، وينصره أمل الرجل الواحد ٠٠ ففيم اليـأس اذن وتاريخ

الاسلام ومبادئه لا تتقدم ولا يعرفها النـــاس ، ولا تظهر للتاريخ الا فى موكب نضال وساحة جهاد ٠٠ ؟!

الأمل والعمل من طبيعة النفس المجاهدة ، ومن خصائصها وصفاتها وقد كانا بارزين فى جهاد « حسن البنا » خلقا مميزا يطبعه بطابع المكافحين ، ويجد به الى مقدمة ركب المجـاهدين ؛ فاذا وجـدت فى أنبـاء ما سنقص عليك من سيرة جهاده ما هو صادر عن وحى ايمانه ، منسوب الى عمقه ، معزو الى ثباته ، فلا تغفل كذلك فعل هذا الأمل الغامر الذى ملأ نفســـه ، ودفعها الى العمل بثبات ورباطة جاش ، أمل يجعل الأمس والغد واليـــوم كلها فى أمان ، ويمد المجاهد بالذخيرة التى لا تنفد والتى لا يستغنى عنهـا لادراك نجاحه المأمول ٠

خلق آخر من خلائق المجاهدين يبدو من تصرفاتهم ، ويميز نفوســـهم وأعمالهم ، ذلك هو الاخلاص والتجرد ؛ اخلاص يتجلى فى حبس النفس ورصد قواها على الغاية التى تعمل لها ، وتجرد لا يشرك بهذه الغاية أية أمنية أخرى مهما كانت عزيزة ، اخلاص يحدده ذوبان النفس فى هذه الغاية وامتزاجها بها امتزاجا كليا بحيث لا تظهر للداعية أو المجاهد خصـــائص وميزات الا وهى آخذة من نبع هذه الغاية أو متجهة اليها ، أو مرشدة الى ناحية من نواحيها ، أو دالة على سبيل من سبلها ؛ وتجرد يعبىء حـواس البدن كلها ويحشد قواها لخدمة هذه المبادىء ، فلا يكاد الداعية يهم بعمل كبير أو صغير الا وأمامه مبادئه وغايته تناديه وتلح عليه فى النداء وتكون ملء سمعه وبصره ٠

هذان هما : « الاخلاص والتجرد » فى صورة واحدة لمعناهما ، وهى صورة واحدة لا تتعدد ، فقد تقبل بعض الحقائق أو الكثير منهـــا قـاعدة التعدد ، بمعنى أنها تكون ذات صور وأوضاع فى النفس الواحدة تتكيف فى كل صورة بظرف من الظروف ، ولكن حقيقة واحدة لا تتعدد صـــورتها فى النفس الواحدة ولا تتكرر ، تلك هى حقيقـة معنى الاخلاص والتجـــرد فى استقرارها فى أغوار النفس ، فهى أمر ثابت لا يقبل الزيادة أو النقص ولا يدخل عليه ارتفاع أو هبوط ، فهو اخلاص أو عدم اخلاص ، وتجرد أو لا تجرد ، ولا شىء غير هذا ولا ثانى له ٠

وبهذا المعنى الدقيق للاخلاص والتجرد سارت دعوة الاخوان فسادت بشخصية قائدها وأملت على الزمن أنشودة الخلود ٠

لا تحسبوا هذا ارسالا للكلام أو حشرا للمعانى ، ولا تظنوه اغتصابا لحقائق غير موجودة ، أو انتحالا لزائف المجد ، واستعارة لكواذب الآمال . فان حديثنا عن قائدنا فى اخلاصه وتجرده لدعوته فى ماضيه القريب وحاضره المشهود ، هو الحقيقة الكبرى التى تسمو فوق الشك ولغو الكلام ، حتى لقد صارت دعوة الاخوان مقرونة بهذا الاسم لا تكاد تفـــرق أحدهما عن الآخر ، ولا يكاد العقل يميز : أى الاسمين علم على الآخر أهى الدعـــوة

تدل على « حسن البنا » أو هو علم عليها ، فاذا ذكرت الاخلاص والتجرد بمعناهما الدقيق فى سيرة الجهاد والمجاهدين فاذكر معهما قيادة الاخوان كمثل رائع لهذا المعنى ، اذكرها فى المقدمة ، وانك لواجد فى تاريخ جهادها ما يرضى العدالة ويرفع رأس التاريخ ·

تلقت قيادة الاخوان الاسلامية هذا من القرآن ومن سيرة الأنبياء فاقتدت بهم وسارت على هديهم ، وسيرتهم عليهم السلام مملوءة بالمثل المجيدة فى هذا ، والقرآن مملوء بالاشادة بذكر المخلصين المتجردين ، والحث على الاخلاص والتجرد : « **قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين · لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** » (١) « **وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** » (٢) « **انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا** » (٣) · والقرآن يغالى فى طلب الجهاد والحث عليه ولا يتهاون فى ضرورة تحقيقه ، نلحظ ذلك فى الآية الكريمة « **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم · تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون · يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم · وأخرى تحبونها ، نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين** » (٤) وما هذه المبايعة وما هذا الترغيب كله الا طلب الاخلاص والتجرد فى الجهاد ، والا فماذا يكون الجهاد بالنفس والمال ان لم يكن اخلاصا وتجردا ؟!

وفى آية أخرى « **قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين** » (٥) فما هذا الا التنكيل بغير المتجردين للجهاد والمخلصين لغايتهم وانذارهم ؛ هذا هو الجهاد أيها الناس وهذا هو معناه فى الاخلاص والتجرد له ، فكيف حرفتموه وجعلتموه وسيلة لجر المغانم ، واقتناء الثروات ، وصورتموه فى هذا التكالب على كراسى الحكم والسعى اليها بطريق مشروع أو غير مشروع ·

ان كلمة الجهاد ، والاخلاص والتجرد له فى مصر تحتاج الى تصحيح ، وتحتاج الى العودة بها الى معانيها الحقة · بعد أن زيفها المضللون وطلاب الغايات وانهم ليسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ، وان فى جهاد قيادة الاخوان تصحيحا لمعنى

---

(١) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ · (٢) البينة : ٥
(٣) الأنعام : ٧٩ (٤) الصف : ١٠ ـ ١٣
(٥) التوبة ، ٢٤

الجهاد ، وتوضيحا لمعنى الاخلاص والتجرد ، نهتف بهذا حقيقة من واقع مشاهد منظور ونقول « **هاؤم اقرأوا كتابيه** » (١) ، ومع ذلك فمازالت طائفة من الذين أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهليـــة ، يقولون ماذا تريدون ، والله سبحانه لم يجعل فى البشر نماذج ليتخذها النـــاس قدوة فى التربية ، ولا أدرى ممن جاءتهم هذه الحجة الســـاذجة ؟ والا ففيم كان ارسال الرسل ؟ انه يكاد يشغل ذهنى وقد حرص القـــرآن على ابراز الناحية البشرية فى نبيه فى كثير من الآيات بوصفه بأنه رجل ٠٠ الخ يكاد يشغل ذهنى مع هذا الحرص أن الله أراد أن يقول للناس هذا بشر مثلكم مثالى فاقتدوا به واتبعوه ، ولم هذا التعسف الذى يصل بنا الى حد انكار مبدأ القدوة فى التربية وهو مبدأ من المبادىء الطبيعية التى لازمت التربية قديما وحديثا ؟ ان القدوة لازمة أيها الناس ووســـائلها مطلوبة ان لم يكن لابراز نواحى الكمال والمثالية والاشادة بما فى حيـــاة العظماء العاملين المخلصين والتحدث عنهم لاتخاذهم نماذج فلتصحيح الأوضاع واعادة المعانى التى ابتذلها الناس الى منازلها التى تحف بها الروعة والجلال ولم يوجد هذا فى العصر الحديث الا فى قيادة الاخوان ٠

أما ما يقال بعد هذا كله فى الرد علينا من أن الله تعالى حين أراد أن يربى نبيه تربية كاملة عرج به الى السماء ولم يقل له خذ العبرة من هذا أو هذا فهى حجة واضحة البطلان ولا نريد أن نخرج عن نطاق بحثنـا بالتعرض لها ٠

وحسبنا هذه الاشارات نســـوقها للذين يبتغون الحق لوجه الحق وحده ، والذين اذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ٠

★ ★ ★

يبقى من الصفات الرئيسية فى المجاهدين الصبر والعزيمة ، والأمر بالصبر فى القرآن كثير فوق الحصر ، وقد أشرنا الى كثير من آياته فيمـا سبق فلا نعيدها هنا ، وهو من لوازم المؤمن المجاهد ٠

يظهر معنى الصبر فى المؤمن بالاحتمال مع الرضاء ، والعزيمة فى الاقدام ، فهما صفتان ايجابيتان قوتهما متكافئة ، نقصد بالايجابية وتكافؤ القوة ، أن صبر المجاهد يعقبه نصر وينتج ثمرة ، وأن عزمه يفتح له أبواب الجهاد فهو صبر ذو الأمل واقدام الواثق بأن وراء هذا الباب طريقا متسعا وهذا الطريق يوصل الى ميدان وهذا ينتهى بدنيا واسعة ٠٠ الخ ٠

هذا هو الصبر فى حياة المجاهد مهما تعددت صوره ، ليس فى كنه حقيقته كالصبر على مصيبة من المصـــائب أو أى أمر آخـــر مما تكره النفس ، ولعل هذه التفرقة التى نقصد اليها واضحة ٠

---

(١) الحـاقة : ١٩ ٠

قد تصبر على الأمر وأنت واثق أن هذا الصبر ليس فى حقيقته طريقا الى أمر آخر أرحب منه ، فأنت تصبر على المفقود والمسلوب الذى لا رجعة له ويكون صبرك مشكورا ولكن ليس هذا صبر المجاهد ، انه صبر الأفراد فى حياتهم العادية ٠ وليس كذلك صبر المؤمن المجاهد الذى يتصدى لقيادة النهضات وتربية الأمم وسياسة الناس ٠

وحياته صلى الله عليه وسلم فى صبره أمثلة نادرة لم تر الدنيا ولم يسمع التاريخ بمثلها ، كم أوذى واضطهد فقال « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » ويضيق بنا المقام لو أردنا استقصاء الحوادث وتتبعها من سيرة جهاده صلى الله عليه وسلم ٠

وبهذا السلاح الماضى من معنى الصبر والعزيمة تخلق المجاهد « حسن البنا » مقتديا بنبيه سائرا على النهج القويم من توجيه القرآن فبلغ بهما توفيقا ونجاحا لم يدركه أحد من معاصريه لأنهم انما ساروا هكذا من غير أن يتبينوا معالم الطريق ويتسلحوا بما يطلب من أسلحة ٠

ان ما لقيته الدعوة الاسلامية منذ ظهورها الى اليوم ، وما واجه « حسن البنا » من مناوآت وغدر وخيانة ، وما قام فى سبيله من المشاكل والعقبات ، ففى كل ساعة مناوأة ، وفى كل لحظة خطط وتدابير ومقاومات والرجل يواجه هذا كله بصبر عجيب وأعصاب حديدية ، وهو بعزيمته يقدم بثبات وطمأنينة ، وبهذه الصفات كلها صارت دعوة الاخوان الأمل المرجى ، وصار « حسن البنا » قائد الملايين فى مصر والشرق العربى ، بل فى العالم الاسلامى كله ، ويحار الناس ويعجبون متى وكيف وبماذا شيد هذا البناء الضخم العتيد ؟ وكيف وصل « حسن البنا » الى هذا النجاح ، ويتساءلون مندهشين لأنهم لا يعرفون عدة النصر ولا خلائق الايمان ولا صفات المجاهدين ، ولأنهم لم يتعرفوا بقرآنهم ولا بأديانهم ، من أجل ذلك هم يتساءلون عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون ، كلا سيعلمون أنها كلمة الله النافذة ، وارادته القاهرة ، « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** » (١) « **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين** » (٢) ٠

★ ★ ★

---

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) القصص : ٥

ميزات

« وبعد » فها هى بعض الصفات فى شخصية « حسن البنا » حقائق كاملة متصرفة ، ومعانى بارزة واضحة ، فما نصيبها فى جهـــاده وكفاحه ومبلغ ظهورها فى سيرته وأعماله ؟ هذا الشاب الذى نشأ فى جو اســلامى خالص ، والذى ربته البيئة الاسلامية واحتضنته حتى ليقول بحق : « أبى الاسلام لا أب لى سواه » ٠٠ كيف انطبعت آثار تلك المعانى التى أشرنا اليها فى جهاده ؟ لعله سيظن أن الاجابة على هذا السؤال قد مرت فيما قصصنا وفيما مر من الحوادث ، ولكننا نقول : لا ٠٠ ، فان ما مر ان هو الا معلومات أولية حاولنا أن نتعرف بها الى شخصية فذة فى التاريخ الحديث ، وبدأنا هذه المعرفة فعلا ، وبقى أن نتعمق فى هذا التعارف ، وأن نلقى هذه الشخصية لقاء معرفة فنجلس اليها ونطيل الجلوس ، ونأنس بها ونأتلف معها روحيا ، ونتآخى معها أخوة تسمو فى معناها وفى حقيقتها ، وفى مظاهرها وأشكالها، وفى تواصل أسبابها وبقاء رابطتها ونمائها ، تعلو فى هذا كله عن المقــام الذى تتناوله الأقلام ٠

عملنا فى هذه المحــاولة هو اتمام التعــارف كجزء من الاجابة على السؤال السابق وهو الذى سيستغرق منا الأجزاء العشرة من هذا الكتاب (١)٠

فحسن البنا كفرد فى المجتمع الخاص والعام هو الذى تصافحه فتطل عليك ميزاته ، وتجلس اليه فتؤنســـك هذه الميزات ، وتتحدث معه فيخاطبك طابعــه ، وتفارقــه فيوحشـــك هــذا الطـــابع ويجذبك ، لأنه بميـزاته وبطابعه قد ترك فى نفسك أثرا قويا لا تقوى على مقاومته ، فأنت اذا لقيته أو فارقته متأثرا به بلا ارادة منك وبلا طواعية وقد ألقى هــذا التــأثر الى نفسك وأقنعك أنه ليس فردا عاديا ٠

وانما يكون العبقرى فى مجتمعه الخاص هكذا له ميزة خاصة وطابع معين ، وهكذا كان « حسن البنا » فهو منذ نشأته ومن حداثته له طابعه وله ميزاته ، وهو بعد اذ برز الى ميدان جهاده تظهر شخصيته الحقيقية فلا تبقى له فى مجال الفردية بقاء :

وان له على كل حال حياته الفردية التى لا تستطيع انتزاعها منه أو انتزاعه منها ، له حياته الخاصة مهما كنت ذائبة فى محيط العمل العام ، وهذا هو المنطق الذى ينبغى أن يحسب حسابه ، وانما الميزان فى الغلبــة بين ناحية الفردية الخصوصية والجماعية العمومية ، وفى الايثار القــائم بينهما كنتيجة من نتائج الاخلاص والتجرد اللذين أبنا حدودهما فيما سبق ٠

---

(١) كان فى نية الأستاذ المؤلف — رحمه الله — أن يصدر هذا الكتاب فى عشرة أجـــزاء ٠٠ ولكن وافاه الأجل ، فلم يصدر منه ســـوى هــذا الجزء ٠٠ (الناشر) ٠٠

انما الميزان فى أن يؤثر الداعية الحياة العامة على الخاصــــة ، وأن ينسى هذه الحياة الخاصة تبعا لهذا الايثار واذعانا لحكمه ، فهو يحلق به فى سماء عالية من عبقرية نفسه وذهنه ، تسمو عن أوضاع الناس فى تقديرها لمعانى الحياة الخاصة وقياسها ، وتكييفها والمتعة بها ، فلا يشـــعر بهذه الفردية الخاصـــة وبمطالبها الا حين يفاجئه الواقع بأنه فرد فى المجتمع يعيش بين أفراد عاديين هم الأكثرية فى هذا المجتمع فيقبـل على أعمـــاله الفردية من غير أن يتخلى عن طابعه أو تفارقه ميزاته ، وهذا هو « حسن البنا » الفرد فى مجتمعه الخاص ، هكذا كان بين أهله ، وهكذا كان طالبـا بين زملائه ، وهكذا كان موظفـا ، وهكذا كان رب أسرة ، وهى نواحى قد قلنا انه من الصعب العسير أن نفردها بصفة خصوصية ، وان من الغبن أن تتميز بأشكالها ورسومها • ولكن مع هذا كله ، ومع هذا الاختلاط أو التزاوج الذى يصعب معه التمييز ، فان « حسن البنا » فرد كالأفراد الخصوصيين فى وظيفته وفى أسرته وهو يباشر شئون هذه الفردية كأكمل وأتم ما تؤدى به من أى فرد آخر ، وهذا الباب من ســـيرته حافل بالكثير الرائع مما ينبغى الوقوف عنده لتؤخذ منه القدوة ، ولكن هذا المقام لن يتسع لهذا كله ، وانما نريد أن نقول ان « حسن البنا » زاول أعماله الخاصة كفرد ولكنه كان يؤثر غايته العامة فلم يقض أجازة من أجازاته السنوية الصيفية بين أهله وأسرته ، ولا قضى بينهم عيدا من الأعياد كذلك الا نادرا ، لأن هناك عملا آخر ينتظره فى ميدانه العام ، فى ميدان الجهاد للدعوة ، فتبرز حينئذ ناحية الايثـــار وتؤدى وظيفتها ، ماذا أقول ؟ أفأتحدث عن الأعيـاد والمواسـم وعن أيام العطلات ؟ أفأتحدث عن هذا كله وأنسى ليلة كان فيها ابنه الصغير فى فراش المرض وقد قضى أياما متوجعا يقاسى الآلام ، والوالد منصرف الى عمله فى دار الاخوان وجهاده من أجل فكرته ودعوته يواصل الليل بالنهار من نحو أســـبوعين أو أكثر والظرف يحتم أن يرى الوالد ابنه وأن يلازمه ويباشر علاجه ، ولكن كيف تحظى هذه المهمة مهما كانت بايثار قائد تجرد لدعوته ؟ وفى جوف الليل يقضى الله قضاءه ويطلب من الاخوان أن ينعوا الابن الى والده ••

يالله •• وأين الوالد ؟ انه فى كتيبة اخوانية يلقى الدرس للاخوان ، فمن هذا الذى يقوى على انهاء هذا الخبر اليه ؟ تشجع واحد منهم واستطاع أن يلقى اليه الخبر بطريقة تخلص بها من هذا المأزق وبعد أن تصرف أيضا فى طلبه من اجتماع الكتيبة فماذا جرى وماذا كان تصرفه ؟ لقد ســمع الخبر وكأنه لم يسمع شيئا ، قال : انا لله والحمد لله على قضائه • وعاد الى درسه يتمه رابط الجأش واختلس لحظات ذهب فيها الى المنزل وعاد مسرعا ليقضى بقية الليل مع الكتيبة ويؤدى صلاة الفجر ويلقى درس الصباح •

فأى معنى للايثار يريد الناس أبلغ من هذا وأروع وأكرم ؟ وهذه واقعة على سبيل المثال لا الحصر ، ولو أننا أردنا أن نعد آلاف الأمثلة لما فرغنا من ذلك ولكننا نكتفى بهذا وحده ، وما ســـقناه لنفاخر ونباهى أو ليقف عليه الناس فينال اعجابهم ويحظى بتقديرهم ، فان أستاذنا قد تجرد من غايتـه فى جهاده لله وحده ، ونحن معه لا نريد أن نقتحم هذه النواحى المستورة من

جهاده الا بقدر ليعرف الناس أين هم من أخلاق الجهاد والمجاهدين ، وأين هم من مكان القيادة ، وليستيقن الذين أوتوا العلم ويزداد الذين آمنوا ايمانا وليعرف الجميع أن « حسن البنا » لم ينتحل المجد انتحالا ولا ادعاه ادعاء ، ولكنه اللواء انعقد لصاحبه ، والراية تسلمها قائدها ٠

هذا هو «حسن البنا» الفرد فى مجتمعه الخاص يؤدى تكاليفه وينهض بواجباته فيه على أكمل وجه ، فاذا تصادمت مصلحة خاصة مع مصلحة الدعوة أو تزاحمتا ، كان الايثار للعامة ، وهو فى هذا المجتمع الخاص هو هو بميزات نفسه الواضحة ، وطابعها البارز المتحكم ٠

هذه واحدة من الصفات العملية التى نطالعها فى حياة « حسن البنا » ، ثم هو بعد هذا فى المجتمع العام ، مؤمن يصرفه ايمانه ويوجهه ، وانما صرفه عن الفردية ومازه عن الأفراد ، وجعل لنفسه طابعها هذا الايمان الذى جعل له هدفا غير أهداف الناس وغاية غير غايتهم ، وليس هناك من فارق بين الرجل الاجتماعى والفردى ، أى الفرد الخاص والفرد العام الا هذا الايمان ، على أنه ينبغى أن يكون محددا أننا نقصد بالفرد العام هذا الرجل صاحب الدعوة ، الذى وقف جهوده على الأعمال العامة والعمل للناس والمجتمع ، وليس عملنا ههنا أن نتعرض لحياة قائدنا الخاصة أو العامة لنسردها كأعمال الا على قدر نلقى به ضوءا نتعرف به الى شخصيته تعارفا وثيقا مستمدا من سيرته العملية فى هذه الحياة ، وينتقل بنا هذه الى أن نرافقه فى فترة من فترات جهاده ونلازمه فى سياحة نقطع بها معه مرحلة من مراحل كفاحه ، ليعرف من عرف عن بينة ، وليعلم الذين لم يتعرفوا الينا أن قيادتنا عقل جديد لم يعرفوه بعد ، ومعنى جديد لم يدركوه ، وأن سر هذا البناء العتيد الذى يدهشهم ، وهذا النجاح العجيب الذى يروعهم ، يفسره قيام هذه القيادة ، وهذه الروابط التى تؤلف بينه وبين جميع جنده وتلامذته ٠

ان أول صلة قامت بين « حسن البنا » وبين أصغر صغير فى تشكيلات الاخوان المسلمين هى ــ صلة الأخوة ورابطتها ، وهى صلة أسبغها هو على اخوانه من روح نفسه معنى يرويه هذا الحب المتبادل ، حبا فى الله ٠

هى الأخوة الأساس الأول ، والركن الأقوى فى بناء هذا المجتمع الاخوانى يمثل فيه « حسن البنا » الأخ الأكبر ، وهو يهب قلبه ويفتح نفسه لهؤلاء الاخوان جميعا ، ويشعر حقا بأنهم اخوته ، وهم يبادلونه هذا الشعور الصادق والحب العميق المتبادل ، وبأحكام هذه الصلة الروحية وقانون هذا الحب يعاملهم ويعاملونه ، وكثيرا ما يطغى تيار هذا الحب ويكاد يفسد ما يسميه بعض الناس « نظاما » ولكن أخوة « حسن البنا » لا تعترف بهذه الخرافة المسماة نظاما وتقاليد مرعية ، وأية قوة يمكن أن تقف فى وجه هذه الأخوة وهى لا حدود لها ؟ وأى حائل هذا الذى يمكن أن يحول بين الأخ وأخيه ولا يدع هذه العلاقة الأولى التى جمعت هذه القلوب

وألفت هذا الجمع ، أى حائل هذا الذى لا يدع هذه العلاقة تتصرف كيفما تشاء ؟

ان لحسن البنا أعماله الكثيرة التى يباشرها فى مكتبه وله مقابلاته الخاصة ، وعليه أعباء تحتاج الى التفرغ والتفكير ، وعليه ٠٠ وعليه ٠٠ وهو يباشر هذا كله فعلا ، ولكن لهذه الأخوة سلطانها وسطوتها ، ولهذه العاطفة الروحية احترامها وهيبتها ، ومهما تحكمت هذه الأخوة وأفردت لنفسها نظامها المستقل فهى تعرف واجبها ، وهى تدع لأخيها الأكبر فرصة راحته وتفرغه لأعباء أعماله ، وكثيرا ما يخيل لبعض القاصرين أن هذه العاطفة تطغى على وقت راحة الأخ الأكبر وأن الخير كل الخير فى وضع حد لها ٠

والأمر كذلك فى الظاهر ، ولكن هذا الأمر ليس مما يعالج بظواهر الأمور التى يتعامل بها الناس ، انها مسألة روحية ، وجانب الاخلاص فيها وهو موفور يهب للأخ الأكبر قوة وعزما ، ويشيع فى نفسه تيارا دافعا ٠

صحيح ان للطاقة البشرية حدودها ، وكل أمر جاوز الحد انقلب الى الضد ولكن ما لهذا كله فى الأعمال الروحية القلبية ، أرواح متجاذبة ، وقلوب مؤتلفة متحابة ، فلماذا يتعبها اللقاء وهى أبدا متلاقية متقاربة متواصلة وأى عمل للحواس هنا ؟

كثيرا ما يعجب البعض من رواد دارنا حين يرى عاملا من العمال يقدم بكل عزة ووقار ويسأل عن المرشد أموجود هو أو غير موجود ثم يستأذن ويأخذ طريقه الى المكتب ويدهش أكثر وأكثر حين يراه يعانق المرشد ويأخذ مكانه بجانبه ، ويسئل عنه بعد ذلك فاذا هو واحد من الاخوان فى شعبة من الشعب ٠٠ !

لا تراعوا أيها الحائرون فهذه هى الأخوة الاسلامية ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم هكذا بين أصحابه يسأل عن الصغير منهم والكبير ولا يفرق بين أحد فى معاملته اياهم لا صغير عنده ولا كبير ولا عظيم ولا حقير ، وانما ساد « حسن البنا » دون غيره ونجح وانتصر حيث أخفق الآخرون لأنه أخذ عن رسول الله ، وتلقى عن الاسلام ، فهو يسعى الى اخوانه حيث هم يتعرف شئونهم ويدرس أمورهم ، ويعنى بشكاياتهم ومطالبهم ، وهم يفدون عليه أفرادا وجماعات يلقون اليه بذات نفوسهم ، ويفضون اليه بدخائل قلوبهم ، ويجدون منه كل عطف ورعاية ٠٠ فهل يتصدع بناء يقوم على هذا الأساس ؟

لا كلفة بين الأخ الأكبر « حسن البنا » وبين اخوانه ، ولا حجاب ، لكنما هى أخوة بمعناها الواسع المدى ، فلا تكاد تلحظ من فارق بينه وبين اخوته الا فيما تشعر به من أنه أكثرهم عبئا وأثقلهم تبعة ، وأن الجميع ينتهون اليه بآمالهم ، ويفزعون اليه بآلامهم ، وهو يقطع المسافات اليهم اعترافا بحق هذه الأخوة ورعاية لها وكله شعور بحبهم حبا يدفعه اليهم

دفعا وينسيه راحته وكل ما عداهم فى الحياة ، وان مفاخر هذا السـجل فى صلة « حسن البنا » باخوته لتحوى قصصا ممتعة وطرائف عدة يرويها التاريخ بالفخر والاعجـاب ، ان واقع تاريخنـا الحاضر المشـاهد غنى بالحقائق الناصعة أيها الناس فنحن لا نحملكم على باطل ، بل اننا نجتزىء المقال وعلى الذين لم يعرفونا بعد أن يأخذوا طريقهم الى دورنا وأن يتآخوا معنا أخوة أساسها هذا الحب الخالص العميق تضـمنا جامعته ، وتنظم علاقاتنا وروابطنا أحكامه ،

ان رابطتنا الأولى أيها الناس أخوة لا تعرفها مجتمعاتكم ولا صلاتكم وروابطكم ، أخوة جامعة تؤلف جمعنا فى مجتمعنا الاخوانى الخاص ، ثم هى كذلك تربطنا بالناس لأنها من نبع الأخوة الاسلامية ، فنحن فيما بيننا اخوة متكافلون نعرف حق الأخوة ونشعر به ونرعاه لاخوتنا فى الدين وفى الوطن والانسانية ، لأن طبيعة مبادئنا هكذا انسـانية عالمية ، وهى جاءت لتنظيم واقع الحياة فى المجتماعات ، فوضعت العلاج لشـئون المجتمعات على ما ينتظر أن تكون عليه ، وأن تقوم فيه الحياة على أساسه ٠

هذه هى صلتنا بالمجتمع الانسانى كلهكاخوان مسلمين كماربانا عليها أخونا الأكبر ، صلة ومرحمة وحب وولاء وايثار ، وهو فى هذا كله نموذج حى قائم بيننا يرشدنا عمليا الى أصول هذه الأخوة ، وسيرته فينا ، ومعاملته ايانا هى دستورنا وقانوننا ، ومهما حدثناكم عن « حسن البنا » الأخ فلن نبلغ من هذه الحقيقة ايضاحا لأن الأخوة انما هى حقائق عملية ومشاعر روحية ، لا تصور بالألفاظ وترسـم بالحروف وانما يذاق معناها ذوقا ، فالى الذين حرموا هذه النعمة السابغة ، ولم يتذوقوا طعمها بعد ، وما يزالون تائهين فى أثر الزعامات المتغطرسة والضلالات العاتية المتعالية ، أن يأخذوا طريقهم الى مكانهم الطبعى فى أمتهم فى صف الأخوة الاسلامية ٠ وقد انقضى عهد الحيرة والتردد والفرقة والانقسام وأصبحت الأمة فى حاجة الى تعبئة قواها جميعها فى ظل هذا اللواء السـمح الذى تكفل برعاية الجميع مهما كانت ألوانهم ومشاربهم وأديانهم وأجناسهم ، ولم يبق للانتظار والتردد محل بعد ما آل اليه أمر الأمة على يد الأحزاب والزعامات ٠

فها هى يد الأخوة الاسلامية يبسطها لكم « حسن البنا » وهو أخ مثلكم له ما لكم وعليه ما عليكم فهلموا الينا وقد عرفناكم بقواعد هـذه الأخـوة وأصـولها مبـادىء ونظريات ، فتعالوا وتحققوا بهـا وقائع وعمليات ، وها قد بلغنا وأعذرنا الى الله وأبرأنا ضمائرنا من التبعة ، أما نحن فاننـا سـعداء بأخوتنا ، أغنياء بها ، أقوياء بروحها ، وهى حسبنا زادا وذخيرة فى هذه الحياة ، ولقد حققنا عمليا وواقعيـا ما عجز عنه الناس ونسـوه منذ قرون ، فـ « **تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله** » (١) ، ونشعر بأننا جميعا متكافلون مترابطون » **ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون**

---

(١) آل عمران : ٦٤ بلفظ : « **تعـالوا** ٠٠٠ »

الله » (١) فان آمنتم بمثل ما آمنا به فقد اهتديتم ، وان توليتم فانما أنتم فى شقاق ، و « الله اعلم حيث يجعل رسالته » (٢) ٠

★ ★ ★

هذا هو « حسن البنا » الأخ فى مبادىء أخوته التى رسمها كمبدأ وقانون ، وهو صورة عملية لها ناطقة بالاعجاز ، ولا نكتب هذا الفصل من هذا الكتاب لنستوعب تصوير الحقائق العلمية لأخوته بين اخوانه تصويرا دقيقا فمن أراد استقصاء هذه الحقيقة فأمامه شعب الاخوان ٠ وليس الخبر كالعيان ٠

اذا كنت قد عرفت « حسن البنا » الأخ مثالا فى أخوته بين اخوانه فى فهمه لرعاية حقوقها وتقديسها واشاعة روحها فى صفوف الاخوان ليبقى هذا الصف متماسكا قويا ، واذا تصورت هذه الرابطة الروحية العجيبة تنظم مجتمعا يقوم فى كل بلد وفى كل قرية على قلوب متواصلة متراحمة وهذه المجتمعات كلها تلتقى بقلب واحد يمدها بأسباب الحياة ومثلها كمثل الجسد الواحد تماما ، حياته تستمد من هذا القلب ، وهذا الروح فرد فى هذا المجتمع نفسه ، فهذا هو التصور الذى يمكن أن يقدم لك « حسن البنا » الأخ بين الاخوان المسلمين وأن يدلك عليه ، أخ للعامل والزارع والمهندس والمعلم والطبيب والمحامى ٠٠ الخ ٠ فاذا عرفته أخا من سيرته العملية ، فلا تظن أنك قد التقيت بشخصيته وتعرفت بها حق المعرفة ، فاذا كان « حسن البنا » الأخ هو القلب الذى يفيض حبا وحنانا وهو الروح الذى يرف على الجميع ، وتسيل منه الرقة وينساب منه اللطف واللين ، وكل ما عرفت الأخوة من لغة التخاطب فلا تظن أن هذه هى كل ميزات « حسن البنا » واذن فتعال معى وقد صافحناه أخا أن نتحدث اليه مؤمنا بين هؤلاء الاخوة المؤمنين الذين جمعتهم الأخوة وربطت بينهم برباطها المحكم على أساس وثيق من صلة محكمة بايمان مطلق بمبادىء سامية وأهداف مجيدة وغايات رفيعة ، فما مكان « حسن البنا » فى هذه المجموعة المؤمنة ؟ أنقول انظروه فى الذروة والقمة وقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ؟ ان ايمان « حسن البنا » أيها الناس هو السر العجيب الذى سرى سره على ضفاف وادى النيل واخترق المدن والقرى وجاء للناس بالحقيقة الكبرى التى تسخر من المادة فى القرن العشرين وتقول للناس هذا هو الايمان فى معنويته لا تعترضه هذه القوى المادية مهما تسلحت ومهما كان لها من سحر ورهبة فى أعين الناس ٠

« حسن البنا » المؤمن هو ذلك الشاب الذى فكر فى أمر أمته ومستقبلها وشأن مجتمعه فى وقت انصرف فيه الناس عن هذا كله وحادوا عن المبادىء

---

(١) آل عمران : ٦٤ (٢) الأنعام ، ٢٤

القويمة وانحرفوا عن الايمان بالمثل العليا ويئسوا من مستقبل الأمة والنهوض بها ؛ الناس مغمورون بهذه الغفلة سادرون فى الضلال والضلام غارقون فى المتع والشهوات ، وهو يذكر الاســـلام فى نفسه وينادى بمبادئه نظاما اصلاحيا للمجتمع ، ويظل هذا الايمان فى نفســـه فكرة مسيطرة وأملا موجها حتى تواتيه الفرصة العملية فيبرز الى ميدان الجهاد والكفاح ويتصدى لمهمة الدعوة الى مبادىء الاسلام بروح وثاب وعزم صادق لا يعرف اليأس ولا يقر ما اصطلحت عليه نواميس الناس ٠

حسبك أن تلقاه وسط الاخوان ، هذه المجموعة المؤمنة التى تستـمد من جنانه ووحى ايمانه وتشعر بهذه القوة تتدفق منه ، وترى نفسا كبيرة تزخر بأمواج الأمل وترحب بكل معضلة وتفسح الصـــدر لكل مشكلة ، ما تطرق اليهـــا يأس أو ملل ولا لانت أو انحرفت ، كم أطبقت الأزمـــات من كل حدب وصوب وأقبل الباطل بخيله ورجله ، وقام صراع زاغت فيه الأبصـــار وبلغت القلوب الحناجر وابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، وقال الذين فى قلوبهم مرض قد تحطم هذا البناء وانهار وظن جند الباطل أن لا قيـــام لدعوة الحق ، وأن هذا الصوت سيخفت ويضعف ، ولكن « حسن البنا » بايمانه وثباته واطمئنانه ، وبشخصيته القوية التى تستمد من هذا الايمان لم يتزعزع ولم يتسرب اليه ضعف أو وهن ، ولكم تحدى الباطل بصولته ونازله وقاومه وانتصر عليـــه وهزمه وهو أعزل الا من سلاح الايمـــان وقوة اليقين

هذا هو الايمان الذى كون الآلاف مما تراه من دور الاخوان المنبثـة فى أرجاء مصر ، وهو الذى ربى عشرات الألوف من الشباب على البـلاء الصادق والجهاد الباسل والفناء فى المبادىء وحب الشهادة فى سبيلها ؛ وهو الذى اخترق مصر الى الأقطار العربية الاسلامية ، وهو الذى طـرق مسامع كل قطر اسلامى ؛ هذا هو « حسن البنا » المؤمن فهـــل تظنه تقلد سنام مجده بيأس وراحة أو دعة وخمول ؟ لا ٠٠ انه بايمـــانه الحـركة الدائبة فى تنقله من مكان الى مكان ، واتصـــالاته بالناس من كل الطبقات وأمله فى الشعب ويقينه فى النهاية من النصر فقد كان له ما أراد ، ولن يكون للمؤمن دائما الا ما يريد لأن الايمان للمجاهد هو الضوء الذى يرسم الطريق ويوضح معالمه فيسير فيه حتى يبلغ هدفه ٠

هذه شعب الاخوان المنتشرة من الاسكندرية الى أسوان كم تحتاج من الوقت والجهد لادارتها والاشراف عليها وتوجيهها ، وأية قوة جبـــارة يمكن أن تسيطر على هذه القوى جميعا بتوجيه موحد من نظـــام محكم بادارة حازمة بحيث لا تتصرف قوة منها الا فى اتجاه القوى الأخرى وفى حركة معاونة لها لا تشذ منها واحدة ولا تحيـــد ، انما ينظمها ويشرف عليهـــا ويوحدها ويديرها ويوجهها ويضبط نظامها هذا الايمان الذى لا يعـــرف الحدود ولا يخضع للأنظمة والقيود ٠

لا تقولوا خبرة وكفاءة ، ولا تقولوا غزارة علم وسعة تجـارب ، ولا تذكروا حب الكفاح والنضال والاقبال على العمل ، ولا تذكروا أى خلق آخر من خلائق المجاهدين أو تتحدثوا عنه ، فهذه كلها انما هى وليدة الايمـــان وهى ثمرته ، هو الذى يربيها ويخلقها ويبعثها ، وهو الذى يحكم تصريفها ويهبها الحياة ، هى الايمان فليتسلح به من لم يعرفه وليحكم صلته بأسبابه ليدرك غايته من النجاح ؛ • فان التقيتم بعد ذلك بايمان « حسن البنا » فى ميدان جهاده قوة قاهرة وعرفتموه حقيقة ســـاطعة تناديكم بأن لا بقاء الا للأصلح ، فخذوا هذه الحقيقة درسا نافعا وعبرة بالغة وتلقوها قصـــة من قصص المجد والتضحية والفداء •

« حسن البنا » هو الأخ الأكبر وهو المؤمن الاول فى مجتمـــع قانونه الأخوة وعدته الايمان ، ومن روح هذا القانون وقـوة هذه العـــدة تكونت وتكيفت شخصية « حسن البنا » المجاهد • فتعال نلقاه فى ميدان الجهـاد العملى •

هو ذلك المكافح الذى يواصل الليل بالنهار يكد ويكدح من غير أن يجد التعب الى نفسه طريقه ، ومن غير أن يلحقه ملل ، بصبر عجيب ونشاط غير مألوف ، وعزيمة ماضية وأعصاب يقظة ؛ يعجب الذين يتاح لهم أن يروا طرفا من هذا المجهود الضخم الذى يبذله ويدهشون ، ويشفق أكثرهم عليه وينحون باللائمة على الاخوان ويهيبون بهم أن أريحوا أستاذكم أيها الاخوة فان ما نراه فوق طاقة الرجال ، ومعذورون هؤلاء فانهم لا يعلمون •

انهم لا يعلمون ولا يرون ما نعلم وما نرى ، هم لا يعرفون ولا يـرون أن قائد الاخوان كثيرا ما يظل طول ليله فى راحته النفسية بمواصلة عمله لجهاده فى فكرته لا يكاد يخلد الى راحته البدنية الا قليلا ، وعلى القـــدر الذى يأخذ فيه قسطه من اراحة الأعصاب والأعضـــاء ، وهو ان نام قبيل الفجر استيقظ فى وقته لأداء الصلاة وقراءة ورده القرآنى الذى لا يشـغله عنه شاغل فى سفر أو حضر أو سجن أو اعتقال ، فاذا ما واصل عمله الى الفجر فانه ينام من قبيل الشروق الى الضحى أو يواصل العمل وينام فى وقت الظهيرة وهكذا ، وفى فترة الضحى هذه أو فترة الظهيرة ينـــاديه الهاتف (التليفون) مرات ويلح عليه وكثيرا ما يقطع عليه راحته •

وقائد الاخوان المسلمين هو الرجل الذى تســتبيح الأخوة وأعبـــاء الجهـاد أن تسـتدعيه من الطعام لمعضلة لا يحلهـا غيره أو أمر لا يصرفه سواه ، يحدث هذا وأكثر منه والناس لا يعلمون ، ويحسبون أن هذا البناء الضخم بنى بالنوم والراحة •

أما عمله فى دار الاخوان فهـو الاشراف التـــام الدقيق على الكبير والصغير من الشئون ، يعرض عليه رؤساء الأقسام الأعمال ويتلقون توجيهاته فيها، ثم يقابل وفود الاخوان وغير الاخوان ، ولا تكاد تجد له من فراغ منذ أن

تطأ قدمه الدار الى أن يخرج منها ، وما تراه من هذه الأعمال يكاد يكون « على الهامش » فهذه المقـــابلات والاتصـــالات وتصريف الأمور الادارية والروحية ، وشئون الدعوة الخاصة والعـــامة ، هذا كله من الأمور التى يصرفها قائد الاخوان تصريفا عاديا لا يحتاج منه الى جهد وتفكير ، وهناك من أمور الدعوة العامة ومشكلاتها ومعضلاتها ما يستأثر بحمـل عبئه من حيث لا يدرى الناس ولا يشعرون ؛ هذه هى الأعمال العادية المجردة التى تستطيع احصاءها لو رافقت قيادة الاخوان ، ويدهشــك وأنت تتبعهـــا ما تستنفد من وقت وجهد ، ويدهشك أكثر أن يسميها الاخوان فيما بينهـم عادية حتى ليدفعك هذا الى الاستفسار الملح ماذا تكون الأعمال غير العادية اذن ؟ لا يقصد الاخوان بالأعمال غير العادية هـذه المقابلات فى صـميم الدعوة كمقابلة خاصة لوفد من الوفود قادم من بلد أو قطر اسـلامى يلتقى بقائد الاخوان ليتلقى مبادىء الدعوة أو نحو ذلك من الأعمال ، ولكنهـــم يقصدون بها تصريف الأمور العامة للدعوة ومراقبة ســيرها فى المحيط العام ، وللدعوة بين كل ساعة وساعة ظروف تجد ومشكلات تعرض ، وتيارات خاصة تهب من هنا وهناك ، وزوابع وأعاصير ، وليس لهذا كله الا ذلك العقل الحكيم والنظر الصائب ، أما فى أسفاره فأمره عجب ، وقل للذين يعجبون ويدهشون مما يرون من أعباء العمل هنا أن يرافقوه مرة فى سفر من أسفاره ليقفوا على معجزات ايمانه ، وليؤمنوا معنا بسر الايمان من روح الله يهبه لعباده المؤمنين ويجعل لهم منه قوة خارقة ، والا فما هذا المجهود الجبار ؟ الا أن يكون نفحة من نفحات الايمان ، وسرا من أسرار الله ؟ اذا كان قائد الاخوان لا يفرغ من عمل فى الدار الا لينتظره عمل آخـــر ، ولا ينتهى من اجتماع لجنة الا ليرأس لجنة أخرى ، ولا يودع وفدا أو زائرا الا ليسـتقبل غيره ، ولا ينتهى من مكالمة تليفونية الا ليبدأ مكالمة ثانية ، فهو فى أسفاره كذلك يباشر مثل هذه الأعمال فى دور الاخوان وشعبهم ودع هذا كله وتدبر معنا أثر تلك المشقات الجسيمة التى يتكبدها فى أسفار متلاحقة تتواصـل من أسوان الى الاسكندرية أو القاهرة فى أيام معدودات ، لا ينال فيهـــا راحة واستجماما ، ذلك المجهود الجبار الذى لا يقوى عليـــه الا من وهب ارادة قوية وعزما خاصا ، فهو فى صلاة الفجر فى بلد ، وفى الصـــباح الباكر أو الضحى فى بلد ثان ، وفى صلاة الظهر أو العصر فى بلد آخر ، وفى المغرب أيضا فى بلد ، وبعد العشاء فى بلد غير هذه جميعا وهكذا مجهود شـــاق محال أن يحتمله الرجل العادى ، وهو فى كل بلد يلقى الوفود من الاخوان وغير الاخوان ويدرس ويحاضر ، ويباشر شئون الدعوة الادارية والروحية ، ويصرف أمورها العامة ويلقى تعليماته على الاخوان فى كل أمر ويتلقى أسئلتهم واستفساراتهم وينظر فى أمورهم ، وقد يلقاهم لقاءات خاصة أو منفردة هذا كله فى ساعات معدودات ، ومن نظرة بسيطة الى جـدول زياراته الآتى تستطيع أن تدرك ضخامة ذلك العبء الذى نعد أنفسنا فى حل من ذكره ، لأنه صار من البدائه ولم يعد خافيا على أحد فى مصر وفى غير مصر أن « حسن البنا » لا ينعم بشىء من الراحة وأنه منذ قام بدعوته وتصدى لقيادة فكرته يقضى وقت فراغه متنقلا فى ربوع مصر وأرجاء واديها،وأنه فى الوقت الذى يكون فيه المتزعمون ومدعو القيادة على شواطىء المصايف فى أوروبا وغيرها ، يرتمون فى أحضان الراحة ، ويستمتعون بالمتع والشهوات

وملذات النفس ، تكون قيادة الاخوان تكدح فى حر الصيف وفى برد الشتاء لا تعرف الا الجهاد لغايتها،والتفرغ لفكرتها،وقد وضعنا أمام القارىء صورة من منهاج زيارته للشعب فى يناير وفبراير سـنة ١٩٤٦ وعهدنا بها قريب وما على الذين يستريبون فى هذا أو يستكثرونه الا أن يتقدموا الينا ليرافقوا أستاذنا فى زيارة من زياراته ليروا رأى العين هذا الذى يقرأونه ويسمعون عنه :

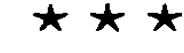
فى يوم الأحد ٩ صفر و ١٣ يناير بالمنيا ، ويوم الاثنين والثلاثاء حفلات بالمركز العام وموعد المحاضرة الأسبوعية ، ويوم الأربعاء ١٦ يناير بمنيا القمح وفاقوس ، ويوم الخميس ١٧ يناير بأبو كبير والزقازيق ، والجمعة ١٨ يناير بالاسماعيلية • والسبت ١٩ يناير ببورسعيد والأحد ٢٠ يناير بالعزيزية، والاثنين والثلاثاء حفلات بالمركز العام ، والأربعاء ٢٣ يناير بالمنصورة ، والخميس ٢٤ بشبين الكوم وطنطا أول ، والجمعة ٢٥ يناير بطنطا ثان ودمنهور ، والسبت ٢٦ بالاسكندرية مناطقها الثلاث والأحد ٢٧ يناير بقليوب وشبين القناطر والاثنين ٢٨ يناير بطوخ وبنها والثلاثاء بالمركز العام حفلات والمحاضرة الأسبوعية •

★ ★ ★

يواصل بعد هذا رحلته فى الصعيد وسنضع أمام القارىء الجدول الرسمى لمنهاج هذه الزيارة ليدرك مبلغ الدقة فى هذا العمل الذى يرتبط بصميم الجهاد للدعوة وليعرف الناس أننا جادون لا هازلون :

اليوم والتاريخ	البلد	الموعد والقطار
الأربعاء ٣٠ يناير	العياط الواسطة	القيام من القاهرة الساعة ١٫٤٥ مساء ويصل الساعة ٣ عصرا القيام من العياط الساعة ٧٫٤٥ مساء ويصل « ٨٫١٥ مساء
الخميس ٣١ يناير	أسيوط البدارى أبنوب	القيام من الواسطة الساعة ٩٫٣٥ صباحا ويصل ٢٫٣٨ ظهرا بالسيارات
الجمعة ١ فبراير	كوم امبو أسوان	القيام من أسيوط الساعة ٢٫١٠ صباحا ويصل ١٠٫٤٤ صباحا القيام من كوم امبو الساعة ٥٫٣٥ مساء ويصل ٦٫٣٥ مساء
السبت ٢ فبراير	ادفو اسنا	القيام من أسوان الساعة ٦٫٥ صباحا ويصل ٨٫٣٨ صباحا القيام من ادفو الساعة ٥٫٢٠ مساء ويصل ٦٫٢٠ مساء
الأحد ٣ فبراير	الأقصر قوص قنا	القيام من اسنا الساعة ٩٫٥٧ صباحا ويصل ١١٫٥ صباحا القيام من الأقصر الساعة ٣ مساء ويصل ٣٫٤٢ مساء القيام من قوص الساعة ٦٫٣٥ مساء ويصل ٧٫٢٠ مساء

اليوم والتاريخ	البلد	الموعد والقطار
الاثنين ٤ فبراير	دشنا نجع حمادى فرشوط	القيام من قنا الساعة ٢٨ر٧ صباحا ويصل ١٠ر٨ صباحا القيام من دشنا الساعة ٣٢ر١ ظهرا ويصل ٢ ظهرا القيام من نجعحمادى الساعة ٦ ر٦ مساء ويصل ٣٠ر٦ مساء
الثلاثاء ٥ فبراير	البلينا جرجا سوهاج وأخميم	القيام من فرشوط الساعة ٥ ر٩ صباحا ويصل ٤٥ر٩ صباحا القيام من البلينا الساعة ٥ ر٣ ظهرا ويصل ٣٠ر٣ ظهرا القيام من جرجا الساعة ٤٥ر٧ مساء ويصل ٣٦ر٨ مساء
الأربعاء ٦ فبراير	طهطا طما أبو تيج	القيام من سوهاج الساعة ٥ ر٨ صباحا ويصل ٥٥ر٨ صباحا القيام من طهطا الساعة ٤٣ر١١صباحا ويصل ٥ ر١٢صباحا القيام من طما الساعة ٥٦ر٥ صباحا ويصل ٣٠ر٦ مساء
الخميس ٧ فبراير	منفلوط ديروط ملوى	القيام من أبو تيج الساعة ٨ ر٧ صباحا ويصل ٩ ر٩ صباحا القيام من منفلوط الساعة ٣٠ر١ ظهرا ويصل ٢ ر٢ ظهرا القيام من ديروط الساعة ٤٤ر٥ مساء ويصل ١٧ر٦ مساء
الجمعة ٨ فبراير	الفكرية سمالوط بنى مزار	القيام من ملوى الساعة ٢٥ر١٠ صباحا ويصل ١٥ر١١صباحا القيام من الفكرية الساعة ٥٢ر٢ ظهرا ويصل ٤٥ر٣ ظهرا القيام من سمالوط الساعة ٧ ر٨ مساء ويصل ٤٢ر٨ مساء
السبت ٩ فبراير	مغاغة الفشن ببا	القيام من بنى مزار الساعة ٢ ر١٠صباحا ويصل ٣٠ر١٠صباحا القيام من مغاغة الساعة ٣٤ر٤ مساء ويصل ٥٦ر٤ مساء القيام من الفشن الساعة ٥٣ر٦ مساء ويصل ١٠ر٧ مساء
الأحد ١٠ فبراير	بنى سويف الفيوم	القيام من ببا الساعة ١٨ر١١ صباحا ويصل ٣٩ر١١ صباحا بالسيارة من بنى سويف بعد المغرب ان شاء الله
الاثنين ١١ فبراير	القاهرة	من الفيوم بالقطار أو السيارة ان شاء الله والله المستعان .



وانا لم نجد عبارة يمكن أن تلم بوصف هذا المجهود الجبار أو تدل عليه أو حتى تقربه الى الأذهان ، الا أن نضع أمام القارىء صورة هذا المنهاج يطالعها بنفسه ، ورحلات المرشد وزياراته دائما هكذا ، فلا يظن أننا قد تخيرنا هذا تخيرا ، فأعمال جهاده كلها على هذا النهج توقعك فى دهشة وحيرة ، نقول اننا لم نجد لكى نوقف القارىء على حقيقة ذلك المجهود العنيف الجبار الا أن نضع أمامه منهاج هذه الرحلة أنموذجا ، ولو أن رجلا عاديا واصل السفر فى هذه الفترة المحددة من غير أن يزاول أى عمل من الأعمال ، واستخدم من وسائل السفر أقلها مشقة وأوفاها بأسباب الراحة لشق عليه أمره وأعياه مجهوده ، فكيف بمجاهدنا يواصله متلاحقا متتابعا ، يقوم فيه بأشق الأعمال على النفوس وأشدها جهدا وعناء ، ووسائل سفره هى ما يعرف الناس تعرضا للمتاعب وازدحاما بالمصاعب ، مع طول الشقة وتبعة أغراض هذه الأسفار وما يؤدى فيها من جلائل الأعمال ، ففى كل بلد وفى كل شعبة وفى كل مكان يلقى المرشد كلمة وتوجيها وخطابا ، ويلقى أسئلة يجيب عنها ويناقش فى أجوبتها ، ويواجه مشكلات ويحل معضلات ويسوى أمورا ، هذا عدا الحفلات العامة ومجهودها ولقاءات الوفود وما الى ذلك من جلسات الاخوان وأحاديثهم واستفساراتهم الخاصة والعامة مما يحتاج الى صبر طويل وحلم واسع ، وما لا يمكن أن يلم بدقائق تفاصيله ذهن ، أو يتاح تصويره للأقلام ، وفترة انتقال القطار من بلد الى آخر من أثمن الفرص لدى كثير من الاخوان المرافقين لأستاذهم فى السفر ، ينفردون به ويستمتعون بتوجيهاته الروحية ونظراته وآرائه ، ويأخذون من ذلك مددا روحيا وافرا يكون لهم أكبر عون وأكمل عدة فى مباشرة مهمتهم كدعاة يحملون عبء التبشير بمبادىء الخير والأمن والطمأنينة والسلام . ويحرص كثير من الاخوان على هذه الفترات السعيدة ويترقبونها بصبر نافد وشوق كبير ، وليس المرشد بأقل منهم سعادة ، فهذه المعانى الروحية من القلب الى القلب ، وهذا هو بعد العودة من رحلة من رحلاته يكتب الى الاخوان شاكرا ومعربا عن صادق شعوره فيقول : « كان من أسعد أوقات حياتى ذلك الشهر الذى قضيته بين الاخوان فى ربوع الوجه البحرى ، وكان يبعث سرورى ما رأيته منهم من غيرة على الحق ، واستمساك بحبل الله ، وقيام على فرائض الدين ، وألفة ومحبة ، ولا أحاول أن أشكركم بهذه الكلمة التى يمليها القلب مشفوعة بأطيب تحياتى لهم وكبير شوقى اليهم ، لأنى أوثر أن يتولى الله حسن جزائهم وجميل مثوبتهم ، وانما أعبر لهم عن عاطفتى فحسب ، والله أسأل أن يعز بهم الاسلام ، ويجعلهم من الظاهرين على الحق حتى قيام الساعة » .

فالقضية فى هذه العلاقة وهذه الرابطة أصلها وأساسها ، ولبها وجوهرها ، وأصولها وفروعها ، وجسمها وروحها : حب فى الله ، وصلة روحية وثيقة ، وارتباط متين بحبل الله على هدف كريم هو اعزاز كلمة الاسلام واقرار مبادىء الحق وانفاذ دستورها وتعاليمها .

لا نقرر هذا انسياقا مع هزة الشعور ، وخضوعا لغلبة العاطفة التى تدفع الى المبالغة ، لا .. فالحق أننا ما جاوزنا حد التعريف المجمل والاشارة الموجزة ، ومازلنا فى نطاق مخل من التقصير ، بالعجز عن التصوير والتعبير

وما أشرنا الى واقعة أو سردنا حادثة الا وهى دون الواقع بكثير . لا نقول ذلك دفعا لاعتراض منتظر ، ولكن تقريرا لحق قائم موجود ، وارشادا الى تقصير ملموس ، واعتذارا للعارفين ، وتنبيها لغير العالمين ٠

والخلاصة فى هذا كله أن جهاد قائد الاخوان أكبر من أن يلخص فى هذه الصفحات ، وموعدنا بالتفصيل الشامل الكامل ــ على ما يسعه الجهد ويسعف به ــ الأجزاء المقبلة ان شاء الله ، فليس هذا الجهاد مقصورا على المجهود الضخم الذى يبذل فى أمثال هذه الرحلات والأسفار مما أرشدنا اليه هنا ، ولكنه فى حقيقته وخلوده : كتاب نهضة وتاريخ بعث أمة ، على هذا تلقيناه وأصغينا اليه من فم المجد وآمنا به ، وكذلك سننشره على الناس تذكرة وبلاغا ٠

آمنا بقائدنا أخا أكبر فى مجتمعنا الاخوانى لأنه كذلك ، وآمنا به المؤمن الأول والمجاهد الأول لانه حقا كذلك ، وانا لا نستطيع ولا يستطيع غيرنا أن يحصى آيات جهاده فى مفردات منفصلات ، لأن كل حركاته وسكناته فى تصرفاته تؤلف عملا من أعمال جهاده فى الدعوة يؤديه بصبر واخلاص ويقين ٠

وهو بعد ذلك الداعية المتمكن الأمين ، لم يعرف تاريخ الدعوات والدعاة داعية متمكنا فى دعوته أمينا فى الاخلاص لها ، متفانيا فى العمل على اظهارها ، يبسطها فى وضوح ، ويعرضها بسلامة حجة واستقامة منطق ، كقائدنا فى تدفق المعانى من أعماق نفسه واستقامتها مع ما يطلبه البرهان ، وترتاح اليه الأذهان ، فاذا اعتلى المنبر واستمعت اليه يقدم لك الفكرة الاسلامية ويحدثك عن القرآن كدستور واضح البنود مفصل الأبواب متكفلا بضمان كل حق ، وعن الاسلام كنظام صالح لكل مجتمع ولكل زمان وبيئة ، فيه حاجات الناس وما يطلبون ، اذا استمعت اليه يتحدث فى هذا أو غيره فى توفيق وفى قوة وايمان وافاضة مكتملة وقد يواصل فيه الساعات الطوال من غير أن تجهد نفسه أو تمل ٠٠ ظننت أن منبر الخطابة ينبغى أن يكون مكانه ، وأن هذه الصورة من الجهاد هى وحدها ميدانه ، يأتى دائما بالجديد الطريف والحجة الدامغة والرأى الذى لا يعقب عليه ، يحضر الحفل من الأحفال للمناسبة الواحدة مرات عديدة ، وفى ليالى متواليات وأوقات متتابعات أو متفرقات ، ومع تعدد الأحفال أو تكرار المناسبات فهو الخطيب الأول الذى يقدم أعذب الآراء وأقوم الحجج ، ويطرق موضوعه من نواحى جديدة فى كل حفل ، لا يتكلف أو يصطنع الحماسة ولكنه يعمد الى ايمانه فى عمقه وحقه فى وضوحه وقوته المستقرة ، يستمد منها قوته فى منطقه ، ومنطق الحق والايمان اذا سيطر على النفس اتجهت باتجاهه وتأثرت بأحكامه ، فتحركت الجوارح فى هذا الاتجاه وبهذا التأثير كأمر طبعى ارادى غير مصطنع ، فشعر السامعون بذلك وأدركوه وأحسوا به ، من غير أن يدفعوا الى ذلك اصطناعا بهذه الاشارات التى تعودها الذين يزاولون الخطابة كصناعة وحرفة ، والتى استعاروها لسد هذا الفراغ الناتج من ضعف الايمان وعدم وضوح الحق واستقرار قوته فى نفوسهم ، فهى الى حركات التمثيل

والمثالين أقرب ، لا تبرز حقا ولا تظهر برهانا أو تقوى حجة أو تقيم دليلا ، ولكنها مؤثر وقتى ، وانما العبرة بالأثر الدائم الباقى وليست فى حركات الشفاه ونبرات الاعجاب تتردد فى فراغ مكان الاجتماع ، وفى مراعاة الخطيب لظروف الناس وطبقاتهم ، وتقديره أوقاتهم ، واستبانته لأفكارهم وعقلياتهم ومشاعرهم وتقاليدهم وأهوائهم ومنازعهم ، واحترام هذا كله ورعايته ولو بقدر ، ومهاجمة الباطل فيه برفق لتقويمه واصلاحه بلسان عف وأسلوب كريم ، ورغبة صادقة فى الخير وحب عميق لاشاعته : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** » (١) وكذلك كان قائد الاخوان ، وكذلك هو دائما فى كل حفل وأينما حل ، لا يخلط بين المناسبات ولا يسف أو يهزل ، داعية مسلم يدعو لنظام الاسلام ودستورية القرآن ، وهما نظامه فى أسلوب دعوته ، ومنهاجه فى وسائله وخطته ، وتقرير منطقه والقاء حجته ، يملك سامعيه ويستحوذ على مشاعرهم وقلوبهم وأرواحهم ، ويمتلكهم فيحملهم ويقتحم بهم الميادين ، ثم يستوى بهم حيث يشاء على شواطىء الفكرة التى يدعو اليها ، وأبواب الحقيقة التى يقصدها ، ولا يغادرهم أو يغادرونه الا وقد ترك فى نفوسهم أثرا باقيا يتعهده الزمن وينميه ، وتثبته مناسبة مقبلة ، العبرة كما قلنا أن يترك الخطيب فى نفوس سامعيه أثرا باقيا ، ونجاحه فى هذا أن ينفذ الى أعماق سامعيه فلا يتركهم أو يتركونه الا وقد شغلهم بنفسه وبدعوته ، وليس هذامن السهل المنال ، ولا هو مما يتلقاه الناس كأصل من الأصول المتداولة لصناعة الخطابة ، أو وسيلة من وسائل التأثير فيها كما يتلقاها المتدربون عليها من الأحداث والصغار ، ولكنه أمر يستمده الداعية من استعداد طبعى وتفاهم روحى وتواصل شعورى ، يصله بسامعيه أثناء الحديث اليهم ، ولذلك نجده يبدأ حديثه بمقدمات ويفتتحه بتمهيدات ، ويظل يراود هذه النفوس ويروض المشاعر حتى يصلها بنفسه وروحه ويملك قيادها ويلتقط زمامها ، كل هذا بشعور روحى نفسانى داخلى فيه ، فاذا تم له ذلك انطلقت نفسه وانسابت منها المعانى تخاطب هذا الشعور وتثير ذلك الوجدان ، وبذلك يطرق الخطيب أبواب النفوس التى يواجه علاجها ، ويصل الى مفتاح الدخول اليها والنفوذ الى أعماقها ، وهذه واحدة من علامات توفيق الداعية الخطيب واتصاله بأسباب النجاح ، وليس منها أبدا هذه الحركات العصبية بسبب ومناسبة وبدونهما ، وهذا العراك يقوم بين الخطيب وما حوله وما أمامه ، فيضرب المنضدة ، أو يشتبك فى شجار مع الأثاث أو يضرب الأرض ، ويظن أنه يؤثر فى نفوس سامعيه أو يترك فى أعماقها أتفه الحقائق ٠٠ !!

لا نريد أن نقول ان الخطيب لا يتأثر ولا تبدو على وجهه الانفعالات المختلفة ، وأمارات الفرح أو الغضب والانشراح أو البهجة ، فيتحرك ويؤدى شتى الاشارات من تأثير هذا الانفعال ، فان هذا يحدث فعلا ويكون غالبا

---

(١) النحل : ١٢٥

عملا غير ارادى تبعا لأنغمار الخطيب فى تيار موضوعه وانسياقه مع موجة التأثر به ، وهو مسـلم به ، ولكننا نقصد بما أشرنا اليه هـذه « الحركات البهلوانية » والأعمال الاصطناعية التى لا تتصل أسبابها بحقيقة انفعالات النفس الداخلية ولا تصدر عنها ، لأن هذه لا تترك أى أثر فى نفوس السامعين.

ولقد كان النبى صـلى الله عليه وسلم يتأثر فى خطبه ويتلون وجهه الشريف بالانفعالات ، ويتصـبب عرقا ويشير بأصابعه للايضاح والابانة أو التمثيل ، ولكن هذا كله كان فى الحدود التى لم تخرجه صلى الله عليه وسلم عن وقار النبوة أو تنزل به عن منازل السكينة ، ولم يكن أعمق منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثرا فى سامعيه ، تأثيرا يغير مجرى حيـاتهم وينقلهم من وضع الى وضع .

ومرشد الاخوان يأخذ طريقه الى منبر الخطابة فيرتقيه بوقار وسكينة تلازمه من بدء خطابه الى الانتهاء منه لا يلجأ الى حركات الخطابة والخطباء

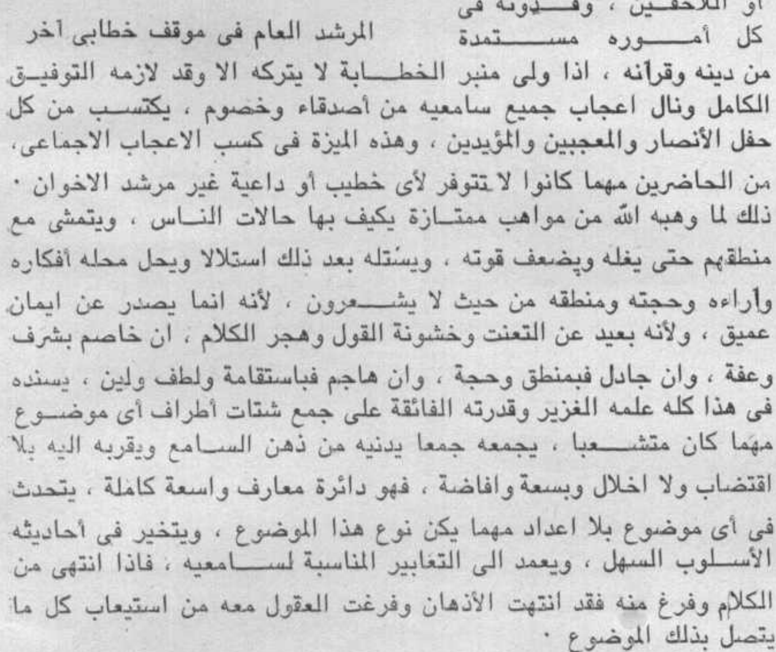


مرشد الاخوان يخطب الجماهير



مرشد الاخوان فى بعض مواقفه الخطابية

الا حين تدعو الى ذلك ضرورة باشارة من تأثير الموقف ، يبدأ حديثه هادئا فى نبرات صوت قوية عذبة تسكن اليها النفس وتستريح من جرسها ، ويستمر فيه ويواصله فى حلاوة وعذوبة يقرر الحقائق ويلقى المعلومات ويفيض فى الموضوع الذى يتناوله بعمق وحسن ابانة ، واحاطة شاملة وجدة وطرافة ، لا يترك فى هذا كله أو فى ناحية من نواحيه ، أو فى استيعابه استيعابا كاملا مجالا لمعقب ، كل ذلك وهو حاضر الذهن تسعفه البديهة اليقظة ، وتواتيه الفطنة التامة الكاملة ، ويمده الانتباه الدقيق وسرعة الملاحظة ودقتها فى تتبعها لجو الحفل وما يدور فيه ، ومعرفتها مقتضيات الموقف والمفيد فيه ، أما أدب الخطاب وعفة اللسان وأسلوبه فى الحوار والجدل والمناقشة ومناهضة الحجة ، فهى كلها مواقف شرف وكرامة وفخار ، وهو لأنه انما يتكلم بصدى ما فى نفسه وما استقر فى أعماقها ، ويستوحى ايمانه ويستلهم عقيدته ، لا تسمع منه كلمة نابية أو لفظا جارحا حتى حين تلزم الضرورة فى موقف دفاع أو رد عدوان ، منهجه فى ذلك أدب الاسلام وتعاليم القرآن .



المرشد العام فى موقف خطابى آخر

وهو فى فصاحته ونصاعة حجته وبلاغة قوله وحسن اختيار لفظه خطيب ممتاز لا يزاحمه مزاحم ولا يرتفع بجواره صوت ولا يباريه فى ميدانه أحد من رجال عصره ، يمتلك الباب سامعيه ويهز مشاعرهم وله طابعه الخاص وسمته الثابت ووسائله المبتكرة واتجاهاته المستقلة لا يقلد أو يجارى أحدا من السابقين أو اللاحقين ، وقدوته فى كل أموره مستمدة من دينه وقرآنه ، اذا ولى منبر الخطابة لا يتركه الا وقد لازمه التوفيق الكامل ونال اعجاب جميع سامعيه من أصدقاء وخصوم ، يكتسب من كل حفل الأنصار والمعجبين والمؤيدين ، وهذه الميزة فى كسب الاعجاب الاجماعى من الحاضرين مهما كانوا لا تتوفر لأى خطيب أو داعية غير مرشد الاخوان . ذلك لما وهبه الله من مواهب ممتازة يكيف بها حالات الناس ، ويتمشى مع منطقهم حتى يغلبه ويضعف قوته ، ويستله بعد ذلك استلالا ويحل محله أفكاره وآراءه وحجته ومنطقه من حيث لا يشعرون ، لأنه انما يصدر عن ايمان عميق ، ولأنه بعيد عن التعنت وخشونة القول وهجر الكلام ، ان خاصم بشرف وعفة ، وان جادل فبمنطق وحجة ، وان هاجم فباستقامة ولطف ولين ، يسنده فى هذا كله علمه الغزير وقدرته الفائقة على جمع شتات أطراف أى موضوع مهما كان متشعبا ، يجمعه جمعا يدنيه من ذهن السامع ويقربه اليه بلا اقتضاب ولا اخلال وبسعة وافاضة ، فهو دائرة معارف واسعة كاملة ، يتحدث فى أى موضوع بلا اعداد مهما يكن نوع هذا الموضوع ، ويتخير فى أحاديثه الأسلوب السهل ، ويعمد الى التعابير المناسبة لسامعيه ، فاذا انتهى من الكلام وفرغ منه فقد انتهت الأذهان وفرغت العقول معه من استيعاب كل ما يتصل بذلك الموضوع .

ثم هو بعد هذا رجل الفكرة الاسلامية فى هذا العصر وهذا الجيل كله ، لا تجد كمرشد الاخوان تمكنا من الاسلام وعلومه بفقه وايمان وتبصر ، ومعرفة شاملة بدقائق أحكامه وأسرار تاريخه وتطوراته وما حاق بأممه وما لحقها من العصور المختلفة ، وله فى هذا كله توجيهات واتجاهات لم يسبق

اليها ، وله اجتهاد واستنباطات لم يأت بها غيره ، هذا هو الداعية الأول فى الاخوان المسلمين الذى يطوف أرجاء البلاد ويحضر عشرات الاجتماعات فى الشهر الواحد عدا أحاديثه الخاصة والعامة ، وارشاداته وتوجيهاته ومناقشاته وكلها تشهد بعلو كعبه وبعبقريته الفذة النادرة وسبقه فى مضمار العلم بعقليته المتوقدة وأهليته التى تضعه على رأس رجال العقل والفكر وقادة العصر الحديث ·

ثم هو الكاتب المجيد الذى لا يشق له غبار ، والذى بلغ من جزالة لفظه وتسلسل فكرته وعذوبة أسلوبه وسهولة مأخذه مستوى كبار الكتاب البارزين ، وأعلام رجال الأدب وحملة القلم ، يتناول الموضوع بقلمه ويفتى فيه ويوضحه ويجلى مسائله ، يكتب المذكرات والمقالات والنشرات والرسائل ·· الخ ، لا يعجزه موضوع عن التناول ، يعالج المسائل الاجتماعية والثقافية والفقهية والقانونية والتشريعية ، كما يتناول مسائل الدين من ناحيتها الفقهية الخالصة ، شأنه فى الخطابة حين يتناول أى موضوع فى أية ناحية من النواحى بالشرح أو التعليق من غير اقتصار على ناحية من النواحى فعبقريته هيأته لكل الثقافات ، ولقد اعترف به التاريخ خطيبا ممتازا بارعا ، وأقر له بأنه كاتب ممتاز موهوب ·

هذه اشارات مجملة سريعة كما قلنا لقائد الاخوان تبرز شخصيته كداعية فذ ، وهى كافية وحدها لأن تضعه فى الأوائل من رجال الدعوات وقادة الأمم والفكر ، وانننا لنذكر دائما بما قلناه ونكرره من أننا لا نتحدث الا عن حاضر مشهود ملموس ، ونؤكد ونكرر أيضا ونسوق هذا الحديث عن ايمان ، فنحن نتحدى به ، لأن واقعنا غنى بالحقائق التى لا ترقى الى مستوى سموها الأقلام ، ولا تقوى على حقيقة تصويرها الأفهام ·

وها قد عرفت أستاذ الاخوان وقائدهم : الأخ الأكبر والمؤمن الأول ، والمجاهد الأعظم ، والداعية الأوحد ، ذلك ما عرفته عنه فى مجتمعه وفى صف الجهاد ، فتعال وتعرف اليه مرشدا وقائدا يرشد الاخوان الى مبادىء دعوتهم ويربيهم عليها ، وعلى أن يحيوا لها ويموتوا فى سبيلها ويراقب مدى تأصل هذه المبادىء فى نفوسهم وثباتها فى أعماق قلوبهم ، وتأثيرها على عقولهم واتجاهات نفوسهم ·

لا يختلف « حسن البنا » المرشد القائد فى صلته بشعبه وجنده ورجاله عن « حسن البنا » الأخ والمؤمن والمجاهد والداعية ، فهو دائما فى الطليعة وفى مكان الصدارة ، وهو دائما قبلة الاخوان وأملهم ، المستأثر بحبهم وطاعتهم وولائهم ، لا يخالفون له رأيا ، ولا يعصون أمرا ، ولا يرونه الا الأمل العزيز المفدى ·

هو الرجل الواحد أخا ومؤمنا ومجاهدا وداعية ·· وهو الرجل الواحد مرشدا وقائدا ، وكذلك الذين آمنوا يهديهم ربهم بايمانهم ، وكذلك يؤت الله

كل ذى فضل فضله ، ولقد كان طبيعيا فى نصابه ، ومناسبا متناسقا ، أن يكون الأخ الأكبر هو المؤمن الأول ، وأن يتآلف هذان العنصران وتظهر من تآلفهما شخصية المجاهد الأول وأن تتكاتف معانى هذه العناصر الثلاثة فتكون شخصية الداعى الأول كنتيجة طبعية ، ثم تنسجم هذه العناصر كلها وتنتهى بصاحب الروح مرشدا وقائدا : فقد ارتبط باخوانه على الحب فى الله ، أخا يبث فيهم مبادىء الأخوة عمليا كحقوق وواجبات تجعلهم اخوة يوالى بعضهم بعضا ، وأقام مجتمعهم على أحكام قانونها وجعل نفسه رمزا لهذه الأخوة ، ثم كان المؤمن بدعوته ومبادئها ، المتفانى فيها الثابت عليها المطمئن الى انتصارها ، وقرن ذلك كله بالجهاد العملى التنظيمى فى سبيلها ، والكفاح المتواصل لنصرتها ، وكان لسان صدق فى الدعوة لها والابانة عن أهدافها وشرح مقاصدها ٠٠ أفكان عجبا أن ينتهى به هذا الترتيب الطبعى ، وهذا التسلسل المنطقى الى أن يتوجه اليه الجميع بقلوبهم وآمالهم ، ويحلوه فى نفوسهم المكان الأول والأرفع ، فتشعر نفسه بهذه المكانة عبئا وواجبا ، ويتقلدها تبعة وأمانة ؟ !

ان الرابطة بين المرشد واخوانه ، والقائد وجنده تستند الى معنى يمتد الى أعماق النفوس وأغوار المشاعر والقلوب ، وهذه الرابطة المعنوية الروحية المستمدة من صلة الايمان القوى الراسخ العميق ، هى التى جندت هذه الجموع الحاشدة ، وهى التى وجهت هؤلاء الاخوان وسيرتهم ، وطوت قلوبهم على حب أستاذهم والالتفاف حوله أخا ومرشدا وقائدا ، وافتدائه بالمهج والأرواح ٠٠ هذه الرابطة بمعناها القوى ، وأثرها العميق ، هى التى نظمت هذه الجموع ، وأيقظت فى نفوسهم المشاعر الوطنية الصحيحة ، والقومية الاسلامية الرفيعة ، وجعلت هؤلاء الاخوة متضامنين باصغائهم لصوت الداعى وهتافه ، فأفاقوا مما يرسف فى أغلاله الناس ، وهبوا من رقدة القرون الطويلة ، ونهضوا يجيلون الطرف فى نواحى الاصلاح المختلفة كل واحد منهم يعمل فى الجانب الذى يحسنه ويتقنه ، ومرشدهم يحدوهم ويحدب عليهم ، ويرشدهم ويثبتهم ، ويمدهم من فيض ايمانه ونبع روحه . فتكونت بذلك النواة لنهضة الأمة نهضة شاملة ملموسة فى كل مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وهى نواة طيبة صالحة لتغذية آمال الأمة ، وستبلغ مداها الطبعى ، لأن النصر للايمان والبقاء للأصلح دائما ، وهى سنة الله التى لن تتبدل ٠

فالحال اذن أمر قوة تنتفع بكل القوى بعد تجميعها ، وتصويرها : أنها قوة مستقبلة ، تصدر اليها كل القوى ٠٠ أى تنتهى الى مركزها ، فتحسن هى تنظيمها وترتيبها واستخدامها وتطلقها للاشادة والتعمير ؛ وهذه نظرة من زاوية واحدة الى مهمة المرشد التنظيمية ، ومركز القائد فى صف الجهاد يمده ويحميه ويقومه ، وليس هذا فى حقيقة الأمر ما يعنينا ، ولكن يهمنا قبله أن نتعرف الى طبيعة هذه المهمة ، والقانون الذى تتشبع بروحه ،

حتى يمكن تجلية هذه الحلقة كأخواتها السابقات ، ذلك هو المهـــم ، فلا تبحث فى المجتمعات دائما عن القوانين والأنظمة كأمر أســاسى ، ولا تنسب دقة النظام ان وجدتهـــا فيها الى شىء من هذه الظواهر المألوفة ، ولكن اسأل عن روح القوانين أمرعية الجانب هى ؟ · واســـأل عن الرابطة فى هذا المجتمع علام تقوم ؟ والى أى الأسس تســتند ؟ · فما نظمت القوانين مجتمعا صغيرا أو كبيرا ، خاصا أو عاما ·· ما لم يكن هذا القانون روحا تشيع فى نفس كل فرد من أفراد هذا المجتمع ، فاذا رأى النـــاس ما لم يتعودوه وما لم يتصوروه ، وما لم تألفه المجتمعات أو تعرفه من ثبات القوة التى تحرك مجتمعات الاخوان المسلمين ، ومتانة أوامر الرابطة التى تديرها وتشرف عليها ، واحكام الأسس التى تقوم عليها وتمدها ، ورأوا معه هـــذا التناسق العجيب والتوافق المطلق،الذى يؤاخى بين هذه النفوس وبين مرشدها وقائدها ، ويؤلف بين قلبه وقلوبهم ، بقوة ربانية من صنع الله الذى زكى هذه الأخوة وامتن بهـــا على نبيه : « **لو أنفقت ما فى الأرض جميعـا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم** » (١) · هذا التآخى القلبى ، والصفاء الروحى ، والتوافق المطلق النقى ، يسود صفوف الاخوان وينظم العلائق بينهم وبين مبادئهم ، اذا رآه الناس حقيقة ساطعة ظنوه فى هذه القوانين واللوائح ، وحسبوا أن نفوذ المرشد ، وسلطانه على القلوب والأرواح ، يستمد من هذه القوة تقررها حروف مرصوصة ونصـــوص جوفاء لقوانين ميتة خـامدة تسجلها الأوراق أو تنطق بها الشفاه ، أو ترددها الألسنة ، لأنهم لا يعلمون أن هذه الأوضاع لم يعرفها الاخوان المسلمون ولم يهتموا بها — كاخـــوان مسلمين — الا ليعرف الناس أن الاسلام من طبيعته أن يتمشى مع كل عصر ، لأنه حق خالد ، ومن حقائق الخلود وطبيعته أنه سـبق عملى منطقى لكل ما يتفتق عنه العقل البشرى وما تأتى به القرائح ، فارتقـاء التشريعات آية من آيات خلود الشريعة الاسلامية تظهر متأخرة ، وهى ان دلت على شىء فانمـا تدل — كشهادة من العصر — على سلامة التشريعات القديمة الخالدة ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ·

للاخوان قوانينهـــم ولوائحهـــم تنظـم معـــاملاتهم وتشكيلاتهـم فى مجتمعاتهم ، وهى فى مســتواها أكمــل وأوفى ما أنتجه العقل الحديث ، وما عرفته الهيئات العالمية ، ولكن الاخوان يستمدون أولا ، ويتعـــاملون بقانون من روح قائدهم ومرشدهم : قانون الاخوان السائد والحاكم والمنظم هو قانون الأخوة ، وروح هذا القانون هى التى يصدر عنها المرشد العام ، وهى التى تلهم القائد ، وهى التى أسلست له قياد هذه النفوس ، ومكنت له فى القلوب ، ونادت به مرشدا وقائدا تهفو اليـــه كلما حزب أمر ، ومن أجل ذلك فما عرفت مجتمعات الاخوان جفاف أحكام القوانين ، ولا غطرسـة موادها وتجهم وعبوس نصوصها ، وعلى هذا فتعرف الى مرشـــد الاخوان

---

(١) الأنفال : ٦٣

وقائدهم وهو الذى يدين له الملايين بالطاعة والولاء ، والذى تصدر الكلمة الواحدة من شفتيه فيتلقفها هؤلاء الملايين بالتلبية الحارة الصادقة التى لا تعرف ترددا ولا تلقى مناقشة ، تلبية مقرونة بالخروج عن الأنفس والأموال والأرواح ٠٠ تعرف اليه تجده رقيق القلب طلق الوجه واسع الحلم صبورا كريما ، يعالج الأمور بحكمة وأناة وروية وتقدير لكل الظروف الحاضرة والماضية والمقبلة ، تواجهه بالمعضلة المعقدة فيسعفك بالحل الموفق يرضيك ويرضى الحق والمنطق والضمير ويرضى الناس أجمعين ، وهو فى سماحته وتواضعه ولين جانبه وصدق فراسته ، ونفوذه الى أعماق نفسك بالنظرة الواحدة ، بهذا كله وبغيره من صفات نفسه وفضائلها ، وطابع شخصيته وخلقه القرآنى المحمدى احتل مكان الصدارة ، وعرج الى سماء المجد والخلود ٠

مرشد الاخوان بين اخوانه قوة تشرف عليها سماحة الاسلام ، وسلطان ينفذه خلق القرآن ، وعاطفة يحصنها عقل رشيد ؛ مرشد الاخوان يسوس هذه المجتمعات بالارشاد النافع والتوجيه المحكم السديد ووضع كل أمر فى نصابه ، وهو يظل يراود النفس ويتعهدها بالتوجيه والتربية والتقويم والاصلاح لا ييأس منها ولا يسد عليها المسالك ، بل يأخذها بما يتلاءم مع طبيعتها ، ويطب لها بما يناسبها من علاج حتى تنصلح ان كانت قابلة للصلاح أو تظهر حقيقتها ان كانت خبيثة ماكرة ، وهو فى هذا صبور مصابر يستنفد صبره ما لا يحتمل أو يطاق ، ومالا يسعه حلم حليم ٠

★ ★ ★

اذا أنكر الناس أو ارتابوا فيما يروى عن تواصل القلوب وتجاوب الأرواح كحقيقة قائمة تكون قانونا حاكما ، وكأمر واقعى يكون دستورا عمليا ينظم الصلات والروابط بين الناس ، فليقبلوا على مجتمعات الاخوان المسلمين فى دورهم ، تلك الدور التى اتخذ منها قائد الاخوان جامعات يربى فيها الشعب وتجهز النفوس وتصقل القلوب على منهاج التربية الاسلامية المحمدية ، المنهاج الذى ربى به محمد أصحابه على الحب والاخاء والوفاء ، دستورا وعاطفة ملأت القلوب ولصقت بالجوانح ، فكانت أبدا شعارا عمليا حمل لواءه هؤلاء الجند المتآخين ولم يتخلوا عنه فى ساحة الوغى ومعارك الجهاد ؛ فهموه ايثارا وطبقوه تضحية لأنهم آمنوا به كذلك ايمانا عميقا وتلقوه على هذا المعنى : « ايثارا وتضحية » ٠ فلم ينسوا روحه هذا حتى فى أشد الساعات حروجة ، واننا لنطالع باعجاب موقف هؤلاء الشهداء والأبرار يحتضرون فى ساحة القتال ويجىء الى أحدهم الماء فيقول : لا ٠٠ أخى ٠٠ أخى ، انه بجانبك يطلبه ٠ ويحيله الى شهيد آخر جريح فيقدم لهذا الشهيد أيضا فيحيله الى ثالث ، وهكذا كل منهم يؤثر أخاه به ، فاذا انتهى الساقى الى الأخير وجده قد لقى ربه ، فيعود الى من تركهم واحدا واحدا فيجدهم كذلك قد لحقوا به وأكملوا الشهادة ؛ هذا هو معنى الايثار والتضحية والأخوة الذى جاء به منهاج التربية المحمدية ، ومن روحها قبس قائد الاخوان جذوة النور التى أضاء بها العقول والنفوس ، وبذلك كان

مرشدا وقائدا ، ساس مجتمعه على هذه المعانى بقوة فى غير شـــدة ولا عنف ، وبلين فى غير تهاون ولا ضـــعف ، ويقظة لا يلحقها غلو ولا اسراف ولا غرور ، وفراسة تخترق حجب الضمائر بتوفيق من الله ، وتســـديد من سلامة المنهاج ، وبذلك بلغت قيـــادة الاخوان حظها من النجـــاح والتمكن والثبـــات ، ومازالت فى ازدياد ونمو ، لا تزيدها الأيام الا ظهورا ، ولا تبلغ منها شدة النقد والمهاجمة الا تمحيصا وثباتا .

ولقد بلغ محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الخلق الرفيـــع ، وهذا المنهاج القويم وحده مركز القيادة العالمية ، بلغه بهذه الأســـلحة والعدد ، وهذا الايمان العميق ، بلغه عن طريق الفقر والغربة والجهاد ، وقاد الأمـــة التى حكمت الدنيا وسيطرت على العالم .

فاذا فهم الناس اليوم أن القيادة تأليه وتحكم فى حريات النـــاس وعقولهم وعقـــائدهم ، وحجر على هذه العقول لتظل راسفة فى جهـــالات القرون فليعلموا أن الاخوان المسلمين جـــاءوا عقلا جديدا ، وحربا على هذا الطغيان ، وليثوبوا الى رشدهم ، وليجددوا أفكارهم ، انما القداســـة لكتاب الله دستورا ، والقيادة لمنهاج رســـول الله غاية وأملا ، « **وأن هـذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** » (١) .

★ ★ ★

هذا وليست القيادة جاها ومنصبا ، أو تقليـــدا وتتويجا ، ولا هى أسماء ومسميات أو ميراث بلا مورث ولا توريث ، ولكنها تبعة وأعبـــاء ، وواجب وأمانة ، وايمان وجهاد ، وقد تخلق بهذا كله مرشد الاخوان فانتهى به الى مركز القيادة .

فهذه الأمة الحائرة ، وهى الآن على مفترق الطرق وفى ساعة حاسمة فاصلة من تاريخها لابد أن تقول كلمتها فى مصيرها واختيار نوع الحضارة التى تريدها ، فعما قريب وقد لا يصدر هذا الكتاب الا ويكون الساسة فى معسكر الأحزاب قد أعلنوا فشلهم وأرغمتهم الحوادث على الاقرار بحقيقة مركزهم من الأمة ، وحقيقة وضعهم من قضـــية الاستقلال والاصـــلاح ، ويدركون أنهم كانوا يسيرون على غير منهاج ، وأنهم تنكبوا طريق الجهاد الصحيح ، ولعلهم الى ربهم يستعتبون .

أما الأمة فى روحها ومجموعها واتجاهها العـــام فقد تحولت ، وقد أدركت هذه الحقيقة ، أدركتها من التجارب المتواليـــة التى مهد بعضـــها لبعض ، ولم تعد تطيق الصبر على سياسة الخداع والتغرير ؛ أفاقت الأمة

---

(١) الأنعام ١٥٣ .

من هذه الغفوة — وان كان قد طال عليها الأمد — ونفض الشباب عن نفسه غبار الخمول والكسل ، وراجع ماضى اسلامه وتاريخه المجيد ، وتدارس تعاليم كتابه الخالد وهدى نبيه ، فوجد فيه النظام الكامل الذى يقضى قضاء تاما على هذه السياسة الخرقاء التى ضللت الأمة وأودت بها ، تلفتت جموع الأمة والشباب وتطلعت الى الأمل المرجى فى كتائب الاخوان المسلمين وقيادتهم ، وهكذا فرضت مبادىء الاخوان ، وقيادة الاخوان نفسها فرضا ، اذ كانت نتيجة طبيعية لتطور أفكار الأمة ، وكانت علاجا لازما قدمته الحوادث ، وألحت فى طلبه الظروف والضرورات ، وبذلك تطورت القضية الوطنية كلها الى وضعها الصحيح ، وآلت قضية الاستقلال والاصلاح الى وضع جديد ٠٠ الى الوضع الذى يهتف بالقرآن دستورا ، وينادى بالاسلام نظاما اجتماعيا كاملا شاملا يهيمن على شئون الأمة كلها ، وتستمد كل مناهج الاصلاح من تعاليمه ، وتأخذ من روحه ٠

هذا هو الوضع الصحيح لقضية الاستقلال والاصلاح كما هو الآن ، وهو قد نقل قيادة الأمة الى المعسكر الاسلامى تبعا لتحول شعور الأمة ، فليس هذا ادعاء أو انتحالا ، ولكنه انتقال طبعى مرده الى أحقية هذه المبادىء فى السيادة والانتصار ، ثم مرجعه الى تحول الأمة تحولا طبعيا واتجاهها الى هذه المبادىء تقيم عليها أساس حضارتها وترى فيها رسالة أنقاذ ، والى قيادتها تؤمن بأنها جيش الخلاص وعدة الأمان ٠

هذه هى الحقيقة التى لا ريب فيها ، والله يهدى للحق « **أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى الا أن يهدى ، فما لكم كيف تحكمون** » (١) ؟! وبذلك انعقد لواء القيادة لمرشد الاخوان ، وقد « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا** » (٢) ٠

وليس هذا كل ما يقال ، ولا هو ما ينبغى أن يقال عند الحديث عن مرشد الاخوان وقيادة الاسلام ، ولكنها صفحة من كتاب ، ولقد أجملنا اليك الحديث ، عرفناك به الأخ المؤمن المجاهد الداعية ، **مؤهلات ومقدمات وتمهيدات** ، انتهت به الى وضعه الطبعى فى مركزه الحقيقى فى الأمة قائدا وموجها ، وذلك ما سنتناوله فى الجزء الثانى من الكتاب بالتفصيل الوافى والتحليل الشامل ، نتتبع فيه تطور هذه الشخصية منذ أن نشأت الى أن أقامت أخوتها فى الناس وآمنت بعدالة قضيتهم الاصلاحية وجاهدت فى سبيلها ودعتهم اليها وأرشدتهم الى موضع الهداية وسر النور فيها الى أن فرضت نفسها وفرضتها الحوادث والتطورات الطبيعية ومنطق القضية عليهم فرضا ، قيادة تسير الى شاطىء الأمان والسلام ٠٠ ذلك ما سنتناوله فى الجزء الثانى من الروح بالتفصيل والتحليل ، فليرتقبه القراء ٠

---

(١) يونس : ٣٥ ٠ (٢) النور : ٥٥

أما الآن فحسبنا هذا ، وها هى قيادة الاخوان تؤمن بالقرآن وتبلغها للناس دعوة صريحة الى تطبيق نظامه الذى أخرج به محمد النـــــاس من الظلمات الى النور ، وعالج أدواء الأمم ومشاكل الشعوب ، ووضع للاصلاح أدق القواعد وأرسخ الأصول فاستجابت لها الأمة ، وتبوأت مكان القيـــادة « **فاصبر ان وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون** » (١) ·

انها دعوة القرآن الحق الخالد الباقى ، وقيادة من ميراث رسول الله صـــلى الله عليه وســـلم ، وذلك هو الحق لا ريب فيه ، آمنا به فنشرنا اللواء وأدينـــا الأمانـــة فتحقق وعد الله « **ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين · ونمكن لهم فى الأرض** » (٢) فدعوة الاخوان هى سر قدرة الله ومظهر ارادته ،« **وكان حقا علينا نصر المؤمنين** » (٣) . « **وما كان الله ليضيع ايمانكم** » (٤) ·

★ ★ ★

— ١٠ —

شـبهات

قال المرجفون : اذن ما بالكم وأنتم رجال دين ، تنقلبون على أنفسكم وتخرجون على منهاجكم ومهمتكم ، لقد قلتم اننا دينيون مسلمون ، واننـــا حمله القرآن ، والداعون الى الاسلام ، وان دعوتنا اســـلامية صـــميمة ، دستورها القرآن ، وقائدها رسول الله ، قلتم هذا فقلنا مرحبا ، واننا معكم مسلمون نحب رسول الله ونشهد أن القرآن حق ، وأن الدين معان كريمـــة جميلة ، يحث على الفضائل ويحض على الخـــير فاعملوا على مكانتكم ، قلنا هذا ورحبنا بكم رجال دين وورع وتقوى ، فما بالكم لا تقفون عند حـد مهمة رجال الدين من الوعظ والخطابة ·· ؟!

أفهذا هو مرشد الاخوان ، حامل الدعوة الدينية يتكلم فى الســياسة ويتقدم الى البرلمان ويخرج صحيفة يومية وينشىء الشركات الاقتصـــادية ، ويكون « التشكيلات » الكشفية والجوالية ، ويتغلغل فى شئون العمال ·· الخ فما هذا الخلط العجيب ؟! وهل أنتم رجال دين أو رجال دنيا وسياسة وحكم ومال ؟! بهذا أرجف المرجفون وانطلق الملأ منهم أن امشـــوا واثبتوا على ضلالتكم وأكاذيبكم ان هذا لشىء يـــراد ، ما سمعنا بهـــذا فى الدعوات السابقة ان هذا الا اختلاق ؟ هكذا لجوا فى الباطل وأعمتهـــم الغـــواية ، فاذا ذكروا لا يذكرون ، واذا رأوا آية يستسخرون ، وقالوا ان هذا الا افك

---

(١) الروم : ٦٠ (٢) القصص : ٥ ، ٦ ·
(٣) الروم : ٤٧ (٤) البقرة : ١٤٣

مبين ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، وانهم عن ربهم لمحجوبون ، والا فما لهم لا يؤمنون ، واذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون .

أفلستم تؤمنون بالقرآن أيها الناس ؟ ان كان كذلك فما هذه الدعوى التى بليت ورثت حبالها ، وأصبحت خرافة القرون ؟

دين وسياسة .. !! والله انها لفضيحة واثم وعار أن توجد فى المسلمين اليوم طبقة تدعى العقل والثقافة وتجاهر بأن الاسلام عبادة فحسب ، وتقيم على هذه الدعوى افتراضات وتتخيل أوضاعا ، وتقبل على الناس لتتحكم فى عقولهم وحرياتهم ، وتسلبهم حقوقهم الطبيعية - وتقول لهم أنتم رجال دين عليكم بالمساجد والصوامع ، ولا شأن لكم بالأمة ولا باصلاحها ، وسواء عليكم أن جار الحاكم أو لم يجر ، أحسن أو أساء ، وسواء عليكم أن حكم فيكم بما أنزل الله ، أو بما أنزلت أوروبا ، واخترعت فرنسا وانجلترا وأمريكا وبلجيكا .. الخ .. سواء عليكم كان هذا أو جرى غيره ، فعليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم ، هكذا يرتبون هذا المنطق العجيب السقيم على ما يقوم فى نفوسهم من خيالات ، « **ويحلفون بالله انهم لمنكم** » (١) « **والله يعلم انهم لكاذبون** » (٢) « **اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، انهم ساء ما كانوا يعملون** » (٣) « **ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو الد الخصام . واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل** » (٤) .

★ ★ ★

هذه هى البدعة القائمة « دين وسياسة » ترددها الأفواه الحائرة وقد أدهشها نجاح قيادة الاخوان وانتصارها وتوفيقها ، أدهشها هذا النجاح وأوقعها فى الحيرة فلم تجد الا هذه الدعوى الفارغة تتشح بردائها ، وتنادى فى الناس أن أفيقوا وتنبهوا وابتعدوا عن السياسة لتحافظوا على اسلامكم وتعزوا دينكم ، وتقدسوا قرآنكم ، وتنهضوا بوطنكم وأمتكم .. !

واننا لا نكاد نشعر بدافع يقتضى الاكثار من رد هذه الفرية القديمة و دحضها ، فقد بليت ورثت حبالها ، وسأقولها لهؤلاء القوم كلمة صريحة : ان عليكم أيها الناس بعد اليوم أن تحددوا موقفكم من القرآن ككتاب تشريع ، ومن الاسلام كنظام ، ومن رسالة محمد كمنهاج وتعاليم ، عليكم أن تحددوا موقفكم

---

(١) التوبة : ٥٦
(٢) التوبة : ٤٢
(٣) المنافقون : ٢
(٤) البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥

فان كنتم مؤمنين بهذا الكتاب وبهذا الاسلام وبهذا النبى ومنهاجه وتعاليمه فهذا هو الاسلام الذى يدعو اليه الاخوان المسلمون ، والا ٠٠ فهل تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟صارحونا أيها الناس بحقيقة اسلامكم وايمانكم ورابطتكم بهذا الكتاب وهذا النبى وهذا النظام الكامل الشامل الذى جاء به، صارحونا وقولوها كلمة واحدة « مسلمون أولا مسلمون » أما هذه المماحكات والتحججات : « دين وسياسة »

ف : هذا كلام له خبيء   معناه ليست لنا عقول

قولوها صريحة أيها الناس ، قولوا اننا لا نريد الاسلام ، ولا نريد الحضارة العربية الشرقية الفاضلة ، وانما نريد حضارة الغرب وما جاءت به من متع وشهوات ، قولوا للناس ان حضارة الاسلام لا تنفعنا لأنها تحد حرياتنا وتمنع عنا الثراء الفاحش والترف ، وتسوى بيننا وبين العامل والفلاح والفقير ، وتحرمنا مما نغرق فيه من الجاه والنعيم المقيم ، وتضايقنا فى الحكم فلا تجعل لنا سلطانا على الأموال والأنفس والثمرات نغترف منها كما نشاء ، ونغدقها على من نشاء بغير حساب ٠٠ !!

قولوا ان فى الاسلام سياسة حقا ، ولكنها سياسة لا نريدها ، لأنها من نوع لا يحقق الأطماع ولا يرضى المنازع والأهواء ، فما لنا وللحكم اذا كان تبعة وواجبا وجهادا وتضحية ؟ ! قولوا اننا أوربيون غربيون تنكرنا لقوميتنا ولم يعد لهذه المعانى الفاضلة صدى فى نفوسنا ، أو محل فى قلوبنا أو تقدير بين مشاعرنا ، فاتركونا وما اخترنا لأنفسنا ٠٠ !!

قولوا لنا هذا وما فى حكمه قولة صريحة ، لأن هذا هو حقيقة منطقكم ، أما أن تحتجبوا تحت ستار دعوى الخلط والمطالبة بالفصل فهذا منطق غير مفهوم ،

مرة ثانية نقولها كلمة صريحة لمن يلوذون بهذه الحجة ويحتجبون بذلك الستار ، أن أسفروا عن حقيقتكم ، فليست المسألة خلطا بين دين وسياسة ، ولكنها خلط بين نظام ونظام،ومزج بين حضارة وحضارة فأسفروا عن حقيقتكم وقولوا أى النظامين تريدون،وأى الحضارتين تؤيدون ؟ أتريدون نظام الاسلام بكل ما فيه ، وبكل ما جاء به محمد أو لا تريدون ؟ أتريدون الحضارة العربية الشرقية الاسلامية أم تؤثرون عليها حضارة الغرب ؟ قولوا هذا صراحة وأسفروا عن حقيقتكم فذلك هو جوهر الخلاف ولبه ، وتلك هى حقيقة القضية ٠٠ أما هذا التوارى والالتواء فى المنطق ، والاستعلاء على الحق ، فذلك لم يعد يفيد ، فقد استكملت الأمة وعيها ، وعرفت ماذا يراد بها وأصبحت لا تطيق الذل والعبودية ، فابحثوا لكم عن أمة أخرى ترضى الذل وعبادة الأشخاص ٠

هذا هو الوضع الصحيح فى نظرنا لقضية هذه البدعة التى يسمونها « خلطا بين الدين والسياسة » ولا نرى لها غيره ، على اننا نرى أنفسنا

مضـــطرين ونحن نكتب للحق والتاريخ ، ولله والوطن والاسلام أن نتناول الموضوع بالمناقشة من وجه آخر نتمشى فيه مع منطق هؤلاء المنكرين لعلهم الى الحق يرجعون ، ولن نأتى بجديد فى هذا فمنذ مطلع الفكرة والاخوان يثبتون هذا المعنى فى النفوس ، وقائد الدعوة يجليه ويوضحه ، حتى ليكاد الكلام فيه يكون تحصيل حاصل كما يقولون ، ولهذا فسنسترشد بما نريد أن نقوله من فقرات الأستاذ المرشد ، قال فى التعريف بالجماعة (١) : « لسنا حزبا سياسيا وان كانت السياسة على قواعد الاسلام من صميم فكرتنا ، ولسـنا جمعية خيرية اصلاحية وان كان عمل الخير والاصلاح من أعظم مقاصدنا ، ولسنا فرقا رياضية وان كانت الرياضة البدنية والروحية من أهم وسائلنا ·· لسنا شيئا من هذه التشكيلات فانها جميعا تخلقها غاية موضوعية محدودة لمدة معدودة وقد لايوحى بتأليفها الا مجرد الرغبة فى تأليف هيئة والتحلى بالألقاب الادارية فيها ·· الخ » ، ثم يعرض لناحية الدين والسياسة فيقول : « قلما تجد انسانا يتحدث اليك عن السياسة والاســلام الا وجدته يفصـــل بينهما ويضع كل واحد من المعنيين فى جانب ، فهما عند الناس لا يلتقيـان ولا يجتمعان ومن هنا سميت هذه جمعية اسلامية لا سياسية ، وذلك اجتماع دينى لا سياسة فيه ، ورأينا فى صدر قوانين الجمعيات الاسلامية ومناهجها: أن الجمعية لا تتعرض للشئون السياسية ·· !!

وأحب أن ألفت الأنظـــار الى أمرين مهمين : أما أولهما فهو أن الفارق بعيد بين الحزبية والســياسة وقد يجتمعان وقد يفترقان ، فقد يكون الرجل سياسيا بكل ما فى الكلمة من معان وهو لا يتصل بحزب ولا يمت اليه ، وقد يكون حزبيا وهــو لا يدرى من أمر الســـياسة شـــيئا ، وقد يجمع بينهمـا فيكون سياسيا حزبيا ، وأنا حين أتكلم عن السياسة انما أريد السياسة المطلقة وهى النظر فى شئون الأمة الداخلية والخارجية غير مقيدة بالحزبية بحال ·· هذا أمر ، والثانى : أن غير المسلمين حينما جهلوا هذا الاسلام ، أو حينمـا أعياهم أمره وثباته فى نفوس أتباعه ورسوخه فى قلوب المؤمنين به ، واستعداد كل مسلم لتفديته بالنفس والمال ، لم يحاولوا أن يخرجوا من نفوس المسلمين اسم الاسلام ولا مظاهره وشكلياته ولكنهم حاولوا أن يحصروا معناه فى دائرة ضيقة تذهب بكل ما فيه من نواح عملية وان تركت للمسلمين بعد ذلك قشورا من الألقاب والأشــكال والمظهريات لا تســـمن ولا تغنى من جوع ، فأفهموا المســلمين أن الاسلام شىء والاجتماع شىء آخر ، وأن الاسلام شىء والثقافة العامة سواه ، وأن الاسلام شىء يجب أن يكون بعيدا عن السياسة ·· !!

واذا كان الاسلام شيئا غير السياسة وغير الاجتماع وغير الاقتصـاد وغير القانون وغير الثقافة فما هو اذن ؟ أهو هذه الركعات الخالية من القلب

---

(١) من خطبة للأستاذ المرشـد فى مؤتمر الطلبة فى ١٩ ذى الحجـة سنة ١٣٥٦ ·

الحاضر ؟ أم هذه الألفاظ التى هى كما تقول رابعة العدوية استغفار يحتاج الى استغفار ؟ ! ألهذا نزل القرآن نظاما شاملا محكما مفصلا « **تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** » (١) ؟ !

هذا المعنى المتضائل لفكرة الاسلام ، وهذه الحدود الضيقة التى حدد بها معنى الاسلام ، هى التى حاول خصوم الاسلام أن يحصروا فيها المسلمين وأن يضحكوا عليهم بأن يقولوا لهم : لقد تركنا لكم حرية الدين وان الدستور لينص على أن دين الدولة الرسمى هو الاسلام .

ولكن الاسلام غير هذا المعنى الذى أراد خصومه والأعداء من أبنائه أن يحصروه فيه ويقيدوه به .

الاسلام : عقيدة وعبادة ووطن وجنسية وسماحة وقوة وخلق ومادة وثقافة وقانون ، والمسلم مطالب بحكم اسلامه أن يعنى بكل شئون أمته ، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ؛ وأسلافنا رضوان الله عليهم لم يفهموا للاسلام معنى غير هذا فبه كانوا يحكمون ، وله كانوا يجاهدون وعلى قواعده كانوا يتعاملون ، وفى حدوده كانوا يسيرون فى كل شأن من شئون الحياة الدنيا العملية قبل شئون الآخرة الروحية ، ورحم الله الخليفة الأول اذ يقول : لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله ، وعلى هذا فمن صميم الاسلام أن يكون المسلم سياسيا بعيد النظر فى شئون أمته مهتما بها غيورا عليها ، وأن هذا التحديد والتجريد أمر لا يقره الاسلام ، وأن على كل جمعية اسلامية أن تضع فى رأس برنامجها الاهتمام بشئون أمتها السياسية والا كانت تحتاج هى نفسها الى أن تفهم معنى الاسلام .

دعونى أيها الأخوة أسترسل معكم قليلا فى تقرير هذا المعنى الذى قد يبدو مفاجأة غريبة على قوم تعودوا أن يسمعوا دائما نغمة التفريق بين الاسلام والسياسة ، والذى قد يدع بعض الناس يقولون بعد انصرافنا من هذا الحفل ان جماعة الاخوان قد تركت مبادئها وخرجت على صفتها وصارت جمعية سياسية بعد أن كانت دينية ، ثم يذهب كل متأول فى ناحية من نواحى التأويل متلمسا أسباب هذا الانقلاب فى نظره ، وعلم الله أيها السادة أن الاخوان ما كانوا يوما من الأيام غير سياسيين ، ولن يكونوا يوما من الأيام غير مسلمين ، وما فرقت دعوتهم أبدا بين السياسة والدين ، ولن يراهم الناس فى ساعة من نهار حزبيين « **واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين** » (٢) ، ومحال أن يسيروا لغاية غير غايتهم . أو يعملوا لفكرة سوى فكرتهم ، أو يتلونوا بلون غير الاسلام الحنيف « **صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون** » (٣) .

---

(١) النحل : ٨٩
(٢) القصص : ٥٥
(٣) البقرة : ١٣٨

ثم تناول فضيلته فى هذا البيـان معنى السياسة الداخليـة ومعنى الحكومة وحقوق الحـاكم والمحكوم وواجباتهما وعرض لمسـائل التشريع والتقنين ، ومبدأ تقرير سلطة الأمة وأنها مصدر السلطات ، وبين أن هذا كله من صميم الاسلام وأنه قد تعرض له وأفتى فيه وتنـاول مسـائله بكل وضوح وصراحة وتفصيل مستشهدا بأفعال النبى صلى الله عليه وسـلم وبما جاء فى القرآن ثم قال بعد ذلك :

« فهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فعل هذا كله وحض عليه يخالف تعاليم الاسلام فيخلط السياسة بالدين أم أن هذه طبيعة الاسلام التى بعث الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم عليها ، واننا فى الوقت الذى نعدل فيه بالاسلام عن هذا المعنى نصور لأنفسنا اسلاما خاصا غير الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه .

لقد تقرر هـذا المعنى الفسيح للاسـلام الصحيح فى نفوس السلف الصالح لهذه الأمة وخالط أرواحهـم وعقولهم وظهر فى كل أدوار حيـاتهم الاستقلالية قبل ظهور هذا الاسلام الاستعمارى الخانع الذليل ، ومن هنا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلمون فى نظم الحكم ويجاهدون فى مناصرة الحق ، ويحتملون عبء سياسة الأمة ويظهرون على الصفة التى وصفوا أنفسهم بها : « رهبان فى الليل وفرسان فى النهـار » ، حتى كانت أم المؤمنين عائشة الصديقة تخطب الناس فى دقائق السياسة وتصـور لهـم مواقف الحكومات فى بيان رائع وحجة قوية ، ومن هنا كانت الكتيبة التى شقت عصا الطاعة على الحجاج وحاربته وأنكرت عليه بقيادة ابن الأشعث تسمى كتيبة الفقهاء اذ كان فيها سعيد بن جبير وعامر الشعبى وأضرابهما من فقهاء التابعين وجلة علمائهم » ..

ثم تناول معنى السـياسة الخارجية وطبقه على أصـوله من قواعد الاسـلام ، وشئون الحرب والقوانين الدولية وحماية الأقليات مما جاء فى التشريع الاسلامى ، وما تضمنه دستوره وسعة تشريعه .

وما نظن أن مثـل هذه الحجج النيرة الواضحة تحتاج الى تعقيب أو ايضاح ، فوجه الحق فيها ظاهر ، وماذا يمكن أن يقال بعد هذا ؟ هى النصيحة الخالصة نتوجه بها الى هؤلاء الذين أكثروا القول فى مسألة خلط الدين بالسياسة ، نقـول لهم ان كنتم تظنون أنكم بهذا السلاح تنـاوئون « حسن البنا » ودعوته فانكم على خطأ مبين فانه على حق ومحال أن يهـزم الحق يوما أو يغلب ، وان ظننتم أنكم ستؤثرون بهذا على الطبقات الشعبية لتصرفوها عن الدعوة فأريحوا أنفسكم فان دور الاخوان قد ارتفعت بمستوى تفكير هذه الطبقات ، وأرهفت احساساتهم ومشاعرهم ، والايمان قد انتقل بهم وحول مجرى حياتهم ، أما الذين لم يؤموا دارنا بعد منهم فهم فى نظرتهم السليمة الصافية أقرب الينا منكم لأن منطقنا هو منطق الحق ، ومبادئنا هى

مبادیء الفطرة لأنها الاسلام الذى يقول فيه رب العالمين : « **فطرة الله التى فطر الناس عليها** » (١) « **ومن أصدق من الله قيلا** » (٢) ؟!

فأريحوا أنفسكم وهلموا الى اللواء ، وان قائد الاخوان لا يطمع فى مال أو شهرة أو جاه أو مجـــد ، ان مبادئنا لا مطمح لها ولا مطمع الا أن نحقق لهذه الأمة استقلالها ، وأن ترى الاسلام دينا ودولة ، فهلموا وضعوا أيديكم فى أيدينا أن نخلص الجهاد لله والوطن ، وأن نعمـــل للاسلام ، وأن ننسى أنفسنا وذواتنا لنظفر بالحياة الحرة العزيزة الشريفة ٠

هذا هو طريق السلام لمن أراد سلاما ، والا فان لهذه القيادة جنـدها الأوفياء الذين بايعوها على الموت والفداء ، ولئن صبرنا فانه صبر الكرام ، فعلى الذين أطمعهم هذا الصبر ، وما لقوا من سعة الحلم ، على هؤلاء أن يتنبهوا وأن يعرفوا مكانهم فى هذا الوجود وفى أرض مصر ، ومازال الاخوان يضنون بأصواتهم أن ترتفع بالرد على أمثال هذه التفاهات ، وان جهودهم لأكرم عليهم من أن تنفق فى الهزل والسخافات ، وان قيادتنا قيادة بناء وانشاء لا هدم ولا تخريب ، فنحن منصرفون الى غايتنا حتى ندركهـــا أو نمـوت دونها ، لن يخيفنا وعد ولا وعيد ، ولن يبلغ الى اذاننا نقيق الضـــفادع ، فأريحوا نفوسكم وتعالوا الى كلمة سواء ، ونادوا معنا بالقرآن دستورا ، وبالاســـلام نظاما ، وبمبادیء محمد زعامة ومنهاجا ، و « **ان هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا** » (٣) ٠

★ ★ ★

هذه واحدة من الشبهات التى يتشدقون بها ، والأساطير التى يطنون بها ، وقد رأيت مبلغ ما فيها من عنت وارهاق للحقائق والعقول والأفهام . والأعجوبة الثانية ذلك القول الشائع : ما لدعوة الاخوان والمرأة ! ؟ وما هذه الدعوة التى تأتينا كل يوم بمذهب جديد ؟ انها دعوة اسلامية ، وقد عرف المسلمون المرأة مخدرة ، قعيدة البيت رهينة الدار ، مضروبا عليها الحجاب ، فما هـذا المنكر الذى يرتكبه الاخوان المســـلمون ، وما هذا الحدث الجديد الذى يبتدعونه بانشاء ما يسمونه فرق : « الأخوات المسلمات ؟! » ٠

منطق عجيب وأسلوب غريب ٠٠ !! يسكتون على الضلال ويرتضونه ويحببونه الى الناس ، ويثورون على الخير والهدى وينقصـــونه وينفرون منه ٠٠ !! أين أصواتكم وما لها قد اختفت وخفتت فلم ترتفع بشكوى أو أنين حين سيقت المرأة ولا تزال تساق الى المواخير والحانات وصـالات الرقص والغنـاء ودور اللهو الحـرام ؟ ! اجتذبت الى حيث تنتهك الأعراض وتباح

---

(١) الروم : ٣٠ (٢) النساء : ١٢٢
(٣) المزمل : ١٩

الحرمات باسم الحرية والمدنية والسفور والخلاعة ؟ ! أين أنتم ـ يارحمكم الله ـ من هذا كله حين حدث ، وهو لا يزال جاريا نهارا جهارا ؟ أفعن هذا المنكر تسكتون واذا أخذ الاخوان المسلمون فى تربية المرأة على الخلق والفضيلة وتنشئتها على العفة والشرف والطهر تظهرون وترفعون أصواتكم قائلين : « بدعة البدع وحدث الأحداث » !!

اذا كانت قيادة الاخوان قد أنشأت فرق الأخوات المسلمات كصف من صفوف دعوتها الاسلامية ، فهى القيادة المسلمة التى لم تخرج بهذا التصرف عن حدود الاسلام ولم تشذ عنه ، فان أول شريعة فى الوجود الانسانى كله ، اعترفت بالمرأة ككائن حى يستحق التقدير هى شريعة الاسلام ، فهى التى كرمتها ورفعت من شأنها ، وقررت لها من الحقوق مثل ما قررت للرجل تماما ، ولا فرق أبدا بين الرجل والمرأة فى الاسلام ، ولا يقول بغير هذا الا جاهل أو متعنت ، نقول انه لا فرق بين الرجل والمرأة فى دستور الاسلام فى باب الحقوق والواجبات العامة ونحن نعنى ما نقول ، فان هذه الفروق البسيطة فى استعمال الحقوق التى تلابسها ظروف خاصة لا تدل أبدا على انتقاص فى القدر ، أو سلب للحق ، لأن طريقة استعمال الحق وطريقة أدائه تتفاوت وتنشأ عنها فروق حتى فى الحق الواحد بين طبقات الرجال أنفسهم ، واستخدام الحق يخضع دائما لظروف وملابسات ، وذلك هو الشأن فيما يبدو من الفروق الملحوظة والتفاوت المدرك بين حقوق المرأة والرجل ، ويقع مثله بين الرجل والرجل فى استعمال حق واحد مقرر لكليهما كما قلنا ٠

كرم الاسلام المرأة وأعطاها حقوقها كاملة ، ولعل هذا من البدائه ولم يعد مثار نزاع ، ولا نريد أن نطيل فيه القول أو البيان ، وقد كان واجبا أن ترشد قيادة الاخوان المسلمين المرأة الى كل هذه المعانى التى قررها لها الاسلام بعد أن سيطرت عليها مفاتن الحضارة الغربية ، وتسلط عليها دعاة المدنية الزائفة ، فصوروا لها الاسلام على أنه رجعية وتأخر ، وآدابه وتقاليده على أنها جمود ، وعلى أنه يجافى واقع الحياة ، ويتنافى مع كل الحقوق الانسانية ، وأنه سلبها كل ما يجعلها انسانا حيا يستمتع بحقوق الأحياء ٠٠ !! كان واجبا أن تعمل قيادة الاخوان المسلمين على تصحيح هذا الفهم وهذا الوضع وأن تجد فى هذا السبيل ، ثم تعبىء قوى المرأة بعد أن توجهها هذا التوجيه السليم الى العمل فى ميدان الدعوة على الوجه الذى يتناسب مع حالتها ، ولا تنكره آداب الاسلام ولا تأباه تقاليده بل تحض عليه تعاليمه ، فماذا فى هذا ؟ ! أليست المرأة هى عماد البيت وروح الأسرة التى تهبها الحياة النابضة ؟ وأى شكوى فى مصر بلغت فى ارتفاع الصوت ما بلغته الشكوى من انحلال الأسرة وضعف رابطتها واضطراب سياسة البيت تبعا لذلك بسبب استقلال أى من الزوجين بأمر من الأمور أو استبداده برأى خاطىء ، وتشبثه بأمر فطير ؟ ٠

ان اصلاح المجتمع المصرى يكاد يكون مركزا فى يد المرأة ، أعنى مرهونا باصلاحها ، وهذه أيضا من البدهيات المقررات ، ولكن الناس فيما يظهر

يجهلون حقيقة مركز المرأة فى الاسلام ، ولا نريد أن نزيل من معالم هذا الجهل بتقرير الحقوق والواجبات التى قررها الاســـلام لها ، فهذا كله قد تنـاوله الكثيرون بالابانة الكاملة ، لكنا نريد أن نقول انهم يجهلون حقيقة مركز المرأة فى الجهاد الاسلامى ، وبسالتها النادرة فى مضماره ، وسبقها فى ميدانه ، فلنذكرهم بحقائق أمجاد هذا التاريخ فى اشارة سريعة مجملة ، فلقد عرفت الدعوة الاسلامية المرأة سيفا مسلولا يصارع الباطل ويقف فى وجهه ، عرفتها معنى كبيرا تقرؤه فى تاريخ خديجة المؤمنة المجاهدة ، رمز التضحية والفداء، وعنوان الصدق والوفاء ، التى ضربت أروع المثل فى الايمان والبســـالة والاقدام ، يأتيها الرسول صلى الله عليه وسلم فيحدثها عن الوحى والرسالة فتصدقه من أول وهلة وتقول : « أبشر يا ابن العم واثبت فوالذى نفسى بيده لأرجو أن تكون نبيا لهذه الأمة » · فانظر كيف توصيه صلى الله عليه وسلم بالثبات ·· وتدبر كيف تكون أول من آمن ، وبلا مناقشة أو تردد ، وتقرؤه أيضا فى تاريخ هؤلاء المجاهدات اللاتى أوذين واضطهدن وبذلن فى الجهاد الصادق للدعوة ما لا يتسع المقام لذكر آثاره ·

ومنذ أن قضى على الأمم الاسلامية أن تتوارى وتبقى فى المؤخرة قضى معه على هذه المعانى الحية التى عرفها التـاريخ عن المـرأة ترمز لبطولتها الفذة ، وترشد الى مجدها الشامخ ، الذى بلغته من سيرة المرأة المسلمة ·

ولقد كان من أول من أسلم بعد خديجة : أم الفضل زوجة العباس وأسماء بنت أبى بكر وفاطمة أم جميل بنت الخطاب ، ولهؤلاء وغيرهن — ممن ذكرن فى مقدمة الكتاب — صحائف بيض لم تر الدنيا أنصع منها ، ولم يسمع التاريخ بمثل بلائهن فى الجهـــاد فى أى عصر من العصـــــور أو فى أية دعوة من الدعوات · وعلى كل حال فغير خاف ولا منكور أن الاسلام قد كرم المرأة،وبالغ فى تكريمها ، وأعطاها من الحقوق وفرض عليها من الواجبات ما لم تنله فى أية شريعة سابقة أو لاحقة ، ومناط التكريم والتشريف والاعزاز كما هو ظاهر انما فى توازن هذه المعادلة : « الحقوق والواجبات » يكون مدلول كل منهما طرفا من أطرافها ، فالاسلام من هذه الناحية قد اعترف للمرأة بالجدارة المطلقـة ·

هذه واحدة ، والثانية أن المرأة قد ساوت الرجل وأدت واجبها كما أداه هو فى ميدان الجهاد للدعوة الاسلامية ، أو فلنقل انهـا ساهمت فى نصرة الدعوة مساهمات قيمة ، وما كان هذا الا الأمر الطبعى الذى لا بد منـه ، فكل دعوة من الدعوات تســتخدم المواهب جميعا فى نشـــاطها حتى فى الحيوان والجماد وفى كل ما يســتفاد منه ، فكيف تترك الدعوة نصـــف المجتمع ، لا أقصد نصفه العددى أو الكمى ، ولكن نصفه الرئيسى المكمل له ككل ؛ لا تهمل دعوة أو فكرة اصلاحية المواهب والقوى فى الأمة ، ولا تقتصر فى الانتفاع بنصف المجتمع الذى تصدت لاصلاحه ، الا اذا كانت دعـــوة محلية محدودة ، أو خيالية مخدوعة ، فلعلها حينئذ تتصور المجتمع بلا امرأة أى خاليا من العنصر المتمم للرجل ·· !

وما ميز الدعوة الاسلامية فى شمولها الكامل الا أنها قد احتاطت لكل أمر فى المجتمع ووضعت علاجا لكل حالة ، ولم تترك ثغرة من الثغرات ، بل انها تكفلت بالانتفاع بجميع المواهب فى الأمة فى حدود ما قررته الشرائع والأحكام ؟ واذن فما على قيادة الاخـوان من بأس ولا حــرج اذا جندت المرأة للعمل والجهاد فى الدعوة الاسلامية ، ما دام هذا قائمـا فى حدود الدين ، متفقا مع تعاليم الاسلام ومبادئه ، وهو ما حدث بداهة ٠

ان المرأة هى رمز شرف الرجل ان خدش انهارت آماله المعنوية ، وهى الحارس الأمين الذى أقامه على كنز عفافه ، وهى التى تهدم ان شاءت بناء حياته وتقوضه من أســـاسه ان فرطت فى هذه الأمانة ، وهى التى تحافظ على سلامة هذا البناء وبهائه ، وبيدها مفتاح السعادة البيتية واســـعاد النفوس ، فهى ان تهاونت فى شىء من واجباتها مهما كان صغيرا أو نظريا تافها جلبت الشقاء والدمـــار ، وانحدرت بالبيت الى الهـــاوية ، وبدلت السعادة شقاء ٠٠ ومن أجل ذلك فاننا لا ندعو رجلا ولا نشجعه ، والدا كان أو أخا أو زوجا الى أن يتهاون ولو بعض التهاون فى صيانة مظــاهر الآداب فى المرأة ، نقول « مظاهر الآداب » ونحن نعنى ما نقول ، فعندنا أن الآداب فى المرأة ذات صورتين : حقيقة ومظهر ، وكلتاهما واجبة الرعاية ، وبقدر ما يجب التأكد من الحقيقة وحراستها والقوامة عليها ، يجب كذلك العناية بالمظهر ، ما دام هذا كله بعيدا عن العنت والشذوذ المسـتحكم ٠ والتفريط فى اليسير والتهاون فى الصغير يسوقان الى كل كبير ، وحسن الظن دائما هو مفتاح الشر ، وهو الطريق الى الهاوية ، ومعظم النـــار من مستصغر الشرر ؛ هذه حقائق نعرفها ، وندعو الآباء والأزواج وكل رجل الى التمسك بها ، وهى قواعد يلقنها الاخوان المسلمون للمرأة نفسها فيما يلقنونه اياها فى سماحة ولطف ، ارشادا لما ينبغى أن يكون ، بعيدا عن التفريط والافراط وايذاء مشاعر الناس ، والذين يثيرون هذه الشبهات يعرفون أن الاخوان هم أحرص الناس على الشرف ، وأنهم رسل الفضيلة ، ويعرفون كذلك أن حركتهم الاصلاحية هى أول حركة نسوية فى مصر والشرق قامت على أساس متين يهدف الى تحرير المرأة تحريرا حقيقيا ، ويعطيها كل حقوقها ، ويرتقى بملكاتها ويهذب كل مواهبها ، ويربيها على أسمى ما عرفت الانســـانية من مبادىء الشرف والفضيلة والعفاف ؛ انهم يعرفون هذا كما يعرفون أبناءهم ولكن فريقا منهم يكتمون الحق وهم ظالمون ، انهم يريدون أن يعطلوا كل حركة اصلاحية نافعة ، ويريدون أن يقفوا فى وجه كل عمل يعود بالخير على هذا الوطن وعلى هذه الأمة ، ثم ان أعصابهم تثور دائما كلما سـمعوا كلمة : « الاسلامية » تقترن بالاصلاح أو تذكر معه ، فهم لا يريدون أن يســمعوا صوتا اسلاميا ، يؤذيهم هذا النغم ويحطم مطامعهم لا يريدون أن تقـــوم نهضـــة الأمة على هــذه الأســس السليمة السمحة الكريمة الفاضـــلة الطاهرة التى جاء بها الاسلام ، هذا هو الوضع الصحيح لسر ثورتهم كلما وجدوا قيادتنا تخطو الى الأمام ، وتدرك توفيقا ، وتســير الى أهدافهـــا بوثبات سريعات ؛ والا فليقولوا ماذا أغضبهم منا لأننا شرعنا نربى المرأة

على مبادىء الاسلام لتحيا على الفضـــيلة وتعيش على الجهـــاد فى الله والوطن ، وتنصرف الى عمل الخير والاصـلاح ؟ ماذا يضـيرهم من هذا ؟ وماذا يضرهم فيه وماذا يضير المجتمع والأمة ؟ ولماذا يقومون فى وجهنـا نحن الذين ندعو الى الخير والطهر والشرف والعفاف ، الذين نبشر بدعوة القرآن ، وبمبادىء الاسلام لا نحيد عنها ولا نخالف تعاليمها ، فلا نقول الا خيرا ولا نعمل الا خـيرا ولا نأتى الا بخير ؟ لمـــاذا يتحركون ويثورون من أجلنا ويسكتون على هؤلاء الماجنين دعاة الفســـق والفجور ، الذين يهدرون شرف الأمة ويريقون الأعراض فيها فى اليوم الواحد والساعة الواحـــدة مئات المرات ؟ لماذا يسكتون عن هؤلاء وتعجبهم تصرفاتهم الا أن يكون بينهم وبين ديننا وفكرتنا كمسلمين خالصـــين ، وكدعاة الى الفكرة الاســـلامية الصميمة ثأر لا نعرفه ، أو بينهم وبين الاسلام عداء يجب أن يسفروا عنـه وأن يميطوا اللثام عن أسبابه ودواعيه ؟

لقد جندنا المرأة أيها الناس للجهاد فى الدعـــوة وسنمضى فى هذا السبيل ونحن ماضون فيه ، ثم نحن قد عبأنا ـ وسنعبىء دائما ـ كل القوى والمواهب فى هذه الأمة لن نغفل منها شيئا أو نتركه ، وما أغفلنا ولا تركنا ، فقولوا ما شئتم فلن تنالوا منا منالا ، ولقد قلنا لكم ان دعوة الاخوان وقيادة الاخوان هى سر القدرة ومظهر ارادة الله ، والله أبدا غالب على أمره ٠

جندنا المرأة لننقذها من شروركم وآثامكم ونبصرها طريق الفضـــيلة ومواطن الشرف ، ولننتشلها من أنياب الذئاب المفترســـة الجائعة التى لم تبق على حرمة من الحرمات ، ولنســموا بها ونعلمها حقيقة الحـــرية التى تبرز شخصيتها وتربى حيويتها وتكمل انســـانيتها ، وحقيقة هذه الحقوق الانسانية الطبيعية التى يجب أن تتمتع بها ، وفى هذا التمتع تكميل لهـا وتجميل ؛ ثم لنعود بها الى وظيفتها الحقيقية الطبيعية من اســـعاد البيت وتوفير هناءته وادارة ســياسته ، ونهيئها للتتويج على عرش مملكة البيت يزفها الحب والاخاء والتضـــامن الوثيق ، جندناها من أجل هذا كله وأكثر منه مما تعلمون ولا تعلمون ، ولقد نجحنا ووفقنا ، وسننجح دائما لأن الحق معنا ، وتطور الأمة الطبيعى فى جانبنا ، وقد شـــعرت الأمة أننا جـــادون لا هازلون ، وأننا لا نعبث كما يعبث العابثون ، وأننا نعمل حقا للبنـــاء ولقضية الاصلاح ، لا للرتب والمناصب والألقاب والأشخاص الفانية ٠

كانت المرأة المسلمة فى القرن الأول والثانى الهجرى مثلا يحتذى فى الجهاد الاسلامى ، صنعت الأعاجيب وقدمت للتاريخ أروع المثل فى التضحية والوفاء ، وستعيد « الأخت المسلمة » بتربية قيادة الاخـــوان المسلمين هذه السيرة الناصعة فى القرن الرابع عشر ، ستعيدها تاريخا عمليا تقف أمامه الفكر ، وتنحنى أمامه الهـــامات فيا أيها القوم : اننا نجـد وأنتم هازلون ، فأفيقوا واسمعوا لغتنا ٠٠

* * *

ثم عادوا بعد هذا يحنون الى محاربة الحقائق الطبيعية والمقررات البدهية بأوهام التشريعات وصيغ القوانين ، عادوا الى قصة الفصل وخرافة التجزىء ، يقولون هذه جماعة بر وخير لا ينبغى أن تكون لها مهمة غير ذلك، وهذه هيئة أخرى لها وجهتها ولها اتجاهها ، لماذا ؟ لأن الناس يريدون ذلك ، وهذا المعنى يرضى نفوسهم ويشرح خواطرهم ، فوجب تبعا لهذا الهوى أن يأخذ الانسان الواحد فى مجتمعه عدة صور وأشكال ، ان أراد أن يؤدى واجبا وطنيا اتخذ شكلا خاصا ، أو أراد أن يقوم بعمل اجتماعى أو خيرى انسانى اختار سمتا آخر ، وهكذا ٠٠ فهو واحد متعدد ، هو اجتماعى مرة ، ورجل بر مرة أخرى ، ثم هو رجل دين ورجل سياسة أو اقتصاد أو قانون أو تشريع ، كلما هم بعمل من الأعمال لبس ثوبا خاصا لأن الناس أرادوا ذلك ويريدونه ، ولأن الرجل الدينى فى تقديرهم وفى حساب عنتهم ينبغى أن يكون محبوسا فى الزوايا والصوامع ، والرجل السياسى يجب أن يطلق معانى الشرف ، ويفر فرارا من النزاهة ، فالدين والسياسة لا يجتمعان مثلا ، وكذلك الشأن فى باقى الشعب والفروع ٠٠ !!

افهموا لغتنا أيها الناس ، واصغوا الى منطق الفكرة الاسلامية فى استقامته ووضوحه وسلامة حجته ومخاطبته للعقل ، ان الفكرة الاسلامية تجعل من المسلم الرجل التقى العابد العارف لربه المؤدى لحقوقه وواجباته لأن هذا مطلوب منه ، ثم تجعل منه رجلا اجتماعيا يرعى حقوق مجتمعه ، ورجلا سياسيا وطنيا يذود عن حقوقه السياسية الخاصة والعامة وحقوق أمته وحرمة أوطانه وقداسة قوميته ويموت فى استنقاذها ، وهكذا يندبه الاسلام لهذه المهام كلها بحيث لا يكون انسانا تتقرر له الحقوق الانسانية الا اذا فطن لهذه الغاية ولهذه الواجبات كلها فأداها حق الأداء ٠

هذا هو فهم الفكرة الاسلامية للرجل وللفرد كمصلح ، وللاصلاح نفسه كواجبات كلها سلسلة واحدة لا تنفصل حلقاتها ، وليس فى الاسلام — كما قررنا وكررنا — أبدا هذا المعنى الذى يجعل للدين رجلا ، ويفرض للدنيا رجلا غيره ، فرجل الدين هو الذى يعمر الدنيا ويصلحها ويستفيد من خيراتها ومباحاتها ، ورجل الدنيا هو الذى يقيم معالم الدين فيها بكل حركة من حركاته وكل وجهة من وجهاته ٠

لا يعترف الاسلام بهذا الفصل ولا يقره ، فقد جاءوا به افكا وزورا ، جعلوا للدين رجلا وللدنيا رجلا وانها لقسمة ضيزى ، واختاروا للشئون الاجتماعية رجلا وللسياسة رجلا وللقانون رجلا ٠٠ الخ ٠ وانها لبدعة جنت على الأمة وأخرت قضية الاصلاح ، وبددت الجهود ومزقت القلوب ، فما المراد بعد هذا من فكرة النظام الاسلامى فى هذا المعنى الاصلاحى ؟ المراد بفكرته هو شمول النظام الاسلامى وكماله كما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم يتضمن تعاليم تنظم حياة الناس فى عباداتهم ومعاملاتهم ، ويتناول أيضا نظام القضاء والتشريع والثقافة والاقتصاد ، ثم يتناول نظام الحكم وشكله ولونه فى صميم ما يتناول ٠

هذا هو النظام الاسلامى كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ونفذه ، وكما فهمناه ، وكما فهمه حتى الأجانب وغير المسلمين من المستشرقين وغيرهم فكتبوا فيه وتناولوا نظامه وتشريعه وحضارته ، فهل لا يزال يوجد مسلم فى القرن العشرين يجعل هذا المعنى الشامل لحقيقة الاسلام أو على الأقل ينكره ويمارى فيه ؟ ! ما أظن ·· ! ولكنها الرغبة فى مناوأة كل خير ، أو هى العدواة المتأصلة المستترة للاسلام كما قلنا ·

ما الذى يؤلم الناس أن يكون رجل الدين — حتى على المعنى الضيق الذى يفهمونه للدين — وطنيا أو اجتماعيا أو سياسيا أو ما شاءوا من الأسماء !؟ ما الذى يؤلمهم من هذا الا أن تكون له أسباب خفية غير ظاهرة ، والا أن يكون له تقدير خاص فى حسابهم ؟! انما جاء الاسلام فخاطب الفطرة والشعور ، ونظم واقع الحياة ، وكلتاهما لا تنال منها التشريعات أو تعسفات القوانين لأن من الحق الطبعى لكل انسان أن يكون وطنيا أو دينيا (حتى على ما يفهمون من معنى الدين) ، أو سياسيا أو اجتماعيا ·· الخ · هذا حق طبعى ، فاذا جاءت قوة القانون أو أية قوة أخرى لتشتط وتقول لهذا انك رجل دين فلا شأن لك بالسياسة ، وأنك سياسى فلا ينبغى أن تتحرش بالدين ، أو أنك اجتماعى ، وهذا ثقافى أو اقتصادى ·· فهى انما تحارب الطبيعة الانسانية ، وتقاوم الحقوق الفطرية ، أى أنها تطلب المحال ·· وهذه مسألة يجب أن يزنها هؤلاء الرجال ومن يدفعونهم الى امتهان روح القواعد التشريعية العامة ، والانحدار بمستواها ، وقلب الأصل فيها وعكس الغاية منها ، فبدلا من أن تكون قوة تنظم الخير للمجتمع وتيسر سبله تصبح قوة مضادة معطلة مناوئة ·

ان الاخوان المسلمين لا تؤذيهم أبدا هذه التشريعات ، ولا يغضبهم أبدا أن تنظم الحكومات أعمال الخير وتشرف عليها من الناحية المادية أو الادارية سدا للذريعة واحكاما للنظام ، ويا ليت الحكومة تستطيع الهيمنة الفعلية الحقيقية على هذا الباب فتمنع كثيرا من الشرور ، ان الاخوان المسلمين ليشعرون أن هذا واجبا رئيسيا من واجبات الحكومة التى يفرضها عليها الاسلام ، والتى تؤاخذ ان قصرت فيها ، هذا هو موقفنا من مثل هذه القوانين أيا كانت « كاخوان مسلمين » ولكن ما هذا التعنت الذى يسخر القوانين لخدمة الأغراض التى لا تمت الى روح التشريع بسبب ، فما للقوانين والحد من نشاط الهيئات والجماعات ؟ فهذه ينبغى أن تشتغل بالسياسة فقط وتسمى « هيئة » وهذه تشتغل بأعمال الخير وتسمى « جماعة بر » ، وهذه لا أدرى ماذا تسمى أو ماذا تعمل ، ولا القانون نفسه يدرى أيضا ··· !! ففى أى عصر نعيش يا قوم ؟ وهل هذه مدنية القرن العشرين ورقيه الفكرى والتشريعى ؟ ! ···

★ ★ ★

وبعد ·· فان قيادة الاخوان أحكم فى تصريفها وعلاجها للأمور من أن يكون لمثل هذا القانون سلطان عليها ، فمرحبا أيها القانون ومرحبا ألف

قانون وألف تشريع قبلك أو بعدك والدعوة التى تحارب بقانون لا تستحق البقاء ، والجند الذين يرهبون سطوة مثل هذه « الأفاعيل » تجمعهم أو تفرقهم أولى بهم أن ينفضوا .. !

ان كل ما يعنى قيادة الاخوان أن تكون كما هى اسلامية تأخذ من المنهاج الاسلامى وتطبقه ، وتستقى من مصادره فى تصرفاتها وأعمالها ، وحركاتها وسكناتها ،هذا هو الأمل والأساس الذى عليه المعول فى دستور قيادة الاخوان ، وهو المعنى المصون دائما الذى تحرسه المهج والأرواح ، والذى تحرص القيادة على افتدائه بأعز العزيز ، ولقد قلنا فيما سبق ان دعوة الحق لكيما تكون منطقية مع نفسها تماشى كل وضع وتسايره أو تخضعه لقوتها ، ولا تتنافى مع أى تشريع مادام رائدها خدمة الناس لا خدمة الأغراض الذاتية ، فهى لا تزاحمها القوانين ولا تضيق عليها التشريعات ، بل انها تزامل هذه الأوضاع لو وجدت،وتقوم الى جوارها تماشيها وتمدها وتزاملها، وتقوى الصالح منها وتفنى غير الصالح ، ذلك ما أشرنا الى معناه فيما سبق ، وهو معنى لم يتخلف يوما فى أى صراع بين حق وباطل ، ولا خلت من مظهره الرائع معركة من معاركهما ، ولهذا فلم تتأثر الدعوة بهذا القانون . ولا شعرت بوطأته وكأنه لم يصدر ، والا فماذا جرى وماذا كان ؟!. قالوا ان قائد الاخوان قد لان واستكان ، وقد ظل سبعة عشر عاما يقول لا فصل بين الدين والسياسة ، وجاء الآن يعترف بهذا الفصل لأنه ينفذ قانونا من قوانين الدولة أقره البرلمان ويحميه القضاء وتسهر على تنفيذه كل السلطات ، لأنه قانون نافذ مر بكل الأدوار التشريعية المختلفة ، وهذا القانون يقضى بأن الجماعات التى تقوم بأعمال الخير وتكون مهمتها تنظيم شئون البر والخدمة الاجتماعية العامة ، ينبغى أن تكون مستقلة بتشكيلها الادارى وميزانيتها المالية .. الخ . قانون من قوانين الدولة قضى بهذا ، فنفذته قيادة الاخوان ، فهل يكون معنى هذا أنها فصلت بين الدين والسياسة ، وقبلت النظرية التى قال بها المخرفون المغرضون ، وخرجت على مبادىء الاسلام ؟ ! فما لهذا وهذا يا أصحاب العقول ؟ !

يذكرنى الرد على هذا المنطق بقوله تعالى : « **أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل» ؟ !** (١) . أفلم تنكروا الحق فى عدم الفصل بين الدين والسياسة ولم تقروا بمبدئه ؟ ! فاذا قلنا لا نفرق بين الدين والسياسة قلتم انكم اذن لمتعسفون متكلفون ، واذا نفذنا قوانين الدولة القائمة كما يأمرنا ديننا احتراما لهيبة النظام العام وحرمته ، وحتى لا يكون الأمر فوضى بلا ضابط قلتم : ضعف واستكانة وخروج على المبادىء ، لا أيها القوم ، ما ضعفت قيادة الاخوان ولا لانت ، ولا هى خرجت عن طبيعة مبادئها أو حادت ، انها قد سجلت عليكم تسخير القوانين لغير ما وضعت له ، وقضت فيكم بأن دعوتها كحق خالد لا يؤذيها هذا القانون ولا قانون غيره ، ومادمنا أشرافا أطهارا جادين فى غايتنا فماذا يعنينا من قوانينكم وماذا يخيفنا ؟ ! عليكم أن تضعوا من القوانين والتشريعات ما شئتم ، وسنريكم دائما الحق حقا .

---

(١) : القصص : ٤٨

نفذت قيادة الاخوان هذا القانون لا لأنه وضع لتقرير مبدأ الفصل بين الدين والسياسة ، أو لأنها هى أقرت هذا المبدأ أو لا ينته ، ولكن لأن القانون قضى بأن يكون النظام الادارى هكذا منفصلا ففصلناه ، فصلنا النظام الادارى والمالى وهو الذى يريده القانون فهل هذا فصل للدين عن السياسة وهل هذا الفصل بمواد القانون وحروفها ، الذى يقضى بتوزيع نشاط الأشخاص ، وقصر مجهود طائفة منهم على أعمال الخير والبر وحدها بميزانية مستقلة منفصلة ، بينما آخرون لهم وجهة غير هذه ؟ هل معنى هذا ومؤداه أن « حسن البنا » ومعه الدولة كلها بسلطانها ، قد انتزع قلوب الناس من صدورهم ، وصادر مشاعرهم ، وانتزع منها هذه الدماء التى تغلى وتفور وتقول : لا فصل بين الدين والسياسة ... ! هل انتزع « حسن البنا » هذا الايمان فى الصدور ، وهذا الشعور الدافق من الناس لأن قانونا من قوانين الدولة صدر فى معنى خاص تنظيمى من هذه المعانى فنفذه ؟ ! وهل يستطيع أحد أن ينتزع الايمان من القلوب ؟

ان مبدأ عدم الفصل بين الدين والسياسة أو غيره من الأمور المتصلة بالعقائد لا سلطان للناس عليه ، وهو لا تنظمه القوانين ، ويكاد هذا القانون يكون بعيدا عن هذا المعنى وهو ان مسه فانما يمسه من بعيد ، وهذا المساس هو ما انتهزه الأفاكون ليقولوا لقد قبل « حسن البنا » مبدأ الفصل بين الدين والسياسة ، «**كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا**» (١) .

كل ما فى المسألة أننا واثقون من حقنا ، وأننا لا نريد أن نتعنت لأن اسلامنا وديننا يأمرنا بذلك ويعلمنا هذا المنطق : « **لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين** » (٢) . « **ان عليك الا البلاغ** » (٣) . «**ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء** » (٤) . « **لست عليهم بمسيطر** » (٥) .. وهكذا الاسلام وتعاليم الاسلام التى علم الله نبيه ليسوس بها الناس سواء كانوا من المتعنتين أو الممالئين ، أو كانوا أصدقاء أو منافقين أو خائفين أو مترددين أو مجاملين أو مؤمنين .. علم القرآن رسول الله طرائق معاملات هؤلاء جميعا : كيف يسوسهم وكيف يعاملهم بصراحة ووضوح على اختلاف مشاربهم ودرجاتهم ، وكيف يحاكم الحوادث ، وكيف يعالج المنطق ، وكيف يمارس الزمن نفسه ، كل هذا فى الاسلام وفى القرآن وفى تعاليم الله لنبيه ، وقد فعلناه ، لأن قيادة الاخوان تلقته من هدى محمد ، فهى تترسم خطاه وتسير على هداه ، « **فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون** » (٦) ، « **فتربصوا حتى يأتى الله بأمره** » (٧) .

---

(١) الكهف : ٥ — (٢) الكافرون : ٢ ـ ٦
(٣) الشورى : ٤٨ — (٤) البقرة : ٢٧٢
(٥) الغاشية : ٢٢ — (٦) الذاريات : ٢٣
(٧) التوبة : ٢٤

على أن منطق التشريع نفسه لم يملك الا أن يكون فى اتجاه منطقنا ، فاقر لنا بروح فكرتنا ، وجوهر عقيدتنا ، وهذا كل ما يعنينا ، أما أن ترى الدولة أن تنظم طريقا خاصا ، وتشق مسلكا معينا تحقق به حكمة ، أو أمرا من الأمور حسب وجهة النظر التى تراها وتوافقها عليها الهيئة التشريعية للأمة ، ثم ينفذ هذا القانون فى جميع أنحاء الدولة فيأتى المتكلفون المتعنتون ويقولون ان معنى انفاذ هذا القانون تغيير العقائد السارية فهذا ما لا يقول به عاقل ... !

نقول ان منطق التشريع قد اتجه مع منطقنا ، فهذه فتوى قلم قضايا الحكومة تنص بالحرف الواحد ، وتفصل فى هذه القضية بيننا وبين المتعنتين : « بالاحالة الى الكتاب المطلوب به استطلاع رأى القسم فى مدى تطبيق القانون رقم ٤٩ سنة ١٩٤٥ الخاص بالجمعيات الخيرية والمؤسسات الاجتماعية على هيئة الاخوان المسلمين ... يتشرف القسم بالافادة بأنه بالاطلاع على النظام الأساسى لهذه الهيئة ، وعلى الأوراق المرفقة بكتابكم السالف الذكر تبين أنها : « هيئة سياسية دينية اجتماعية » تتكون من مركز عام ومن شعب ، وأن شعبها تتمتع باستقلال ذاتى واسع فلها مجالسها الادارية وجمعياتها العمومية وماليتها المستقلة . مادة ٣٣ وما بعدها من النظام الأساسى للهيئة » (١) .

وهكذا أقر لنا الروح العام والتقى بوجهة نظرنا ، وهذا هو المهم ، وانما عنينا بالرد على هذه « السفسطة » وأكثرنا الكلام حولها لنضع الخطوط الرئيسية التى يجب أن يعرفها عنا الناس ليريحوا أنفسهم ، وليعلموا أن محاولاتهم معنا تذهب هباء :

يا ناطحا جبلا يوما ليوهنه أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

★ ★ ★

ولعل من تتمة الكلام فى هذه الناحية ، أو لعل الجدير به أصالة أن نقول أن الاخوان المسلمين لم يتعودوا أن يمدوا أيديهم الى أحد طلبا لاعانات أو تبرعات أو هبات ، وما أراقوا يوما ماء وجههم لا على القوانين يستجدونها ويتلمسون لديها الطرق والوسائل والضمانات ، ولا على الوجوه المشروعة الأخرى يستدرونها ، وانما تعودوا وبدأوا دعوتهم وهم يتولون الانفاق عليها من ذات يدهم ومن قوتهم وقوت عيالهم وأهلهم ، وأن هذه الاعانات الحكومية انما أدركتهم أخيرا وهى مبالغ تافهة ، ولكنها على كل حال من مال الأمة لا من مال زيد وعمرو ، وان نصيب الاخوان منها ـ كما قلنا ـ ضئيل لا يكاد يذكر ، تستحى ان قارنته بأية اعانة أخرى مما يغدق

---

(١) من خطاب قلم قضايا الحكومة لوزارة الشئون الاجتماعية بتاريخ ٦ نوفمبر سنة ١٩٤٥

على الهيئـات والجمعيـات الأجنبيـة وما يماثلها . ولقد قامت مشروعات الاخوان من يوم أن بدأوا جهادهم وميزانيتها هذه القـروش التى يقتطعها جنود الفكرة من أخص خصائصهم ويكدون ويكدحون فى جمعها .

ولقد جاء مشروع انشاء دار المركز العام ثم مشروع انشـاء الجريدة اليومية ودار الطبـاعة مؤكدا لهذا المعنى ، فان قروش الاخـوان مع كثرة عددهم — والحمد لله — هى التى أبـرزت هـذا المشروع الحيوى الجليـل وأخرجته ، وهى التى ستغذيه وتمده الى أن يبلغ مداه من الكمال والنجاح .

* * *

فاذا قالوا بعد هـذا — وما أكثر ما يقولون — انكم اذن تريدون أن تقطفوا من كل حديقة ، وتغشوا كل بستان ، وتستأثروا بثمار كل شـجرة قلنا : نعم ... وهذه هى طبيعة الاسلام ، فعل الخير من صـميم تعاليمـه . « **وافعلوا الخير لعلكم تفلحـون** » (١) . « **لا خير فى كثير من نجـواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس** » (٢) . فنحن بهذا جمعية خيرية بكل معانى الكلمة ، وينطبق علينا قانون الجمعيات ، ولا نتخلى عن هذا الوصف أبدا لأنه من صميم تعاليمنا الاسلامية وداخل فى مهمتنا ، ثم اننا نأتمر بأوامر الله ونجتمع على الحب فيه ، ونذكره ولا نعبد سواه ونؤمن به، ونعتمـد عليـه حق الاعتماد : « **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب** » (٣) . فنحن بذلك متصـوفة عابدون ، هكذا نحن دائمـا لأننا مسـلمون ، نذود عن أوطاننـا ، ونقدس قوميـاتنا فنكون وطنيين متطرفين ، هكذا نعمل فى كل ناحية لأن ديننا يحضنا على هذا كله ويأمرنا به ، لا نفرق بين ناحية وناحية ، بل انها كلهـا عنـدنا جزء لا يتجزأ ، لأن الاسلام هكذا ، ونحن مسلمون نؤمن بالاسـلام كله ، ولا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض .

* * *

أما هذه التشكيلات الكشـفية والفرق الرياضية ، وهذه الشركات .. الخ . فهى باسم الله ولله ، وللاسـلام والمسـلمين فى مشـارق الأرض ومغاربهـا ، وليسـت لأشـخاصنا وذواتنـا ، ولا نريد أن نعيد هنا ما ذكرناه من أن الاسلام قد عالج مشاكل الحياة من صـميم واقعها ، ففيه الاقتصـاد والرياضة والكشف والجندية والعسـكرية ، وفيه كل ما يعرفه الناس اليوم ، والا فهل كانت الحياة الاجتماعية للأمم الاسـلامية حيـاة خيالية أو حياة وحشية ، وهذه الحضارة القائمة تفقأ العيون ، وتزرى بكل تقدم فكرى أو عقلى .. هل كان بناتها الا قوما عريقين فى الثقافة الاقتصادية

---

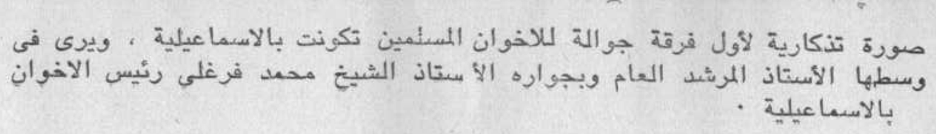
(١) الحج : ٧٧ (٢) النساء : ١١٤
(٣) الرعد : ٢٨

والسياسية والتشريعية .. الخ . أو ليس من الثابت تاريخيا أن الحضارة العربية هى مصدر الحضارة الغربية وسابقتها بالفضل ؟ وهى التى أمدتها ومهدت لها ، وأنه لولا هذه الصلة بين أوروبا والشرق العربى التى تمت فى العصور الوسطى لظلت أمم الغرب فى وحشيتها وضلالها ، اذا كان هذا كله ثابتا مقررا معروفا بالتفصيل فى موضعه من التاريخ ، فكيف تفر العقول من الحقيقة المنطقية لهذا كله وهى تنادى أن هذه الحضارة الاسلامية كان بناتها لأناسى لهم حياة اجتماعية تخضع فى واقعها لمستوى أرقى مما بلغناه ووصلنا اليه ، وقد نظمتها تشريعات ثقافية واقتصادية وعسكرية .. الخ . أما النصوص الاسلامية من القرآن والتاريخ للدلالة القاطعة على أن كل ما يعترض عليه ويراد ابعاده عن مأمورات الاسلام ، وعزله عما نصت عليه تعاليمه وما تضمنته مبادئه ، فاننا نعفى القارىء من ذكره بعد هذه الاطالة ، ولأن هذه القواعد العامة قد جرت بها الألسنة منذ أن بدأ الاخوان جهادهم فأناروا أذهان الأمة ، وما نظن أننا فى حاجة الى الاشارة اليها بعد أن ظل الاخوان طوال هذه السنين يهتفون بها :

وليس يصح فى الأذهان شىء اذا احتاج النهار الى دليل

على أن الاخوان المسلمين قد بدأوا جهادهم من أول يوم هكذا متسقا متناسقا وافيا بحاجات مجتمعهم ، متفقا مع حقيقة فهمهم للاسلام وتعاليمه ، فهم من أول نشأتهم سياسيون عسكريون مدنيون خيريون قانونيون اقتصاديون مشرعون كشفيون صوفية روحيون متعبدون .. الخ . وكل ما استحدثتم من الأسماء وجدتموه فى القرآن والاسلام ، ووجدتم المسلمين الى جانبه ، فبالله عليكم أريحوا أنفسكم من هذا العناء واهتفوا بالقرآن دستورا ؛ ويرى القراء قبالة هذا الكلام صورة لأول فرقة لجوالة الاخوان المسلمين وقد أنشئت بالاسماعيلية ، ولم يكن عدد الاخوان يجاوز حينئذ المئات القليلة فى مصر كلها ؛ فما ترونه من نجاح نتيجة طبعية لفكرة آمن بها أصحابها نظاما كاملا شاملا ، وجاهدوا فى سبيلها ، وضحوا من أجلها فأدركهم النصر ، وبلغوا النجاح .

والاسلام يتخاطب مع كل عصر بلغته وأساليبه ، وبأسلحته ووسائله فلماذا لا يكون للاسلام صحيفة يومية وأسبوعية ؟ ومن أولى من الاخوان المسلمين بالدفاع عن الاسلام وانشاء صحيفة تنطق باسمه وتكون لسان دعوة الحق ، والصوت المنادى بدستورية القرآن ؟ ولماذا يغتاظ الناس من هذا ويألمون ؟ واذا كانت روح العصر وما يجرى به التعامل فيه ، وما يقتضيه التسابق فى ميادين الانتاج والرواج ، وطبيعة نظام المنافسات الجارية قد قضت على الاخوان أن تكون لهم شركة تستعمل نفس السلاح الذى يستخدمه خصوم الاسلام وغيرهم ، أو مما يتعامل به العصر ويستخدممن الوسائل ، فكان للاخوان من أجل ذلك شركة للصحافة كسائر الشركات الأخرى ، ولهم .. ولهم .. فى ميدان العمل والانتاج والاعداد والاستعداد ، فلماذا يقض هذا مضجع الناس ويحرمها لذيذ المنام ؟ ! هذا هو لب رسالتنا أيها الناس ، وهذا هو صميم مبادئنا ، وروح مهمتنا : أن نثبت لكم وللناس



صورة تذكارية لأول فرقة جوالة للاخوان المسلمين تكونت بالاسماعيلية ، ويرى فى وسطها الأستاذ المرشد العام وبجواره الأستاذ الشيخ محمد فرغلي رئيس الاخوان بالاسماعيلية .

أن الاسلام هو واقع الحياة الفاضلة ، هو تنظيم لهذه الحياة الاجتماعية والا فماذا يكون ؟ وكيف حينئذ ينبغى أن يفهم أو يتصور ؟ هذه هى طبيعة مهمتنا وروح رسالتنا فلماذا تألون ؟ نريد أن يصارحنا الناس بحقيقة موقفهم منا ومن مشروعاتنا وأعمـــالنا وتصرفاتنا ونجاحنا وتوفيقنا ، لا لأن هـــذا يخيفنا أو يعنينا ويعطلنا ، ولكن لنريحهم وندلهم على باب النجـــاة ، فما أمر هذه الدعوة الا كلمح البصر أو هو أقرب ، هى نهضة جديدة فى الأمة المصرية الاسلامية العربية ، ومشرق حضارة جديدة شرقية عالمية ، وستلون كل معالم النهضة والحضارة باللون الاسلامى ، وهذه هى الحقيقة التى قررها قانون الاخوان الأول ، اذ نص فيه على أن الاخوان المســلمين يعملون على تكوين جيل جديد يفهم الاسلام فهما صحيحا ويوجه النهضة اليه حتى تكون مظاهر الحياة كلها مستمدة من تعاليمه ، آخذة من روحه ٠٠ الخ ٠

هذه حقيقتنا أيها النـــاس ، وهذا هو مركزنا فيكم فما هى حقيقتكم منا ؟ لا نريد منكم جوابا لأنفسنا ، ولكنا نهيب بكم أن تلقوه على أنفســـكم ، أما نحن فان قافلتنا تسير باسم الله ، ففتشوا فى قلوبكم وابحثوا فى أنفسكم لمن تعملون وباسم من ؟ وأية غاية تنشدون ولماذا ضللتم الســـبيل ، وماذا صنعتم فى ميراث الأوطان ووديعة الزمان ، والى أين اتجهتم بقضية الوطن والاســتقلال والاصلاح ؟ ماذا فعلتم بهـذا كله ، وأين أنتم من هذه الأمانة التى سلمتها لكم الأجيـــال ؟ ماذا عملتم فيها ؟ أجيبوا أيهـــا القوم فغدا سنناقشكم الحساب وما الغد ببعيد ٠٠ هذه هى الأسئلة التى ينبغى أن توجه اليكم أنتم والتى يجب أن تنشغلوا بالتفكير فيها ، أنتم الذين يجب أن يحاكمكم الشعب ويناقشكم الحساب ، أما هؤلاء الأطهار المخلصون الأبرار ، الذين يواصلون الليل بالنهار لرفعة الوطن والنهوض بالأمة فستعرف الأمة حقهم وستوليهم قيادتها ، وقد فعلت ٠٠ فابحثوا لكم عن أمة أخـرى ترضى بأن تكون قضيتها تجارة يساوم عليها المساومون ٠٠

★ ★ ★

هكذا قال السفهاء من الناس : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ وهكذا دحضنا هذه الشبهات ، ولم يبق الا آخر ما جادت به جعبتهم من أن الاخوان ديكتاتوريون فاشســتيون نازيون ٠٠ ! ولعلهم نســـوا أن يقولوا شيوعيين أيضا ٠٠ ! هكذا زعموا وذهبوا يفتعلون الأوهـــام والأباطيل من هنا وهناك لتزيين هذا الافك وتصـــويره أمام النـــاس ، ونظن أن القـــارىء يوافقنا على أن هذه سخافة مضحكة ، فما قام الاخوان المسلمون قومتهـم ، وما هبوا بفكرتهم الا لمحاربة هذا الطغيان العالمى فى الأفكار والنظم والآراء ، وتطهير العقول من لوثات هـــذه المذاهب المخـربة الهدامة والقضـــاء على معالمها ، والاسلام بطبعه يحارب هذه الأوبئة ويعتبر اتباعها كفـرا وضلالا وخروجا على الملة الحنيفية السمحة ، وقد قضت قيادة الاخوان هذه السنين الطويلة ترشد الناس الى ضلال هذه المبادىء وتبين لهم أن الاسلام هـــو

جماع الخير ، وأن هذه المبادىء ما جاءتهم الا بالسم الزعاف ، ولقد بادت النازية وانهارت الفاشستية ، ومع هذا فلا يستحى هؤلاء من الجهــر بهذه الأسطورة وكأنما هم يعيشون فى عالم غير هذا العالم ، أو كأن عقول الناس قد أصبحت من الهوان بحيث تصدق كل ما يلقى اليها من افتراءات بلا تحقيق ولا تمحيص ..

ان الاخوان يسيرون الى غايتهم بالطريق القانونى الطبعى الذى كفله الدستور وحماه ، فالدســتور ينص على أن قــانون الدولة الرسمى هــو الاسلام ، فنحن نطالب بانفاذ هذه المادة المعطلة ، وسنظل نطالب ونرفــع الصوت حتى يتحقق لنا هذا فى الناحية العملية ، وتلك خطة سلبية .. أما الايجابية فنحن نربى الأمة ونجمعها على الايمان بمبادىء الاسلام والمناداة بها دستورا نافذا مهيمنا على كل الشئون ، وعما قريب ستكون الأمة صوتا واحدا ، وستهب كلها لتنضوى تحت لواء القرآن ، ووراء زعامة رسول الله ، وخلف راية الاسلام وعلم قيــادة الاخوان .. ويومئذ يفــرح المؤمنــون بنصر الله .

أما هذا التحول الطبعى الجارف ، وهذا التطور الذى تتجه اليه الأمة فى أفكارها وعقليتها ورأيها فى رجالها والعاملين لها والمتصدين لقضيتها ، بحكم عوامل الزمن والدروس والتجــارب ومعرفة الحقائق ، وهــذه العوامل المجتمعة كلها ، أما هذا كله فهو قوة أخرى مدخرة ، لم يشعر بها بعد هؤلاء النائمون الغافلون الذين ضيعوا الأمانة الوطنية ، وفرطوا فى قضية الأمة ، وباعوها بأبخس الأثمان ، ومازالوا يظنون أن الغفلة فى الناس سادرة ، وأن الأمة على حسن ظنها بهم وستسلمهم قيادها من جديد ، لقد أســلمت الأمة زمامها لمن عرفت فيهم الاخلاص والتضحية والوفاء لقضيتها ، وضع الشعب يده فى يد صديقه وأخيه الذى وجده معه فى السراء والضراء ، وفصل فى هذه القضية قضية الزعامات والقيادات والضلالات والخيالات والأوهام فى هــذا البلد ، فصل فى هذه القضية يا قوم واختار الشعب صديقه ليدافع عن قضيته، وسنجود أيها الناس بالدماء والأرواح من أجل هذه القضية ، سنسهر عليها ونرعاها ونوفى للأمة بما عاهدنا الله عليه ، « **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** » (١) فارتقبوا انا مرتقبون ..

★ ★ ★

---

(١) الشعراء : ٢٢٧

بناء وهدم

قال قائل منهم : وماذا بعد هذا ؟ ماذا بعد تلك الجموع الحاشدة التى بلغت الآلاف أو الملايين يجمعها « حسن البنا » وتدين له بالطاعة والولاء ؟ وماذا بعد هذه الأصوات التى بلغت عنان السماء تنادى : القرآن دستورنا ؟ وماذا بعد هذه الشركات التجارية والدور الاقتصادية التى انتشرت بنجاح ، والمنشآت التى قامت من ثمار جهـاد قيـادة الاخوان تحمل اســم الاخوان المسلمين ؟ · قالوا اننا آمنا بتألق نجمكم والنجاح الذى وصلت اليه قيادتكم ، وآمنا حقا وصدقا بأن قائد الاخوان لا يقدم من سفر الا ليستأنف غيره ، ولا يفرغ من اجتماع الا ليأخذ طريقه الى اجتماع آخر ، وأنه فى الصباح يخطب فى هذا البلد بينما هو فى المساء يخطب فى بلد غيره ، وأن حياته كلها عمل وسفر واجتماعات ومؤتمرات ·· قالوا آمنا بهذا وصدقناه لأن الناس كلهم يعلمونه ويشعرون به ويرونه رأى العين ، ولكن ماذا بعد هذا ؟ وماذا تريدون والأمة لم تستفد منكم شيئا ؟ هكذا زين لهم الوهم والغرور ، ولكن الله قد أجـرى على ألسنتهم الحق واعترفوا بأقلامهم وألسنتهم أننا كثرة غالبة وهم قلة تائهون ، وبأن لنا كيانا فى الشعب والأمة وهم ضائعون ، وأن مبادئنا مكافحة ناجحة قوية تسـتطيع أن تعقد الاجتماعات والمؤتمرات وأن تملى ارادتها عندما تريد ، بينما هم لا يعرفهم أحد ولا يستمع اليهم أو يشعر بهم أحد ، ومن أجل ذلك تقطعت بهم الأسباب واقتصرت جهودهم على أن يسبوا الناس عدوا بغير علم ، وصـارت وظيفتهم ومهمتهم أن يقذفوا اليوم فلانا ويتركوه ليتناولوا غدا غيره وهكذا ·· والا فماذا يصنعون وماذا يكتبون ؟ وأية مهمة تبقى لأمثالهم فى الحياة اذا لم يصرفوا جهودهم وفراغهم فى مثل هذا العبث ؟ · اننا لا نلومهم ولكننا نعذرهم ونسأل الله أن يهديهم سـواء السبيل ·· ؟

قالوا : ماذا بعد هذه الجموع وهذه المؤتمرات والمنشآت والشركات ، ولماذا لا نرى الاخوان تسيل دماؤهم فى الشوارع أنهارا وتغص بهم المعاقل وتضيق السجون ، وقد تيتم أهلوهم وخلت منهم الدور ودواوين الحكومة ، مادام الجهاد سبيلهم والموت فى سبيل الله أسمى أمانيهم ؟ ! ·

لم يفعل الاخوان للأمة شيئا الا هذه الخطب وهذه الأسفار المتلاحقة وهذه الشعب بالآلاف وبلا حصر قائمة فى أنحاء مصر يغشاها الشباب والناس من كل الطبقات والأقطار ليل نهار ، وهذه الصحيفة اليومية التى لم تزد على انها صحيفة كسائر الصحف ، لم يصنع الاخوان للأمة شـيئا رغم كثرتهم وقدرتهم على العمل والجهاد وتهيؤ الظروف وادعائهم ان الجهاد وسـيلتهم والشهادة فيه أمنيتهم ·· فمازالت الحانات مفتحة الأبواب ومازال الفساد شائعا ، ومازالت الأحوال فى مصر تجرى على ما كانت عليه قبلا ·· فبماذا يفسر نجاح الاخوان اذن وتوفيقهم اذا كان هذا هو الواقع والمشاهد ؟ هكذا قالوا : فيارحمكم الله من تحدثون ومن تخاطبون ؟ ! ان قيادة الاخوان عقـل

جـديد وتصريف جديد ، وثورة جـديدة فى تاريخ النهضـات ، وفـكرة جديدة ٠٠ جديدة بالنسـبة لعقولكم التى ألفت التقليد الغـربى ، ولأنكم لا تعرفون أساليبها ووسائلها ولن تعرفوها ، وقد استكبرتم ، وأخذتكم العزة بالاثم فلم تتعلموا منها ، وما يفتح الله للنـاس من رحمة فلا ممسـك لها ، أتخاطبون قائدا تلقى أصول القيادة وتعاليمها مما علم الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، وما تركه عليه السلام فى هذا بحرا لا تفنى عجائبه ولا تنفد ذخائره ؟ ان محمدا أكمل قائد ، وقد رسم الله له طرائق قيادة الناس فى القرآن صريحة واضـحة وعرفه أنواعهم وطبائعهم وضرب له الأمثـال ولكنكم قوم تجهلون ، ان قيادة الاخوان اسلامية صميمة لا تعترف بتاريخ موسـولينى وهتلر وستالين وأمثالهم من هؤلاء المخربين الضالين ، ولكنها قرأت تاريخ محمد ووسائل محمد ، وتعلمت وتلقت من قرآن محمد ودستوره ٠٠ هـذه واحدة ، ثم ماذا تريدون أنتم من وراء هذه المماحكات والتحرشات ؟ أتريدون أن نتخلى لكم عن أماكننا وندع لكم هذه الدور وهذا البناء الذى كافحنا من أجله بالعزيز الغالى ، ونسينا الراحة وكل ما يطلب الناس ، وبعنا نفوسـنا لله والوطن حتى بلغنا هذه الخطوات من النصر والنجاح ؟ ٠ اننا لا نتلقى من أحد فى أصول مناهجنا وأسس خططنا ووسائلنا الموضوعة ، ولقد فرغنا من هذا كله من يوم أن بدأنا المسـير وبرزنا الى الميدان للكفـاح والجهاد ! ٠ « القرآن دستورنا والاسلام نظامنا » : لا نحيد عن هذا ولا نعرف سـواه ، ولا نتلقى من غيره درسـا أو عبرة أو نلتزم بخطة ، فان كان عندكم من علم فأخرجوه لأنفسكم ، ان تتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءكم من ربكم الهدى ، أم للانسان ما تمنى ٠٠ ؟ !

ان هذه الجموع أيها الناس قد جمعت للغرض الذى تجمع له كل دعوة فى التاريخ أنصـارها والمؤمنين بها ، وهى قد جمعتها قيادتها بعد أن حددت الغاية وعرفت الدليل اليها ، وما جمعتها ليقودها أمثالكم أو تتسلط عليها أوهامكم « **ولئن اتبعت أهواءهـم من بعـد ما جـاءك من العلم انك اذن لمن الظالمين** » (١) ٠

سـنموت ولا ريب فى ميدان الجهاد لدعوتنا وفكرتنـا وعقيدتنـا ، وستجرى دماؤنا أنهارا ٠٠ متى رأينا نحن أن ذلك واجبا وفى موضعه ، واننا لنشتاق الى الموت ونترقب ساعته فى كل لحظة ، نعمل لدعوتنا ونحيا لهـا كأننا نعيش أبدا ، ونرتقب الموت والشهادة فيها كأننا سنموت اليوم أو غدا ، هذا هو شعارنا : حياة كريمة عزيزة تحيا بها هذه المبادىء وتعتز وتنتشر ، يصـاحب هذه الحياة بناء وانشـاء وتكوين واعداد ، أو موت يكتب لها به النصر الحاسم الأخير ، ويقر لها بالسيادة والسلطان والبقاء ٠

اننا لا ننخدع بهذه الدعاوى والأباطيل،ولا يستدرجنا أحد بظرف عارض أو مناسبة مفاجئة ، ولن نموت فى سبيل الأشخاص والأغراض والغايات ، وهيهات أن يسـخرنا شـخص مهما كان ، فلنا خطتنا ووسائلنا وقيادتنا ،

(١) البقرة : ١٤٥

ولنا قرآننا نستقى منه ، وتاريخ نبينا يهدينا ويحدونا ، فتعالوا نستمع وإياكم الى بعض طرائف القرآن الكريم فى وصفه للناس وحكايته عنهم ، وإبانته عن حقائق طباعهم وما جبلت عليه نفوسهم ، يقول القرآن الكريم فى منطق جماعة من الناس : « **ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم ، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا وأشد تثبيتا** » (١) • ويتركهم ويعرج على وصف ناحية نفسانية أخرى يصف بها حال قوم آخرين ممن سئموا تكاليف الجهاد أو أشفقوا من طول الطريق وعاشوا مترددين ، يرشد المؤمنين الى أمثال هؤلاء ومعرفتهم ويحذرهم منهم ! « **يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا • وان منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على اذ لم أكن معهم شهيدا • ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما** » (٢) • الى أن يقول : « **ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب** » (٣) •

ويقول فى سورة الفتح فى استعراض حالة أخرى من حالات النفوس : « **سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ، بل كان الله بما تعملون خبيرا • بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا** » (٤) • وهكذا يعلمنا القرآن طبائع النفوس عندما تواجه الحقائق ، ويعرض علينا نماذج من منطق الناس ، ويكشف عن هذه الطبائع والدخائل ، والناس هم الناس فى كل عصر •

ويقص علينا قصة أخرى فى سورة البقرة : « **ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ، قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم ، والله عليم بالظالمين** » (٥) • الى أن يقول : « **فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده • فشربوا منه الا قليلا منهم** » (٦) •

---

(١) النساء : ٦٦ — (٢) النساء : ٧١ ــ ٧٣
(٣) النساء : ٧٧ — (٤) الفتح : ١٠ ــ ١٢
(٥) البقرة : ٢٤٦ — (٦) البقرة : ٢٤٩

هكذا علمنا القرآن ثم أثبت بعد ذلك أن النصر للايمان: «**قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين** » (١) • ثم : « **فهزموهم باذن الله** » (٢) • هذه هى دروس القرآن وتعاليمه ، فلا بد أولا من تكوين واعداد ، ولابد من هذا الجهاد الايجابى بالتربية والانشاء والبناء ، للتقوية وتعزيز الصف واقامة الحجة على جبهة الباطل والصف المناوىء ، وانما تدع جبهة الايمان ومعسكر الحق هذه المرحلة بعد أن تعذر ، وبعد أن تقوى ، وحين يكون من طبيعة هذه القوة بداهة أن يضيق عليها ، ويعتدى على حرياتها ، ويحد من نشاطها •• الخ • لأن الهدم والتخريب ليس من وسائل الاسلام « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » (٣) • وانما يكون من لغة التخاطب فيه حين يكون نتيجة لازمة لابد منها لرد عدوان المعتدين ودفع عنتهم وتأديبهم ، فهو بأيديهم وعليهم تبعته •

يقرر القرآن حماية الله للمؤمنين ، ونحن معشر المؤمنين نقرأ هذا قانونا نافذا : « **ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، ان الله لا يحب كل خوان كفور** » (٤) • ثم يقرر لهم حق الانتقال من الجهاد الايجابى بالبناء والتكوين والاقناع والنشر والاذاعة •• الخ الى الجهاد السلبى بالمقاومة : « **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير • الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله** » (٥) •

ونحن انما نضرب هذه الأمثلة للناس لعلهم يتفكرون ، ولا نسوقها لنتخلص من موقف خاص أو منطق معين ، لا •• بل نسوقها للعبرة والتفكر، ثم ليعرف الناس أين نحن وأين هم فى هذا الطريق ، وليوقنوا أننا لا نسير هكذا نرتجل الخطط ارتجالا ، وتسيرنا الحوادث ، فهى هداية من نور محمد صلى الله عليه وسلم : « **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما** » (٦) •• فاعرفوا قيادتنا أيها الناس ••

ثم ما هذا الذى تقولون ؟ ألم يستمر النبى صلى الله عليه وسلم فى جهاده هذه السنين الطويلة يكافح ويناضل ويحتمل الأذى ويهاجر •• الخ ، وينتشر الاسلام فعلا ويقوى ويشتد ، ومع ذلك فقد كانت الأصنام هى الأصنام تعبد وتتخذ آلهة من دون الله ، وكان رجس الشيطان شائعا من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، لم يقض على هذا الباطل كلون يصور الحياة الغالبة للناس الا بعد أن انتصرت الدعوة النصر الحاسم الأخير ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وصار لها القيادة الفعلية العملية فى الحكم والتشريع والادارة والقضاء ، فهى قد تولت قيادة النفوس أولا لتهيمن عليها ، قادتها

---

(١) البقرة : ٢٤٩
(٢) البقرة : ٢٥٠
(٣) الأنبياء : ١٠٧
(٤) الحج : ٣٨
(٥) الحج : ٣٩ ، ٤٠
(٦) النساء : ١١٣

بالتكوين والبناء والتربية ، فحولت اتجاهها ونقلتها من وضع الى وضع ، وربتها على الايمان بمبادئها ، ثم تمكنت وكان لها السلطان ففرضت هذه التعاليم بالقوة ، قوة الحق والعدل ، وليست قوة الجبروت والطغيان ، أو القوة الغاشمة المتحكمة الجائرة ، قوة الحق والعدل تعززه وتحميه وتثبته وتقر أوضاعه،هذا ما كان فى الدعوة الأولى،ومع ذلك فلم يقل أحد ان محمدا لم يعمل شيئا قبل هذا التمكن ، وانه لم يؤثر فى حياة الآمة ، لأن قوما استحبوا العمى على الهدى واتبعوا الشيطان ، مازالوا يعيثون فى الأرض فسادا ، لم يقل أحد هذا ، بل كانت الدعوة كما هو الحق والواقع تؤرق مضاجع خصومها ، ويتفننون فى الكيد لها والانتقام من قيادتها ، و « **لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث** » (١) ٠ و « **كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** » (٢) ، وان الله لا يصلح عمل المفسدين

لقد سئمت البلاد هذه المهازل وسياسة الارتجالات ، وجربت هذه الحركات الطائشة الهدامة ، التى لم تقم واحدة منها على أساس سليم ، ولم تستفد الأمة ولا الوطنية أو القومية منها شيئا ، بل استفاد منها المستعمر والغاصب وحده ، وكانت شرا ووبالا على البلاد ، ونريد الآن أن نقدم للتاريخ أمة جديدة تفرض نفسها عليه فرضا ، وتملى كلمتها ، نريد أن نقود أمة جديدة حرة فى عقلها وفكرها ، موحدة فى شعورها واتجاهاتها وأهدافها ، أمة على قلب رجل واحد ، تؤمن بحقها وتتهيأ للموت فيه ، ولا تقبل المساومة أو التفريط ولا تخدعها أساليب المستعمرين ، وهذا ما عملت له قيادة الاخوان ٠٠ ولقد جاءكم فيما قصصناه عليكم من أمثلة القرآن الحق وموعظة وذكرى، وما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين أيدينا وأيديكم ، وتفصيلا لكل شىء ٠٠ فهل عرفتمونا ؟ ! ٠ وهل عرفتم أن الايمان ليس بالتمنى ولكنه ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وهذا عين ما أطلقنا عليه الثبات والاطمئنان فيما مضى ؟ وهل عرفتم أن الجهاد ليس أحلاما وأمانى ، وحركات طائشة مرتجلة تسير مع الأهواء حيث شاءت ، وتخلقها وتوجهها المصالح والأغراض ، وتمليها الظروف الطارئة ، وتوحى بها الحوادث العارضة ، ولو عرفتم كما عرفنا أن لكم تاريخا فيه قدوتكم ، وأن لكم نبيا جاءكم بنظام فيه أقوم الشرائع وأكملها وأرقاها وأوفاها ، فأخذتم عنها كما أخذنا بدل هذا التطفل على الثقافات والحضارات الأخرى وتاريخ الأمم الضالة ، لو فعلتم هذا لما وصل بكم الأمر الى أن تذوقوا عذاب الهون بما كنتم تجهلون ٠

لا تذكروا الفشل والنجاح عندما تذكروا دعوة الاخوان وقيادة الاخوان، ودعوا هذا للتاريخ الذى لا يعرف المحاباة والمغالطة ، ودعوه للأمة صاحبة

---

(١) المائدة : ١٠٠ (٢) الرعد : ١٧

الحق فى هذا التقدير ، وهى التى يعمل لها الاخوان ويتصلون بها اتصالا مباشرا ٠

ان المجاهد اذا تجرد لغايته وأخلص لمبادئه لم يلتفت الى وسائل الدعاية والاعلان وانما يعلن عنه نجاحه ويدعو اليه بلا ارادة منه أو اختيار ، فاذا كانت قيادة الاخوان اليوم يجرى ذكرها على كل لسان ، فذلك هو النجاح الذى يعلن عن نفسه ، أما الاخوان فما عمدوا الى هذا الاعلان أصلا ولا قصدوا اليه ٠

آثر الاخوان سبيل البناء على الهدم ، وأن يسلكوا بالأمة طريق التربية الصحيحة على المنهاج الواضح البين المضمون العاقبة ، بدل هذا الارتجال الذى لا يعتمد على خطة أو منهاج فلا يوصل الى غرض ولا ينتهى بأصحابه الى غاية غير الفشل والخذلان ، وبهذا الايثار أنتج الاخوان ونجحوا ، فان أنكر علينا الناس ذلك النجاح فكل يعمل على شاكلته ، «**والعاقبة للمتقين**»(١)، ونحن لا نناوىء أحدا ، ولا نفكر فى ايذاء أحد أو مضايقته ، ولا نحمل حقدا لأحد ، ولا يعنينا الا شىء واحد وحقيقة واحدة ، هى أننا قرآنيون اسلاميون، نعمل للقرآن ولدولة الاسلام ، أما حقيقة نجاحنا بعد ذلك فهى قائمة لا يؤثر عليها هذا الجحود والنكران ، وحسبنا أننا حولنا اتجاه الأمة الى حضارة الاسلام ، وألقينا فى صفوف الشباب جذوة ذلك النور الذى أضاء له سبيل الحياة العزيزة الشريفة والمثل العليا،وبصره بمواطن الوطنية الحقة والجهاد الصحيح للمجد الصحيح ، لا نريد أن نحيل الوضع الى اجابة على هذا السؤال : هل نجحت قيادة الاخوان ودعوة الاخوان أو لم تنجح ؟ فما أيسر الاجابة على هذا السؤال ، وما أكثر الأدلة وأوضح البراهين ، ولكننا حين نشعر فى نفوسنا بالحاجة الى الاعلان عن نجاح قيادة الاخوان ودعوة الاخوان ، وارشاد الناس الى دلائل هذا النجاح باثباتها فى مثل هذا الكتاب، والاسهاب عنها ٠٠٠ حينما نشعر بهذا ، نشعر معه بأننا محتاجون الى تعديل وسائلنا وخططنا ، ونشعر بأننا قد نزلنا بمستوى نجاحنا الى درجة يستوى معها فيه كل نجاح لعمل من الأعمال ، وكل انتصار لفكرة من الفكر ، انما نجاحنا وانتصارنا : « ايمان » لا يقاس بكل نجاح وانتصار ، فعلى الذين عميت بصائرهم أن يفكروا من جديد ، وأن يعيدوا النظر فى طرائق حكمهم على الأمور،والا فليعذرونا اذا قلنا لهم اننا قوم لا نعيش على الأوهام،وانما نأخذ بالحقائق ، والأمانى بضائع الموتى ، فليستأثروا هم بهذه التجارة ان شاءوا ، فقد عرفنا طريقنا وهو طريق واحد لن ننحرف عنه أبدا ، والله معنا والحق فى جانبنا ٠

لقد جاهدنا كما جاهد محمد صلى الله عليه وسلم ، جاهدنا جهادا ايجابيا بالبناء والانشاء ، مقرونا بالجهاد السلبى بالاعداد والتكوين والاستعداد ، والتجأنا الى الايمان بحقنا واقناع الناس به ، فنحن قرآنيون

(١) الأعراف : ١٢٨

محمديون من مبدأ المسير الى نهاية الطريق ، لن نكون الا كذلك ، ولا مطمح لنا الا أن تظهر هذه الدعوة ويكون لها السلطان ، ويكون القرآن دستور الأمة النافذ ، فنحن رجال مناهج لا أشخاص وهيئات ، فمن آمن بهذا المنهاج ونفذه فهو منا ، ومن لم يؤمن به جاهدناه بقوة الحق والاقناع والنصح والارشاد ، وبوسائلنا التى آمنا بها ووضعناها لأنفسنا ، والتى وصلنا بها الى نجاح نرضى عنه كل الرضاء ـ مهما كان رأى الناس فيها وفى هذا النجاح ـ نصبر على الناس ونصابرهم ، حتى يفتح الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الفاتحين ، ويوم يحتاج الأمر الى البذل والتضحية والفداء ، فسيرى الناس ، وسيشهد التاريخ أن الاخوان المسلمين رمز جديد فى التاريخ الحديث لأروع قصص الاستشهاد والبطولة،التى لم يسمع بها الناس من قبل، والتى ستذهب مثلا للأولين والآخرين ، وانه لقول فصل وما هو بالهزل ، فاعرفونا أيها الناس ٠٠ !

★ ★ ★

ان الاسلام دين السلام والأمن والطمأنينة والرحمة : « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » (١) ٠ والدين الذى يوصى برحمة الحيوان والطير حتى حين يذبح حلالا طيبا : « اذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » ٠ ويوصى بأن يعد السلاح ماضيا ، وألا يذبح حيوان أمام حيوان مراعاة لشعوره ٠٠ الخ ٠ هذا الدين هو الذى جعل التضحية والفداء شعارا لعيد من أعياده ، ورمزا ليوم أغر من أيامه فى كل عام ليذكر الأمة بهذا الجانب من حياتها العامة ، وحاجتها اليه ٠

ومرة ثانية : اعرفونا أيها الناس ٠٠ !!

★ ★ ★

— ١٢ —

دعوة وقيادة

وبعد ٠٠ فيا أستاذى ومرشدى وقائدى :

هذه نفحة من هدى ارشادك ، وثمرة من غرس يدك ، أودعتها هذه الصفحات كتبتها لله والوطن ، وللحق والعلم ، وللتاريخ والاسلام ، وأنا أعرف لأستاذى حقه من الطاعة والولاء ، وأعرف لكلمته مكانها فى أغوار القلب وأعماق النفس ، ونصيبها من قوة الحكم النافذ ، وأعرف من هذا

---

(١) الأنبياء : ١٠٧

كله أننى بهذا العمل قد خالفت رغبة من رغباته ، ولكنها احدى اللغات التى يتخاطب بها العصر ، وهو الواجب نادانى فما استطعت الا تلبيته ، هو الواجب فى أعناقنا لله والاسلام والدعوة ولقيادتنا ، ونحن فى عصر تتكاثر فيه الذئاب على الشرفاء الأحرار ، وتطلق ألسنتها فيهم بالسوء ولا رادع ولا حياء ، وقد ضل الناس المثل العليا بتأثير التوجيه الخاطىء وسيطرة سياسة المنافع والأهواء ، فواجبنا أن نبصر الأمة بالخطر الذى انقض عليها وأن نضع أمامها الفوارق بين الرجال وموازين الأعمال ، وأن نهديها الى المثل الكريمة الفاضلة ، فما فعلناه هو الواجب للأمة وللوطن والتاريخ والاسلام ، لم يكن من هذا بد ، وهذه قضية قد صار مفروغا منها ومفصولا بالحكم فيها بين الجندى وقائده ، وان واجب الدعوة فى أعناقنا لكبير ٠

أنا أعرف أنك يا أستاذى مستغن بايمانك عن هذا كله ، وقد خرجت بدعوتك بهذه العاطفة الشريفة الصادقة تكون ايمانك ، وتصدر عنها حركاتك وتصرفاتك ، خرجت بها تقول : « نحب أن يعلم قومنا ــ وكل المسلمين قومنا ــ أن دعوة الاخوان دعوة بريئة نزيهة ، قد تسامت فى نزاهتها حتى جاوزت المطامع الشخصية ، واحتقرت المنافع المادية ، وخلفت وراءها الأهواء والأغراض،ومضت قدما فى الطريق التى رسمها الحق تبارك وتعالى للداعين اليه : « **قل هذه سبيلى أدعوا الى الله ، على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين** » (١) ٠

« فلسنا نسأل الناس شيئا ولا نقتضيهم مالا ولا نطالبهم بأجر ، ولا نتزيد بهم وجاهة ، ولا نريد منهم جزاء ولا شكورا ، ونحب كذلك أن يعلم قومنا أنهم أحب الينا من أنفسنا ، وأنه حبيب الى هذه النفوس أن تذهب فداء لعزتهم ان كان فيها الفداء ، وأن تزهق ثمنا لمجدهم وكرامتهم ودينهم وآمالهم ان كان فيها الغناء ، وما أوقفنا منهم هذه المواقف الا هذه العاطفة التى استبدت بقلوبنا وملكت علينا مشاعرنا ، فأقضت مضاجعنا وأسالت مدامعنا، وانه لعزيز علينا أن نرى ما يحيط بقومنا ثم نستسلم للذلة ، أو نرضى بالهوان أو نستكين لليأس ، نحن نعمل للناس فى سبيل الله أكثر مما نعمل لأنفسنا ٠٠ فنحن لكم لا لغيركم أيها الأحباب ولن نكون عليكم يوما من الأيام ٠ ولسنا نمتن بشىء ولا نرى لأنفسنا فى ذلك فضلا ،وانما نعتقد قول الله تبارك وتعالى : «**بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين**» (٢) ٠ ولكن نتمنى ــ لو تنفع المنى ــ أن تتفتح هذه القلوب على مرأى ومسمع من أمتنا فينظر اخواننا : هل يرون فيها الا حب الخير لهم والاشفاق عليهم والتفانى فى صالحهم ؟ وهل يجدون الا ألما مضنيا من هذه الحال التى وصلنا اليها ؟ ولكن حسبنا أن الله يعلم ذلك كله وهو وحده الكفيل بالتأييد ، الموفق للتسديد، بيده أزمة القلوب ومفاتيحها ، من يهدى الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » (٣) ٠

---

(١) يوسف : ١٠٨ (٢) الحجرات : ١٧

(٣) هذه العبارات منقولة بالنص من احدى الرسائل بقلم الأستاذ المرشد ٠

خرجت يا أســـتاذى بهذه العاطفة الشريفة ، وأوقفت على هذه الأمة حياتك ، ووهبت لها كل ما تملك وأعز ما تملك ، وما قصرت فى هذه الأمانة أو فرطت فى تبعتها ، فلم ينبض لك قلب الا بذكر الله ، ولم يتحرك فى نفســـك شعور الا ووراءه هتاف بحب الاسلام والوطن ، خرجت بهذه العاطفة وأنت تنشد هذا الحداء من أعماق نفسك : « ونحب أن يعلم قومنا أن هذه الدعوة لا يصلح لها الا من أحاطها من كل جوانبها ووهب لها ما تكلفه اياه من نفســه وماله ووقته وصـــحته : « **قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومســاكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين** » (١) ٠

فهى دعوة لا تقبل الشركة اذ أن طبيعتها « الوحدة » فمن استعد لذلك فقد عاش بها وعاشت به،ومن ضعف عن هذا العبء فسيحرم ثواب المجاهدين، ويكون مع المخلفين،ويقعد مع القاعدين ، ويستبدل الله لدعوته به قوما آخرين : « **أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى ســبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** » (٢) ٠

وهكذا يا أستاذى حددت منهاجك وغايتك ، وعلى هذا المنهاج ربيتنا ، وعلى الموت فيه والجهاد له بايعتنا وليس معك الا سلاح الحق:السلاح الطاهر الشريف قهرت به المناوئين والمتألبين ، وما عرفت اليأس يوما ولا تخليت عن شرف الخصومة ، شعارك دائما : ان معى ربى سيهدين ٠٠

بهذه العاطفة الانسانية الشريفة تعبر عن موقفك من المتحامل على الدعوة فتقول : « واما شخص ساء فينا ظنه وأحاطت بنا شـــكوكه وريبه ، فهو لا يرانا الا بالمنظار الأسود القاتم ، ولا يتحدث عنا الا بلسان المتحرج المتشكك ، ويأبى الا أن يلج فى غروره ، ويسدر فى شكوكه ، ويظل مع أوهامه ٠٠ فهذا ندعو الله لنا وله أن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتبــاعه ، والبــاطل باطـــلا ويرزقنا اجتنابه ، وأن يلهمنا واياه الرشد ، ندعوه ان قبل الدعاء ، ونـنـاديه ان اجيب النداء ، وندعو الله فيه وهو ســبحانه أهل الرجاء ، ولقد أنزل الله على نبيه فى صنف من الناس : « **انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشـــاء** » (٣) فســـنظل نحبه ونرجو فيأه الينا واقتناعه بدعوتنا ، وانما شعارنا معه ما أرشدنا اليه المصطفى صلى الله عليه وسلم من قبل : « اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون » ٠

هذه سيرتك يا أســـتاذى فى جهادك ناصعة البياض ، أطهر من ماء الغمام ، ولكن التجارب من ورائنا تنادينا أن الناس فى كل عصر ، هم الناس، وأننا فى وقت يتطوع فيه البعض تطوعا لقلب الحقائق وتشـــويه التاريخ ،

---

(١) التوبة : ٢٤ (٢) المائدة : ٥٤
(٣) القصص : ٥٦

والاعتداء على الآمنين ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، ويجادلون فى الحق بعد ما تبين · « وكذلك انزلناه آيات بينات وأن الله يهدى من يريد » (١) ·

سمعوك تقول ان الاسلام سياسة رشيدة وحكم عادل وتشريع سمح ، فظنوك جئت تزاحمهم فى أمجادهم الشخصية سعيا الى هذا المجد الزائف ، وحسبوك تعمل لشخصك لا لاسلامك ووطنك وأمتك ، ونشطوا يشيعون قالة السوء ، ويخالون أنهم سيفرقون جمعا التأم بكلمة الله ، أو سيصدعون بنيانا قام باسم الله : « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون · الذين آمنوا وكانوا يتقون · لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم · ولا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعا ، هو السميع العليم » (٢) ·

هكذا ظنك بعضهم سياسيا تدعو الى ما ألفوه فى السياسة من فرقة وخصام وتنابز بالألقاب ، وحكم وجاه ، وفاتهم أن السياسة عندنا هى الحكم بمبادىء القرآن وتطبيق نظام الاسلام ، ورعاية حقوق الأمة فى الداخل والخارج والسهر عليها ، فما تطلبه هو قيام الحكومة الاسلامية ، وانفاذ الدستور الاسلامى ، والعبرة عندنا بالمناهج لا بالأشخاص ·· وأننا فى السياسة عقل جديد وتفكير جديد ، يقود النهضة فى هذا الميدان بخطط جديدة لم يعرفها هؤلاء الذين تنكروا لماضيهم وتاريخهم فلم يعرفوه ، هذا الخلق الاسلامى الفاضل يصدر عن نفس نبيلة وايمان قوى ، لا يعرفه هؤلاء الساسة ، وهذه اللغة السامية الرفيعة لم تتعود سماعها آذانهم ، فانهم قد فهموا الوطنية هذا الفهم الخاطىء المنحرف الذى جاء وصفه فى احدى رسائل الاخوان أنه : « تقسيم الأمة الى طوائف تتناحر وتتراشق بالسباب وتترامى بالتهم ويكيد بعضها لبعض ، وتتشيع لمناهج وضعية أملتها الأهواء وشكلتها الغايات والأغراض ، وفسرتها الأفهام وفق المصالح الشخصية ، والعدو يستغل كل ذلك لمصلحته ويزيد وقود هذه النار اشتعالا ، يفرقهم فى الحق ويجمعهم على الباطل ، ويحرم عليهم اتصال بعضهم ببعض وتعاون بعضهم مع بعض ، ويحل لهم هذه الصلة به والالتفاف حوله فلا يقصدون الا داره ولا يجتمعون الا زواره ·· وتلك وطنية زائفة لا خير فيها لدعاتها ولا للناس » ·

تلك هى وطنية القوم وأسلحتهم ، وهذه صحيفتنا وصحيفتهم ، وجب أن ننشرها على الأمة لتقول كلمتها الأخيرة ، ولتقضى عليهم بالفناء ، أو تغفر لهم ان ثابوا الى رشدهم وعرفوا للأخلاق حرمتها ، وللوطنية الصحيحة حقوقها، وجب أن يعرف هؤلاء الناس أن الأمة قد استيقظت ، وأن يستشعروا هذه اليقظة ، انهم بعيدون عن استجلاء حقيقة الشعور الوطنى ، ضربت الغفلة بينهم وبينه نطاقا كثيفا فهم لا يحسونه ولا يرونه ، وستحملهم الأمة على ذلك

---

(١) الحج : ١٦ (٢) يونس : ٦٢ ــ ٦٥

حملا والا فالى متى سنظل نعبد الأهواء والمنافع ، ونسير وراء الغبايات والمطامع ، من أجل ارضاء نفر من الناس فهموا السياسة فهما عقيما وفسروها على ما يشاءون ويريدون ، ثم اتخذوها حرفة وتجارة ، لكل جماعة دورها فى الوزارة ونصيبها من مغانم الحكم وأسلابه ، وان ارتفع صوت يطالب باصلاح أو ينير للأمة سبيل الوطنية الصحيحة والجهاد الخالص البرىء ثارت ثورتهم وركبوا رؤوسهم واتهموه بكل نقيصة ٠٠ !

ان علينا أن نغير هذا المنكر وأن نقاومه ، فلم تعد مشاعرنا تطيق هذه المآسى تتكرر كل يوم ، وهذه الجرائم الوطنية ترتكب فى وضح النهار ، والقوم يجاهرون بها فى غير حياء ولا نكران ، يذيع كل فريق منهم الاشاعات التى تطمئن الملتفين حوله من النفعيين وأصحاب الحاجات على أنه مقرب من أعداء الوطن والأمة ، وأنهم يؤثرونه فى الحكم على سواه ٠٠!! فما هذا أيها الناس ؟! من الذى لقنكم دروس هذه الوطنية ؟ وهل بمثل هذه المشاعر الوطنية اغتصبتم مكان الصدارة فى الأمة وادعيتم أنكم قادتها ؟! أين هذا الدستور القائم فينا وهذا القانون الذى يحكمنا ليفصل فى أمر الجرائم الوطنية التى لم يعرف التاريخ أخطر منها ؟ وهل أباح الدستور والقانون الغدر السياسى والخيانة الوطنية ؟ !!

ان الأمة اليوم على مفترق الطرق وفى ساعة فاصلة حاسمة من تاريخها ، فأين هؤلاء الذين يزعمون أنهم القادة الزعماء ؟ أين هم من قضيتها ماذا يصنعون وماذا ينتظرون ؟ أم ان أسماءهم لا تظهر الا حين تشكل الوزارات وتوزع المغانم والأسلاب ؟ ! ٠

كفى هزلا أيها القوم ، فلقد فضحتكم الحوادث وعرفتكم الأمة على حقيقتكم ، وانصرفت عن هذا الدجل السياسى والتضليل الوطنى ، والتأمت تحت راية القرآن ، واجتمعت على لواء رسول الله ، على هذه الدعوة التى اعتمدت على المنهاج الصحيح الذى تطلبه الأمة ، والجند المؤمنين ، والقيادة الحازمة ٠٠ اجتمعت كلمة الأمة على مبادىء الحق والحرية والعدالة الاجتماعية ، ونبذت المبادىء الدخيلة والرجال النفعيين ٠

أفسحوا الطريق أيها الناس فانها دعوة القرآن ، وهى زعامة رسول الله ٠٠ ولقد مضى زمن الأشخاص وجاء وقت المبادىء والمناهج ، فافهموا لغتنا وأفسحوا الطريق ٠٠

★ ★ ★

هذا يا أستاذى هو منطق القوم وأسلوبهم ، فلم يعد فى قوس الصبر منزع ، ولقد عاملناهم بالخلق والرحمة فلجوا فى طغيانهم ، وحاكمناهم بالمنطق والحجة فظلوا فى عتو ونفور ، وودوا لو ندهن فيدهنون ، فلم يبق الا أن نقول لهم هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، وهذه الأمة على مفترق الطرق تنشد الخلاص وتطلب الحرية وتتلمس أسباب النجاة ٠

على هؤلاء القوم أن يعرفوا أن الوضع الصحيح لقضية الأمة الآن ، روح تشريعها وأحكامها ، وان التاريخ معنا ، ومنطق العدالة فى جانبنا ، وزارة واجراء انتخابات ، ولا فى هذا الجلاء أو البقاء ، فهذه قضايا مفروغ منها ، والطريق الصحيح لحلها معروف يعرفه المؤمنون بحقوقهم المتربصون للموت فيها ، ومعروف معه أن القوم ان قدر لهم تسويتها فعلى حساب الأمة وتاريخها .. ولكن الوضع الصحيح لقضية الأمة الآن ، هو فى دستورية القرآن ، وانفاذ نظام الاسلام ، هو فى هذه القضية المعلقة وقد طال عليها الأمد ، ولم يناصرها من هؤلاء الزعماء أحد ، فليقولوا كلمتهم فيها .

الوضع الصحيح للقضية المصرية هو فى هذا الانتقال التاريخى الذى تطورت اليه قضية الأمة ، وآل اليه وضعها فى نهضتها السياسية والاجتماعية ، وتحولها من وضع الى وضع ، ومن الحكم بدستور الى الحكم بدستور غيره ، واستبدالها طابع حضارة بطابع حضارة أخرى ؛ الى متى ستظل قضية الاصلاح السياسى والاجتماعى حقا مشاعا يستغله جماعة من السياسيين لمصالح أنفسهم ، ولا يذكرون الأمة والشعب الا يوم الانتخابات ، ويوم يحتاجون الى اسمه للمتاجرة والمساومة الرخيصة ؟ !

نسى الناس القرآن والدعوة الاصلاحية الشاملة الكاملة ، وجئنا بهذا الروح الجديد ، وطلعت قيادتنا على الأمة بهذا العقل الجديد ينشىء لها تفكيرا سياسيا جديدا ، وعقلية جديدة تستقى فى هذا من رسالة القرآن وتأخذ من مبادىء نظام الاسلام ، ولن نغض الطرف بعد اليوم على هذه القضية الحقيقية بيننا وبين الناس لن يهدأ لنا شعور الا أن نرى القرآن دستورا .

يجب أن يفهم الناس جميعا فى مصر وفى غير مصر ، أن الخلاف بيننا وبينهم جوهرى حين يتصل بدستورية القرآن فهذه هى دعوتنا فى لبها وجوهرها ، وفى روحها وأهدافها ، وأن تكييف قضية الأمة تكييفا صحيحا يجب أن ينتقل الى هذا الوضع الذى ينبغى أن يكون مفهوما ، فلا تظنوا يا قوم أننا نسينا القضية الحقيقية للأمة أو نسينا حقيقة جوهر الخلاف بيننا وبينكم ، وشغلنا عنه كما شغلتم ، وأننا ولينا وجوهنا شطر المعاهدات والمحالفات والجلاء أو البقاء ، أو أسترضاء هؤلاء السادة الانجليز يمنون علينا باحتلال جديد فى مضحكات من الصيغ والبنود ؛ اننا لا نريد هذا الاستقلال ولا نشغل به أو نخدع ، ونعرف حقيقته ، وقد جربناه وجربناكم معه وجربنا وطنيتكم ، ومازال قائما فى الأذهان أمر تلك الطعنات الدامية التى وجهت الى كرامة الأمة فى الصميم ، باسم التحالف الشريف ومعاهدة الصداقة ، وصيانة المصالح المشتركة ، هيهات أن تنسى الأمة هذا ، أو ترضى بالذلة والهوان ، فاذكروا القضية على وجهها الصحيح ، وفى وضعها الحقيقى .

* * *

ماذا أيها القوم ؟! انسيتم أن فى البلد دعوة جديدة انتقلت بالأمة من حال الى حال وتطورت بقضيتها تطورا كبيرا ؟ ان للقرآن ولنظام الاسلام

اليوم فى بلدكم قضية ، وله قيادة وجند وأنصار ٠٠ هذه القضية تريد أن تحتل مكانها بعد هذا الظهور ، وأن تأخذ منزلتها من الصدارة ، وهذه القضية هى وحدها قضية الاصلاح فى الأمة ، والتى يجب أن يفصل فيها وأن يقول المسئولون عن الأمة كلمتهم فيها ، وان وراءنا فى الاصلاح الداخلى والخارجى منهاجا واسعا مطولا يجب أن تصرف كل الجهود الى تحقيقه لانقاذ هذا الشعب الخالد الحيوية الجم النشاط ، المجهز بكل وسائل التقدم ، والذى لم يكن ينقصه الا القيادة الصالحة والتوجيه القويم ، وقد وجدهما ، فماذا أنتم قائلون ؟ يجب أن نحتكم الى الأمة فى أمر هذه القضية وشأنها ان أردتم استفتاءها وان أردتم كلمتها ورأيها فى هذا الاتجاه الجديد بالنهضة والحضارة ، هذا هو الواجب والمطلوب ، واياكم أن تشغلوا الأمة والشعب بهذا العبث الفارغ باستفتائه فى نصوص معاهدة تقولون له انها تحقق آماله فى الحرية والاستقلال ، فهذه كلها جهود ضائعة وقد عرف الشعب قيمة المعاهدات ٠

هذا هو الوضع الصحيح للقضية ، نعلن به زحف المبادىء الاسلامية لتأخذ مكانها الطبيعى من الاهتمام وتكون فى الصدارة ، وهو وضع يجب أن يكون بارز الوضوح ، فما كان الاخوان الا جادين حين أعلنوا مبادئهم فى غير تعنت وأبانوا عنها فى وضوح ، وحين قرروا أن الدستور الاسلامى هو صاحب السيادة الكاملة والسلطان الشامل المطلق ، وأن كل ما يطلبه الفرد أو ينبغى أن يكون للأمة من حقوق خاصة أو عامة ، فقد تكفل بها هذا الدستور ، ولم يدع منها حقا صغيرا كان أو كبيرا الا وأشار اليه بوضوح وابانة ، ونتحدى أى مشرع أو مقنن من أى جنس أو ملة أن يدلنا على حق انسانى فاضل خاص أو عام لم يتضمنه القرآن ، ولم ترشد اليه تعاليم الاسلام ، فحقوق الأمة جميعها بطوائفها وأجناسها وعناصرها وأديانها كلها مقررة محفوظة مقدسة فى الاسلام ، أبانت قيادة الاخوان المسلمين عن هذا كثيرا وأرشدت اليه ، وعرفت به الحكام ورجال الأحزاب ، وأنارت أذهان الجميع ، وهيأتها لليوم الفاصل والساعة الحاسمة فى تاريخ الأمة والاسلام ، ولم يبق فى مصر اليوم أحد لا يعرف أن للقرآن رجالا وللاسلام جندا يؤمنون بصلاحيته أعمق الايمان ، ويرفعون الصوت بتعميم نظامه وتطبيقه ٠٠ هذه الحقيقة يجب أن يلتفت اليها وأن يعمل حسابها ٠

★ ★ ★

هذه يا أستاذى صيحة أردت أن أعلنها فى هذا الكتاب لا كحدث جديد، ولكن كواجب من الواجبات الكبيرة فى أعناقنا لهذه الدعوة ، وكقضية مقررة يلزم أن تصل الى الآذان التى باعدت الأغراض بينها وبين سماع كلمة الحق ثم حسما لهذا الخلاف القائم بيننا وبين الناس ، حين يظنوننا جمعية من الجمعيات ، أو هيئة كسائر الهيئات ، أو حزبا كهذه الأحزاب ، ولم لا نكون كذلك فى نظرهم ؟ ألسنا نتدخل فى السياسة ونتقدم الى البرلمان ونصدر الصحف وندعو بمبادىء اصلاحية ونأتى بما الفوه داخلا فى مهمة الأحزاب أو موقوفا عليها ؟ ٠ لهؤلاء وأمثالهم وجب أن يخرج مثل هذا الكتاب ـ كما

قلت فى مقدمته ــ ولهذا السبب ومثله وجب أن يعرف الناس الدعوة والداعى معرفة ذات معنى ، لأنها تحدد موقفهم منا ، وتحسم موقفنا منهم ، وتقطع لهم باننا لسنا حزبا من الأحزاب،وانما هى فكرة وعقيدة ندعو لها ، وهى «دعوة» ترتكز على منهاج وقيادة وجند ، هى دعوة محمد صــلى الله عليه وسـلم تشرق على الدنيا من جديد ، وقد توفرت لها عناصر البعث والحياة ، وجب أن يعرفنا كل فرد فى الأمة على حقيقتنا هذه : رجال القرآن المنادون بنظام الاسلام ، لا نرضى بأقل من ذلك ولا نقبل سواه ، أو نموت فداء هــذه الغاية ميتة شريفة طاهرة .

انك يا أستاذى قد خرجت بها دعوة واضــحة الحدود والأهداف ، وجاهدت لها فى الله حق الجهاد ، كافحت من أجلها وناضلت وأوذيت ، ويعلم الله كم لاقيت وكم سهرت الليل ومازال تسهر والناس نيام لا تشكو ولا تألم ، فما سعت اليك قيادة هذه الدعوة عفوا ، ولا قصدت بعمل من اعمالك الا وجه الله وحده ، فانعقدت لك القيادة ووجبت لك الطاعة وأسلم لك الزمام .

هى دعوة هتفت بها ، وطلعت بنورها على الناس أجمعين : أيها الاخوان المسلمون ، أيها الناس أجمعون .. اسمعوها كلمة صريحة داوية يجلجل بها صــوت الداعى الأول من بعد ،كما جلجل بها من قبل : «**يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر** » (١) . ويدوى معها سر قوله تعالى : **فاصــدع بما تؤمر واعرض عن المشركين** » (٢) ويهتف بها لسان الوحى مخاطبا الناس اجمعين : « **يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض ، لا اله الا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورســوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** » (٣) .

هكذا هتفت بها يا أستاذى دعوة خالصة لله والوطن والاســلام والناس اجمعين ، فاستقرت بجهادك لها وعملك المتواصل فى سبيلها ، ونمت وآتت اكلها كل حين باذن ربها ، استقرت : « دعوة وقيادة » ، دعوة فى هذا المنهاج الواضح البين ، وقيادة فى شخصك المؤمن المجاهد .. هكذا هتفت بها من أول يوم دعوة واضحة الحدود والمقاصد ، وخرجت بها على الناس اجمعين .

أنت .. أنت الذى احتقرت هذه الدنيا بما فيها من مال وجاه ، وكنت ــ ومازلت ــ تستطيع أن تلى أكبر المناصب وأرقاها ، ولكنك آثرت هذا المكان الرفيع ، وتلوت على الدنيا قصة الايمان ، وفرضت أحكامه عليها فرضا .

أنت .. أنت الذى سهرت الليالى فى جهادك العنيف ، وهجرت النوم والراحة ، وكنت تســتطيع أن تنعم بما ينعم به سائر الناس ، فهل يعرف

---

(١) المدثر : ١ ــ ٣ . (٢) الحجر : ٩٤
(٣) الأعراف : ١٥٨

النــــاس يا أســــتاذى كم لاقيت حين كنت تنزل البــــلد لا تعــرف فيــــه أحدا ولا يعرفك أحد من أهله ، فتبيت الليل أو تقضى زلفـا منــه ، أو تمضى النهار أو بعضه فيه ، وتغادره الى بلد غيره ، وقد تتابع عليك بهذا الحــال الأسابيع الطوال ؟ · ان الناس لا يعرفون شــــيئا من هذا ولن يعرفوا مهمـا أخرجنا لهم من كتب ، لأن هذه صفحات جلت عن الحصر والذكر ، ولأنك انما قصدت بها وجه الله وحده ·· وتاريخك يا أستاذى غنى بالتضحيات الجسام، وما طلبت لنفسك مجدها الشخصى يوما ، ولا رغبت فى اعلان أو دعاية ، ولا عمدت أن تذيع شيئا عن جهادك ، بل آثرت دائما العمل والانتاج والبناء عن كل اعلان ، مؤثرا رضاء الله وراحة الضمير وهناءة النفس وسعادة القلب ·

عرفتك سجون الأحرار واستضافتك ، وصافحتك معتقلات المجــــاهدين وآوتك ، أرشدت الظالمين الى الحق فى رســــالة القرآن ونظام الاســــلام ، فقالوا : سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ؟ ولئن لم تنته لنجعلنك من المســــجونين ·· فقلت يا رب ان قومى اتخذوا هــذا القــرآن مجهورا ، ويا قوم ليس هذا مكان هدى محمد صلى الله عليــــه وسلم بينكم وهو الذى أخرج به الناس من الظلمـــات الى النور ، ولا هو مكان تشريع القرآن الذى عالج أدواء الأمم ومشاكل الشعوب ووضع للاصلاح أدق القواعد وأرســخ الأصول ·· قلت لهم هذا فأبى أكثر الناس الا نفرا « **واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا** » (١) أهذا الذى اتخذ القرآن دستورا ؟ ! ·

كان هذا طبعيا مألوفا يا أستاذى ، فما كانت هذه دعوتهــــم ولا هى مهمتهم ولن تكون ، وانها مهمة هذا النشء الجــــديد الذى كونته وربيته ، وعلمته استقلال النفس والقلب ، واستقلال الفكر والعقل ، واستقلال الجهاد والعمل ، وملأت روحه الوثابة بجلال الاســــلام وروعة القرآن تحت لواء محمد ورايته ·

انها مهمتنا ــ نحن الشباب ــ ولقد صبرت يا أستاذى وصبرنا معــك على هؤلاء القوم وأفسحنا لهم الصدور ، دعوناهم الى سبيل الله وشرعة القرآن والانصاف ، بالحكمة والموعظة ، وجادلناهم فيها بالتى هى أحسن ، فما زادهم هذا الا نفورا واستكبارا ، واليوم والأمة حيرى تتلمس ســــبيل النجاة ، وهى فى ساعة فاصلة من ساعات تاريخها وتقرير مصيرها ، والقضية الاصلاحية كلها فى مهب الرياح ، والأمة متطلعة تنشد الانقاذ وتطلب الخلاص، وقد خلا الميدان وتبلبلت الأفكار واضطربت الخواطر ، يتلفت الناس من هنا وهناك ، ويتساءلون : ماذا ينتظرهم وماذا يراد بهم ؟ الآن ·· تطل عليهم دعوة الانقاذ فى تطور جديد لتحتل مكانها الطبعى فى هذه المعركة المحتدمة ، وتشرف ولكن فى وضع جديد يجعل لها الصدارة ·

---

(١) الفرقان : ٤١

فباسم الله نتقدم الصفوف ونفرض دعوة الله ونعلن دستور الاســـلام ونظام القرآن ، نفرضها « دعوة وقيادة » كما هى فى حقيقتها ، وكما أرادها الله ، وكما يجب أن تكون .

تقدم الصفوف يا أستاذى باسم الله ، فليست هذه الدعوة دخيلة عليك ولا أنت عليها جديد ، انك فى حجرها تربيت ، ومن لبانها رضـــعت ، وبين أحضانها ترعرعت وشببت وبهديها اهتديت ، أنت الشاب الذى ســـجل فى كراسته وهو طالب بدار العلوم منهاجه الاصلاحى ، وآماله فى هذه الدنيا ، ملخصة فى بعث رسالة الاسلام ، وأن هذه الأمة لن تصـــلح الا بما صلح به أولها ، من العمل بنظام القرآن ، ولقد عاهدت الله على هذا ، وأشهدت معلمك وأستاذك على أن تحيا لهذه الغاية أو تموت فيها وقد وفيت .

فباسم الله تقدم الصفوف ، وتسلم القيادة ..

باسم الله تقدم صفوف الكتائب الاسلامية المجاهدة ، وارفع اللواء الذى لن يخذل أبدا ، وانشر اللواء الذى لن يطوى أبدا ، لأنه لواء محمد الذى عنت له الجباه ، والذى تفتديه الملايين بالأرواح ، وتستعذب الموت فى الدفاع عنه .

وأنتم « **يا قومنا أجيبوا داعى الله** » (١) ، والا فافسحوا الطريق ، فالله غالب على أمره ..

★ ★ ★

— ١٣ —

حضـارة وتشريع

من القصص الطريفة ما يرويه الناس من أن رجلا زعم أنه يســـتطيع اقتحام عرين الأســد ودخوله ، وعقد مع آخر رهانا على هذا ، وعندما جاء شهود التنفيذ وقف أمام العرين يقلب كفيه وقال : ولكنى ما أزال أرى الأسد فى داخله وكأنكم لم تخرجوه بعـــد .. ! قالوا وكيف الرهان على هـــذا فهل نسيت الاشتراط ؟ قال لا : لقد اشترطت أن أقبل المراهنة وأدخل عرين الأسد ، ولم ننص فى الشرط على أن يكون الأسد موجودا فيه ، وانما قصدت أن يكون خاليا من الأسد .. !!

---

(١) الأحقاف : ٣١

ذكرنى بهذه القصة موقف ساستنا من الاسلام اليوم ، فالاسلام عندهم شىء جميل محبوب ، ما أطيب اسمه على النفوس والقلوب ، وما أحق تعاليمه بالتكريم وأولاها بالتمجيد ، وما رأت الدنيا ولن ترى أحكم من نظامه ولا أعدل ، ومحمد هو المثل الأعلى للبشرية كلها ، كل هذا يقولونه بألسنتهم ويكتبونه بأقلامهم ، ويقرون به فى أحاديثهم وتصريحاتهم فليس القرآن دستور الاخوان المسلمين وحدهم ولكنه دستور الجميع ودستورهم أيضا ٠٠ ولكن على قاعدة خلو العرين من الأسد ٠٠ !!



مرشد الاخوان فى الثامنة عشرة من عمره بالسنة الأولى بدار العلوم
(أخذت هذه الصورة فى سبتمبر سنة ١٩٢٤)

انهم يتساءلون فى دهشة ولهفة أصحيح أنكم تريدون انفاذ مبادىء الاسلام دستورا ، وتقيمون حدود القرآن قانونا ؟ ! ليكن الاسلام كما تقولون ، وكما نقول معكم ، وكما يقول حتى المستشرقون من غير المسلمين ٠

ليكن هـذا وأكثر منه ، فنحن لا نعـارض فيـه ولا ننـكره ، واننـا نؤيده ونسر به ، ولكن على أن يكـون بعيـدا عن شـئون السـياسة والحكم فلا يتناولها ، ومسـائل الحياة المدنية والاجتماعية فلا يتصل بها ولا يقربهـا وشئون الوطنية والقوميات فلا يمسـها ٠٠ !! فان سـألتهم كيف أنتم اذن مسـلمون ، وما نوع اسـلامكم هـذا وما حقيقتـه ومن أين تلقيتمـوه وعرفتموه ؟ ٠٠ قالوا انها هى الحضارة والمدنية ، وهى روح العصر وظروفه تقيدنا ولا محيص عنها ولا فكاك منها ، وان فى مصر اليوم عناصر مسيحية وأوروبية ٠٠ !!

يا للذل والهوان ٠٠ ويا لمنطق هؤلاء الرجال ٠٠ !!

كأن هؤلاء الأجانب والأوروبيين من طينة أخرى ، أو تجرى فى عروقهم دماء غير الدماء البشرية التى تجرى فى عروقنا ٠٠ ! هؤلاء الطفيليون الذين وفدوا علينا جائعين واستنزفوا دماءنا ، فزاحمونا فى أرزاقنا وضـايقونا فى أوطاننا ، وهدموا استقلالنا السياسى والاقتصادى وامتهنوا قوميتنا ٠٠ كأننا ملزمون بأن نقدم لهم المتع والشهوات والخمر والنساء ، وأن نمكن لهم ليطأوا حرماتنا بأقدامهم ، وتهدر مصـالحنا وتعطل قضـايانا من أجلهم ولارضائهم ، ليقال اننا معقولون معتدلون ، نحرص على سـياسة حسـن التفاهم وكرم الضيافة ، وأخيرا ليقال اننا مدنيون متحضرون ، لا همجيون متوحشون ٠٠ !!

هؤلاء هم الأجانب ، أما مواطنونا المسـيحيون ، فكأنهم جديدون على الاسلام أو أن الاسلام طارىء عليهم ولم يعيشوا فى ظل عدله وأحكامه من قبل ، وهم الذين عاصروا الاسلام من مطلع فجره الى اليوم وفى مصر خاصة، ولم تعرف مصر أبدا هذه الدعوة العنصرية المفرقة : « مسـيحى ومسـلم » الا حين يقصد دعاة السوء اثارة هذا الغبار ليتسـللوا فى وسطه ليصـلوا الى غاياتهم وأغراضـهم ، ولقد أشرنا الى أن الاسـلام قد كفل للجميع حقوقهم مشمولة بالقداسة والرعاية كحقوق لها حرمة الحق المصـان ، على أنه ليس الاسلام همجيا ولا وحشيا ، وهو لم يعرف الهمجية والوحشية الا مناظر مؤذية فى تاريخ أوروبا ، ووقائع مثيرة دامية فيمـا جـاء عن حيـاة أمم الغرب المتحضرة ٠٠ !!

أما التعصب فى تاريخ الاسلام فسلوا عنه كتاب الغرب ومؤرخيهم ، واقرأوا سيرته فيما كتبه المستشرقون ، اسـتمعوا الى هذه الشـهادة ان أردتم أن تكونوا قضاة تتحرون الأدلة ، وتزنون الشهادة بالضـمير العف النزيه ٠

يجب يا قوم أن نكون أقوياء فى اعلان حريتنـا التشريعية الكاملة بدون توقف على رضاء هذا وذاك ، وأن نكون أقوياء فى اشهار ايماننا بنظـام حكمنا الأساسى واقامته على ما نريد من مبادىء لن تقوم لأمتنا قائمة الا بها،

ولم نصل الى هذه الدرجة من الضعف والهوان الا حين تركناها وتخلينا عن روح تشريعها وأحكامهـا ، وان التاريخ معنا ، ومنطق العدالة فى جانبنا ، ونصوص مبادىء الاسلام فى رعاية حقوق عناصر المجتمع المختلفة ، وكفالة هـذه الحقوق لطوائفه جميعـا وتقرير حريات هـذه الطوائف والعناصر ، وتقديرها والاعتراف بها وحمايتها ٠٠ هذا معروف مشهور ، وشهادة التاريخ فى حسن التطبيق وابراز روح التشريع مشهورة وكلتا الحجتين واضحة بينة ، وهى فى ثبوتها وثباتها لا يستطيع أحـد نقضها أو الغض منها ، فماذا يريد الناس من حجج ، ومـاذا يحتاجون من أدلة وبراهين ؟ ومـاذا يعجبهم فى الحضارة الأوروبية الا أن يكون ما فيها من اطلاق العنان للمتع والشهوات الرخيصـة والحريات الداعرة ، التى حاربهـا نظام الاسـلام ، لأنه نظم للمباحات طرائقها الطبيعية ، ولأنه نظر فى مطـالب الغرائز وحاجاتهـا بما يتفق مع سمو النفس الانسانية ، فنظمها لها بالتشريعات ، وقومها بالحدود والقيود ، تكريما لنفس الانسان وسموا ببشريته : « **أحل لكم الطيبات** » (١) من الرزق « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ٠ قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهـر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق** » (٢) ٠٠ الى آخر النصوص والآيات فى هذه المعانى،فماذا فى حضارة أوروبا بعد ذلك ؟ : أهو العلم وقد تلقته أوروبا من مصر والشرق ونقلته من دول الاسلام وأخذته عن أممه ، وكل هذا ثابت تاريخيا بما لا يقبل الشك وبشهادة المؤرخين الفرنجة أنفسهم ٠٠ وما تقهقرنا نحن فى العلم وفى غيره الا بفعل الاستعمار ويوم تحكم فينا بوحشيته الغاشمة وحصر النفوس والعقول فى نطاق من الذل والعبودية ؟ ٠ أم هو فى هذه الخدع التى خدعوا بها الشعوب وضللوا الأمم : حقوق الانسان ، ومبادىء الثورة الفرنسية ، وما أشبه ذلك الهذيان ٠٠ ؟ ان هذه الأمور ان قررت للأمم والحضارات فضـلا فهى تقرره للاسلام أولا وقبل أية حضارة أو مبادىء أخرى ، فالاسلام هـو الذى قرر هذه الحقوق تقريرا واضحا عمليا لأول مرة فى تاريخ الانسانية ، وما وصـلت هذه الانسانية فيما وصلت اليه من مبادىء مع هـذا الرقى التشريعى المزعوم الى المستوى الذى جاءت به المبادىء الاسلامية وقررته فى هذه المعانى والأصول ، وهى السابقة فى التشريع فهى الأصل المتقدم ، وكأن هذه المحاسن التى جاءت بها حضارتهم بما وصلت اليه من وضع نصـوص هذه المبادىء ـ بلا روح ـ كأنها راجعة الى أصلها فيما جاءت به الحضـارة الاسلامية وقررته فى نصوصها وحققته عمليا ٠

★ ★ ★

---

(١) المائدة : ٥ (٢) الأعراف : ٣٢ ، ٣٣

ويعجبنى فى هذا المقام عبارات لسعادة الدكتور محمد حسنين هيكل باشا ، أنقل منها فقرات لقراء الروح ، قال سعادته والحديث عن الحضارة الأوروبية بعد أن أرجعها الى أصلها وأساسها الاقتصادى المادى :

« هذه الحضارة التى تجعل المال غرضها الأول وتستخدم كل شىء فى سبيله ، تستخدم العلم ، وتستخدم التشريع ، وتستخدم الفن ، وتستخدم العواطف لتحويله من طائفة الى أخرى ، فى سبيله يهون كل شىء وتهون الحرب ذاتها ، يقتل فيها ملايين الناس باسم الحرية تارة ، وباسم القضاء على الروح العسكرية تارة أخرى ، وباسم الانسانية نفسها طورا ثالثا ·· ! وهذه كلها علالات وخدع وأحابيل تنصب فى سبيل المال وحصره فى يد طائفة من الناس تتحكم عن طريقه فى سائر الطوائف تحكما هو مبعث هذه الصيحات والأنات التى تحز فى كبد ذوى النفوس الحساسة ، ولا تلقى عند أرباب المال المتحكمين فى غيرهم بسببه الا ابتسامات ازدراء واحتقار لهؤلاء الذين يئنون ويتألمون ، ولو قامت الحضارة على غير أساس المال ، ولو قامت على أساس انسانى تبعثه عواطف البر والاخاء والمحبة ، لأمكن محو الألم أو تهوينه على الأقل ، ولاستطاع الانسان أن يشعر بالاخاء الحق نحو الانسان ·

لما اندلعت الثورة الفرنسية وفكر آلهتها فى غزو العالم بمبادئها جعلوا شعارها : « الحرية والاخاء والمساواة » · وفى سبيل هذا الشعار أريقت دماء وأزهقت أرواح وقيل بعدا للظالمين ، وقد استطاعت الأجيال منذ الثورة الى ما قبل الحرب الكبرى أن تحقق للناس الحرية والمساواة أمام القانون ، حقق هذان المعنيان من شعار الثورة ونظما بالقانون ، وتمهيدا لتنظيم القانون اياهما كتب الكتاب والفلاسفة كتبهم البليغة البارعة فى تصوير هذين المعنيين، وكيف يجب لخير الفرد ولخير الجماعة أن يتحققا وأن يكفلهما القانون ، وتغنى الشعراء بالحرية وبالمساواة ، وأنشدوا فيهما روائع القصيد ووضعوا فيهما حلو الأغانى ، وكذلك مهد هؤلاء وأولئك لتحقيق الحرية والمساواة وتنظيمهما ، فأما الاخاء ·· فأما هذا المعنى الأوسط من شعار الثورة الفرنسية فبقى الأمر فيه متروكا لعواطف الأفراد لم يتناوله الكتاب والفلاسفة ، ولم ينظم فيه الشعراء ما يمهد لتحقيقه وتنظيمه بالتشريع ليصبح أمرا واقعا كالحرية والمساواة ، بل بقى معتبرا أملا حلوا يشكر الفرد اذا هو حققه وسعى اليه، ولا تثريب عليه اذا هو لم يحفل به ولم يرتح اليه ولم يحققه بالفعل فى الحياة، وانما يرجع السبب فى هذا الى أن الحرية والمساواة اتصلا بمصالح الناس المادية وبنظامهم الاقتصادى ، اتصلا بالعوامل الاقتصادية الثلاثة : الطبيعة والعمل ورأس المال،أما الاخاء فبقى معنى انسانيا ساميا فوق هذه الاعتبارات

الاقتصادية ، وما يحتدم بين الناس من الخصومات بسببها ، فاعتبر لذلك كمالا ، والتشريع لا يتناول الكمال ولا ينظم الخلق (١) ، وانما ينظم المعاملات وينظم الجرائم والعقوبات ٠

وسمع الناس أثناء الحرب الكبرى أغنيات الحرية وحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، لكن الحرب ما كادت تضع أوزارها ، حتى اعتبرت الحرية نفسها وهما من الأوهام ، واذا هى تلحق الاخاء فى أنها أمل حلو يشكر الفرد اذا قدره وأجله ، واذا التجنيد الاقتصادى يحل محل التجنيد الحربى فيعصف بالمعانى الانسانية المتواضعة التى تخلفت عن الثورة الفرنسية ويحيل الانسان آلة كآلات المصانع ، واذا النضال الاقتصادى على أشده ، واذا التشريع يوضع لحماية هذا النضال تشريعا لا يعنى فيه من أمر الأفراد بكثير ولا بقليل ، هذا هو فى الحقيقة مصدر القلق الذى يساور الانسانية فى الوقت الحاضر ويدعو أكبر الساسة الأوربيين للتساؤل عن مصير الحضارة الأوربية ، حضارة المال والاستعمار فى سبيل المال ٠

حضارة تقوم على هذا الأساس لا يرجى منها أن تعاون على البر والرحمة وأن تخفف من ويلات من تقسو الأقدار عليهم ٠ بل هى على العكس من ذلك ترى هؤلاء الذين قست عليهم الأقدار غير صالحين للبقاء ، وتقضى عليهم لذلك بأن يفنوا تحت عبء أرزائهم وهمومهم ، وفلاسفة أوربا وكتابها لا يأبون أن يقرروا ذلك وأن يصارحوا الناس به ، ولئن بقيت فى بعض النفوس الأوروبية دوافع للعواطف الانسانية السامية التى تجعل أصحابها يقيمون من أعمال البر ومنشآت الاحسان ما يخفف الألم عن المتألم والهم عن المهموم ، فان ذلك لا يعتبر فى عرف الحضارة الأوروبية واجبا انسانيا يتحتم القيام به ، بل هو فى نظر كثيرين من كبار كتاب أوربا بقية من بقايا الضعف المتخلف عند الانسان من عصور الحياة الدينية والحياة التجريدية ، أما الحياة العلمية فلا تقر فى رأيهم هذا الضعف ولا ترضى عن بقاء الضعفاء فى الحياة ٠

---

(١) هذا هو رأى سعادة الدكتور طبعا ، وللفكرة الاسلامية رأيها فاننا نرى الأخلاق تنظم بالقوانين ولابد من هذا لحماية المجتمع ولو فى اخضاع طائفة من الصور الأخلاقية لسلطان القانون التنظيمى ، صحيح أنها معان وجدانية سلطان القوة عليها محدود أو منعدم ، ولكن وازع القوة وهيبتها لهما اعتبارهما الذى لا ينكر ، وهذا معنى فسيح لا يتسع هذا المقام للافاضة فيه ، وعلى كل فان اطلاق المعانى الأخلاقية وتركها كلها حرة فى حماية الضمير وحده أمر يجب أن يعاد النظر فى تطبيقه ، وتكاد الأخلاق تكون هى الأساس الوحيد الذى يقوم عليه بناء النظام الاجتماعى ، وما التشريعات والقوانين الا وسائط لتنظيم حياة الناس الاجتماعية ، وكما قلنا ليس هذا محل الافاضة فى هذه المعانى ولكنها اشارة لا ينبغى تركها أو اغفالها ٠

هذا الأساس الذى تقوم عليه حضارة اليوم أساس فاسد فى رأينا ، وما يدعو اليه الاسلام من البر والتقوى وما يفرضه على الناس من الزكاة والصدقة وما يوصى باليتيم والبائس والمحروم هو الأساس الجدير بأن تقوم عليه حضارة انسانية حقيقة باسم الانسانية ، وقد ثبت على مر الدهور أن النوابغ الذين تهيئهم الأقدار خير الصفات الانسانية ينبتون أغلب أمرهم فى البيئات التى صقلها الألم وهذبت عواطفها الاحساسات القاسية : فكبار الشعراء وكبار الأدباء ورجال الفن الممتازون والمخترعون الذين نقلوا الانسانية فى أطوار حياتها مراحل واسعة ، كان أكثرهم من هذه الطبقات التى تدعو حضارة اليوم الى افنائها بدعوى أنها ضعيفة غير صالحة للبقاء ٠ ، والبر باليتيم والبائس والمحروم أمر يسير كما رأيت فيما قصصنا عليك من بناء دار الأيتام الاسلامية ببيروت ، فمن خير الانسانية أن تقيم حضارتها الجديدة على هذه الأسس الانسانية السامية لتكفل لأبنائها السعادة وللجماعة الانسانية كلها الرقى والتقدم » (١) ٠

ولعل هذا مما يجب أن يقال فى الرد على مبادىء الثورة الفرنسية وتصويرها ، ولقد تقرر مصيرها بالفعل فصارت الى خبر كان ٠٠ ! ونريد أن يقدر الساسة والزعماء هذه المعانى وهذه الحجج ويثوبوا الى رشدهم ويقدموا لأمتهم العلاج الناجع المفيد ٠

وفى مقال آخر طويل لسعادته فى السياسة الأسبوعية ـ منذ نحو عشرين سنة ـ تحت عنوان : « الشرق والغرب ـ الحضارة الاستعمارية » تجد ما هو ألطف من هذا ، وليعذرنا القراء ان أطلنا بهم الوقوف عند هذه المعانى ، وان أطلنا فى النقل ، فمقصدنا من ذلك غير خاف فيما نظن ، ثم اننا نريد أن نعرف الأمة أن الفرق بين الاخوان وهؤلاء الساسة أنهم يؤمنون بما نقول نظريات وأقوال يثبتونها فى الكتب والأوراق وتنال الاستحسان والاعجاب ، أما نحن فنؤمن بها عقائد وحقائق وعمليات ومناهج اصلاحية ٠

قال سعادته يسرد بعض أسباب استخذاء الأمم الشرقية واذعانها لسطوة الاستعمار الغربى وتنازلها عن سيادة دولها وأممها :

« لماذا هذا الاذعان وهذا الاستخذاء ؟ لأن نظام الحكم ولأن الحياة الاجتماعية فى هذه الشعوب الاسلامية والشعوب الشرقية كانت قد وصلت من الجمود الى ما سبق لنا وصفه ، ولأن هذه الشعوب رأت فى الحياة الجديدة الوافدة عليها من أوروبا صورا تحطم من قيود الجمود وترد الى الانسان حظا من الحرية يجعل للحياة قيمة لم تكن لها ، ومهما تكن الحرية التى جاء بها الأوروبيون الى الشرق متجهة الى نواحى الحياة المادية أكثر من اتجاهها الى نواحيها الفكرية والمعنوية فان كل قدر يحطم من الجمود

---

(١) مجلة الهلال يوليه سنة ١٩٣٥ العدد التاسع السنة ٤٣ ٠

يبعث الى النفس رجاء فى نعيم الحياة لم تكن تطمع من قبل فيه ، فاذا أتاح الاعتداء على سيادة الدولة أن يرى أبناؤها أفكارا جديدة يستريح اليها العقل ، واذا أتاح هذا الاعتداء أن يعبر الانسان عن فكره بحرية لم يكن يعرف ، واذا أتاح للانسان أن يعيش حياة مادية أكثر رخاء ، واذا بعث الأمل فى تحطيم قيود الجمود قيدا بعد قيد ، اذا أتاح الاعتداء على سيادة الدولة هذا كله للأفراد نسى الأفراد الدولة وسيادتها وبخاصة اذا كان نظام هذه الدولة أوتقراطيا يشع الاستبداد كما كان الشأن فى تركيا ، وبخاصة اذا كان صاحب هذه السيادة راضيا عن تقييدها ثمنا لما يناله من ضمانة الامبراطورية وسلامة أراضيها . وكيف ترى تدافع الشعوب عن سيادة الدولة اذا كانت هذه السيادة ستارا للعسف والظلم والقضاء على صور الحرية جميعا ، واذا كانت قيود هذه السيادة تفتح فرجة من أمل فى تحطيم قيود الحرية ، ان الشعوب يومئذ لتفكر فى سعادتها وفى رخائها وفى طمأنينتها قبل التفكير فى سيادة الدولة ، فاذا بلغت من ذلك مقاما ترضاه توجهت بهمتها الى نظام الدولة والى حقوقها ، فاذا أصبحت الدولة ممثلة الشعب كما يجب أن تكون اتجهت جهود الشعب لاستكمال سيادة الدولة وحريتها وتضافرت لاقامة استقلالها ومجدها ، وثم اعتبار آخر هون على الشعوب اذعانها واستخذائها ، ذلك هو اذعان الحكومات واستخذاؤها . فهؤلاء الأجانب الذين وفدوا على مختلف البلاد الشرقية وأقاموا فيها ألوانا من حياة أوروبا قد رأوا من حكومات هذه الدول ترحيبا بهم واقبالا عليهم وحماية لهم يتمنى أهل البلاد بعضها ولا يجدونها : يجب اذن أن يكون هؤلاء الأجانب فى نظر تلك الحكومات الشرقية جديرين بهذا التقدير والاعتبار ، ويجب أن يكونوا أرقى فى مراتب الحياة لينالوا كل هذا الاعتبار ، لذلك لم تنظر لهم تلك الشعوب على أنهم اخوان فى الانسانية هجروا بلادا ضاقت بهم فلم يجدوا فى المقام بها خيرا وهم لذلك جديرون بشىء من الاشفاق ، مطالبون بأن يقدروا هذا الاشفاق حق قدره ، بل نظرت اليهم على أنهم أبناء أمم أسمى نفوسا وأرقى عقولا وأقدر على حكم الحياة وأجدر بأن يكونوا مثالا يحتذى لينال محتذيه شيئا مما ينالون من كرامة وحق وسلطان على الحياة . وقد حصل الذين احتذوا مثال هؤلاء الأجانب من حكوماتهم الشرقية على شىء من ذلك كله مما لم يكونوا يحصلون عليه من قبل ، ومما لا يحصل عليه من لم يتخذوا الأجنبى قدوتهم ولم يخرجوا بذلك على قديم جمودهم ، وشجع هذا السبق فى ميادين الحياة على اتساع نطاق الاحتذاء وعلى محاكاة الطائفة الحاكمة من أهل البلاد لهذه الحياة التى وردت مع الجاليات الأجنبية ، ولم يكن ذلك عجبا وقد جعلت الحكومات نفسها تستورد من صور هذه الحياة ما تراه حقيقا بأن ينيلها عطف هذه الدول التى أطلقت على نفسها اسم « العالم المتمدين » ، استوردت الحكومات أسماء النظم الأوربية وصورها الظاهرة مكتفية بذلك عن حقائقها وقيمها الذاتية ، أقامت هيئات الى جانب الحكم المطلق أطلقت عليها اسم الشورى أو النيابة عن الأمة لتضاهى البرلمانات ومجالس النواب ، أنشأت مدارس وألبست أبناءها الزى

الأوربى وادخلت فيها تعليم بعض اللغات الأجنبية لتضاهى المدارس الأوربية ، اقامت للعدل نظما صورها الظاهرة كالنظم الموجودة فى أوربا ، وكان ذلك كله اعترافا منها بأن الحياة الأوربية هى الكفيلة بالرقى فى سلم التمدن وان النهج على منوالها هو الذى يسمو بالانسان الى مقام الحضـارة ، ولكى يكون لهذه المظاهر جميعا من حسن السمعة ما يوهم عظيم شبهها بأمثالها فى أوربا استعارت حكومات الشرق رجالا من الغرب لاتقان تصوير هـذه المظاهر ، فلا غرو اذا نزع أبناء الشعوب الشرقية الى محاكاة الوافدين عليهم من أبناء الغرب فى مظاهر حياتهم ، واذا اعتبرت هذه الشـعوب فى ذلك ما يقربها من حضارة الغرب وما يكاد يدمج حضارة الغرب بحياتها ٠

ولعل مصر كانت أكثر دول الشرق سبقا فى هذا الميدان ، فمصر بطبيعة مركزها الجغرافى عقدة الاتصال بين الشرق والغرب ، ومصر كانت ولاية عثمانية كغيرها من سائر أجزاء الامبراطورية العثمانية ، ولكنها كانت على خلاف غيرها دائمة التمرد والثورة على سلطان الدولة ، وقد ظهر ذلك من قبل الحملة الفرنسـوية على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر حين أعلن ابراهيم بك الكبير اسـتقلالها كمـا ظهـر بعـد الحمـلة الفرنسـوية حين عينت تركيا محمد على باشـا واليا على مصر فاستفاد من تمردها ومن ثورتها على الدولة ومن قوتها الذاتية قوة قام بها فى وجه تركيـا واندفع بها الى غزوها جاعلا الآستانة هدفه قاصدا وضع يده على مقر الخلافة ليقيم بها خليفة للمسـلمين أو ليرد الخلافة الى القاهرة ويقوم هو خليفة فيهـا مكان الخليفة الذى انتزعه الأتراك منها ٠ ولشد ما عطفت أوربا على هذا العصيان الذى قام به والى مصر فى وجه متبوعه خليفـة المسـلمين وما شجعته ، ومع أنها وقفت دون محمد على وبلوغه غايته فانها قد أبدت من الحرص على تأييده بمنح مصر استقلالها الذاتى تحت امرته وامرة أسرته من بعده وبجعل فلسطين وسوريا تحت حكمه ما جعله يقدر هـذا العطف ويفتح للأجانب فى مصر بابا كان من قبل موصدا ، ولم يكتف محمد على بفتح هذا الباب ثمنا لعطف فرنسا ممثلة أوربا يومئذ عليه ، بل أقبل هو على الأجانب واتخذ له منهم مستشارين وأنصارا وجعل منهم قوادا لجيشه ومهد بذلك لتغزو الحياة الأوروبية مصر غزوا سريعا ، وقد ظهـرت نتـائج هـذا الغزو بعد زمن قصير حين عقد ديلسبس مع سعيد باشا اتفاقية قناة السويس وحين نادى اسماعيل باشا بأن مصر لم تعد من افريقيا بل أصبحت قسـما من أوربا ، وحين توالت الحوادث بعد ذلك سراعا لتمهد الطريق لانكلترا كى تضع يدها على مصر ٠

كان من أثر هذا التطور فى حياة دول الشرق وشعوبه وتوجهها نحو الحياة الأوربية تنسج على منوالها أن بدأت البعثات التعليمية الأوربية تفد الى الشرق وتستقر به ، وكانت هذه البعثات التعليمية بدء الغزو الصحيح وكان ذلك تقدير أوربا لها ، فما دام الشرقيون يقبلون على الحياة الغربية فليهيىء الغرب لهم أسباب محاكاتها وليجعل التعليم وسيلته الى ذلك ، لكن

أمر هذه البعثات يستلفت النظر فقد رأينا أوروبا تتدرج منذ البعث فى القرن الخامس عشر الى حرية الفكر والى تحطيم القيود التى غللت بها الكنيسة هذه الحرية والى اقامة نظم تعليمية مستقلة عن الكنيسة وعن رجال الدين ، مع ذلك كانت هذه البعثات التى جاءت الى الشرق بعثات دينية كلها ، ولقد يخال الانسان بادىء الرأى أن هؤلاء الذين وفدوا الى الشرق من رجال الدين المسيحى على مختلف مذاهبهم ونحلهم انما وفدوا اليه لتضييق حكوماتهم نطاق التعليم الدينى فى بلادهم واعتبارها اياهم أدوات جمود وتأخر ، لكن هذه البعثات الدينية التعليمية لقيت منذ اللحظة الأولى حماية من لدن حكوماتها المختلفة لم يلقها غيرها من الأجانب الذين جاءوا الى الشرق ، وكان المتبادر الى الظن ألا تعطف حكومات أوربا كل هذا العطف على جماعة تعتبرهم سببا من أسباب تأخر أوطانهم مادامت تريد أن ترفع فى ربوع العالم كله لواء حضارتها الجديدة ، لكن الأمر كان ولا يزال على النقيض من هذا المتبادر الى الظن · ومتتبع تقارير ممثلى الدول الأوربية فى الشرق منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر الى وقتنا الحاضر يعجب لما يرى فيها من شدة الحرص على حماية هذه البعثات حماية لا يتردد الانسان معها فى اعتبار البعثات التعليمية الدينية غزوة منظمة وجهتها أوربا الى الشرق لغايات سياسية ·

كيف كانت هذه البعثات غزوا سياسيا منظما وجهته أوروبا للشرق ؟ رأيت أن تركيا كدولة الخلافة الاسلامية الحائلة بامتدادها حول البحر الأبيض المتوسط دون غزو أوربا لافريقيا وآسيا كانت موضع نظر خاص من جانب دول أوربا ، فتنافسها بحكم القومية جعلها تتسابق الى أن تكفل سلامة الأراضى العثمانية ، وحرصها على اختراق هذا النطاق وعلى وضع يدها عليه جعلها تعمل لتشجيع العوامل التى تضعف هذه الدولة العثمانية ، فهى قد صدت روسيا بعدأن تراجعت تركيا أمامها ، وهى قد أعادت محمد على الى مصر بعد أن كان على مقربة من القسطنطينية ، وهى قد شجعت اليونان وشجعت الدول البلقانية على الانقضاض على تركيا · لكن تركيا اذا تركت وشأنها بعد هذه الضربات التى أصابتها والتى صدتها أوربا عنها ضمانا لسلامتها قد تستفيد من هذا الدرس القاسى وقد تراجع النظر فى أمرها ·

وكان من نتيجة هذا الغزو التعليمى وما أذاع فى الشرق من أدب جديد وتفكير جديد أن زاد أهل الشرق شعورا بما جنى الجمود عليهم واقبالا على هذه الحضارة المتقدمة · ولكن كيف يكون هذا الاقبال ! أيكون بنزع القديم كله وارتداء ثوب الحضارة الجديدة ؟ لقد نزعت بعض الأمم فيما بعد الحرب الكبرى الأخيرة هذا المنزع كما فعلت تركيا وكما حاولت أفغانستان أن تفعل : لكن هذا النزع لم يكن ميسورا قبل الحرب حينما كانت شعوب الشرق ماتزال تحسب نفسها قديرة على استعادة مجد كان لها ، لذلك بدأ أهل الشرق يفكرون فى أسباب تغلب الحضارة الجديدة عليهم وفى وسائل الوقوف على أقدامهم ازاءها · وتفكير الضعيف فى سبب ضعفه تفكير مطمئن بطبعه للاعتراف بما هو متورط فيه من الخطأ وما هو شر من الخطأ ، لذلك

كان الأخذ بوسائل العمل لمجابهة الحضارة الغازية أسرع من التفكير فى التغلب على أسباب الضعف،وكان هذا العمل لمجابهة الحضارة الغازية سطحيا هو الذى يتبادر الى ذهن الانسان العادى فى أى ظرف من الظروف ٠ فهذا العمل انما هو محاكاة الغرب صاحب الحضارة بمحاكاتها ٠٠ الخ ٠ « وان استفزاز الشعور وحده غير كاف لطرد المستعمر من بلاد يجد فيها مغنما ماديا ، أو يجد فيها نقطة ارتكاز لسياسته الاستعمارية أو العسكرية ، فاذا أريد أن تقاوم أمم الشرق استعمار الغرب فلا مفر من تقوية الروح المعنوية فى أمم الشرق تقوية أساسية ثابتة تجعل أصحاب هذا الروح يأبون الضيم ويفضلون عليه الاستشهاد ، وان تقوية الروح المعنوية على هذه الصورة لا يكون الا اذا شعرت هذه الأمم بأن لديها من مقومات الحياة ما لدى أمم الغرب من علم وفن وأدب وصناعة ، وان الاعتماد على الحكومات فى هذا ضرب من السخف لأن الحكومات اما استبدادية كما كانت فى تركيا وفى فارس وفى الأفغان ، فهى تخاف العلم والفن والأدب والصناعة كما يخافها المستعمر سواء ، واما خاضعة لحكم المستعمر فلا رجاء فى مقاومتها سياسته ، وفى اقامتها العلم والفن والأدب والصناعة مما يدك أركان هذه السياسة ٠

فلابد من أن تقوم حركة أهلية منظمة تعمل لتقوى الروح المعنوى ، وان احتاجت فى ذلك الى ما تحتاج اليه من جهود شاقة وعمل متصل على السنين ٠٠ »

★ ★ ★

فماذا فعل الاخوان المسلمون غير هذا ، وماذا كانت حركتهم الا هذه الحركة الأهلية ، والعقل الجديد الذى حمل مشعل الحضارة الحديثة فى الشرق ؟ ! وماذا قالوا منذ أن خرجوا بدعوتهم الا هذه الحقائق وهذه المبادىء وتقرير أصولها ؟ ! ٠ فهؤلاء الأجانب ليسوا أكثر منا مدنية ولا حق لهم فى الحد من حرياتنا التشريعية ، واذا كان الذل مازال مضروبا علينا بما يسمونه « اتفاقية مونترو » وأمثالها وما يقولونه من وجوب مماشاة تشريعنا لما يطلقون عليه تطور العصر ورقيه ، اذا كان ذلك كذلك فقد وجب على هؤلاء الرجال الذين يتولون تمثيلنا أن يتشجعوا قليلا ويهمسوا فى آذان سادتهم من ساسة أوروبا أن يجدوا بحضارتهم وبتشريعهم ليستطيعوا الوقوف أمام رقى التشريع الاسلامى ونصاعته ، فهو قد سبق التشريع الغربى الأوروبى بمراحل كبيرة ، وتقدم عليه بخطوات واسعة ٠٠

والا فمن حقنا بعد ذلك أن نتقدم الصفوف لتوضع الأمور فى نصابها، وأن نقول لهؤلاء الساسة : اسمعوا لغتنا ، وأفسحوا الطريق ٠٠

★ ★ ★

ولعل من المناسب بعد هذه الافاضة أن نقف وقفة ننحو بها الى جانب موقف التشريع الاسلامى من الأقليات ، لا لنورد النصوص المشهورة ، ولكن لنشير فى لمحة سريعة مجملة الى ما لقيته الأقليات من رعاية التشريع الاسلامى ، وسماحة نظامه فى التطبيق والتنفيذ لا فى تقرير المبادىء والاعتراف بها فقط ، وسنعتمد فيما نورده من نصوص ووقائع على كتاب الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، تأليف الأستاذ آدم متز أستاذ اللغات الشرقية بجامعة « بال » بسويسرا ، وترجمة الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة .

جاء فى الكلام على الطوائف غير الاسلامية (١) : « لم يكن النصرانى يرث اليهودى ولا العكس كما لم يكن اليهودى أو النصرانى يرث المسلم ولا المسلم غير المسلم يهوديا أو نصرانيا ، وقد أصدر الخليفة المقتدر فى سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) كتابا فى المواريث أمر فيه بأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثا على أهل ملته ، على حين أن تركة المسلم كانت ترد الى بيت المال ، وفى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى صدر منشور كتب للصابئين عن أمر أمير المؤمنين فيه الى جانب صيانتهم وحراستهم والذب عن حريمهم ورفع الظلم عنهم ونحو ذلك .. بالتخلية بينهم وبين مواريثهم ، وترك مداخلتهم ومشاركتهم فيها » . « وفى أثناء القرن الرابع اعترف للمجوس أنهم أهل ذمة الى جانب اليهود والنصارى ، وكان لهم كاليهود والنصارى رئيس يمثلهم فى قصر الخلافة وعند الحكومة » . « ولم يكن فى التشريع الاسلامى ما يغلق دون أهل الذمة أى باب من أبواب الأعمال ، وكان قدمهم راسخا فى الصنائع التى تدر الأرباح الوافرة ، فكانوا صيارفة وتجارا وأصحاب صناع وأطباء ، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى ، وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة ، وكان رؤساء اليهود جهابذتهم عنده » . « ولم تكن الحكومة الاسلامية تتدخل فى شعائر أهل الذمة الدينية بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم ، وفى حالة انقطاع المطر كانت الحكومة تأمر بعمل مواكب يسير فيها النصارى وعلى رأسهم الأسقف واليهود ومعهم النافخون فى الأبواق ، وكذلك ازدهرت الأديرة فى هدوء ، فمن ذلك الدير المسمى قنى وهذا الدير كان يقع على مسافة ستة عشر فرسخا من بغداد منحدرا فى الجانب الشرقى بينه وبين دجلة ميل ونصف وهو دير حسن نزه عامر ، وعليه سور عظيم .

وقد ولى غير المسلمين جميع المناصب فى الدولة كما ذكرنا ومناصب الوزارة بنوع خاص ، ونكتفى بهذه الاشارات فمجال القول فى هذا الباب واسع ، وشواهد التاريخ فيه كثيرة وافرة ، وما أنكر أحد — ولا

---

(١) ص ٥٧ ، ٥٨ وما بعدهما من كتاب حضارة الاسلام فى القرن الرابع الهجرى .

استطاع أن ينكر — أن الاسلام قد جاء بالعدل الشامل والرحمة السابغة للناس أجمعين ، وأن شريعته سبقت الشرائع كلها فى الكمال والرقى ، وأن مبادئه جاءت بما لم تأت به أية مبادىء أخرى فى أى مذهب من المذاهب الحديثة التى تفاخر بها الحضارة الحالية ، ونتحدى أن يأتينا الناس بمثل من التاريخ تشهد بأن أقلية من الأقليات فى أية أمة من الأمم ، أو أى عصر من العصور ، عاشت فى ظل الأمن الشامل ، والعدل الكامل ، ونعمت بالحرية، وتمتعت بسائر حقوقها ، كما تمتعت بذلك الأقليات غير الاسلامية مع أمم الاسلام وفى عصره وفى كنف نظامه ، وفى دستوره وقوانينه وأحكامه .

* * *

واننا لنؤمن أن سيادة النظام الاسلامى وسريان دستوره فى مصر قد أصبحت قضيتها مفروغا من تحقيقها ، لأنها نتيجة طبيعية لتطور أفكار الأمة تتمثل فى سريان هذا الشعور العام فى الشعب بوجودها وصلاحيتها ، واحساسه بضرورتها ، وايمانه العميق بها ، حتى صارت للملايين من أبنائه عقيدة راسخة تفدى ، لأن هذه الملايين تؤمن بأن ادراك هذه الغاية لا يكون بالتمنى فهم جميعا قد هيمنوا على حركاتهم وسكناتهم وعواطفهم ونزعات نفوسهم وكل شعور يجرى فيها ، هيمنوا على هذا كله وأوقفوه على دعوتهم ، فهم يعيشون لها وحدها ، وان الحياة المصرية نفسها تتطور الى أهداف هذه الدعوة من حيث لا يشعر الناس ، فالحياة الحرة العزيزة الكريمة التى يريدها الشعب وتحقق آماله ، ويظن الناس خطأ أنها لم تأت الا مع الحضارة الأوروبية ومن جهاد أوروبا ، هذه الحياة الفاضلة والمثل الرفيعة لن يجدها الناس فى الشرق الاسلامى الا فى الاسلام لأنها من صميم مبادئه وهى مكفولة فى نظامه كفالة تامة ، ووردت نصوصها فى تعاليمه بصراحة ووضوح وتفصيل ، وما أتت أوروبا الا بالقشور موزعة تائهة فى الحروف والنصوص ، ثم انها حديثة فى معرفة هذه المبادىء والحديث عنها اذا تجاوزنا عن أحكام القاعدة المعروفة من أن الشريعة السابقة هى الأصل ، فلا ندرى لم يتخذ زعماؤنا أوروبا قدوتهم ويجعلونها أستاذة هذه المبادىء اليها ترجع أصولها ومصادرها .

واذا كانوا يعتبرون الثورة الفرنسية هى أم تلك المبادىء فان مبادىء الثورة الفرنسية أعلنت فى أغسطس سنة ١٧٨٩ ، وماذا أعلنت ؟ أعلنت ما يسمونه حقوق الانسان وهو : « أن الناس يولدون أحرارا ومتساوين فى الحقوق ويبقون كذلك ، وأن الغرض من أى مجتمع سياسى هو صيانة الحقوق الطبيعية وهى الحرية والملك والاطمئنان ومقاومة الظلم ، وأن السلطان بأجمعه بيد الشعب ، وليس لفرد أو هيئة مباشرة سلطة ليست صادرة عن الشعب ، وأن للناس أن يشتركوا فى وضع القانون بأنفسهم أو بواسطة نوابهم ، وألا يؤذى أحد بسبب آرائه مادام اعلانها لا يخل بالنظام الذى أقره القانون ،

وأن الملك حق مقدس فلا يحرم منه أحد الا اذا اتضح انه لازم لمنفعة عامة ويكون ذلك بحكم القانون » . هذا فى فرنسا ومنذ مائة وخمسين عاما ، أما فى أمريكا ففى يوليه سنة ١٧٧٦ اجتمع فى فلادلفيا مؤتمر يمثل ثلاث عشرة مستعمرة بأمريكا الشمالية كانت الى ذلك الوقت خاضعة لانجلترا وكان مما أقره المؤتمر هذه العبارة : « نعتقد أن الحقائق الآتية بديهية وهى أن الناس خلقوا متساوين وأن بارئهم منحهم حقوقا معينة لا يمكن نزعها عنهم ، وأن من بين هذه الحقوق الحياة والحرية وتحصيل السعادة ، وانه لضمان هذه الحقوق تقام الحكومات وتستمد سلطتها من المحكومين » (١) .

فخبرونا بالله أى شىء من هذه المبادىء جديد على الاسلام وأيها لم يعرفه ولم يجىء به وينفذه ويطبقه من أول يوم أعلنت فيه الرسالة المحمدية القرآنية ؟ ! ان هذا كله موجود فى الاسلام مفصلا واضحا ظاهرا ، ولكن قومنا اذا ذكر لهم الاسلام وحده ثاروا وكذبوا وأعرضوا ، وان يشرك به يؤمنوا ، فما حيلتنا الا أن نواجههم بالحقائق البينة الدامغة هدى وذكرى وما يذكر الا من ينيب .

وقد أعلنت مبادىء القرآن اليوم عن وجودها بظهور هيئة الاخوان المسلمين وقيادتهم المظفرة التى هالها تشتيت الروح الوطنى الدينى القومى فى مصر والشرق العربى الاسلامى واقفار النفوس منه ، فأطاعت هذه القيادة عوامل الايمان الراسخ الذى يشتعل فى نفسها فى ايمانها المطلق بهذه المبادىء ، وايمانها بالشعب والأمة فى كل قطر عربى اسلامى ، وأن من بين أبنائه وشبابه من هم أهل للقيام بأعباء الوطنية الحقة والنهضة الصحيحة ، والسير بدفة الحضارة الانسانية كلها الى الأهداف المجيدة التى يسير اليها العالم ويطلبها ويتطور اليها ، ونجحت قيادة الاخوان المسلمين فجمعت القلوب على هذه المبادىء أملا وعقيدة توقف الأمة حياتها عليهما ، وتترقب الموت فى سبيلهما ، فعملت بذلك على تنوير ذهن الفرد وتوجيه عاطفته الى الغايات النفسية الرفيعة السامية التى تعتز بها الكرامة الشخصية ، وتفهم بمقتضاها حقوق الانسان فهما صحيحا ، وتجعل من كل واحد من هؤلاء الأفراد جيشا بأسره يأتى بالأعاجيب ويصنع المعجزات فى سبيل الاعتراف بهذه المبادىء واقرار سيادتها .

★ ★ ★

وكان لشخصية مرشد الاخوان وقائدهم الأثر الوحيد فى هذا التوجيه المحكم ، والاتجاه الى الأخذ من معين هذه المبادىء ، واقامة نهضة الأمة على أساسها ، فلقد سجل التاريخ أن شخصية « حسن البنا » هى الشخصية

---

(١) هذا النص وما قبله عن مقال للدكتور محمد حسونة بجريدة السياسة فى ١٨ فبراير ١٩٣٣

الفئة التاريخية التى ظهرت فى عصـور التاريخ المتوسط والحديث تدعو الى مبادىء الاسلام ، والعودة بالناس الى تعميم نظامه واقرار دستوره وانفاذ أحكامه وتطبيقها تطبيقا دقيقا عمليا كاملا صـحيحا يظهر روعتها ، شـخصية قائد الاخوان هى رجل التـاريخ الذى ظهـر يحمل لواء العودة بالناس الى مبادىء هذه الحضـارة وأهدافها المجيدة ، وان القافلة تسـير باسم الله ، وستنتصر هذه المبادىء لأنها حق ، ولن يغلب الحق أبدا ٠

★ ★ ★

— ١٤ —

انتصار

أشرنا فى مقدمة هذا الكتاب الى أن مبادىء الاسـلام كان يتعـاقب عليها الظهور والانزواء فى عصور التاريخ المختلفة ، وأنها فى عهود الانزواء كانت تظل متحفزة ، وظهورها دائما كان يخضـع كذلك لظهـور القيـادة الصـالحة التى كانت بمثابة روح المبادىء ، فلقد قلنا ان مبادىء الاسـلام ظلت حية تحمـل الحياة المتجددة ، كلمـا وجدت القائد القوى المؤمن الذى يعمل لها ويذود عنها وأنها تأخرت حين فقدت هذا العنصر ، ولقد أخذنا على كل الحركات الاصلاحية التى سبقت دعوة الاخوان أنها كانت ناقصـة بتراء وأنها أغفلت حقائق كثيرة ، لم تنتبه الى عنصر المنهاج الاسـلامى ووجوب اقامة نهضـة الأمة عليه على اعتبـار أنه العلاج الوحيد ، وأن انصراف الأمة عنه هو الذى ساق اليها الدمار وتأخر بها ، ثم انها كذلك لما تفطن الى أن تربى الأمة على أصـول هـذا المنهـاج وتجمع قلوبها على الايمان به حتى يمكن أن يؤمل من ورائها نجـاح كحـركة اصـلاحية تظهر فى أمة ذليلـة مستعبدة ٠

والى هذه الأسباب أرجعنا فشل كل الحركات الاصلاحية السابقة التى ظهرت فى مصر والشرق فى العصر الحديث ، وعللنا عدم نجاحهـا ٠ ولقد ظل الأمـر هكذا كما قلنا حتى جاء العصر الحديث فأظهر قيادة الاخـوان المسلمين عقلا جديدا ومعنى جديدا فى قيادة النهضات والأمم والشـعوب ، وجاءت معها هذه النهضة التى يجاهد لها « حسن البنا » ويهيىء لظهورها جاءت حركة طبيعية ، وثمرة لابد منها لتطور آمال الأمم الاسلامية كلهـا بعد هذا الأمد الطويل ، فهى ثورة نشأت نشوءها الطبعى ، لا نتيجة فورة وقتية أو لعب بالألفـاظ ، انما هو تطور آمال الأمة وأفكـارها الى نهضـة مزهرة تحيا بها الآمال ، تعتمد على ما تعتمد عليه كل دعـوة ناجحـة من منهاج صالح واضح ، وجند مؤمنين بغايتهم ، وقيادة حكيمة موفقة ٠

هذا كله توفر لدعوة الاخوان منذ ظهورها ، وانما تنتصر المبادىء اذا اخذت طريقها الى قلوب الشعب فى سهولة ووضوح ولطف وسرت اليها كالنسيم ، ولن يتحقق هذا لدعوة من الدعوات الا اذا توفرت لها الصلة الروحية التى أشرنا اليها فى نهاية الفصل الثالث ، وهذا كله من سلسلة العوامل التى هيأت لنجاح دعوة الاخوان المسلمين وظهورها وانتصارها كمبادىء حية تصور آمال الأمة وتصلح أساسا لقيام نهضة جديدة وحضارة جديدة تضارع أسمى ما وصلت اليه الشعوب التى تظن أنها قد وصلت الى مستوى من التفكير السياسى والنضوج العقلى لم يحلم بمثله التاريخ من قبل ، ولا شك أن عامل القيادة هو أقوى هذه العوامل وأوضحها ظهورا ، وأعمقها أثرا ، وأنفذها سيطرة وتوجيها على ما رأيت فى هذا الكتاب ، وما مر بك من مزايا قيادة الاخوان المسلمين ، ومواهبها النادرة ، التى خلقت من « حسن البنا » ، رجل الدعوة الاسلامية ، والنهضة الشرقية العربية فى التاريخ الحديث ٠

وليست مهمتنا الآن استقصاء هذه المزايا بعد أن أشرنا اليها فى هذا الكتاب جملة ، ولا هى أيضا أن نسرد عوامل نجاح الدعوة أو نبرز مظاهر انتصارها ، لأن دعوة الاخوان المسلمين تمر الآن بنفس الدور الذى مرت به الدعوة المحمدية الأولى الذى أشرنا اليه فى الصفحات من (٢١) الى (٢٩) فى مقدمة هذا الكتاب ، وهو دور خطير فى تاريخ الدعوة ، ومرحلة حاسمة من مراحل حياتها ، لأنه هو الدور الذى ظهرت فيه حركة الاخوان لا على أنها هيئة من الهيئات أو جماعة من الجماعات أو حزب من الأحزاب وكفى ٠٠٠ ولكن ظهرت على أنها أمل من آمال الشعب يتردد فى صدور الملايين ، وعقيدة تردد هذه الملايين ذكرها ترديدا مقرونا بحب الموت فيها واستعذاب التضحيات الجسام من أجل اقرار مبادئها وسيادة نظامها ، هى ليست هيئة أو جماعة لها مبادىء مكتوبة على أوراق تسمى قانون الجماعة أو الهيئة أو ما الى ذلك مما اعتاد الناس التخاطب به ، ولكنها عقيدة ومبادىء تؤمن بنفسها وتريد أن تسود ، لأنها حق ، وليس من طبيعة الحق الا السيادة المطلقة ٠

هذا هو وجه المسألة ووضع الأمور ، وهو ما سميناه : الوضع الصحيح للقضية المصرية فى الوقت الحاضر ، والوضع الصحيح لقضية كل قطر اسلامى أو شرقى عربى ، وهو الوضع الذى أردنا أن نلفت اليه الأنظار بصراحة ووضوح تامين ، وما أتينا فى هذا بجديد ولكنه ايضاح ، وبلاغ للناس لينذروا به وليعلموا أنه دستور واحد ولواء واحد ، هو دستور الاسلام ولواؤه ٠

★ ★ ★

ومن أول يوم ظهرت فيه الدعوة وهى تقدر لهذا التطور وتعمل له ، وكما قالت القيادة فى أحد بياناتها : « نحن ندعو الناس الى « مبدأ » —

مبدأ واضح محدود مسلم به منهم جميعا ، هم يعرفونه ويؤمنون به ويدينون بأحقيته ويعلمون أن فيه خلاصهم واسعادهم وراحتهم ، مبدأ أثبتت التجربة وحكم التاريخ صلاحيته للخلود ، وأهليته لاصلاح الوجود ٠

والفرق بيننا وبين قومنا بعد اتفاقنا فى الايمان بهذا المبدأ أنه عندهم ايمان مخدر نائم فى نفوسهم لا يريدون أن ينزلوا على حكمه ولا أن يعملوا بمقتضاه ، على حين أنه ايمان ملتهب مشتعل قوى يقظ فى نفوس الاخوان المسلمين ، ظاهرة نفسية عجيبة تلمسها ويلمسها غيرنا فى نفوسنا نحن الشرقيين : أن نؤمن بالفكرة ايمانا يخيل للناس حين نتحدث اليهم عنها أنها ستحملنا على نسف الجبال وبذل النفس والمال واحتمال المصاعب ومقارعة الخطوب ، حتى ننتصر بها أو تنتصر بنا ، حتى اذا هدأت ثائرة الكلام وانفض نظام الجمع ، نسى كل ايمانه وغفل عن فكرته ، فهو لا يفكر فى العمل لها ولا يحدث نفسه بأن يجاهد أضعف الجهاد فى سبيلها بل انه قد يبالغ فى هذه الغفلة وهذا النسيان حتى يعمل على ضدها وهو يشعر أو لا يشعر ، والست تضحك عجبا حين ترى رجلا من رجال الفكر والعمل والثقافة فى ساعتين اثنتين متجاورتين من ساعات النهار ملحدا مع الملحدين وعابدا مع العابدين ٠٠ !!

هذا الخور أو النسيان أو الغفلة أو النوم أو قل فيه ما شئت هو الذى جعلنا نحاول أن نوقظ « مبدأنا » ، وهو المبدأ المسلم به من قومنا فى نفوس هؤلاء القوم المحبوبين » ٠ .

« ان دعوة الاخوان المسلمين دعوة « مبدأ » يقر به التاريخ ويعرفه ولا ينكره ، وفى الشرق والغرب اليوم دعوات ومبادىء وفكر ومذاهب وآراء ومنازع ، كلها تتقسم عقول الناس وتتنازع أسبابهم ، وكلها يزينه أهله ويقوم بالدعاية له أبناؤه وأتباعه وعشاقه ومريدوه ، ويدعون له من المزايا والمحاسن ، ويبالغون فى هذا الادعاء ما يبرزه للناس جميلا خلابا رائعا ، والدعاة اليوم غيرهم بالأمس ، فهم مثقفون مجهزون مدربون اخصائيون — ولا سيما فى البلاد الغربية — حيث تختص بكل فكرة كتيبة مدربة توضح غامضها وتكشف عن محاسنها وتبتكر لها وسائل النشر وطرائق الدعاية ، وتتلمس لها فى نفوس الناس أيسر السبل وأهونها وأقربها الى الاقتناع والاتباع ٠

ووسائل الدعاية الآن غيرها بالأمس كذلك ، فقد كانت دعاية الأمس كلمة تلقى فى خطبة أو اجتماع ؛ أو كلمة تكتب فى رسالة أو خطاب ؛ أما الآن : فنشرات ومجلات وصحف ورسالات ومسارح « وخيالات » وحاك ومذياع ، وقد ذلل ذلك كله سبل الوصول الى قلوب الناس جميعهم نساء ورجالا فى بيوتهم ومتاجرهم ومصانعهم ومزارعهم ٠

لهذا كان من واجب أهل الدعوة أن يحسنوا تلك الوسائل كلها حتى يأتى عملهم بثمرته المطلوبة » .

« وهيكل بنـــاء دعوتنا أنها دعوة أجمـع ما توصف به أنهـــا دعـوة اسلامية ، ولهذه الكلمة معنى أوسع غير ذلك المعنى الضـــيق الذى يفهمـه الناس ، فانا نعتقد أن الاســلام معنى شامل ينتظم شـئون الحيـاة كلهـــا ويفتى فى كل شأن من شئونها ، ويضـــع له نظاما محكما دقيقا ، ولا يقف مكتوفا أمام المشاكل الحيوية والنظم التى لابد منها لاصـــلاح الناس ، فهم بعض الناس الاسلام على غير هذا ، ولكننا نفهمه على هذا الوجه ، نفهمه فهما فســيحا واســعا ينتظم شــئون الدنيـا والآخرة ولســـنا نـدعى هذا ادعاء أو نتوسـع فيه من أنفســـنا ، وانما هو ما فهمناه من كتاب الله وســـيرة المســلمين الأولين ، فان شـــاء القــارىء أن يفهم دعـوة الاخوان بشىء أوسع من كلمة « الاسلامية » فليمسك بمصحفه وليجرد نفسه من الهوى والغـاية ، ثم يتفهم ما عليه القرآن ، فســيرى فى ذلك دعوة الاخوان ؛ أجل ! دعوتنا اسلامية بكل ما تحتمل هذه الكلمة من معان فافهم فيها ما شئت بعد ذلك ، وأنت فى فهمك هذا مقيد بكتاب الله وسنة رســـوله وسيرة السلف الصالحين من المسلمين ، فأما كتاب الله فهو أســاس الاسلام ودعامته ، وأما ســـنة رســـوله فهى مبينة الكتاب وشارحته ، وأما ســيرة السلف الصالحين فهم رضوان الله عليهم منفذو أوامره والآخذون بتعاليمــه ، وهم المثل العملية والصورة المماثلة لهذه الأوامر والتعاليم » .

★ ★ ★

هــذه هى الدعوة وهذا ما طلعت به على الناس من أول يوم ، فهى فى طورها الجديد لم تصل الا الى وضع محتوم مقدر ، وعلى هذا الأســاس الواضح السليم جاهد الاخوان تحت راية قيادتهم ، واتصــلوا بالشـــعب على النحو الذى أبنا عنه .

ولم تقعد بهم الظروف الشائكة يومئذ عن الأخذ بكل الوسائل للوصول الى قلوب الأمة والاستحواذ على مشاعرها لتوجيهها الى الاســـلام ، فما عرف اليأس الى نفوسهم سبيلا ، وبذلك وصلوا الى حقيقة الحياة وروحها ، وفى هذا تقول قيادة الدعوة : « اننا لســنا يائسين من أنفســنا ، واننا نأمل خيرا كثيرا ونعتقد أنه لا يحول بيننا وبين النجاح الا هذا اليأس ، فاذا قوى الأمل فى نفوسنا فسنصل الى خير كثير .. لهذا لســـنا يائسين أبدا ، ولن يتطرق اليأس الى قلوبنا والحمد لله فكل ما حولنا يبشر بالأمـل رغـم تشاؤم المتشائمين ، انك اذا دخلت على مريض فوجدته تدرج من كلام الى صمت ومن حركة الى سكون ، شعرت بقرب نهايته وعسر شفائه واستفحال دائه ، فاذا انعكس الأمر وأخذ يتدرج من صـــمت الى كلام ومن همود الى

حركة ، شعرت بقرب شفائه وتقدمه فى طريق الصـحة والعافية ؛ ولقد أتى على هذه الأمم الشرقية حين من الدهر جمدت فيه حتى ملها الجمود وسكنت حتى أعياها السكون ، ولكنها الآن تغلى غليانا بيقظة شـاملة فى كل مناحى الحياة ، وتضطرم اضطراما بالمشاعر الحيـة القوية ، والأحاسيس العنيفة ، ولولا ثقل القيود من جهة والفوضى فى التوجيـه من جهـة أخـرى لكـان لهذه اليقظة أروع الآثار ، ولن تظل هذه القيود قيودا أبد الدهر فانما الدهر قلب ، وما بين طرفة عين وانتباهتهـا يغير الله من حال الى حال ، ولن يظل الحائر حائرا ، فانما بعد الحيرة هدى ، وبعد الفوضى استقرار ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .. لهذا لسنا يائسـين أبدا ، وآيات الله تبارك وتعـالى وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، وسنته تعالى فى تربية الأمم وانهاض الشعوب بعد أن تشرف على الفناء ، وما قصه علينا من ذلك فى كتابه ، كل ذلك ينادينا بالأمل الواسع ، ويرشدنا الى طريق النهوض الصحيح ، ولقد علم المسلمون لو يتعلمون ..

وانك لتقـرأ الآية الكـريمة فى أول سـورة القصـص : « **طسم . تلك آيات الكتـاب المبين . نتلوا عليك نبـأ موسى وفرعـون بالحق لقـوم يؤمنون . ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نسـاءهم ، انه كان من المفسـدين . ونريد أن نمن على الذين اسـتضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهمـا منهم ما كانـوا يحذرون** » (١) .

تقرأ هذه الآيات الكريمة فترى كيف يطغى الباطل فى صولته،ويعتز بقوته، ويطمئن الى جبروته ويغفل عن عين الحق الذى ترقبه ، حتى اذا فرح بما أوتى أخـذه الله أخـذ عزيز مقتدر ، وأبت ارادة الله الا أن تنتصر للمظلومين ، وتأخذ بناصر المهضومين المستضعفين ، فاذا الباطل منهـار من أسـاسه ، واذا الحق قائم البنيـان متين الأركان واذا أهله هم الغالبون ، وليس بعد هذه الآية الكريمة وأمثالها من آيات الكتاب المحكم ما يجعل اليأس والقنوط يستحكم فى قلوب أمة من أمم الاسـلام التى تؤمن بالله ورسـوله وكتابه ، ولمثل هذا مما تلقاه الاخوان المسـلمون من كتاب الله وهو كثير ، لم ييأس الاخوان من أن ينزل نصر الله على هذه الأمم رغم ما يبدو أمامها من عقبات وعلى ضوء هذا الأمل عملوا ويعملون » .

* * *

هـذا نحن من أول يـوم ... ما حـدنا عن هـذا الطريق المسـتقيم ولا انحرفنا عنه ، ولقد عمدنا الى نشر هذه الأفكار التى طلعت بها دعوتنا من

---

(١) القصص : ١ ـ ٦

أول يوم ظهرت فيه حتى يكف هؤلاء الذين يقولون ان الاخوان المسلمين قد تغيروا ، أو أن قيادتهم قد انحرفت بهم عن هذه الدعوى ويبحثوا لهم عن سلاح غيرها ، فالاخوان هم الاخوان من أول يوم ظهروا فيه ، ودعوتهم هى دعوتهم ، كما تلقوها من قرآنهم ، وكما أرشدتهم اليها روحها ، ما خرجوا عن منهاجها ولن يخرجوا .

أما موقفنا من الأحزاب فهو أننا نرى : « أن الحزبية السياسية ان جازت فى بعض الظروف وفى بعض البلدان فهى لا تجوز فى كلها ، وهى لا تجوز فى مصر أبدا وبخاصة فى هذا الوقت الذى تستفتح فيه عهدا جديدا ، والذى نريد أن نبنى فيه أمتنا بناء قويا يستلزم تعاون الجهود ، وتوافر القوى ، والانتفاع بكل المواهب والاستقرار الكامل والتفرغ التام لنواحى الاصلاح .

ان وراءنا فى الاصلاح الداخلى منهاجا واسعا مطولا يجب أن تصرف كل الجهود الى تحقيقه لانقاذ هذا الشعب الخالد الحيوية الجم النشاط المجهز بكل وسائل التقدم ، والذى لا ينقصه الا القيادة الصالحة والتوجيه القويم ، حتى يتكون أصلح تكوين يقضى على الضعف والفقر والجهل والرذيلة ، وهى معاول الهدم وسوس النهضات ، وليس هنا محل تفصيل هذا المنهاج ، وعلى كل حال فاننا جميعا نشعر بثقل وطأة المطالب التى تحتاجها الأمة والمجهودات العظيمة التى يجب أن تبذل فى سبيل التنظيم الداخلى فى كل مظاهر الحياة .

ولقد جربنا الوحدة فكانت كل تجربة من تجاربها ألمع نجم فى تاريخ النهضة ، جربناها فى فجر النهضة حينما برزت الأمة صفا متحدا رائعا تنادى بحقها وتطالب باستحقاقها فى اجتماع أفزع الغاصبين ، وروع المستعمرين ، ووهنت أمام سلطانه وقوته قوى الظالمين .

وجربنا التفرقة فى مرات كثيرة من قبل ومن بعد ، فما رأينا فيها الا تمزيق الجهود واحباط الأعمال وافساد الشئون واتلاف الأخلاق وخراب البيوت وتقطيع الأرحام واستفادة الخصوم على حساب المختلفين المتنابذين .

وان التدخل الأجنبى فى شئون الأمة لم يجد له يوما من باب الا هذا التدابر والخلاف ، وهذا النظام الحزبى البغيض ، ومهما انتصر أحد الفريقين فان الخصوم بالمرصاد يلوحون له بخصمه الآخر ويقفون منهما موقف القرد من القطتين ، ولا يجنى الشعب من وراء ذلك الا الخسارة من كرامته واستقلاله وأخلاقه ومصالحه ، وهذا ما حدث دائما .

اننا أئمة لم نستكمل استقلالنا بعد استكمالا تاما ، ولازلنا فى الميزان ، ولازالت المطامع تحيط بنا من كل مكان ، ولا سياج لحماية هذا الاستقلال والقضاء على تلك المطامع الا الوحدة والتكاتف ، واذا جاز لبعض الأمم

التى استكملت استـــقلالها ٠ وفرغت من تكوين نفسها أن تختلف وتتحزب فى فرعيـــات الأمور فان ذلك لا يجوز فى الأمم الناشـــئة أبدا ، على أننـا نلاحظ أن الحوادث العالمية قد ألجأت الأمم فى كثير من الأحيـــان والظروف الى التجرد من الحزبية مطلقا ، أو الابقاء على حزبية صورية تقليدية مع الوحدة فى كل الاتجاهات ٠

هذه تركيا بدأت أعمالها فى توجيه الشـــعب بتوحيد القوى وابقـــاء الأحزاب ، وهذه شقيقتنا العراق خطت خطوات حثيثة الى التكوين الصـــالح بعد الغاء الأحزاب ، وهذه رومانيا قد ألغت الأحزاب ، ووضـــعت على رأس حكومتها بطريكا من رجال الكنيســـة فقضت بذلك على مبدأين من خاصـــة مبادىء السياسة الأوروبية هى الحرية وفصل السياسة عن الدين ، وان انجلترا نفسها وهى كما يزعمون أم النظام الحزبى والدستورى قد تضـــاءل فيها المعنى الحزبى حتى صار معنى هو الى التقاليد أقرب منه الى التحالف فى المنـــاهج والآراء ، ولا تـــزال الـــوزارات البريطانيـــة تأخـــذ الشـــكل القومى كلما حزب بالأمة أمر ، وكلما اقتضت الحوادث العالمية ذلك ، وهكذا تضغط الحوادث العالمية على الشعب البريطانى فيخرج على نظام الحزبية ٠

وهـــذه نماذج من تدهور النظـــام الحزبى فى الشرق وفى الغرب ، فلا ندرى لأى معنى تظل مصر التى هى أحوج الأمم الى الوحدة مســـتمسكة بنظام عقيم فشل فى قيادة غيرها ، وذاقت هى منه الأمرين ٠

على أن الأحزاب المصرية الحاليـــة أحـــزاب صـــناعية أكثر منهـــا حقيقيـــة ، والعـــامل فى وجـــودها شـــخصى أكثر منه وطنى ، والمهمـــة والحوادث التى كونت هذه الأحزاب قد انتهت فيجب أن ينتهى هـــذا النظـــام بانتهائها ، انتهت هذه الظروف جميعا وتجددت ظروف أخرى تســـتدعى منـــاهج وأعمالا ، فلا معنى أبدا لبقاء هذه الأحزاب ، ولا معنى أبدا للرجوع الى الماضى ، والمستقبل يلح علينا الحاحا صـــارخا بالعمل والسير بأسرع ما يمكن من الخطوات ٠

والاســـلام هـــو دين الوحـــدة فى كل شىء ، وهـــو دين ســـلامة الصدور ونقاء القلوب والاخاء الصحيح والتعاون الصادق بين بنى الانسان جميعا فضلا عن الأمة الواحدة والشـــعب الواحد ، لا يقر نظام الحزبية ولا يرضاه ، ولا يوافق عليه ، والقرآن الكريم يقول : « **واعتصـــموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** » (١) ٠ ويقول : « **ولا تنازعوا فتفشـــلوا وتذهب ريحكم ، واصـــبروا ، ان الله مع الصابرين** » (٢) ٠ وكل ما يستتبعه هذا النظـــام الحزبى من تنابذ وتقـــاطع وتدابر وبغضـــاء يمقته الاسلام أشد المقت ويحذر منه أكبر التحذير ٠

---

(١) آل عمران : ١٠٣ (٢) الأنفال : ٤٦

وفرق بين الحزبية التى شعارها الخلاف والانقسام فى الرأى والوجهة العامة وفى كل ما يتفرع منها ، وبين حرية الآراء التى يبيحهــا الاســلام ويحضى عليها ، وبين تمحيص الأمور وبحث الشئون والاختلاف فيما يعرض تحريا للحق حتى اذا وضح نزل على حكمه الجميع ، سواء أكان ذلك اتباعا للأغلبية أو للاجماع فلا تظهر الأمة الا مجتمعة ، ولا يرى القادة الا متفقين.

ولقد آن أن ترتفع الأصوات بالقضاء على نظام الحزبية وأن يســتبدل به نظــام تجتمع به الكلمــة وتتــوحد به جهــود الأمــة حول منهــاج قومى اســلامى صالح ، وتتوافر على وضعه وانفاذه القوى والجهود ، وهــذه نظرة يرى الاخوان المسلمون أن واجبهم الاسـلامى أولا ، والوطنى ثانيا ، والانســانى ثالثا يفرض عليهم فرضــا لا مناص منه أن يجهروا بها ، وأن يعرضوها على الناس فى ايمان عميق ، وبرهان وثيق ، معتقدين اعتقادا جازما لا يتزعزع أن تحقيقها هو السبيل الوحيد لتدعيم النهضة على أفضــل القــواعد والأصول : **« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون »** (١) .

* * *

هذه هى الدعوة وأهدافها وغاياتها كما هى من أول يوم ظهرت فيه . وهذا ما ربتنا عليه قيادتنا ، فعلى الذين لا يعرفون سر نجــاحنا أن يعرفوه : هو فى قيادتنا ، ولقد نجحت هــذه القيادة وانتصرت لأنها ســارت من أول يوم على منهــاج والى غاية ، فلقد قطعنا خطــوات طويلة الى ما نريد ، فهلموا الى اللواء ، والا فأفســحوا الطريق ، فالأمة ســارت الى نهضــة جديدة ، لتصنع تاريخا جديدا ، وهذه مهمة وصناعة لم تتعلموها ، وليست من برامج أحزابكم ..

أفسحوا الطريق أيها الناس للنور الجديد ...

* * *

(١) الأنفال : ٢٤

— ١٥ —

خاتمـــة

وبعد ٠٠ فان عنصر القيادة هو العنصر الفعال فى قيادة الشـــعوب واقامة النهضات ، ولقد قدمت فى هذا الكتاب شخصية قائد من قواد النهضة الحديثة فى الشرق ، والحركات الاصلاحية فى العالم الاسلامى ، يعتبر من أبرز الشخصيات العالمية فى العصر الحديث ، هى شخصية أستاذى ومرشدى وقائدى : « الأستاذ حسن البنا » المرشد العام للاخوان المسلمين ، وهو تقـديم لم أستوعب فيه كل ما أريد ، ولا كل ما ينبغى ، ولكنها محاولة كما قـلت فى مقدمة هذا الكتاب ، فتحت بها باب الدراسـة فى موضوع مجال الدراســـة فيه واسع فسيح ٠

ولقد حاولت فى هذا الجزء الذى يعتبر مقدمة لدراساتى — أن أبرز بعض النواحى العملية فى سيرته الفذة التاريخية ، وأن أقدم للناس شخصيته النـادرة ليعرفوا أن أمتهم غنية بالرجال والعقـول والمواهب ، وأنها كذلك غنيـة بالمبـادىء والثقـافات ، وأننـا لن يعـوزنا شىء لكى ننهض النهضـــة الصحيحة ، ونقيم حضارة أمتنا على أساس شرقى خالص من ديننا وقوميتنا وتاريخنا ومجدنا ٠

قدمت شـــخصية أســـتاذى ومرشـدى تقديما سريعا فى هذا الجزء كمقدمة لدراســاتى المقبلة واننى لأرجو أن أكون قد وفقت فى هذه المقدمة ، وأن يكتب الله لى ما أرجوه من توفيق فيما سيتلوها ، وأن أرى الشـــباب المصرى والعربى كله قد جد الى لواء هــذه الدعوة ، والى قيادتهـا ، يحتل مكانه من صف الجهاد ٠٠ فليست هذه الدعوة دعوتنا وحدنا ، ولكنها دعوة الاسلام والمسلمين فى كل قطر ، هى الدعوة التى هيمنت فى مصر ، وفرضت نفسها ، وهى التى ستهيمن كذلك ، ويخفق علمها على كل قطر اســـلامى ، وهى الدعوة التى ستقود النهضة الحديثة الى الخير الذى نرجوه لأنفسنا وأوطاننا وشرقيتنا واسلامنا وعروبتنا ، وللانسانية كلها ٠٠ لن يعوزنا شىء أيها الناس ، ولن نفتقر الى أى سلاح مهما كان ، وما علينا الا أن نؤمن بحقنا ، وها هو الطريق قد وضح والغاية قد مهد لها ، والكتائب قد صفت ، والقيادة قد تسلمت الزمام ، فعلى المترددين أن يجدوا ويأخذوا مكانهم فى الصف،من قبل أن يأتى يوم لا مـرد له من الله ، يوم لا ينفـع المترددين معذرتهـم ولا هـم يستعتبون ٠

وأنتم أيهــا الاخوان المســلمون : هذه هى دعوتكم قد أزهرت وأينعت ونضـــجت ثمارها ، وقد حقق الله لكم النصر الذى وعدكم : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من**

قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنـــا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » (١)

هذا وعد الله قد تحقق لكم فالى الحياة الحرة العزيزة الكريمة ، والله معكم ولن يتركم أعمالكم ·

★ ★ ★

ويا أستاذى وقائدى ومرشدى ··

ان هـذه القلوب التى التفت حولك ، وعاهـدت الله على أن تحيا لهذه المبادىء وتموت فيها ·· ان هـذه القلوب قد انطوت على حبك ، وتجردت للغاية السامية من أهداف دعوتك ، فهى لا تعرف الا راية قيادتك،راية الاسلام، ولواء محمد أسـتاذ الأنام ، ولن نهدأ أو نسكن أو نستريح حتى نرى القرآن دستورا نافذا،فسنحيا لهذه الغاية أو نموت فيها على هذا عاهدنا اللهوبايعناك،: « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » (٢) ·

على هذا بايعناك وعاهدنا الله،وسنحيا لهذه الغاية أبدا أو نموت فيها ·· ولقد حملنا أرواحنا على أكفنا ، فاما أن نحيا حياة الأعزاء الحاكمين،والسادة المظفرين ، أو نموت موت الشهداء لنكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ؟ ··

والله اكبر ولله الحمد

---

(١) النور : ٥٥ (٢) الفتح : ١٠

محتويات الكتاب

الصفحة

الفصل الرابع : فى الميدان

رقم الايداع بدار الكتب ٣٨٦٥
الترقيم الدولى ٨ ـ ٣١ ـ ٧٣٣٥ ـ ٩٧٧

دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص ٠ ب ٥٨ (الدواوين) ـ تليفون : ٢٢٠٧٩